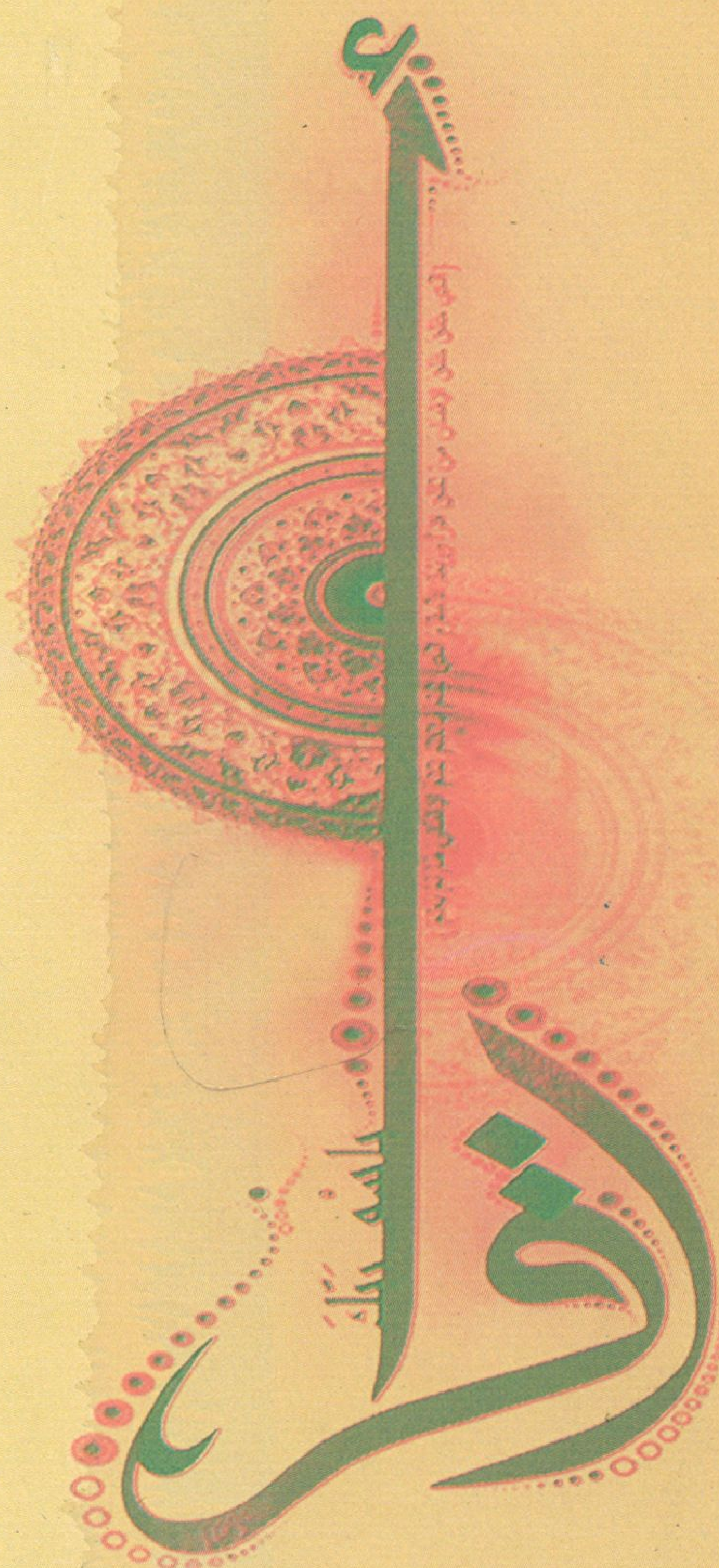
فى التعريب و التغريب

أ.د. محمود فوزى المناوى





الهيئة المصرية العامة للكتاب

فى

التعريب والتغريب

المناوى، محمود فوزى.
فى التعريب والتغريب/ محمود فوزى المناوى. ـ
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
٣٥٦ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٧ ٤٥٣ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الترجمة العربية
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٠٢٩/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 453 - 7

ديوى ٤١٨,٠٢

فى
التعريب والتغريب

الأستاذ الدكتور
محمود فوزى المناوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٣

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : في التعريب والتغريب
تأليف : د. محمود فوزي المناوي

تصميم الغلاف : مي مجدي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدي : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

نداء وإهداء

إلى كل المعتزين بلغتنا العربية الخالدة، المشغوفين بها،

المستمسكين بعراها، المنافحين عنها:

«صمودا إلى آخر المدى فى حصن العروبة،

كفاحا فى سبيل عربيتنا الجميلة، العتيدة التليدة»

والى المغتربين عن لغتهم، المعتزين بلسان غيرهم،

المبهورين بسلطان خصوم قومهم:

«تعالوا إلى هويتكم، إلى أصالتكم، إلى جذوركم، إلى **قوميتكم،**

حتى نتمكن جميعاً من تجاوز المحنة، ونجتاز الأزمة»

د. محمود فوزى المناوى

المحتـويات

الصفحة

الفصل الأول
التعقيب على أزمة التعريب

الفصل الثانى
عن لغتنا العربية

الفصل الثالث
وثائق الأمس وتوجهات اليوم

تمهيد

«إن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء»

«ابن خلدون»

أثار كتابى «أزمة التعريب» ردود فعل واسعة بين مؤيد ورافض ومتردد، ويعتقد الكثيرون أن الكتاب كان بمثابة زلزال له توابع ممتدة، ليس فقط بالنسبة لأزمة التعريب، بل امتدت وبشكل مثير إلى أزمة اللغة العربية ذاتها.

ومنذ إصدار «أزمة التعريب» ونحن نرصد ونسجل توابع هذا الزلزال الفكرى واللغوى على المستوى الوطنى والقومى، وبإحصاء دقيق ودراسة تحليلية للمقالات والدراسات والتقارير. والحوارات والكتب والمؤتمرات والندوات الحضورية والمسموعة والمرئية، اتضح لنا أن ما نشر حول «أزمة التعريب» وأزمة اللغة العربية فى عام واحد، تجاوز بكثير ما دار حول هذه القضية خلال النصف الأخير من القرن العشرين. وهذا يعتبر - فى هذه المرحلة بالذات التى تمر بها الأمة العربية - استفتاء وطنيا قوميا، ويجعل هذه المادة العلمية الفكرية الثمينة الصادرة عن علمائنا ومفكرينا ومثقفينا أساسا «لمشروع قومى للتعريب والحفاظ على اللغة العربية والعناية بها».

وسوف نواجه بمن يقول: «كيف ومن أين الوقت والتمويل والكفاءات؟!» والرد الواضح هو أن نكرر المقولة «إن الحقائق كانت من قبل تحقيقها أحلاما فى مخيلات أصحابها». وفى زمن العولمة والظلام الدامس المحيط بالعالم العربى والإسلامى أصبح الدفاع عن اللغة العربية والهوية فرض عين ... لا فرض كفاية ...

اللغة هى أهم أسس الهوية، وازدهار لغة ما دليل على تماسك أهلها ورفعة حضارتهم، وضعف اللغة دليل على ضعف أهلها، فاللغة بأهلها قوة وضعفا، فهى مرآة أهلها، تقوى بقوتهم وتضعف بضعفهم، وهى شاهد على العصر، وسجل للواقع، واللغات ترقى حين ترقى قواعدها، ومن فضل الله على هذه الأمة أن وهبها رجالا آمنوا بأن اللغة بمنزلة العقيدة،

فأخلصوا لها، وأبدعوا فيها أدبا وعلما خالدا، واللغة تتبع الدولة وتسير فى ظلها، ولا سبيل إلى انتشار لغة يكون أهلها مغلوبين على أمرهم.

اللغة العربية بخصائصها كنز لا ينفد، وبحر خضم يضم الجواهر والدرر، فهى لغة اشتقاق وليست لغة تركيب، وهى تزخر بالمفردات والأضداد، مما يكفل لها القدرة على التعبير عن أى موضوع أو بحث علمى أو إنسانى، ومن أدلة ذلك أنها اتسعت للقرآن الكريم بأحكامه وقصصه وشريعته.

إن التطاولات على العربية التى تملأ وسائل الإعلام فى هذا الزمن المحزن، عبث لا جدوى منه، ولا مصداقية فيه، لأنها تصدر من غير أهلها، وفى غير موضعها، ومن غير المتخصصين فى علومها.

ومما يحز فى النفس أن يأتى الطعن فى اللغة العربية من أبنائها، والمؤسف أيضا أنهم يبنون طعنهم على كثير من المغالطات والمتناقضات، ونحن نعطى هؤلاء اهتماما أكبر مما يستحقون، ولسوف تسقط كل الدعاوى التى تظهر التجديد وتبطن التغريب، كما سقطت دعاوى «ولكوكس» وعبد العزيز فهمى وسلامة موسى وغيرهم من الذين أرادوا كتابة العربية بالحروف اللاتينية، واستبدال العامية بالفصحى فى الكتابة.

يقول المستشرق الألمانى يوهان فك «لقد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة اللغة العربية عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل، فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد ما بقى هناك مسلمون».

لذا وجب علينا أن نكون منتجين للمعرفة، وبلغتنا العربية فهى جزء لا يتجزأ من واقعنا الاجتماعى والثقافى، ومستقبلنا الثقافى مرتبط باللغة العربية، وعلينا المحافظة عليها، لأنها تصل الماضى بالحاضر. والسؤال الذى يفرض نفسه دوما، ما الذى يربطنا بماضينا وبتراثنا الثقافى؟

الإجابة عنه: بالقطع هى اللغة العربية، إن اليهود أحيوا لغة كادت تندثر، والبعض منا يحاول أن يميت لغة حية، هى كل ما تبقى لنا فى هذا الزمن الردىء، فالعيب ليس فى اللغة لكن فى المنتمين إليها، الذين تخلفوا عن ركب المدنية والحضارة وثورة المعلومات والتقنية والمعرفة.

ولا عجب أن تحاول قوى البغى الخارجى الهجوم على لغتنا – وكلنا نعرف بواعثهم على ذلك – ولكن ما يحزن حقا أن البعض من أبناء أمتنا يتورطون فى محاولة الاعتداء على لساننا

العربى، وهم - بحسن نية ولا أقول بسوئها - يرددون نفس الأباطيل دونما شعور بالمسئولية، أو إحساس بخطورة ما يدعون إليه.

إن رياح التغريب تهب علينا قاصدة قوميتنا تارة، وتتجه إلى منظومة قيمنا وثوابت أخلاقنا ودينا تارة أخرى، لاقتلاع أوتاد تراثنا الفكرى والدينى والأخلاقى.

ولاشك أن اللغة هى المستهدف الأول نظرا لأهميتها باعتبارها سمة من سمات الهوية، وملمحا أساسيا من ملامح الشخصية.

فالدعوة لإسقاط قواعد النحو العربى تتسم بالتخبط الشديد، فهل يعقل أن تكون هناك لغة بدون قواعد؟ وأى علم يستقيم بدون قواعد؟ ومشكلة صعوبة النحو لا تكمن فيه وإنما فى طريقة تعليمه.

التجديد المبدع مطلوب، ولكنه التجديد فى الجملة والاستعمال، وليس بإلغاء القواعد، فالنظام اللغوى مؤسس فى المقام الأول على القواعد، فاللغة العربية بقواعدها هى حاضرنا ومستقبلنا وليست فقط ماضينا. فأهلا بتطوير وسائل تدريس اللغة العربية وأهلا بتطويعها لاستعمال الحاسب، وأهلا بالسعى الجاد لتعريب المصطلحات التقانية الحديثة، مع الإبقاء على قواعد العربية دون مساس بأصولها.

ولم توجد لدينا مشكلة - على مر العصور - فى الاستفادة من فكر الآخرين، لكن تفعيل ذلك يحتاج إلى عمل دءوب وعزيمة ومال وفير، حتى نتفاعل مع الحضارات الأخرى ونأخذ عنهم - كما أخذوا عنا - فيما لا يخالف القيم والثوابت والعقيدة والشريعة.

إن ميدان الأخذ والتفاعل هو علوم الدنيا وفنونها وليس علوم الدين وفلسفة الحياة. نأخذ منهم العلم من حيث انتهوا كما بدأ الغرب من حيث انتهى أجدادنا وأسلافنا.

وليس من الصالح استبعاد جهد السابقين وتجاهل قيمة أفكارهم ومشروعاتهم الإصلاحية، أما التجديد والاجتهاد والإصلاح المتدرج فهو وارد ومطلوب، على أن يكون مناسبا لواقعنا وظروف مجتمعنا زمانا ومكانا، وأن يكون من داخل فكرنا وفقهنا الإسلامى متصلا بنصوصه، ومراعيا ثوابته. بل إن الواجب علينا أن نأخذ من الحضارات الأخرى ما يناسب عقيدتنا وأعرافنا ويخدم مصالحنا ونترك ما لا يناسبنا، فالمسلمون - وحدهم - مسئولون عن مستقبل دينهم وعليهم أن يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم. وما لم نهتم باللغة العربية والارتقاء باللهجات العامية وندخل مصطلحات العلوم والفنون والتقانة الحديثة إلى لغتنا فلا أمل فى إصلاح حقيقى.

إن التطور لا يكون فى اللغة وحدها، وإنما فى الطريقة التى يتم تعليم اللغة بها، المشكلة الرئيسة فى تعليم اللغة العربية، تتمثل فى الافتقار للمدخل العلمى لتعليم اللغة، ولا نجد هناك جهدا يبذل فى تيسير العربية، بل هناك تقصير من أهل العربية، فالعيب ليس فى اللغة ولكن العيب فى أهلها، لأننا لم ننهض لتيسير تعليم اللغة بالرغم من الجهود العظيمة التى قام بها أساتذتنا من أمثال شوقى ضيف وكامل حسين وغيرهما من الأعلام.

ولا توجد لغة مقدسة إلا فى حسابات الكهنة، أما لغة القرآن فهى مقدسة بمعنى مطهرة لأنها كلام الله، ولا نستطيع أن نغير فيه حرفا، والله وعد بحفظه فقال تعالى: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» (الحجر: ٩)، وهذه الحماية تمتد إلى العربية الفصحى، لأنها وعاء القرآن، ولا حفظ للمحتوى إلا إذا حفظ الوعاء الذى يحتويه، والقرآن تكمن معجزته فى أنه استطاع أن يصنع من لغة لم يسبق صياغة العلم بها منهج حياة كاملا، ودستور مجتمع، إن الرابطة الوثيقة بين اللغة العربية والقرآن هى التى جعلت اللغة حية على الألسنة، حتى فى وقت موات أصحابها، وقلة شأنهم وحيلتهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم.

إن سمة التصرف الإعرابى تعد من أقدم وأغنى السمات اللغوية التى – فقدتها اللغات السامية – ظلت باقية حتى الآن فى اللغة العربية، وقد حافظ القرآن الكريم على غاية التصرف الإعرابى، ومثل ذلك قوله تعالى: «**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**» (فاطر: ٢٨)، «**أن الله برىء من المشركين ورسولُهُ**»، (التوبة: ٣)، «**وإذ ابتلى إبراهيمَ رَبُّهُ**» (البقرة: ١٢٤).

والمطالبة بإلغاء المثنى وإلغاء نون النسوة وقواعد استخدام الأرقام وإعراب المفعول به سيحيل القرآن الكريم – لا قدر الله – إلى كيان آخر لا يمكن قراءته قراءة سليمة ولا فهم معانيه فهما صحيحا. فنحن لو ألغينا المثنى، فكيف سيقرأ أبناؤنا وأحفادنا قصة «موسى والخضر» فى سورة الكهف وكيف سيقرءون آيات كريمة مثل: «**هذان خصمان اختصموا فى ربهم**» (الحج: ١٩)، أو «**اذهبا إلى فرعون إنه طغى**» (طه: ٤٣) وكيف سنقرأ سورة الرحمن التى يقوم بناؤها اللغوى على جماليات المثنى من خلال تكرار الآية الكريمة «**فبأىّ آلاء ربكما تكذبان**» (الرحمن: ١٣)؛ وإذا ما ألغينا نون النسوة فكيف سنقرأ آيات من سورة يوسف: «**إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم**» (يوسف: ٢٨)، وإذا ما ألغينا قواعد استخدام الأرقام فكيف سنقرأ الأية الكريمة مثل: «**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم**» (التوبة: ٣٦) ... لو هدمت قواعد اللغة العربية فلن يتعلم أحفادنا القرآن الكريم أو يحفظوه.

أما القول بأن هذه اللغة العربية تحول دون التقدم فهو صادر عن غير متخصصين، وربما أيضا أناس يخطئون مصادر التقدم والمعرفة، فالتقدم مرتبط بروح الأمة، والأخذ بالعلم،

وتقديس العمل وإتقانه، والعمل بروح الجماعة، فعندما كانت اللغة معقدة ومتحجرة – حسب زعمهم – ساد العرب العالم. والآن وعندما سادت اللهجة العامية أصبحنا نحتل المؤخرة دون مُنافسة ونصارع باستماتة للخروج من دائرة الصفر.

إن المشكلة ليست ناتجة عن صعوبة قواعد اللغة بل عن طرق تعليمها ومستوى القائمين عليها، ووسائل الإعلام التى غالبا ما تسخر من اللغة وتبرز مدرس اللغة العربية على أنه معقد ومتعصب وضيق الأفق. فلو أحس الطالب باحترام اللغة العربية لدى وسائل الإعلام والمسئولين الذين أغمضوا أعينهم عن الشوارع الممتلئة بالأسماء الأجنبية واللافتات الغربية؛ لكان تعلم اللغة سهلا ويسيرا ... وما القول فى افتتاح غالبية المؤتمرات التى تعقد على أرضنا ومنها مؤتمرات مكتبة الإسكندرية باللغة الإنجليزية بالرغم من أن المكتبة تزخر بوسائل الترجمة الفورية ... وتقول د. بنت الشاطئ: «العقدة فيما أتصور هى أن أبناءنا لا يتعلمون أن اللغة لسان أمة ولغة حياة وإنما يتعلمونها بمعزل عن اللغة، قواعد صنعة وقوالب صماء، تجهد المعلم تلقينا، والتلميذ حفظا، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها وبيانها». ويقول قداسة البابا شنودة الثالث: «أنا من رأيى أن نتمسك باللغة العربية فى النحو والصرف، وإلا لا تصلح لغة عربية، وتتحول من لغة إلى لغو ....»

والحقيقة الواضحة أن هناك محاولات تجرى فى العلن والخفاء لتغيير ملامح العالم العربى والإسلامى: والتربص باللغة العربية أمر وارد، ولا يخفى علينا أن هناك محاولات جرت فى كل مراحل التاريخ، لإضعاف علاقة العرب والمسلمين باللغة العربية، لأنها حصنهم الذى يتدرعون به، ويربطهم بالقرآن الكريم. إن مشكلات الحياة اللغوية فى العالم العربى هى أخطر مشكلاته وأعمقها أثرا، والعالم العربى مصاب بظاهرة الازدواج اللغوى، فالشعوب تحيا وتتعامل بلغة وتتعلم بلغة أو بلغات أخرى. إن الأزمة اللغوية ليست إلا أزمة اجتماعية، علمية، تعليمية، بل هى فى الحقيقة أزمة قومية سياسية فى المقام الأول.

إننا اليوم نتعرض لمشروعات أو دعوات ظاهرها الرحمة والتقدم، وباطنها العذاب والخراب وفقدان الهوية. دعوات بمسميات مختلفة: تغيير الحرف العربى، استعمال اللهجات المحلية المحكية، الشرق أوسطية، الأورومتوسطية، إلغاء النحو، تجديد القواعد، إلى غير ذلك من المشروعات التى تستهدف إذابة الأمة العربية ولغتها انتهاء إلى عقيدتها، هناك تشكيك فى مقدرة اللغة على استيعاب التقدم الحضارى، وتشكيك فى الثقافة القومية واتهامها بأنها سبب التخلف الذى يعيشه العرب اليوم.

إن الدعوة إلى استعمال اللهجات العامية والمحلية بدأت واستمرت طوال القرن الماضى، بداية من سبتا، لندبرج، وولكوكس وولمور، وغيرهم الذين أشاعوا «أن الوطن العربى لن

يتقدم ويزدهر ويلحق بالركب العالمى مادام يستعمل لغة القرآن الكريم، ولابد من هجرها، والأخذ باللهجات العامية». ولا يزال أعداء الأمة العربية والإسلامية يتحينون الفرص للقضاء على اللغة العربية التى توحد العرب والمسلمين، وأى مشروع قومى خاص باللغة العربية لابد أن يشمل «قانونا للحفاظ على سلامة اللغة العربية».

ولقد سبقتنا فى ذلك فرنسا عندما استشعرت خطر الإنجليزية على كيانها القومى، وأصدرت التشريعات الخاصة بالحفاظ على اللغة الفرنسية وتفعيل استعمالها فى كافة أمور الحياة على الأرض الفرنسية، وكذلك كان مشروعها الشهير الخاص بالفرانكفونية.

ويجب أن نصدر قانونا للحفاظ على اللغة العربية والعناية بها، يلزم الوزارات وما يتبعها من المصالح الرسمية، والمدنية والمؤسسات والشركات العامة – وكذلك النقابات والجمعيات والمنظمات والجمعيات الأهلية – بالمحافظة على سلامة اللغة العربية، واعتمادها فى وثائقها ومعاملاتها، وجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية؛ وعلى أن ينص القانون على أن مجمع اللغة العربية هو المرجع فى وضع المصطلحات العلمية والفنية، وعلى الأجهزة المعنية الرجوع إليه بشأنها؛ وأن تحدد مسئولية مجمع اللغة العربية بوضوح فى أن عليه أن يسعى إلى تحقيق العناية باللغة العربية من جميع الوجوه، بوصفها اللغة القومية للأمة العربية، ويعمل على تيسير استعمال اللغة العربية والمحافظة على أصالتها وجوهرها، وسلامتها من الأخطاء، وخلوها ونقائها من الألفاظ العامية والأجنبية الدخيلة.

إن العدوان على اللغة العربية، محاولة لهز استقرارها، وفتح باب التشكيك فى آيات القرآن الكريم، فمعاول الهدم تحاول أن تصل إلى الهدف الحقيقى، وهو القرآن الكريم، لينفرط عقد العرب والمسلمين وتنطمس هويتهم ويذوبوا فى بحر العولمة.

وبعد، فإننى أقدم هذا الكتاب الجديد الذى يأتى فى أعقاب سالفه «أزمة التعريب» ليكون بمنزلة وثيقة جديدة لنتاج فكرى قومى زاخر، بأقلام صفوة من الغيورين على اللغة العربية، الذين يسعون جهدهم لصيانتها ورفعة شأنها. وقد كان جلّ عنايتى أن توثق هذه الدراسات والأفكار لتصل إلى المواطن والأكاديمى والمثقف والمسئول وصانع القرار ... راجيا من الله عز وجلّ أن يحقق هدفه بإحداث يقظة واعية، نبادر من خلالها إلى صون «لغتنا» وحمايتها من طوفان العجمة والتغريب الذى يراد لنا أن نغرق فيه، وأن تغرق فيه ثقافتنا وعربيتنا، بعد أن لم يعد لنا غيرَها.

وقد قسمت الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، وتتناول الفصول الموضوعات التالية:

■ الفصل الأول: وعنوانه «**التعقيب على أزمة التعريب**»

■ الفصل الثاني: وعنوانه «**عن لغتنا العربية**»

■ الفصل الثالث: وعنوانه «**وثائق الأمس وتوجهات اليوم**».

وأتوجه بالشكر والتقدير والامتنان لكل من أثرى هذا الكتاب بفكره وغيرته على لغته وهويته، كما أتوجه بالتقدير والعرفان للدعم الكبير والكريم من مجموعة العلماء الأجلاء والأصدقاء وأخص بالذكر:

أ.د. شوقى ضيف، رئيس مجمع اللغة العربية ورئيس اتحاد المجامع العربية

أ.د. مصطفى كمال طلبة، المدير التنفيذى الأسبق لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة ورئيس المجلس التنفيذى للثقافة العلمية والتكنولوجية بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا

أ.د. تمام حسان، عضو مجمع اللغة العربية

أ.د. محمود مكى، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

أ.د. هيثم الخياط، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق والأردن

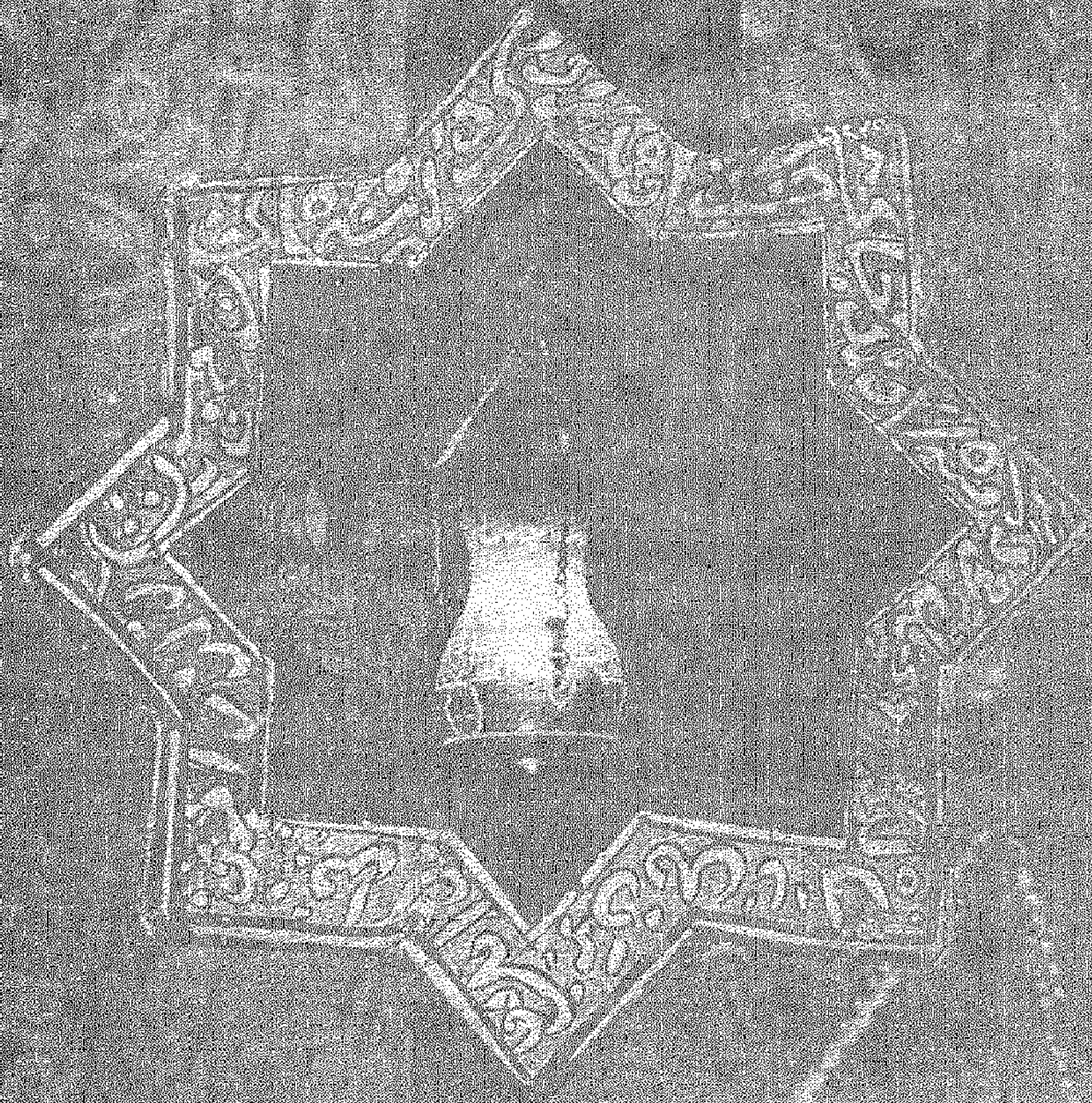
أ.د. أحمد مرسى، أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب، جامعة القاهرة ورئيس هيئة دار الكتب والوثائق القومية

أ. طاهر المتبولى، عضو المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب والإعلام

أ. محمد غباشى، الموجه العام للغة العربية.

القاهرة. تحريرا فى ٢٠ من ذى القعدة ١٤٢٥هـ
الموافق ١ من يناير ٢٠٠٥م.

دكتور
محمود فوزى المناوى
عضو مجمع اللغة العربية



الفصل الأول

التعقيب على أزمة التعريب

مقدمة

التعريب من عرب تعريبا، أى جعل النص عربيا، إما بالنقل من لغة غير العربية إلى العربية، أو جعله مقبولا عربيا من حيث المتطلبات اللغوية والاجتماعية والحضارية لمجتمعنا، وتعريب التعليم أى جعله باللغة العربية، والمقصود به التحول عن تعليم المواد التى تدرس حاليا باللغات الأجنبية إلى تدريسها باللغة العربية. وعرب الإنسان: أى رباه التربية العربية، وعرفه تقاليدها وقيمها ومفاهيمها بحيث تستحوذ العربية على فكره وقلبه، وحصنه ضد التغريب الفكرى والثقافى والاجتماعى. وعرب العلم: أى وطنه ورسخ جذوره فى البيئة العربية، باستخدام كل الوسائل التى تنقل العلم إلى جميع القطاعات، ليس فقط الجامعية والأكاديمية فحسب، بل أيضا الصناعية والتجارية والزراعية والحياتية عامة، بحيث تغدو اللغة العربية جزءا من ثقافة المعلم والطالب والصانع والصحافى والأديب، والمتخصص الفنى جميعا.

اللغة ليست أداة التعبير فقط، ولا هى وسيلة للفكر ووعاءه فحسب، إنما بعض الفكر وأداته، بل لعلها كما يقول بعضهم هى الفكر بذاته. ولقد كان للغة العربية دائما من القدرة على مسايرة التقدم الحضارى، والتعبير عنه بما لها من خصائص ومقومات، وتراث عميق بعيد الأثر فى مراحل التاريخ المختلفة، وما فيها من غزارة وسعة، ما جعلها لغة التعليم والتعلم لأحقاب طويلة، نهضت خلالها الأمة العربية نهضة علمية زاهرة بين أمم العالم.



لهذا فإن توطين العلوم يرفع شأنها ومستواها، فالشخص الذى يتعلم أحد العلوم بلغته، يعمل على نقل ما تعلمه إلى هذه اللغة، أما إذا تعلم علما ما بلغة أجنبية فإنه ينتقل من محيطه الحضارى والثقافى والفكرى واللغوى إلى محيط آخر أدواته لغة أجنبية، وفكر وثقافة وحضارة أجنبية، وهو ما لا تقبله أمم لها اليد العليا التى تفرض ثقافتها وفكرها وحضارتها من خلال لغاتها على أمم اليد السفلى.

إننا قد نقبل أن تدخل اللغة الأجنبية بيوتنا وجامعاتنا ومعاهدنا العلمية، لكننا لن نستطع تعويض ضياع لغتنا القومية. أو بمعنى آخر، إننا يجب أن ننفتح على الحضارات والثقافات

والعلوم الحديثة والمتطورة مع الحفاظ على ذاتيتنا وهويتنا وشخصيتنا العربية، وهو ما يحفظ لنا قوميتنا وكرامتنا العربية موفورة – كما كانت دائما – بين الأمم.

إننا نستنكر التطرف فى التشيع للتعريب، أو التطرف فى التشيع للتدريس باللغات الأجنبية، لأن التطرف فى الناحيتين أمر ممقوت، ويجب أن تسير الأمور بما يحقق المواءمة بين التعريب والمصطلحات العالمية المتعارف عليها فى العلوم.

إن الدعوة إلى استخدام اللغة العربية فى التعليم العالى لا تعنى أبدا إهمال اللغة الأجنبية أو التقليل من شأنها، بل هى مقترنة دوما بالدعوة إلى وجوب إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل لاتخاذها أساسا فى استمرار الاتصال بالتطور العلمى والتكنولوجى العالمى، والتمكن من اكتمال الدراسات العليا والتخصصية، ونشر البحوث العلمية فى المجلات والدوريات العلمية العالمية. فإتقان اللغة الأجنبية شيء واستخدامها بديلا عن اللغة القومية شيء آخر. إذ فى إتقان اللغة الأجنبية دعم للثقافة ورقى لها فى ميادين العلم، وأما استخدامها بديلا عن اللغة العربية فعزل للغة القومية ووأد لها. وتجارب الأمم والبلدان المتقدمة خير شاهد ودليل على هذا المنطق، فمما ساعد اليابان على أن ترقى بصناعتها فى خلال نصف قرن أنها وضعت بين أيدى العمال والفنيين أحدث النظريات التطبيقية فى الصناعة الأمريكية والأوربية بلغتهم القومية، كذلك أخذت روسيا العلوم الغربية – بما فيها من مصطلحات – وكتبتها بحروفها السلافية، والصين قد أخذت علومهم ومصطلحاتهم وكتبتها بحروف صينية، أيضا فإن إنجازات الطلاب الألمان أو الإيطاليين أو الصينيين أو المجريين أو من سواهم ممن يتابعون دراساتهم فى أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا، تشهد على أن الدراسة العلمية باللغة الأم ما كانت أبدا عقبة أمام متابعة التخصص الجامعى بلغة أخرى لا يستغرق الإعداد لها أكثر من عام واحد.

ومن هذا المنطلق، ودون الدخول فى جدال عقيم لا جدوى منه، فإن تحديد الزمن الذى ستصبح بعده العربية لغة الدراسة فى الجامعات والمعاهد العلمية العليا، متوقف على اقتناع جمهور المثقفين وأصحاب القرار بمبدأ صلاحية اللغة بدون قيد ولا شرط، حتى نتخطى الصعوبات التى يمكن أن تعترض تحقيق هذه الأمنية، من خلال ترسيخ الفكر العربى وتقويم الحالة العقلية التى أصيب بها كثير من مثقفى هذه الأمة، كى تستوعب تلك التغييرات المأمولة فى الاعتماد على لغتنا القومية لغة للدراسة العلمية، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ولنا أن نتساءل عن كيفية تنفيذ وتطبيق هذه الآمال العريضة؟ والإجابة عن هذا التساؤل تتركز حول ممارسة التدريس الجامعي والبحث العلمي والتأليف باللغة العربية التي تعد هي السبيل الوحيد الذي يمكننا من تنفيذ تعريب التعليم العالي في مصر والوطن العربي بأسره. وعند الممارسة سوف تتجلى العديد من المشكلات التي يجب أن ندرسها ونحللها مسبقا، كي نضع لها الحلول المناسبة لإمكاناتنا ومواردنا البشرية والمادية والتقنية، وأولى هذه المشكلات هي اللغة من حيث كونها وسيلة الطالب في التلقي والاستيعاب والتعبير، بل وفي التفكير والتصور أيضا. فلا يجب أن نكبل هذه اللغة بقيود تحد من نشاطها واستمرار التعلم بها، وأهم هذه القيود هو المصطلحات العلمية التي تتسم في معظمها بالعالمية حتى كادت أن تكون متماثلة في كل اللغات الحية، فيمكن لنا الإبقاء على المصطلح باللغة التي وضع بها حتى نتفق فيما بيننا على مقابل له باللغة العربية، يمكن استخدامه في المحافل العلمية المختلفة.

أيضا فإن كثرة هذه المصطلحات العلمية الحديثة تعتبر قيدا آخر يمكن أن يكبل جهودنا في النهوض بالمستوى العلمي في مؤسساتنا العلمية والتطبيقية، ولذا وجب التخطيط لاستيعاب هذا الكم الهائل المتدفق علينا باستمرار، حتى نستطيع التعامل معه والاستفادة منه إلى أقصى حد ممكن. وحتى لا تصبح قضية المصطلحات ذريعة يتعلل بها أولئك الذين يعملون- عن قصد أو غفلة - على تأجيل تعريب التعليم الجامعي والعالي.

كذلك سوف تظهر إحدى المشكلات الجوهرية التي تتعلق بالأساتذة أنفسهم، الذين لهم الدور الرئيسي والمحوري في قضية التعليم، فمعظمهم لا يعرفون شيئا عن المعاجم اللغوية العربية، بل ولم تسنح لهم الفرصة للاطلاع على المصطلحات العلمية في تراثنا العلمي العربي، سواء ما كان منها عربيا أصيلا أم دخيلا ومعربا.

أضف إلى ما سبق من صعوبات ومشكلات: مشكلة الإرادة السياسية، وقضية الاتفاق على أسلوب صياغة المصطلح العلمي العربي، وتوحيده، وتداوله بين الباحثين والعلماء والمفكرين من أبناء الأمة، ثم الالتزام بهذه المصطلحات حتى تكون هناك لغة علمية عربية. وإذا كان الأستاذ أو المعلم والطالب والمنهجية المتبعة في قضية تعريب التعليم الجامعي من الأركان الأساسية في القضية، فإن الكتاب الجامعي يعد ركنا ركينا في تلك القضية، إذ أن مكتباتنا العربية تزخر بالآلاف من الكتب العلمية بالكليات والجامعات والمعاهد العليا التي تدرس علومها باللغة العربية.

ولكن على النقيض من ذلك تفتقر المكتبة العربية إلى المراجع والمصادر العلمية العربية المؤلفة أو المترجمة التي تدرس في الكليات العلمية كالعلوم والهندسة والطب، باستثناء

بعض المقررات فى هذه الكليات، ومرد ذلك الذى تشهده مكتباتنا هو العزوف عن التأليف بالعربية، أو ترجمة أمهات الكتب والمراجع العلمية إلى العربية فى غيبة الحافز الذى يدفع إلى ذلك، بالإضافة إلى الأزمة التى تمر بها حركة التعريب والترجمة، ليس فى مصر وحدها بل فى الوطن العربى بأسره.

فإن معظم المشكلات فى هذا الموضوع ليست نابعة من ذات اللغة العربية، ومدى قدرتها على استيعاب كل ما هو جديد وحديث فى مختلف جوانب العلم وتخصصاته، لأن تراثنا وتاريخنا يشهدان أن اللغة العربية قد استوعبت كل ما هو جديد على مر العصور السالفة. ولذا، فإن حلول هذه المشكلات وغيرها يستوجب الاعتماد على تعريب العلوم والفنون بحيث يتحقق الغرض منه. وهو جعل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم فى تقدمها، وملائمة لحاجات الحياة العصرية. ولهذا يجب ألا يكون التعريب للنقل – فقط – إلى العربية من اللغات الأخرى، بل أيضا لتكوين وحدة علمية عربية، قوامها توحيد المصطلح العلمى، بحيث نتمكن من المشاركة الفعالة فى التقدم العلمى العالمى، ومواكبة المتغيرات العالمية التى فرضتها تحديات العولمة، وسرعة الاتصالات، وثورة المعلوماتية والبيولوجية الجزيئية.

إن تعريب العلوم والمصطلحات من القضايا القومية المهمة التى يتأكد دورها وتزداد أهميتها يوما بعد يوم، بسبب التسارع التكنولوجى الحديث، وضرورة معاصرة اللغة له. ولا بد من استخدام سياسة ومنهجية عربية موحدة، كما لا بد من وضوح الأهداف والأغراض، وتأهيل المتخصصين، وإعداد الكفاءات، وتدريب العناصر الفعالة المؤثرة، وإعداد المصطلحات المعبرة التى تنطلق من اللغة العربية، وتعبر تعبيرا دقيقا عن المفاهيم العلمية.

وهنا قد يتساءل البعض، أيعد تعريب التعليم العالى خيرا أم شرا؟ أمفيد هو أم ضار؟ وهل يؤثر التعريب على مستوى جودة التعليم؟ وهل يعوق ملاحقة أحدث التطورات فى العلم الحديث؟ والإجابة عن ذلك تكمن فى أن التعليم يجب أن يكون باللغة الأم، والتعلم والتقدم العلمى والتكنولوجى لا يكون إلا بالتمكن من اللغة الأجنبية التى كتبت بها مراجع هذا العلم أو ذاك نطقا وكتابة.

وحتى نساير التقدم المذهل والسريع فى التطور العلمى والتكنولوجى، فيمكن أن تكون الدراسة فى المرحلة الجامعية باللغة العربية، أما المصطلحات فتستخدم كما هى فى لغاتها، إذا تعذر وجود المقابل العربى لها، حتى نجد هذا المقابل ونتداوله فيما بين أهل التخصص.

كما أننا يمكن أن نلجأ إلى ترجمة هذه المصطلحات كلما كان ذلك ممكنا، أو نعتمد على الوسائل اللغوية التى تتمتع بها اللغة العربية من الاشتقاق والنحت والمجاز وغير ذلك من الوسائل.

لذلك أيضاً فإنه يجب أن تدرس مادة دراسية رئيسة واحدة بلغة أجنبية حية فى كل عام دراسى جامعى، ويكون الامتحان بتلك اللغة، مع إلزام الطالب برصد المصطلح الأجنبى وحفظه فى حقل اختصاصه، إضافة للمصطلح العربى - إن وجد - ضماناً لمواكبة التقدم العلمى والمتابعة العلمية المستمرة.

كما أنه يجب إنشاء مؤسسة قومية للترجمة تتبع أعلى سلطة فى الدولة، كجزء من المشروع القومى للتعليم، ولمتابعة التطورات العلمية العالمية.

أيضا يجب إنشاء مركز للمصطلحات العلمية فى كل جامعة، على أن يتولى المجلس الأعلى للجامعات التنسيق بين هذه المراكز فى الجامعات المختلفة، وهذا يحتم ألا يحصل عضو هيئة التدريس على درجة الأستاذية إلا إذا قام هو بنفسه أو بالاشتراك مع بعض زملائه فى تأليف كتاب علمى أو ثقافى أو تقنى فى مجال تخصصه باللغة العربية، أو ترجمة أحد المراجع فى التخصص من لغة أجنبية حية إلى اللغة العربية. وأن يتحدد جزء قائم بذاته فى كل رسالة ماجستير أو دكتوراه خاص بالمصطلحات العلمية فى التخصص باللغة العربية وما يقابلها باللغة الأجنبية، على ألا تجاز الرسالة إلا إذا تمت مراجعة هذا الجزء من مركز المصطلحات العلمية بالجامعة.

ويجب على مجمع اللغة العربية التعاون مع مراكز المصطلحات العلمية فى الجامعات، ومراكز البحوث، والمؤسسة القومية للترجمة، على توحيد المصطلحات العلمية، كلما أمكن ذلك، على أن نستمر فى استخدام المصطلح الأجنبى ومرادفه العربى حتى يتسنى ملاحقة التطورات العلمية العالمية المتسارعة، كما يتحتم إنشاء مركز قومى أو بنك للمصطلحات العلمية والإنسانية والعلوم المستخدمة، يكون مقره مكتبة الإسكندرية، حتى يكون هذا هو دورها القومى فى هذا المضمار؛ تصب فيه محتويات مراكز المصطلحات المحتم إنشاؤها فى الجامعات، والمراكز العلمية، والبحثية، ليكون هذا المركز القومى همزة الوصل بيننا وبين دول العالم، ونافذة للباحثين فى مصر والدول العربية.

كما يجب أن تنتشر الحملات الإعلامية على جميع الأصعدة لبيان أهمية التعريب الشامل وفوائده الجمة على لغتنا العربية، وتدعيمها باعتبارها الركيزة الأساسية فى استقلالنا، وفى القضاء على التخلف العلمى فى الوطن العربى.

ويبقى أن نؤكد على أن تعريب التعليم العالى والجامعى والبحوث العلمية ليس انكفاءً على الذات، ولا هو دعوة إلى الانعزال، بل هو قمة المشاركة والتفاعل مع اللغات والثقافات

الأخرى. إن التعريب ليس معاداة للغات الأجنبية الحية، بل هو دعوة إلى تجويد اللغة العربية، وإلى ديمقراطية العلم، وإشاعته بين الجماهير العريضة، وهكذا يكون العلم عطاء قوميا متاحا للجميع.

فى قضية تعريب العلوم ... من زوايا متعددة *

هذا إسهام صادق العزم، متعدد الزوايا، باذخ العطاء، حقا، إنه كتاب الأستاذ الدكتور محمود فوزى المناوى «أزمة التعريب» الصادر أخيرا عن مركز الأهرام للترجمة والنشر فى أكثر من خمسمائة صفحة.

ولا نملك إزاءه إلا أن نستحضر قول هيدجر: «إن لغتى هى مسكنى، هى موطنى وموئلى، هى حدود عالمى الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها أو بعدساتها، أنظر إلى بقية أرجاء الكون الفسيح».

وكما أثبتت الفلسفة التحليلية المنطقية المعاصرة، ليست اللغة مجرد أداة للتواصل كصيحات وإشارات الحيوان، ولا هى مجرد وعاء للمعنى، كما تكون الأقفاص أو الأكياس وعاء للفاكهة، إن اللغة لحمة فى نسيج التفكير، وخامة من خامات الوعى، وأهم عوامل تشكل الشخصية والهوية والقومية. فما ينطبق على الفرد ينطبق على الجماعة، والهجمة العاتية- وتبغى أن تكون ساحقة - التى يتعرض لها الآن وجودنا وحدودنا وقرارنا واستقلالنا ومصالحنا من القوى الاستعمارية والإمبريالية، تنال أول ما تنال من حصن اللغة العربية التى باتت- بتعبير الدكتور المناوى- تترنح على الألسنة، حتى أوشكت الفصحى أن تغدو غريبة عن ديارها، مادام التعامل اليومى يتم بالعامية، والتعليم المرموق يجرى بلغات أجنبية، وإلا فهو تعليم من الدرجة الثانية عقليا وماديا واجتماعيا!!

وبينما لا يزيد عمر أية لغة حية الآن عن أكثر من أربعة أو خمسة قرون، نجد اللغة العربية وهى الوحيدة التى استمرت سبعة عشر قرناً أو يزيد، مازالت قادرة على الصمود والبقاء، لتحفظ استمرارية وجود هويتنا وقوميتنا.

ولحظة أن تختفى اللغة العربية، أو تلحق بمصير اللغة اللاتينية مثلاً لتحل محلها اللهجات المحلية، فها هنا وفقط هاهنا سينهار الوجود العربى والعالم العربى، ليحل محله الشرق الأوسط الجديد وقلبه النابض إسرائيل المتقدمة، وحولها كانتونات متناثرة متخلفة، لن تكون أكثر من منتجعات سياحية وأسواق تجارية.

★ د. يمنى طريف الخولى، أستاذ فلسفة العلوم ومناهج البحث، كلية الآداب، جامعة القاهرة، جريدة الأهرام، ١٠ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

أما إذا انتقلنا من قضية العربية والتعريب بشكل عام إلى تعريب العلوم بشكل خاص، فقد وضعنا الإصبع على مكمن الجمر، وشرط البقاء فى عالمنا المعاصر الذى يتناسب النصيب فيه مع النصيب من العلم، ولاشك أن أحد أسباب تواضع مردود البحث العلمى عندنا يعود إلى العجز عن توطين العلم، عن درسه وتدريسه بلغتنا القومية، باللغة التى يتشكل بها نواة الوعى، ويعمل بها المخ منذ نعومة الأظفار، مما يتيح تمثل العلم وهضمه، ويفتح الباب فيما بعد لتتميز البحوث بالدقة والإبداع والابتكار. يسرف الدكتور المناوى فى ضرورة إتقان اللغة الإنجليزية – وسواها إن أمكن – بجوار اللغة العربية لتثريها وتخصب عالمها، أما أن تحل محلها وتقضى عليها فتلك هى الكارثة المحققة.

ولا نستطيع أن نفسر إنجازات طلاب العلوم فى ألمانيا وفرنسا والمجر واليابان والصين وسواها، إلا بأنهم درسوا العلوم بلغاتهم الأم، فكان هذا دافعاً للإتقان والإبداع، ولم يكن أبدا عائقا عن إجادتهم التامة للغة التواصل العلمى فى المجتمع العالمى، أى اللغة الإنجليزية، أو حتى أى من اللغات الأخرى فى بلدان واصلوا دراساتهم العليا فيها، أما أن نهتم بلغة التواصل العالمى دون لغة التأسيس والبناء، فلن يكون إلا بناء على شفا جرف هار – على خواء – ويصعب أن نمتلك شيئا لنعمل على توصيله فى المجتمع العالمى، وكيف نبنى ونمتلك أصلاً ما دام التلميذ يتلقى العلوم أحياناً منذ الحضانة – بلغة غريبة؟ أى بوصفها غريبة عن بيئته وعالمه !! وفى يقينى الشخصى أن أحمد زويل، ومجدى يعقوب، وأسامة الباز، ومحمد النشائى، وأقرانهم من ألوف العلماء المصريين النابغين فى الخارج، فضلا عن النابغين فى الداخل كمشرفة، ومستجير، والمناوى نفسه، وسواهم، لو كانوا قد درسوا العلوم فى مدارسهم بلغة أجنبية لما أنجزوا ما أنجزوه. إذ يوصى خبراء اليونسكو وعلماء التربية بضرورة تدريس العلوم للتلاميذ باللغة الأم، كما يحدث فى كل مكان، حتى فى بلدان كالمجر وهولندا تتكلم لغة يستعملها ملايين معدودة على أصابع اليد، أو لغة محصورة فى بضع جزر شرقى آسيا كاليابانية، أو حتى لغة بعثت من الموات ولم يكن لها وجود قبل ستين عاما كالعبرية، أجل فى العالم أجمع إلا البلدان العربية، حتى أن وزراء تربية وتعليم عرب سألوا السفير فى حفل بالسفارة الكورية عن اللغة التى تدرس بها العلوم فى كوريا، ولم يفهم السفير السؤال، فلم يكن يعرف من قبل أن العلوم يمكن أن تدرس للتلاميذ فى وطن ما بغير لغة أهله.

هذا بعض ما نقرؤه فى كتاب «أزمة التعريب» المتعدد الزوايا والأبعاد، ولا غرو، فالدكتور محمود فوزى المناوى نفسه يتألق فى حياتنا العلمية، والأكاديمية، والفكرية، كشخصية

متعددة الأبعاد، إنه الطبيب الحكيم والعالم الفيلسوف، الذى نشر عشرات الأبحاث فى المجلات العلمية الدولية، وحصل على جائزة الدولة التقديرية، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، ثم لا تثنيه كثرة مشاغله العلمية والإكلينيكية عن الإسهام بعزم أكيد فى قضايانا الحضارية والقومية، وعلى رأسها قضية تعريب العلوم، التى لا تتصل بأمننا القومى فحسب، بل باتت قضية مصيرية، قضية أن نكون أو لا نكون. والدكتور المناوى متسلحا فى هذا بمعايشة حقيقية حميمة لهموم حضارتنا، وثقافة موسوعية رصينة تمكنه من التصويب نحو الهدف، ثم عشق أصيل للغتنا الجميلة حتى فاز بعضوية مجمع الخالدين، وهو عضو أيضا فى أكاديمية البحث العلمى، وفى المجالس القومية المتخصصة، وقبلا سليل أسرة عريقة فى خدمة العربية. ومازال ماثلا كتابه الصادر عام ٢٠٠١م «حكماء وشعراء من أون إلى قصر العينى»، حيث يصحبنا فى رحلة ممتعة عبر عصور طويلة متوالية، مع أطباء مصر الذين نبغوا فى فن الشعر، وهو حصن اللغة الحصين وأقوى تجلياتها. وكأن الدكتور المناوى كان يريد قبلا إبلاغنا بأن النبوغ فى مهنة علمية كالطب لا يحول دون الانطلاق بمجامع النفس للإبداع فى الشعر، وهو فن اللغة الأول، وسجل العربية الموثق.

ونقرأ فى «أزمة التعريب» العلاقة الوثيقة بين مدرسة الطب المصرية وبين بدايات تعريب العلوم فى العصر الحديث. فقد بدأ الطب الحديث عام ١٨٢٧م فى مدرسة أبو زعبل مع أول ناظر لها كلوت بك الفرنسى، الذى كان مخلصا للمهمة التى اضطلع بها، فجعل العربية لغة للتدريس والتأليف، يعقب ذلك إتمام الدراسات العليا فى فرنسا، ليتواصل الطلبة مع المستجدات فى العلوم. قال كلوت بك: «إن التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطين العلم أو تعميم نفعه» والعقبات التى واجهت الرواد وكيف تغلبوا عليها حتى صدرت أول مجلة علمية طبية عام ١٨٩٢م «مجلة اليعسوب». فى العام نفسه صدرت مجلة «المهندس» أيضا باللغة العربية وظلت الجهود على قدم وساق من أخلص الدارسين والمترجمين، وتأتى بعثات من اليابان لتتعلم من التجربة المصرية وتحاكيها. حتى أحبط كل هذا قرار الاستعمار الإنجليزى عام ١٨٨٧م بجعل تدريس الطب والعلوم باللغة الإنجليزية.

تتواتر أبعاد القضية عبر هذا الكتاب المتعدد الزوايا، فى الباب الأول يقدم المؤلف طرحا متكاملا للقضية، بادئا بأزمة اللغة العربية فى معمعان الصراع الحضارى على أساس أن انهزام اللغة انهزام لأهلها، تأتى الخطوة الأولى فيه من الانبهار الروحى الكاسح لحضارة الغرب، ثم خطورة طغيان العامية، ودور الترجمة وأهمية التأليف وضرورة توحيد

المصطلحات، ويعنى الكتاب عناية بالغة بقضية المصطلحات العلمية باعتبارها لبنات اللغة العلمية، ولا بأس من الاقتصار على تعريبها إن لم يسعفنا الاشتقاق الذى هو إطالة فى بنية الكلمة، والنحت الذى هو اختزال لكلمتين أو أكثر من كلمة واحدة، ويبدو لى أنه لا مشكلة البتة فى المصطلح العلمى، لأنه لفظ صيغ خصيصاً من أجل القيام بوظيفة معرفية متخصصة فى إطار محدد، ولا بأس من صياغته أو قبوله بأية لغة كانت، المهم هو بذل الجهد النظامى المدروس من أجل الغاية المنشودة وهى توحيد المصطلح، والاتفاق عليه. وثمة بالطبع تأكيد مسرف على الضرورة الملحة لإتقان لغة أجنبية، وفى النهاية إعداد استراتيجية قومية للتعريب، بعيدة المدى، تتحول إلى منهج متكامل للتنفيذ فى عصر العولمة؛ لنخرج من طرفين كليهما مر: الهيمنة والتبعية الثقافية أو الانغلاق ورفض التواصل، وبالتالى الجمود والموات. إن عصر المعلومات جعل قضية اللغة أكثر حيوية ومحورية.

ثم تأتى فى الباب الثانى زاوية مختلفة تجعل الكتاب جهداً إبداعياً أصيلاً بقدر ما هو جهد توثيقى شاق ونادر الطراز، فقد جمع إسهامات الرواد العظام من المجمعيين فى قضية تعريب العلوم، وبالتالى حفظ نصوصاً مهمة كادت تندثر، نصوصاً تطرح تطور القضية عبر عقود القرن العشرين، وتقريرات رصدية جادة عن أوضاع لغات تدريس العلوم فيها، ما هو كائن وما ينبغى أن يكون، وصولاً إلى قاعدة معلومات الكتب العلمية ودورها فى إشاعة المصطلح العلمى العربى.

ويتواصل الجهد التوثيقى فى الباب الثالث، لكن من زاوية أخرى تاريخية أكثر، تعرض جهوداً مصرية وعربية فى التعريب، وتوحيد المصطلح، ويبرز دور المجلة الطبية المصرية منذ العام ١٩١٧م، حتى يعرض بالتفصيل لبنوك المصطلحات العلمية، وطرق وضع المصطلحات، وتوحيدها، ودور الجمعيات الأهلية، وإنجازات الجمعية المصرية لتعريب العلوم، ودور التواصل اللغوى فى تحقيق الازدهار الحضارى، فى هذا الباب رصد تاريخى مثبت وموثق للمؤتمرات التى عقدت على مدار القرن العشرين فى القاهرة، ودمشق، بيروت، والقدس الشريف وحيفا وبغداد من أجل تعريب الطب، وتوحيد المصطلح الطبى العربى. وطبعىّ أن يهيمن على هذا الكتاب الاهتمام بالطب والمصطلح الطبى.

من هنا توقف فى الباب الرابع عند الرواد العظام من الأطباء أبناء مدرسة قصر العينى الذين امتلكوا أدوات اللغة، فحظوا بعضوية مجمع اللغة العربية، فكان هذا الباب بمثابة باقة وفاء لأقرانه من الأطباء المجمعيين الرواد، يعرض سيراً موجزة لهم، وقطوفاً من أهم إسهاماتهم

عطاء للغة والأدب. أما الفصل الخامس والأخير، فهو قطوف من دراسات المجمعيين عن الطب والأطباء، وأروع قصائدهم التى تتغنى بالعروبة والعربية، وقد ألقيت فى مؤتمرات تعريب العلوم بمدن عربية مختلفة.

هكذا يمتد مجال الجهد المبذول – تأليفا وتوثيقا – فى هذا الكتاب، من الهم المعاصر جدا والمستقبلى، وفصول العصر الحديث عبر القرنين الماضيين، ويضوى فى سياقه جهود العلم العربى فى مجالى الترجمة والطب إبان العصر الذهبى للحضارة الإسلامية، كمدرسة إسحاق ابن حنين، وجهود الرازى، وابن البيطار، وابن زهر، وابن النفيس ... الخ.

وينتهى الكتاب – باعتباره مرجعا وثائقيا وموثقا – بثبت للمصادر والمراجع يتراوح مداه من عام ١٩٢٨م حتى إصدارات تمس القضية فى العالم الحالى، بخلاف الشواهد التراثية التى تتوغل حتى القرنين الثالث والرابع الهجريين.. العصر الذهبى للحضارة الإسلامية العربية، حين كانت تتصدر مسيرة العلم والعرفان، وتتبوأ قمة المدنية، فكانت العربية هى لغة العلم والعلماء فى أرجاء العالم.

ولئن تبدلت الأوضاع، وباتت قضية تعريب العلوم كما يقول الدكتور المناوى «حائط مبكى أو نزفا مستمرا للجهود بلا طائل» فذلك لقصورنا وتوانينا واستسهالا لتدريس العلوم كما هى، دون بذل العمل الشاق المطلوب لنقلها وتوطينها، وضنا بالجهد على أمر لا يعود بعائد شخصى ومادى سريع، إن تعريب العلوم صعب، لكنه ليس مستحيلا، إذا صح العزم. وصدقت النية، وأدركنا خطورة المردود القومى على المدى البعيد، وهو ممكن جدا، مع ما تتميز به العربية من مرونة وغزارة فى المفردات وقاعدية دقيقة للاشتقاق.

يقول تعالى «**ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم**» (النساء: ١٠٢)، واللغة هى أمضى أسلحة الوجود الحضارى، لقد انهارت أسلحة العرب تباعا ولم يعد يسجل وجودهم على خريطة العالم إلا لغتهم العربية، فهل بعد كل هذا ونحن فى قلب القرن الحادى والعشرين بذراه الشاهقة فى التقدم العلمى، نواصل التقاعس والتوانى فى قضية تعريب العلوم؟! وعسى أن يكون هذا الكتاب الجاد فاتحة لطريق أكثر فاعلية، وتحية مزجاة لمؤلفه غير الضنين بالوقت والجهد والانشغال الصادق العميق.!

التعريب «قضية قومية»*

أحدث ما صدر للطبيب العالم د. محمود المناوى، الحائز على جائزة الدولة التقديرية فى علوم الطب، وعضو مجمع اللغة العربية كتابه: «أزمة التعريب»، فى القضية القومية التى تثار من حين لآخر، وتبعث جدلا، واختلافا، محتدا، دونما توصل إلى رأى قاطع، هذا بينما ينتظر أن تزداد حدة كرد فعل للظروف الدولية العولمية، التى تزداد احتواء للثقافات القومية، مع مرور الوقت.. ليأتى د. المناوى ليطرحها فى نحو ٥٠٠ صفحة، فى عرض تاريخى تحليلى شامل الموضوع بتطوراته ومن جميع جوانبه عبر العصور..، والموضوع بأبعاده يتعدى الحرص على اللغة إلى الحفاظ على الهوية أيضا والقومية فى مواجهة اجتياح التغريب والعولمة، لذا فهو لا يشغل الأمة العربية وحدها، بل هو مثار الانشغال والقلق لدى عديد من دول وحضارات. تستهدف حماية مقوماتها من الذوبان والضياع.. يقول المؤلف: «قد تبدو العولمة للوهلة الأولى موجهة نحو الاقتصاد ولكن الواقع يؤكد أن سلاحها الحقيقى مشهر إلى «عقلية الإنسان» فهى غزو ثقافى متكامل، وموجه إلى الفكر واللغة والثقافة، وليس مجرد سوق عالمى، ونهج فى الاقتصاد..» والمؤلف يجيب من خلال العرض التاريخى والمقارنة والتحليل على تساؤلات أساسية:

هل التعريب يؤثر على المستوى العلمى؟ هل يعوق ملاحقة إيقاع التطور الحديث؟ أهو خير أم شر، مفيد أم ضار؟ والإجابات تطلبت منه أن يرجع إلى مصادر عديدة، ويقرأ مراجع عربية كثيرة، وهذا غير الاطلاع على خبرات الآخرين، من دول سبقتنا فى التقدم العلمى والتقنى، مثل اليابان والصين وغيرهما ممن استطاعوا المحافظة والالتزام بلغاتهم القومية فى مراحل التعليم.. يستأنس بآراء كثير من الخبراء المعاصرين والسابقين.

والمؤلف د. المناوى – يستأنس فى الكتاب بآراء الكثير من المفكرين المصريين والعرب، ومنهم على سبيل المثال الطبيب العالم د. محمود محفوظ، الذى يفسر قضية التعريب بقوله إن العلوم ثابتة الأصل تنتقل بلغة ناقلها ومستخدمها.. فالطب فى الصين باللغة الصينية، وفى ألمانيا بالألمانية، وفى فرنسا بالفرنسية، وهذا ما يعرف: «بالتعليم». إنما التقدم العلمى هو الذى يتطلب القدرة والتمكن من لغة أجنبية شائعة فى ربوع المعرفة العلمية..

---

* أ. مها عبد الفتاح، جريدة الأخبار، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٣م.

فكما كانت اللغة العربية هى الشائعة فى العصر الوسيط، واللاتينية فى عصر النهضة، فالإنجليزية هى الشائعة فى عالمنا المعاصر، وعن طريق التمكن من اللغة الأجنبية تأتى القدرة على استيعاب المعرفة والمعلومات، وسرعة نقلها من اللغة الأجنبية إلى اللغة الوطنية، وهو ما يعرف «بالتعلم» على ذلك يكون «التعليم» باللغة الأم، وأما «التعلم» والتقدم العلمي والتكنولوجي فيكون بالتمكن من اللغة الأجنبية نطقا وكتابة، لأن الاطلاع على المراجع الأجنبية لا يتحقق بغيرها.. لذا يوضح المؤلف د. مناوى أنه رغم قناعته الكاملة بالتعريب بوصفه ضرورة قومية يقتضيها ترابطنا أفقيا كأمة، وترابطنا رأسيا من تاريخنا، وجذورنا، وتراثنا، وعروبتنا، إلا أنه لا يختلف على أهمية تعلم وإتقان لغة أجنبية عالمية معاصرة، باعتبار ذلك ضرورة تربوية أساسية، شرط ألا نضيع لغتنا القومية التى لا نستطيع أبدا أن نعوض ضياعها.. فالتعريب فى رأيه لا يعنى انغلاقا على أنفسنا بل هو انفتاح على الذات والهوية، فى وقت يشهد فيه عصرنا اجتياح اللغة الإنجليزية، مع ملاحظة مهمة وهى أن التدريس لمواد العلوم والرياضيات فى الدول الأخرى يكون بلغاتها القومية إلا نحن العرب .. ففى فرنسا والصين واليابان والبرازيل وألمانيا وكوريا وإسرائيل، الطلاب جميعهم يدرسون العلوم بلغاتهم القومية .. فقيام حركة التعريب هى بمثابة ضرورية قومية، ومن أجل إنجاح حركة التعريب لابد – فى رأيه – من أحياء التراث العلمى العربى القديم، والتعرف على المصطلحات والألفاظ والتعبيرات العلمية التى كان يستخدمها العرب فى الماضى، وإنشاء مركز عربى قومى يترجم أمهات الكتب العالمية الحديثة فى مختلف العلوم والفنون، وينشرها فى مختلف أقطار العالم العربى.. وهو يدعو الجامعات إلى تقديم منح لأساتذتها بهدف تشجيع التفرغ لترجمة الكتب العلمية، على أن تتغير النظرة الجامعية إلى الترجمة وتعيد إليها الاعتبار كعمل لا يقل فى الأهمية عن التأليف والأبحاث الميدانية.. فى الأسبوع القادم نقدم لمحات مهمة من الكتاب الذى يتناول قضية التعريب فى الطب بعمق وخبرة.

نعم للتعريب ونعم للغة أجنبية *

لمحات من أحدث كتاب، أصدره الطبيب العالم، وعضو مجمع اللغة، أ.د. محمود نواصل المناوى، الذى يقدم موضوع التعريب من كل وجهاته وزواياه..، لم يترك ثغرة لم يستوفها حقها.. واختار لمحة من جهة العلاقة الوثيقة التى نلحظها منذ عقود، لضلوع وثيق نلحظه بين بعض نوابغ الطب فى مصر واللغة العربية.. هذه الظاهرة بدأت من أواخر القرن التاسع عشر مع حركة تعريب العلوم، التى بدأت من مدرسة الطب بأبى زعبل، ومن بعد فى مدرسة طب قصر العينى، التى اعتمدت رسميا – ذلك الحين – العربية اللغة الأساسية للتدريس وتأليف الكتب الطبية.. استمر ذلك قرابة ثمانية عقود، تمت خلالها ترجمة ٨٦ كتابا فى فروع العلم معظمها فى الطب والصيدلة.. كان المبعوثون الأوائل عندما يعودون من بعثاتهم فى فرنسا، يقومون بالتدريس فى المعاهد العليا باللغة العربية.. وفى تلك الفترة قدموا إلى المكتبة العلمية رصيدا وفيرا من المؤلفات والمعربات، وكان على رأس هؤلاء رائد الترجمة إلى العربية رفاعة رافع الطهطاوى.

إذا عدنا إلى تاريخ الإنسانية نجد أن أول لغة مسجلة فى الطب هى الهيروغليفية، وبعدها لغة الإغريق، ثم السريانية.. وأما اللغة العربية فقد شهدت عصرها الذهبى لقرون طويلة، حتى أن الطب فى أوروبا اعتمد فى بداياته على الطب العربى ومؤلفات العرب، ثم بدأ عصر التجريب والابتكار والتأليف، وأصبحت اللغات الأوروبية هى لغة الطب فى العالم.

كلوت بك الطبيب الفرنسى الذى أرسى وأشرف على مدرسة الطب فى القرن التاسع عشر، وضع المنهج العلمى لمدرسة الطب فى مصر على أساس تعريب المؤلفات والمصطلحات الطبية، ليستطيع بناء قاعدة طبية من أطباء مصريين، يحملون على عاتقهم مهام التدريس والتأليف والتطبيق فيما بعد.. كانت نظرية كلوت بك أن التعليم بلغة أجنبية لا يحقق الفائدة المنشودة من توطين العلم، وتعميم نفعه، وعلى هذا المنوال سار تعليم الطب بالعربية، منذ عهد محمد على باشا إلى أن وقعت مصر تحت حكم الاحتلال البريطانى، الذى بادر بإلغاء التدريس باللغة العربية لتحل محلها اللغة الإنجليزية، وهكذا غابت معالم العربية عن ساحة العلم فى مصر لفترة لم تدم طويلا، إذ نهض أساتذة طب قصر العينى بحملة قومية لإعادة تعريب

---

* أ. مها عبد الفتاح، «لقاء الأربعاء»، جريدة الأخبار، ١ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

الكتب الإنجليزية والمصطلحات العلمية، والذى قاد هذه الحملة كان الدكتور على باشا إبراهيم..، من هنا وجدت حلقة الربط العلمية اللغوية القومية التى جمعت بين بعض أكبر أطباء مصر المتحمسين للتعريب وعلماء اللغة العربية المصريين، ووحدت بينهما فى جبهة مضادة للاحتلال الثقافى.

يرى مؤلف الكتاب د. المناوى أن العولمة هى الأخرى من أهدافها التغلغل والاختراق الحضارى، للتأثير فى الهوية الثقافية وخلخلتها من الداخل، ومقدمة للقضاء على الموروثات الحضارية ذاتها التى هى أهم مقومات الدول.. فاللغة العربية هى لسان شعوب تصل إلى ٢٥٠ مليون نسمة بالقليل، غير أنها العامل المؤثر على أكثر من ٨٠٠ مليون مسلم بين أنحاء العالم.. وهنا يذكر المؤلف أن الكاتب الأسبانى كاميلو جوزى سيلا الحائز على جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٩م تنبأ بأن لغات العالم بسبيل أن تتقلص وتنسحب من ساحة التعامل الدولى حتى داخل بلادها ولن يبقى صامدا وقادرا على التواجد سوى أربع لغات فقط هى فى رأيه.. الإنجليزية والأسبانية والعربية والصينية.

خلاصة القول: أن أ.د. محمود المناوى لا يستنكر الثقافة العالمية وتدريس لغة أجنبية، على الرغم من حماسه الشديد للتعريب، والعودة إلى الاهتمام بتدريس صحيح العربية.. فهو يرى أنه لابد أن يتاح أمام شبابنا أن يتعامل مع الثقافات الأخرى وإنما بمنهجية نقدية واعية، تستطيع أن تنتقى، وتختار المفيد، وهذا ما لا يتأتى بغير أن يدعم بهوية وطنية راسخة.. ولا سبيل إلى ذلك بغير تعزيز اللغة القومية.. فهى العمود الفقرى لكل مقوماتنا الأساسية: العقيدة والتاريخ والثقافة، الكتاب مرجع شامل لكل ما يتصل بقضية التعريب.

أزمة عرب أم أزمة تعريب ؟! ★

كتاب من أول عنوانه «أزمة التعريب»، وحتى إهدائه إلى مدرسة طب قصر العينى، بمناسبة مرور مائة وخمسة وسبعين عاما على إنشائها والجمعية الطبية بمناسبة مرور خمسة وثمانين عاما على إنشائها، ومجمع اللغة العربية بمناسبة مرور سبعين عاما على إنشائه، حيث انصهرت جهود كل منهم فى بوتقة دراسة قضية التعريب، مرورا بفصول الكتاب الخمسة، وصفحاته التى تجاوزت الخمسمائة، يرمى بك بلا هوادة ولا رحمة فى بحر هائج من الغضب، والحيرة، والاضطراب، إذ كيف للغة يتفق الجميع على أنها اللغة الصالحة لكل زمان ولكل مكان، والقادرة على أن تفى بكل ما يمت لحياة الإنسان، لما تتميز به عن كل اللغات الأخرى بخصائصها الذاتية وقابليتها المرنة للنمو والتطور، وقدرتها العبقرية على الاشتقاق والنحت والقياس والوضع والتعريب والمجاز والنقل، وهى اللغة الوحيدة التى عاشت أكثر من سبعة عشر قرنا، محتفظة بمنظوميتها الصوتية والصرفية والنحوية، بينما كانت الأربعة قرون هى الحد الأقصى لبقاء أية لغة أخرى، وهى أرقى اللغات وأغناها فى العلوم والأدبيات والتى جعلت العلم لأول مرة فى التاريخ علما عالميا، وكانت لغته الوحيدة لما يزيد على ثمانية قرون متصلة، كيف للغة هى أهم ما نملك من مقومات شخصيتنا وجوهر هويتنا والرباط المتميز فى وحدتنا ورمز لكرامة أمتنا، والحفاظ عليها فرض كفاية، وقضية قومية تمت للأمن القومى، وهى اللسان المبين الذى حفظه الله مع الذكر الحكيم، وطالبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعلم العربية وتعليمها الناس، ثم نكتشف بعد كل هذا مع هذا السفر العظيم الذى قدمه الدكتور محمود المناوى والذى استعان فيه بكل ما دار على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين من دراسات، ومؤتمرات، ومراجع، ومقالات، ولقاءات بين قمم الفكر، وصفوة المتخصصين، والرواد، ورصد ما وقع له من أحداث ومواقف طبيعية الحروب المعلنة وغير المعلنة التى تشن على اللغة العربية من قبيل سياسات التجهيل والاستعمار والانتداب، وطرائق المطاردة، والحصار، والهجوم المنظم الذى يتميز بشكل الحرب الذكية، ويجعلك تتأكد من وجود يد خفية لا هم لها إلا وأد اللغة العربية، وإلا ما معنى أن التعليم فى كل بلاد العالم باللغات القومية لتلك البلاد إلا عندنا نحن، فلا نكاد نعرف بين أمم العالم صغيرها وكبيرها أمة تقدم العلم لأبنائها بغير لغتهم الأم سوى ما يحدث عندنا.

★ أ. اعتماد عبد العزين، مجلة أكتوبر، العدد ١٤٠٨، الأحد ١٩ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

فى البلاد العربية، حيث لا توجد دولة واحدة أقدمت أو حتى فكرت أو عملت على تدريس مواد العلوم والرياضيات بغير لغتها القومية وفى تهميش لغتها، ومزاحمتها بلغات أجنبية، إلا عندنا نحن فى منطقتنا العربية، ليس فى الجامعات فقط، ولكن فى جميع مراحل التعليم العام، حتى الحضانة منه، وما معنى الضجة التى تحتدم حول صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم؟ وهى قضية حق يراد بها باطل..

كتاب الدكتور محمود المناوى عن التعريب يؤرق مضجعك، بما يحتويه من محاولات مستميتة ودءوبة، فى مختلف الدول العربية، وبجهود فردية وأهلية، ومؤسسات حكومية ومجامع لغوية، ومؤسسات، علمية لتعريب العلوم داخل جامعاتنا ومدارسنا، ويفزعك بكم المقترحات والأفكار والحلول والمشروعات السهلة والميسورة التى وضعت لهذه القضية ولم تنفذ، أو يكتب لها النجاح، ربما لغياب العامل الحاسم، وهو صدور قرار سياسى لدولة ذات سيادة وإرادة للحفاظ على لغة هويتها ودينها.

أزمة التعريب*

أرجو القارئ أن يأذن لى بالاعتراض على هذا العنوان، لأن القضية التى أتحدث عنها فى هذا المقال، ليست قضية التعريب وحدها، بل قضية العرب الذين كانوا فى يوم من الأيام ملء أبصار الدنيا وأسماعها، وكانوا يأنفون أن تستغيث بهم امرأة، فى مدينة لم يسبق لهم أن سمعوا باسمها، بعيدة فى منطقة يسيطر عليها العدو الشرس، فلا يستجيبون لها (وقعة عمورية).

فقد ظهر للعرب خصم جديد داهية، يعمد إلى الحرب السافرة تارة، وإلى الحرب المحجبة تارة أخرى، يسعى بكل الطرق إلى أن يفرق بين الأجناس التى تقيم فى هذه المنطقة، من عرب وأكراد وبربر... وبين الأديان التى تحيا فيها من مسلمين ومسيحيين وغير موحدين، بل بين المذاهب الدينية المختلفة من سنة وشيعة ودروز... إلخ، ومن بروتوستانت وأرثوذكس وكاثوليك... فالعرب إذن هدف قضايا عدة وليست قضية واحدة.

كذلك ليست القضية قضية العربية، التى كانت فى يوم من الأيام لغة العلم والأدب والفن، لا يعرف العالم لهذه المعارف غيرها.

ويسعى الخصم اليوم جاهدا لمحوها من الوجود، مشبها إياها باللاتينية. وما أنجبته من لغات إيطالية وفرنسية وإسبانية.

ولما كان الخصم حدد هدفه، وأعد عدده، فروجه بصعوبة مراده إن لم يكن باستحالته، فقد اتخذ له جيشا من العرب أنفسهم الذين خدعهم بتقدمه، وأغراهم بازدهاره، وأقنعهم بوجوب استخدام غير العربية فى العالم (بل فى الحياة) حفاظا على الصلات بينهم وبين التقدم العلمى والحضارى، التى يبترها استعمال العربية.

فعدلوا عن تعليم العلوم فى المعاهد العليا بالعربية – كما كان الحال – إلى الإنجليزية، ثم جعلوا التعليم العام كله بالإنجليزية، واستمر الأمر على هذا الحال إلى أن حصلت مصر على قسط من الاستقلال، فردت التعليم العام إلى العربية.

---

* د. حسين نصار، جريدة الأهرام، ٢٣ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

واستمر تعليم العلوم فى الجامعات والمعاهد العليا بالإنجليزية. بل استفحل الأمر، وانتقلت عدواه إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية فى كليات الحقوق والتجارة، فافتتحت أقسام جديدة تعلم الإنجليزية أو الفرنسية إلى جوار الأقسام القديمة، وتحظى بكل الامتيازات.

وأعلن أصحاب هذا اللون من التعليم المبررات لكل خطوة يخطونها، وأكثر هذه المبررات - إن لم أقل كلها - صادق ولكنه ليس الصدق الذى يؤدى حتما إلى نتيجة واحدة، لا مهرب منها - بل تتعدد النتائج وتتسع باتساع وعى الإنسان بنفسه وأمته، وواقعها ومستقبلها، وسخط على حاضرها وطموحه إلى مستقبل أفضل.

ومن هنا شغلت هذه القضية المثقفين والمفكرين والسياسيين واللغويين منذ أمد طويل، وأنتجت كتبا وبحوثا ومقالات، وأدت إلى عقد ندوات ومؤتمرات ومحاضرات، اشتركت فيها مراكز لغوية وعلمية وثقافية مختلفة.

وذلك ما يعطى كتاب «أزمة التعريب» الذى أصدره د. محمود فوزى المناوى، أستاذ أمراض النساء والولادة بكلية طب قصر العينى بجامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، يعطيه قدره.

فالمؤلف - بحكم عمله - من رجال العلوم بل من رجال الكلية التى عارضت تعريب العلوم أشد المعارضة، فهو إذن على معرفة واسعة بآراء المعارضين للتعريب وهو - بحكم عضويته - على مثل هذه المعرفة بآراء المؤيدين فهو إذن خير من يحيط بجانبى القضية.

فإذا تمت هذه المعرفة، وأضيف إليها الاتصال الوثيق بما أفرزته القضية فى السنوات الماضية، كان المؤلف خير من يحيط بأهم الأفكار التى أوجدتها القضية فى التأييد والمعارضة. وقد كان ذلك.

وإذا انضم إلى ذلك الفكر العلمى الذى يؤمن به المؤلف، ويوجه خطاه، والموضوعية التى ألزم بها نفسه فى عرض آراء كل المفكرين، كان الكتاب من خير ما يعرض قضية التعريب.

وإذا أضفت إلى ذلك سلامة اللغة الجزلة المتجلية فى لغة الكتاب كله، والميل الأدبى المتجلى فى الفصول الأخيرة بخاصة، تأكدت جاذبية الكتاب لقارئه، وتأكد أن أحدا ممن يريد أن يعرف شيئا عن قضية تعريب العلوم الحديثة ومشكلاتها وحلولها وآراء كبار الباحثين فيها لا يستطيع أن يستغنى عنه.

أزمة العربية أم أزمة التعريب؟ *

أمام التفجر المعرفى الهائل فى المواقع المتقدمة من عالمنا، والتى أفرزتها ثورتا المعلومات والاتصالات، بات واضحا أن هناك أزمة تعريب، ينادى بعض المخلصين بضرورة الإسراع فى حلها، لكن هناك ضرورة لتأكيد أن هذه الأزمة، ما هى إلا فرع من «الأزمة الأم» للغة العربية ذاتها.

لغة يهون على بنيها أن يروا   يوم القيامة قبل يوم وفاتها

بهذا البيت من الشعر المهجرى ختم الدكتور محمود فوزى المناوى كتابه الصادر حديثا عن مؤسسة الأهرام بالقاهرة، تحت عنوان: «أزمة التعريب». ومؤلف الكتاب أستاذ من أساتذة الطب الكبار فى مصر والوطن العربى، وهو من المدافعين بشدة عن تعريب العلوم وتعريب التعليم، وقد أثار الكتاب ردود فعل واسعة بين مؤيد، ورافض، ومتردد. لكن الإجماع ظل معقودا على جدية الكتاب وإخلاص صاحبه، وهو جانب ننضم إليه دون تردد، لكننا نظل متمسكين بحقنا فى الاعتراض على ما ينبغى الاعتراض عليه، من زاوية رؤية مختلفة قليلا أو كثيرا، ومن زاوية الرؤية هذه ننظر إلى بيت الشعر الذى اختتم به الكتاب، لنبدأ الاختلاف، أو الحوار، أو الإضافة، منحين جانبا مبالغات الشعر والشعراء، متسائلين: إذا كان صعبا على العرب إلى هذا الحد رؤية لغتهم متوفاة، فهل يكون أقل صعوبة عليهم رؤية هذه اللغة عليلة، علة لم تبلغ حد الموت، لكنها أيضا تفتقد حيوية الحياة؟

الأزمة الأم

إن موت اللغة العربية أمر مستبعد فى المستقبل المنظور، لأسباب يشير إليها الدكتور عبد السلام المسدى بمنطق تاريخى، إذ يقول: «لأول مرة فى تاريخ البشرية – على ما نعلمه من التاريخ الموثوق به – يكتب للسان طبيعى أن يعمر ١٧ قرنا محتفظا بمنظومته الصوتية والصرفية والنحوية، فيطوعها جميعا ليواكب التطور الحتمى فى الدلالات دون أن يتزعزع النظام الثلاثى من داخله، بينما يشهد العلم فى اللسانيات التاريخية والمقارنة أن القرون الأربعة كانت فيما مضى هى الحد الأقصى الذى يبدأ بعده التغير التدريجى لمكونات المنظومة اللغوية».

* د. سليمان إبراهيم العسكرى، مجلة العربى، العدد ٥٤٥، أبريل ٢٠٠٤م.

ويعضد رؤية الدكتور المسدى فى استبعاد موت اللغة العربية، حتى على المستوى الدولى، شهادة من الوزن الثقيل لمفكر غير عربى، فقد أعلن الكاتب الإسبانى «كاميلو جوزى سيلا» - الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٨٩م - عن تنبؤاته المستقبلية وتقديراته الاستشرافية حول مصير اللغات الإنسانية بقوله: «إنه نتيجة لثورة الاتصالات سوف تنسحب أغلب اللغات من التعامل الدولى، وتتقلص محليا، ولن يبقى من اللغات البشرية إلا أربع قادرة على الوجود العالمى والتداول الإنسانى، وهى الإنجليزية والإسبانية والعربية والصينية».

واضح أن رأى «سيلا» مستند إلى ركائز لعل أهمها ضخامة الكتلة البشرية التى تستخدم هذه اللغة أو تلك بدرجة ما من التجانس. وأيا كان الأمر فإننا نسلم بعدم موت اللغة العربية، لكننا لا نستطيع التسليم بنفى مواتها المحتمل - إن استمر منحنى الهبوط على ما هو عليه من تسارع وتفاقم - والذى لا يختلف عليه مراقب موضوعى، هنا أو هناك، إلا فى تقدير حجم هذا الاعتلال وتقييم خطورة أعراضه.

لا مراء فى أن «أزمة التعريب» هى حقيقة واقعة، وخانقة، لكنها - بداهة - نتيجة لـ «أزمة» أم هى أزمة اللغة العربية ذاتها أو هما معا.

أزمة اللغة العربية وأزمة التعريب، نتاج أزمة عربية أشمل تتعلق بالتراجعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على مستوى *الكيان العربى الجامع* - دون أى ادعاءات قومية - فلأسباب عديدة، جغرافية، وثقافية، وتاريخية، واقتصادية، وبيئية، ثمة تأثير وتأثر شديد الوضوح بين الأقطار العربية، وكأنها الأوانى المستطرقة يلحق بعضها بعضا فى الهبوط أو الصعود، مهما كانت درجات الاختلاف.

وبتنحية الإطار الشامل للأزمة العربية العامة لأسباب عملية، مع عدم نسيانه، وبغية التركيز على موضوع أزمة العربية التى نراها «الأزمة الأم» لأزمة التعريب، نجد نحن أنفسنا معنيين - فى هذه المداخلة - لهذا الشهر - بأزمة لغتنا العربية. والحديث عن الأزمة، أى أزمة فى النطاق السوى، والذى ينبغى أن يكون سويا فيما نحن فيه، لا يعنى جلد الذات أو البكاء على الأطلال، بل يعنى محاولة تحديد مكونات معادلة صعبة، وإعادة ترتيبها طموحا إلى حلها أو استشراف حلها. وطبعى فى هذا السياق أن نعود بأسئلتنا إلى السؤال البدء فيما يتعلق بلغتنا العربية: «وهل هناك حقا أزمة»؟ وفى صياغة أخرى: «وهل هى أزمة حقيقية»؟

للإجابة عن هذا السؤال ذى الصيغتين، ثمة مستويان: أولهما بدهى وانطباعى يشهد به العموم مما يتبدى على السطح، وثانيهما متخصص وباحث ومتعمق فيما هو تحت السطح.

الـداء اللغـوى وأعـراضـه

لنبدأ بالمستوى الأول، فنقول: نعم هناك أزمة، وأزمة حقيقية فى حياة وحيوية وسلامة لغتنا العربية، ومظاهرها:

- ■ تدهور حادث فى اللغة التى يجرى بها اللسان العربى، على مختلف المستويات، ابتداء من زحف العاميات المحلية على الفصحى الجامعة، وتآكل مفردات الفصحى – أو ذات الجذور الفصيحة – فى هذه العاميات.

- ■ الركاكة، واللحن، فى استخدام ما تبقى من الفصحى العربية، ليس على مستوى التعليم المدرسى والعالى فقط، بل حتى فى لغة من لا تليق بهم الركاكة، ولا يجوز لهم اللحن من أهل القراءة والكتابة فى أجهزة الإعلام والصحافة، بل الكثير من مؤلفى الكتب الثقافية والأدبية.

- ■ الإسفاف اللغوى على مستوى الشارع العربى فى مجال الاستخدامات اليومية للغة، فالصور الهزلية كثيرة، وهو هزل موجع، يتمثل فى لغة هجين من الركاكة العربية والركاكة الأجنبية معا، أسماء سيئة الصياغة الفرانكفونية أو الأنجلوفونية مكتوبة بأحرف عربية وأخطاء إملائية جسيمة، تثير الضحك أحيانا، لكنه «ضحك كالبكاء» دائما.

أما على المستوى الأعمق، فالقراءة المتقصية والباحثة تؤكد وجود هذه الأزمة، بل إن أحد أكثر المهتمين بها، عبر اختصاصه وخبرته المعروفة فى تكنولوجيا المعلومات، وهو الدكتور نبيل على، يقول عن هذه الأزمة: «لا يخفى على أحد أن العالم العربى يعيش أزمة لغوية طاحنة على جميع الأصعدة: تنظيرا وتعليما، نحوا ومعجما، استخداما وتوثيقا، إبداعا ونقدا. وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى خليط هذه الأزمة عنصرا تكنولوجيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا بواسطة الكمبيوتر». وفى صياغة مكثفة أشار خبير تكنولوجيا المعلومات العربى إلى أزمة العربية بنقاط وردت فى تقرير التنمية الإنسانية العربى الثانى هى:

- ■ سياسة لغوية غائبة على المستوى القومى، وما يوجد منها على المستوى القطرى يظل حبيس الأدراج.

- ■ مجامع لغوية ضامرة السلطات، شحيحة الموارد، تنتقى من إشكالية اللغة ما تقدر على تناوله، لا ما يحتاج إليه الإصلاح اللغوى بالفعل، أما اتحاد المجامع العربية فمازال حبرا على ورق، وذلك على الرغم من تواصل الجوار الجغرافى وشدة الحاجة إلى التكتل اللغوى. وتلح على الذهن هنا مقارنة مع الدور الذى يقوم به المجمع الملكى الإسبانى

فى تنسيق شئون اللغة الإسبانية بين موطنها الأوروبى وفروعها المنتشرة عبر المحيط الأطلنطى فى جزر الكاريبى وأمريكا اللاتينية.

- تعريب متعثر يواجه معارضة شديدة من قبل كثير من الأكاديميين، بل من قبل الرواد الثقافيين، وذلك برغم أهمية اللغة الأم فى استيعاب المعرفة، خاصة مع تزايد أهمية موقع اللغة على خريطة المعرفة.
- قصور حاد فى الترجمة إلى العربية، خاصة فى المجالات العلمية الحديثة، ناهيك بأمهات الكتب التى يقوم عليها الفكر الإنسانى الحديث.
- جمود التنظير اللغوى، وقصور العتاد المعرفى لمعظم المنظرين اللغويين، وانغلاقهم داخل نطاق تخصصهم الضيق فى مجال يسوده طابع تعدد التخصصات وتعديها، بعد أن أصبح المجال اللغوى ساحة ساخنة للتداخل الفلسفى والعلمى والتربوى والإعلامى والتكنولوجى.
- وعى غير كاف على مستوى القيادات السياسية والاقتصادية، بل ولدى بعض القيادات الثقافية أيضا، بخطورة الدور الذى تلعبه اللغة فى تنمية المجتمع الحديث.
- ثنائية الفصحى والعامية، وغياب خطط علمية ومنهجية وواقعية لمواجهة هذه المشكلة التى تنخر فى صلب المجتمعات العربية.
- ضعف النشر الإلكترونى باللغة العربية، وعدم تطور آلات البحث فى النصوص العربية، وقلة البرمجيات المتقدمة لتعليم اللغة العربية وتعلمها.
- تكرار جهود البحوث والتطوير فى مجال معالجة اللغة العربية آليا بواسطة الكمبيوتر، وهو الأمر الذى يتناقض جوهريا مع ندرة الموارد البشرية، والقصور الشديد فى الموارد (هناك على سبيل المثال أكثر من ستة مشروعات لتطوير محلل صرفى آلى للغة العربية فى مصر وسوريا والكويت وتونس والمغرب).
- غياب رؤية واضحة للإصلاح اللغوى، وتضارب التشخيص للداء اللغوى المترسخ، فتارة يوجه الاتهام إلى المؤسسات التعليمية، وتارة إلى المجامع وأجهزة الإعلام.

بين أزمة التعريب وهجمة التغريب *

اللغة أبرز مقومات الشخصية، فهى الإطار الذى يحفظ كيان أصحابها، ويحدد هويتهم، وهى العمود الفقرى للقومية، فضلا عن أنها مرآة ووعاء الأفكار والمشاعر، وأداة التفكير وتحديد المقاصد، وأساس ولادة الحاسة العلمية والفنية، وتكوين التصورات الذهنية، وهى ميراث اجتماعى متطاول، وخط اتصال للتجارب العامة والخاصة، كما أنها وسيلة النمو العاطفى والنضج الذهنى، وأهم مظهر يتجلى فيه إبداع أبناء الأمة، فضلا عن أنها من أهم الوشائج الاجتماعية بين أبناء الأمة، إذ هى وسيلة تخاطبهم التى تقوم بها الصلات والروابط.

وبقاء الأمم وتقدمها مرتبط بتشبثها بأصولها المتمثلة فى لغتها ودينها، وتهاونها فى الحرص على هذه الأصول مدعاة لتقهقرها وتراجعها فى كل ميادين الحياة.

وتمر الأمة العربية بمرحلة حضارية خطيرة فى حياتنا المعاصرة، وإذا لم تتفهم هذه المرحلة وتهضم ما فيها من جديد، وتلحق بالتيارات الحديثة المتدفقة، ضاعت شخصيتها بين تيارات الحضارة الجديدة، ونسيت تراثها وأصالتها، لأن الأمم القوية ستفرض عليها علمها وثقافتها وآدابها، عن طريق التطور الحضارى المتقدم، والاختراعات الكثيرة التى تغلغلت فى جميع مظاهر حياتنا.

ويمثل كتاب (أزمة التعريب) للأستاذ الدكتور محمود فوزى المناوى صرخة مخلصة، ترصد نقاط القوة والضعف فى لغتنا العربية، وكيفية الخروج من عثرتها الراهنة، وحين تصدر هذه الصيحة من عالم متخصص فى فرع من فروع الطب – الذى مازال يدرس فى مصر باللغة الأجنبية – يكون لها صداها الكبير، وتأثيرها المدوى، فكثيرا ما استندت المعارضة فى وجه آراء غير أساتذة الطب أو التخصصات العلمية المختلفة فى هذا المجال إلى أساس أن (أهل مكة أدرى بشعابها). هذا العالم الكبير يلخص تلك الأزمة بقوله: إن النظام العالمى الجديد يمثل تحديا مباشرا لهويتنا العربية الثقافية والحضارية، وإن لم نسارع ونخرج من أزمة التعريب بمفهومها الشامل فسوف نتعرض لأخطار التبعية والهيمنة الثقافية، ونواجه محنة التغريب، إن العولمة تعزز سيطرتها على العالم العربى والإسلامى بشدة، وتتغلغل تغلغلا عميقا لتفكيكه وتشكيله على هواها، لأن الغرب يريد أن يفرض علينا أفكاره وقيمه وثقافته

---

* د. وفاء كامل فايد جريدة الأهرام، ٢٧ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

وحضارته. فإذا ارتطم بالإسلام عقيدة وفكرا وحضارة اتهمنا بالتطرف والإرهاب، وعوامل التفتت تنخر فى جسد الأمة العربية الإسلامية، تحكمها ظواهر اجتماعية متباينة، بين غنى فاحش وفقر مدقع، وبين أمية وتعليم متخلف، وتعليم أجنبى بلغة يزهو بها أصحابها وتزيد من تغريب شبابنا وعدم انتمائه، إن العرب يعيشون الآن مرحلة العولمة، وهم يعانون الضعف والوهن الواضح، إننا أمام تحد خطير، فنحن - فى الوقت الذى نتطلع فيه إلى المستقبل بأمل المشاركة الفعالة فى الحضارة الإنسانية - نضع أيدينا على قلوبنا خشية ضياع هويتنا. والخوف كل الخوف من عدم استعمال الأسلوب العلمى فى مواجهة العولمة، وأن يكون رد الفعل عندنا يفتقر إلى العقلانية، فيتجه إما إلى تطرف يتبنى الثقافة الغربية (التغريب) أو تطرف ينحو نحو الانغلاق ورفض التعامل، وكلتاهما كارثتان محققتان.

هكذا لخص عالم الطب المحنة التى تعيشها الأمة العربية فى أوطانها المختلفة، ثم رسم الخطوط العريضة لتجاوز هذه العثرة حين حدد الهدف، وهو الارتقاء باللغة العربية لتصبح لغة التعليم والتعلم، ونقل رأى أستاذنا الدكتور محمود محفوظ الذى بين أن العلوم ثابتة الأصل وتنتقل بلغة ناقلها ومستخدمها: فالطب فى الصين باللغة الصينية، وفى ألمانيا باللغة الألمانية، وفى فرنسا باللغة الفرنسية، وهذا هو التعليم، ولكن النمو والتقدم العلمى يستلزم قدرة وتمكنا من لغة أجنبية شائعة فى ربوع المعرفة العلمية، وعن طريق التمكن من هذه اللغة الأجنبية تكون القدرة على استيعاب المعرفة والمعلومات، وسرعة نقلها من اللغة الأجنبية إلى اللغة الوطنية، وهذا هو التعلم، فالتعليم يكون باللغة الأم، أما التعلم والتقدم العلمى والتكنولوجى فلا يكون إلا بالتمكن من اللغة الأجنبية التى كتبت بها هذه المراجع نطقا وكتابة، حيث إن بها يكون الاطلاع على المراجع الأجنبية، والتعليم والتعلم باللغة الأم من الأسس التى يؤيدها علم النفس اللغوى، وفى تقرير شامل أعده خبراء منظمة اليونسكو عن قضية استخدام اللغات الوطنية فى التعليم، أوصى واضعو التقرير باستخدام اللغة الأم فى التعليم لأعلى مرحلة ممكنة، وشدد التقرير على ضرورة تعليم التلاميذ فى المراحل الدراسية الأولى بلغتهم الوطنية، لأنهم يفهمونها ويتقنونها أكثر من غيرها.

إن اللغة الإنجليزية تحتل مكانة متقدمة فى العالم، فهى اللغة الأولى حين نقدر عدد المتحدثين بها بوصفها لغة رسمية: إذ يستخدمها مليار وأربعمائة مليون من البشر، وهى اللغة الثانية بين اللغات العشرين التى تمثل القمة بالنسبة لعدد المتحدثين بها بوصفها اللغة الأم (اللغة الأولى) إذ يتحدث بها حوالى ثلاثمائة وخمسين مليونا، ولكننا لا نعرف بلدا واحدا - فى غير العالم العربى - أقدم على تدريس مواد العلوم والرياضيات بغير لغته القومية من فرنسا إلى الصين واليابان والبرازيل وكوريا وألبانيا وإسرائيل.

ونحن نعيش فى زمن نبكى فيه حال لغتنا العربية، التى هانت على ألسنة أبنائها من المتعلمين وغيرهم، فى عصر أعشى نظرنا فيه الانبهار بالحضارة والثقافة الغربية، وسخرت فيه كل الوسائل للتأثير على أبناء الأمة العربية، ودفعهم إلى هجرها، والتحدث بغيرها، أو تطعيم عاميتهم باللغات الأجنبية، فى تجسيد حى لعقدة الخواجة التى تعكس انبهارنا بتفوق الآخر.

فنحن نلحظ استخدام اللهجة العامية فى تدريس المواد غير الأجنبية فى المدارس والجامعات. ويحدث ذلك حتى فى تدريس المواد التخصصية كالنحو والبلاغة والأدب. وهو ما يحول اللغة العربية – فى ذهن الطالب – إلى مادة ميتة غريبة على أذنه، لا يحتاج منها إلا إلى معرفة عدد من الأمثلة للاستشهاد بها أو لإفراغها فى ورقة الإجابة أو لتطعيم لغته العامية بها إذا احتاج الأمر.

كما نلحظ حرص وسائل الإعلام – خاصة التلفاز – على إذاعة الإعلانات والمسلسلات والبرامج التى تتشدق بالكلمات الأجنبية، ويكفى أن نشير إلى الفلاحات اللاتى غنين للسمن (الإيزى أوبن) والعمة التى كررت الكلمات والعبارات الإنجليزية على مسامع البسطاء فى شهر رمضان حتى لقنتها لهم.

ونلحظ شيوع الحديث باللغات الأجنبية، حتى على ألسنة الصغار، فنجد الطفل دون السادسة ينطق الأرقام الأجنبية دون العربية، كما يعبر عن الألوان التى يراها أمامه باللغة الأجنبية التى تعلمها فى (الحضانة)، ونلحظ حرص المدارس الأجنبية على استخدام التلاميذ اللغة الأجنبية حتى فى غير أوقات الدراسة، مما يجعل تلك اللغة أقرب إلى تفكير التلميذ ولسانه من لغته الأم، فينشأ وفى ذهنه إحساس بهوان اللغة العربية وتميز ما سواها، مما يترتب عليه شعوره بعدم الانتماء، وبالدونية وتفوق الأخر، ويدعم ذلك الموقف قلة عدد المواد التى تدرس للطفل– فى هذه المدارس – باللغة العربية، مما يجعلها هى اللغة الثانية على لسان الطفل وفى فكره.

وكان ضعف المستوى العلمى واللغوى للمعلمين مما دعا أولياء الأمور إلى بذل جهودهم لإلحاق أبنائهم بمدارس اللغات الأجنبية، كى يضمنوا لهم مستوى علميا جيدا، يؤهلهم للالتحاق بالكليات الجامعية. ورفد ذلك تشجيع الدولة على التوسع فى إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية، تخفيفا للعبء الذى يثقل كاهل الدولة بعد الزيادة الرهيبة فى عدد السكان.

ولكن معظم هذه المؤسسات تتبع فى تدريسها مناهج الدول الأجنبية، وكثيرا ما تستعين بهيئات التدريس من تلك البلاد الأجنبية، مما يعمق سيطرة اللغة الأجنبية، ويدفع العربية إلى التقوقع والانزواء، ويعيد إلى الأذهان صورة الاستعمار الأجنبى، بعد أن تطور فصار غزوا للعقول، وسيطرة على التفكير واللسان. ويرتبط بذلك إنشاء فروع وأقسام خاصة فى عدد من الكليات الجامعية، تكون الدراسة فيها بإحدى اللغات الأجنبية، وتخرج شبابا يتحدث بطلاقة اللغة الأجنبية، فى حين يتعثر لسانه عند نطق عبارة عربية، ويشجع على التهافت على هذه الأقسام فتح سوق العمل على مصراعيه للدارسين باللغات الأجنبية، فى المؤسسات والشركات الأجنبية التى تسعى إلى تشغيل هؤلاء الخريجين - حتى قبل تخرجهم أو فى المؤسسات والشركات العربية. كما أدى انتشار البطالة إلى حرص أولياء الأمور على إلحاق أبنائهم بهذه الفروع، حتى يضمنوا لهم فرص العمل المتميزة.

المشكلة إذن اجتماعية تحتاج إلى تشريع، فنسيان الذات خطر كبير يحدق بنا وتعميق الانتماء والولاء الوطنيين واجب قومى. إن الوعى بالهوية القومية والعربية هو طوق النجاة الذى يعصمنا من الانجراف فى مهاوى التبعية، ويحمينا من الانقياد الذليل وراء العولمة، فالعولمة واقع حى، وتأثيرها على النشاط الإنسانى والبشرى بعيد المدى، ومن هنا يجب ألا ندخر جهدا فى التخلص من سلبيات العولمة التى تؤثر فى الوطنية والهوية الذاتية، وأن نعمل على إذكاء الشعور الوطنى، وأن نحافظ على لغتنا بكل الوسائل والسبل، حتى نحتفظ بكياننا أمام هذا التيار، ونحافظ على ثقافاتنا المحلية إزاءه لكى لا نذوب فيه، وتضيع مقومات شخصيتنا ونصبح صورا باهتة ممسوخة لا حياة فيها.

إن شبابنا يجب أن تتاح لهم السبل للتعامل مع الثقافة العالمية بمنهجية واقعية نقدية، تستطيع الانتقاء والاختيار، ولن يتأتى هذا إلا بتعزيز الهوية الوطنية والذاتية الثقافية عن طريق تعزيز اللغة القومية والعقيدة الدينية والثقافية التاريخية الوطنية.

والعولمة ليست موجهة نحو المال والاستهلاك فحسب، إذ هى غزو ثقافى متكامل، لأنها موجهة إلى فكر الإنسان ولغته وثقافته، بفضل حيازتها معرفة منظمة، ووسائل فاعلة لنشر هذه المعرفة. ومهندسو العولمة يستخدمون اللغة بوصفها وسيلة للاختراق الحضارى للتأثير على الهوية الثقافية، ثم خلخلتها من الداخل للقضاء على الموروث الحضارى الذى هو أهم مقومات الدول، ومن هنا يجب تأكيد ضرورة الارتقاء باللغة، والتمسك بالتعريب للحفاظ على ثقافاتنا وقيمنا الإيجابية المكتسبة على مر العصور، ولابد أن يكون هناك إدراك واع لطبيعة الدور الخطير الذى يلعبه كل من التعريب والتغريب، وطرق التوفيق بينهما، واضعين

نصب أعيننا نمو أمتنا العربية، ومستقبلها، وهويتها، والتواؤم مع التطورات التقنية بالغة التأثير والسرعة، وسيادة تقنيات الاتصالات والحاسبات الإلكترونية والمعلومات والمصطلحات العلمية، وتأكيد اندماج اللغة والعلم والتقنية مع جميع المنظومات المجتمعية، حتى يمكن التفاعل والتعامل الإيجابى مع متطلبات عصر المعرفة والتقنية والعولمة.

ولا ننسى أن الوعى بالهوية والقومية دفع فرنسا إلى تنقية لغتها من التلوث اللغوى الذى أصابها من مفردات الإنجليزية: فقانون حماية اللغة الفرنسية الذى أقرته الجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٩٩٤م نص على «حظر انعقاد المؤتمرات العلمية التى تتخذ الإنجليزية لغة للتداول»، كما تدخل برلمانها لحماية اللغة حين وضع قائمة سوداء من الكلمات التى يحظر استخدامها فى الإعلانات والمدارس والحكومة والمؤسسات، كما رسمت فرنسا سياسة لغوية لجأت فيها إلى سن القوانين بما يحفظ للأمة مظهر حياتها العقلية، فاستطاعت الحفاظ على اللغة الفرنسية، ونلحظ أن الإنجليزية البريطانية تحرص على تنقية نفسها مما يصيبها من تلوث من الإنجليزية الأمريكية، كما أن اللغة العبرية الحديثة لم تحقق ما حققته من مكانة لتصبح اللغة الوطنية لدولة إسرائيل إلا نتيجة لتنامى الشعور الوطنى والإرادة الجماعية لليهود، ومما يلفت النظر فى التجربة اليهودية السرعة المذهلة فى تنفيذها وفاعليتها، وشمولها كل مناحى الحياة داخل الدولة الحديثة، سواء كانت اجتماعية أو تقنية أو تعليمية، ولا ننسى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اجتمع فيها من الأجناس والأعراق ما لم يكن يسمح بأى تواؤم ثقافى، ولكن اللغة الإنجليزية التى ربطت بينها حسمت هوية قومية ما كان لها أن تتشكل لولا التوحيد اللغوى. إن تعريب العلوم والمصطلحات من القضايا المهمة التى يتأكد دورها، وتزداد أهميتها يوما بعد يوم، بسبب التسارع التكنولوجى الحديث، وضرورة معاصرة اللغة له، ولابد فى هذا المجال من اتباع سياسة ومنهجية عربية موحدة، تصب فى قالب التضامن العربى، وتشد أواصر الوحدة العربية. ولم ينس الكاتب أن يحدد أساسيات التعريب، التى ذكر أهمها، وهى: وضوح الأهداف، وتأهيل المتخصصين، وإعداد الكفاءات، وتدريب العناصر الفاعلة المؤثرة، وإعداد المصطلحات التى تنهل من اللغة العربية وتعبر عن المفاهيم العلمية تعبيرا دقيقا.

ويتعين علينا – لمواجهة طوفان الكلمات والمصطلحات الأجنبية فى مختلف نواحى الحياة – أن نلجأ إلى الترجمة الشاملة التى تنقل الحركة الحياتية الكاملة فى مجال العلم – بوجه خاص – إلى اللغة العربية فى مقدرة وسرعة وكفاءة بحيث يصبح الذهن العربى متشبعا بحقائقها، مستوعبا ومتمثلا لها، قادرا على تطويرها، مما يتيح للعقل العربى الإسهام

بنصيب فى التقدم العلمى العالمى، مستثمرا ملكاته الخاصة وقدراته الذاتية، ليضمن للكيان العربى الرسوخ والانطلاق فى مجال الحضارة العالمية، فنكون بهذا قد انخرطنا فى مجال العولمة، ودرنا فى مدارها محتفظين بذاتنا وكياننا وقوميتنا، إن المجهود المنشود كبير، والتضحيات اللازمة أكبر، ولكن آن الأوان لتلعب الترجمة دورها فى نقل الثقافة والحضارة والمدنية والتقدم العلمى المعاصر من الغرب إلى الشرق، ومصر مؤهلة بموقعها وإمكاناتها البشرية للقيام بهذا الدور الكبير والخطير والمؤثر فى يقظتنا العلمية ووثبتنا الحضارية.

والترجمة بهذا المعنى تستحق ما ينفق فى سبيلها من جهد ومال، وما يبذل من أجلها من تضحيات، ولا ننسى ما كان يفعله الخليفة العباسى المأمون الذى كان يعطى لمن يترجم كتابا - عن الرومية أو الفارسية إلى العربية - وزنه ذهبا، وكان حصاد ذلك أن لعبت الترجمة فى ذلك العهد دورا بارزا فى الحضارة العربية الزاهرة، ولنذكر أيضا أنه فى مطلع العصر الحديث، كان العائدون من البعثات، لا يغادرون القلعة حتى يترجم كل منهم كتابا فى تخصصه.

التعريب والتغريب ★

يقول الكرملى: «إن لسان العرب فوق كل لسان، ولا يدانيه لسان آخر من ألسنة العالم جمالا ولا تركيبا ولا أصولا» (الكرملى: نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، ص١).

وليس ما قصدناه فى هذا البحث من «التعريب» تلك المفاهيم الاصطلاحية التى فرغ الباحثون من دراستها وإقرار مدلولاتها، وجعلوا بعضها خاصا وبعضها عاما مفرقين بين مصطلحات «المعرب، والدخيل، والمولد، والمحدث»، فتلك أمور فرغ من بحثها والخوض فيها من جديد، واتخذت مجامع اللغة العربية قرارات فيها، ففى مجمع اللغة العربية بالقاهرة (جلسة يوم الإثنين ٣٠ من صفر ١٣٩٦هـ الموافق الأول من مارس ١٩٧٦م) حيث تقرر أن:

- **المعرب:** لفظ أجنبى غيره العرب
- **والدخيل:** لفظ أجنبى دخل العربية دون تغيير
- **والمولد:** ما استعمله الناس قديما بعد عصر الرواية
- **والمحدث:** ما استعمله الناس فى العصر الحديث

ولكنا نعنى بالتعريب انتشار العربية خارج الجزيرة، ودخولها مع الإسلام البلاد المفتوحة شرقا وغربا.

إن العوامل السياسية والاقتصادية والدينية فضلا عن عامل الهيبة والتفوق الذاتى للغة كانت وراء غلبة العربية على تلك اللغات.

وحيث كانت القوة السياسية فى أيدى العرب فى تلك الأقطار، فقد بذلوا جهودا فى تعريب البلاد الإسلامية، وذلك باستثمار نشر الإسلام بين مواطنيها، وأخذت العربية تسير جنبا إلى جنب مع الإسلام حيث حل، لاسيما حين عربت الدواوين، وأصبحت المكاتبات الرسمية بين تلك الأقاليم وعاصمة الخلافة الإسلامية باللغة العربية.

★ د. عوض بن حمد القوزى، عضو المجمع المراسل، الدورة السبعون لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، غرة صفر ١٤٢٥ هـ، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

وكان لطبيعة الإسلام فى المساواة بين معتنقيه، لا فرق بين عربيهم وعجميهم إلا بالتقوى آثارها فى إفشاء روح المحبة والأخوة بين الجميع، وتعاونهم على نشر الرسالة، واجتذاب الأعاجم لتعلم العربية.

وبانتشار الإسلام واتساع رقعة العربية احتاجت اللغة إلى مواجهة متطلبات التوسع والتطور، عندما نشأت علوم غير معروفة قبل الإسلام واحتاج قومة على اللغة إلى مواكبة عصرهم بتطوير لغتهم وتوسيعها، فكان أمامهم طرق لتوسيع لغتهم، ووسائل يرجعون إليها عند وضعهم المصطلحات الطارئة فى العلوم العقلية والنقلية، من تلك الوسائل: الاشتقاق والنحت والتعريب ووسيلة أخرى لدى علماء البيان هى المجاز.

وإذا كان «التعريب» يعنى باختصار سيطرة العربية على اللغات الأجنبية فى البلاد المفتوحة إسلاميا، وقدرتها على الاكتساب من تلك اللغات والخروج فى النهاية بثقافة إسلامية عربية قوية مازالت تقتات عليها الأجيال، فإن «التغريب» يعنى كيف سحب البساط من تحت أهله وظهر الوجه الآخر للعملية اللغوية، وهو وجه سلبى – غالبا – فى الوقت الذى كان «التعريب» إيجابيا كله وفى جميع مراحله، فمنذ سقوط بغداد وخروج العرب من الأندلس أخذت العربية تتقهقر عن مكانتها فى الشعوب المفتوحة شرقا وغربا.

فعندما تعرضت الشعوب العربية للاستعمار الغربى، لم يقف الضرر عند السيطرة على الأوطان وحكم شعوبها، بل تعدى ذلك إلى لغتها وثقافتها، وظهرت مع ذلك الدعاوى ضد العربية، وأنها لغة لا تنهض بمتطلبات العلوم الحديثة، وأن الإعراب الذى هو أهم مميزاتها يقف حائلا ضد التفكير الحر بها، ورسم الأعداء طرقا كثيرة للإطاحة بلغة البيان والفصاحة، فتارة يزينون لشعوبها الكتابة باللهجات المحلية، والتخلص من الإعراب، وتارة بالعدول عنها لفظا وكتابة إلى اللغات الحديثة، وتارة بتشويه وجه العربية فى نفوس أبنائها، تارة بإيهامهم بصعوبتها وتعقيد قواعدها وإعرابها، وأخرى بعدم قدرتها على مواجهة المصطلحات العلمية الحديثة، إلى غير ذلك من أشكال الحروب النفسية على مستخدميها، وأخذت تنحسر فى دارها متوارية خجلا من الوافد الذى أخذ يزاحمها ويهدد كل ما ارتبط بها من مقومات «الهوية العربية». كان للغة الأجنبية مساحة من المنهاج تزاحم المساحة المعطاة لتعلم قواعد العربية وعلومها الأخرى، حتى كادت العربية تصبح «لغة ثانوية» فى وطنها.

ويرجع أستاذنا الدكتور كمال بشر هذا الأمر إلى خلو الساحة العربية من ثقافة عربية أصيلة، وإلى عدم القدرة أو ضعف الرغبة فى الابتداع والابتكار، وأن المحصول الفعلى لهذا كله هو «التغريب» الفكرى واللغوى الذى هو أشبه بالأزهار الصناعية التى لا طعم لها ولا رائحة،

ومن مظاهر التغريب ما يطفح على عبارات المتحدثين، وكتابات المثقفين، من استخدام بعض الألفاظ الأجنبية فى الوقت الذى يمكنهم تجنبها إلى ألفاظ عربية.

وأصبح من مظاهر العولمة الحديثة – وهو هنا ما نسميه تغريبا – ما يعج به الشارع العام من لافتات بأسماء المحال التجارية والخدمية بكتابات أجنبية بارزة، وإن هم عجزوا عن الحرف الأجنبى ترجموه بالحرف العربى، وكل ما يهمهم أن يحمل المكان الطابع الغربى سواء كتب اسمه بالحروف الأجنبية أو كتب بالحرف العربى، المهم أنه ممهور بالصبغة الأجنبية، وغالبا ما تكون غريبة.

ولم يقف أمر «التغريب» عند هذه الحدود وهذه الآثار، فقد تجاوزها إلى التعليم ومناهجه، لاسيما فى التعليم الجامعى، فالعلوم البحتة من طب وهندسة وكيمياء وفيزياء وما يتبعها من علوم تدرس فى جامعاتنا العربية كلها باللغة الإنجليزية لا نستثنى منها غير الجامعات السورية التى فرضت التعليم الجامعى بالعربية فى هذه العلوم وفى سواها.

ولو نظرت إلى الشعوب ذات الشخصية القومية التى لم تعصف بها عاصفة «التغريب» لكفانا واعظا، فهاكم أولاء اليابانيون والصينيون، أتراهم يعلمون الطب بالإنجليزية؟! ثم الألمان والفرنسيون، أيعلمونه بالإنجليزية أيضا؟! الأطباء الصينيون العاملون فى البلاد العربية لا يقرءون لغة غير لغتهم الصينية، ويلزمون الجهات الطبية المحتاجة لخدماتهم بإحضار مترجمين ليتم التفاهم بينهم وبين المرضى، ترى أيريد الطبيب العربى مترجما مثله وهو يعالج إخوته وبنى جلدته؟!

ومن الأمثلة التى تدعونا للتفكر فى قيمة الاعتزاز بالهوية والخروج من الوضع الانهزامى للنفس الإنسانية، ما نلحظه فى الدولة العبرية، فهل تراها تعلم بلغة غير العبرية؟! ثم أين العبرية من العربية؟! إنها لغة أحياها أفراد بعد فناء وعادت للحياة حينما أرادت نفوس أبنائها ذلك:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

ثم إن الغيرة على العربية والحماسة للتعريب لا تعنى كراهة اللغات الأجنبية أو الدعوة إلى هجرها ومقاطعتها، فنحن من هذا الكون، ولا نعيش بمعزل عن الآخرين، فكان علينا إذن مجاراته فى علومه ومخترعاته، ومتابعة كل جديد من حولنا فى عالم كثرت تقنياته، وتضاعفت إنجازاته العلمية والمعرفية، وألا نكون عالة على موائد القوم، خاضعين لسيطرة العولمة الثقافية.

والله من وراء القصد،

التجربة المناوية★

في ختام عام مشحون بالفواجع: تلقيت مفاجأة سارة تمثلت في كتاب «أزمة التعريب» للدكتور محمود المناوى، وأقول مفاجأة لأننى لم أكن أعلم أن صديقى، أستاذ جراحة أمراض النساء، عضو فى مجمع اللغة العربية وأنه أحد علماء الطب القلائل المهمومين والمهتمين بحالة لغتنا القومية وما تتعرض له من امتهان، ليس فقط من جانب المتحدثين بها فى وسائل الإعلام على طريقة أبناء الأروام، ولكن - وهو الأفدح - من جانب المتربصين بها من أبناء مصر - سامحهم الله - يدعون إلى هجر العربية وكل ما يتصل بها، والعودة إلى لغات أجدادنا الفراعنة «!!» فظهر محمود المناوى لا ليعالج العقم فى أرحام النساء فحسب - وإنما فى عقول رجال تصوروا أن اللغة العربية فات زمانها، وانتهى زهوها، وعلينا أن نرطن بالأوربيات حتى نثبت أننا أوفياء لماضينا المجيد «!!».

فى تقديمه للكتاب يقول أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف متعه الله بالصحة وطول العمر، «إن المناوى طبيب نهم إلى العلم والمعرفة، وقد ضاقت حدود تخصصه عن أن تسع طموحه فجاء كتابه «أزمة التعريب» ثمرة ناضجة لهذه التجربة المناوية يريد بها أن يوقظ العقول، ويشحذ الهمم، كى يسارع أبناء العربية إلى النهوض بلغتهم ومداواة ما أصابها من ضعف ليس لها يد فيه».

ولذا يركز الدكتور المناوى على قضية التعريب، ويدعو العلماء والمفكرين إلى الاهتمام بها كى يصبح أبناء العربية قادرين على مواجهة عواصف العولمة، وثورة الاتصالات والمعلومات.

يحزن الدكتور المناوى - ونحن معه - لأن الثقة ضاعت باللغة العربية، فلم تعد لغة العلوم والمعارف، ليس لأنها عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر، ولكن لأن الضعف أصابها ضمن موجة التمزق الفكرى، والانحلال السياسى الذى خيم على أمة العرب مع هجمة الاستعمار الغربى، ولذا فهو ينادى بأن نبحث أزمة التعريب من كافة جوانبها أملا فى إيجاد حلول لبدء انطلاقة عربية فى القرن الحادى والعشرين، مع الحفاظ على قنوات الاتصال بتقدم العلوم،

★ أ. جمال بدوى، جريدة الوفد، الثلاثاء، ٦ من ذى القعدة ١٤٢٤هـ الموافق ٣٠ من ديسمبر ٢٠٠٣ م.

ومواكبة التغيرات العالمية التى فرضتها تحديات العولمة، فالتعريب عنده لا يعنى مطلقا الانغلاق على الذات، وإنما الانفتاح على العالم، وجعل اللغة العربية قادرة على الوفاء بمطالب العلوم والفنون، ويدعو إلى وحدة المصطلحات العلمية فى العالم العربى.

لا مجال هنا لترديد الحديث عن مجد اللغة العربية إبان عصر النهضة، عندما كانت أوربا تتعلم الطب والبيطرة والفلك والصيدلة باللغة العربية، وتفهم أرسطو على شروح ابن سينا وابن رشد، فهذا حديث معروف عند علماء الغرب المنصفين، حتى لو أنكره غير المنصفين من أبناء العربية، ولكن المفاجأة التى يسوقها الدكتور المناوى أن اللغة العربية كانت لغة تدريس الطب فى أول مدرسة طبية أنشأها محمد على فى القرن التاسع عشر، وأكثر المفاجآت غرابة أن صاحب فكرة التدريس باللغة العربية هو العالم الفرنسى «كلوت بك» الذى كلفه محمد على تنفيذ المشروع، فقرر أن يكون تعليم الطب باللغة العربية حيث «إن التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطين العلم أو تعميم نفعه». وأتى بالمترجمين ليكسر حاجز اللغة. وقوبلت الفكرة بمقاومة من جانب البارون «بواسلكيروم» الذى بعثته الحكومة الفرنسية لمتابعة المشروع، فكتب إلى حكومته: إن مدارس الطب والصيدلة والبيطرة والكيمياء مكونة تماما من عرب، والمسيو كلوت يحاول «أن يعطى تلاميذه روحا وطنية عربية ولا أعرف هل يستحق التأنيب أو التشجيع» «!!».

والمؤكد أن كلوت بك يستحق احترامنا وتقديرنا، لأنه مضى فى مشروعه غير عابئ بتلك النظرة العنصرية. فلما تخرج تلاميذه – وقد جاءوا من الأزهر – أتموا دراساتهم العليا فى فرنسا، وأتقنوا اللغة الفرنسية، ليتواصلوا مع المستجدات فى العلوم، ومضت مسيرة التعليم الطبى باللغة العربية إلى غايتها. وحقق الخريجون تميزا أذهل أساتذتهم فى فرنسا، ولكن ... تبدل الحال بعد الاحتلال الإنجليزى، وانطفأت الشعلة التى أوقدها محمد على،ففرضوا اللغة الإنجليزية لتدريس العلوم بقصد القضاء على الروح الوطنية، وتمزيق روابط مصر الثقافية، وطمس هويتها العربية ... وبقية القصة معروفة.

لعل كتاب الدكتور المناوى يكون ناقوسا ينبه الغافلين، إلى خطورة إهمال اللغة العربية، وما ينجم عنه من تمزق ثقافى، وانحلال قومى، وضياع فكرى. وقانا الله شرور هذه الدعوات المشبوهة.

تعريب مصر ★

لم يحدث أن نجحت لغة فى توحيد الأمم، وتجميع الشعوب، وتشكيل وجدانها الثقافى، كما فعلت اللغة العربية، وهو ما عجزت عنه اللغتان اليونانية واللاتينية فى العالم القديم، فالأولى عجزت عن تغيير لسان الشعوب الشرقية، ومنها مصر، واللاتينية انحلت منذ القرن الخامس عشر الميلادى، وقامت على أنقاضها اللغات المحلية الحديثة، التى تتكلمها الشعوب الأوروبية وتعددت حتى داخل الوطن الواحد، مثل سويسرا حيث يتكلم أهلها ثلاث لغات هى الفرنسية والإيطالية والألمانية فضلا عن لهجة رابعة محلية. فى حين نجحت العربية فى أن تكون وعاء ثقافيا واحدا تنهل منه شعوب المنطقة، وصارت لغة التخاطب اليومية بين سائر السكان، سواء منهم المسلمون أم غير المسلمين، كما باتت لغة الثقافة والإبداع والحضارة، فكيف نتصور تمزيق هذا العنصر الجامع للشعوب العربية، وتعود كل منها إلى لغتها الميتة، من فرعونية وفينيقية وآشورية وسريانية.. إلخ؟

وعلى هذا.. نسأل دعاة العودة إلى الفرعونية: ما شكل الرابطة التى يريدون إقامتها بين المصريين المعاصرين والعهد الفرعونى. أهى رابطة الدين والعقيدة؟ أم رابطة اللغة واللسان؟

إن كانت الأولى، فإن حركة التاريخ تشهد بأن التراث الدينى الفرعونى قد اندثر وحل محله دينان سماويان هما المسيحية ثم الإسلام، ولا يوجد مصرى يتعبد خارج هذين الدينين ولا قياس هنا على الديانة الموسوية فقد احتكرتها قبيلة يهود وأغلقوها على أنفسهم ولم تعد المأثورات الدينية الفرعونية أكثر من تراث تاريخى يدرسه طلبة الآثار فى مصر والعالم، وإذا كانت عندنا رواسب من هذه العقائد القديمة داخل النفسية المصرية المعاصرة مثل السحر وطقوس الموت والاتصال بالعالم السفلى: فتلك موروثات تسرى تحت الرماد.. ويناهضها رجال الأديان السماوية.

هذا عن عنصر الدين والعقيدة.. فماذا عن عنصر اللغة؟ وهنا نسأل: أية لغة مصرية قديمة يريد دعاة الفرعونية أن نتكلمها؟ لقد مرت اللغة المصرية بتغيرات وتطورات من حيث النطق والرسم، كان آخرها كتابتها بحروف يونانية، وهى التى تعرف باللغة القبطية، وظهرت

★ أ. جمال بدوى، جريدة الوفد، ٦ من نوفمبر ٢٠٠٢ م.

كمحاولة لمقاومة الهيمنة اليونانية فى العصر البطلمى، وظلت هذه الازدواجية الثقافية سائدة بصورة أو بأخرى حتى مجىء العرب، وعلى الرغم من أن اللغة القبطية شهدت حالة من الصحوة خلال القرنين الإسلاميين الأولين، إلا أنها لم تستطع منازلة اللغة العربية، فتراجعت عن أن تكون لغة التخاطب ولغة الأدب والثقافة، وتمت ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، ثم لم يلبث البطريرك غبريال بن تريك فى مطلع القرن السادس الهجرى (١١٣١ – ١١٤٥م) أن أصدر أول قرار بابوى يقضى باستخدام اللغة العربية فى الخدمة الكنسية وتلاوة القداس، وسجل القرار واقع الحال، وهو أن جمهرة المصلين الأقباط فى الكنائس لم تعد قادرة على متابعة الوعظ وخدمة القداس باللغة القبطية.

ويلخص العلامة أبو سيف يوسف، وهو أحد أعلام الاستنارة القبطية النتائج التى ترتبت على استعراب الأقباط الذين اتخذوا العربية أداة لثقافتهم، فى أن العربية أصبحت لغة التواصل بين المسيحيين العرب كلهم، كما أثرت الثقافة العربية المسيحية بدورها على غيرها من الثقافات الشرقية، ومع ازدياد تمكن علماء القبط من اللغة العربية دخل الأدب القبطى العربى فى إطار الثقافة العربية ويخلص الباحث إلى أن المتغيرات التى تكونت مصر العربية تحت تأثيرها، تحولت إلى «ثوابت» فى حياة المصريين، أخذت تترسخ باطراد منذ القرنين الرابع والخامس للهجرة، وقد حدد استقرارها أن يتم النظر فى قضايا التفاعل بين أهل البلاد، مسلمين ومسيحيين، من خلال هذه المقولات التى عرفها النسق المصرى من قبل: وهى المجتمع والشعب والدولة..

والحديث موصول إن شاء الله تعالى إلى أن يدرك المصريون مخاطر هذه الدعوات المتطرفة.

د. المناوى واللغة العربية*

الطبيب العالم المحب للأدب د. محمود المناوى أصدر أخيرا كتابا عن مركز صديقى الأهرام للترجمة والنشر تحت عنوان أزمة التعريب.. فى الكتاب محاولة جادة من واحد من عشاق اللغة العربية للدفاع عنها، وكشف جوانب العمق والجمال والمعاصرة فيها.. ورغم أن قضية التعريب من القضايا الشائكة فى مجالات مثل الطب والعلوم الحديثة، إلا أن د. المناوى يرجع بنا إلى الجذور، وإلى بداية ظهور هذه الأزمة، ونكتشف معه كتيبة من الفرسان الذين كان لهم دور كبير فى جعل اللغة العربية تفى بمطالب العلوم والفنون الحديثة بما يلبى احتياجات الحياة المعاصرة، ويعيد للغة مكانتها الرائدة بين لغات العالم.. واستعرض د. المناوى جهود من سبقوه ودراساتهم حول هذه القضية خاصة فى مجال تعريب الطب.. ومنذ سنوات بعيدة وقف البعض ضد تعريب الطب على أساس أن معظم المصطلحات فيه غير قابلة للترجمة أو أن استخدامها الأجنبى مازال متبعا على مستوى العالم.. ولكن د. المناوى يوضح لنا كيف استطاعت أجيال سبقت أن تحل هذا اللغز، وأن تترجم الكثير من المصطلحات الطبية وغير الطبية. ومن خلال سطور الكتاب تظهر بوضوح مشاعر د. المناوى تجاه لغته العربية، وحرصه الشديد على أن تظل هذه اللغة فى مكانتها لأنها قادرة على استيعاب روح العصر.. إن هناك من يدعى أن اللغة العربية تخلفت عن سياق الحضارة المعاصرة، وهذا الكتاب يؤكد غير ذلك ويوضح جوانب كثيرة تجعل اللغة العربية لغة معاصرة قادرة على الحياة فى كل الظروف. ولأن د. المناوى طبيب وأديب فهو يذكرنا بكل أطبائنا الكبار الذين أحبوا الأدب، وعشقوا اللغة العربية، وكان منهم المبدعون الكبار فى الشعر والنثر أمثال إبراهيم ناجى ويوسف إدريس ومصطفى محمود ولكن د. المناوى يحرص فى كتاباته على الأسلوب العلمى فى البحث والمناقشة والحوار وهو يتمتع بقدرة فريدة على الغوص فى أعماق التاريخ، فلا يتناول قضية دون أن يؤصل جذورها ويعود بنا إلى منابعها، ومن هنا كانت مجموعة الكتب التى قدمها للمكتبة العربية فى السنوات الأخيرة وكلها تعكس إيمانه الشديد بأمته ووطنه ولغته ودينه. مازال بيننا حراس للقيمة والعلم وفى طليعة هؤلاء د. محمود المناوى الطبيب الأديب العالم.

---

* الشاعر فاروق جويدة، جريدة العالم اليوم، ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠٣ م.

التعريب وأزمته المستحكمة★

لقد برهنت اللغة العربية على قوتها فى العصور الخالية، وأنها بقيت لغة العلم الوحيدة حتى القرن ١٥، وأكد الكثيرون من اللغويين مقدرة اللغة العربية على استيعاب جميع المصطلحات العاطفية والفلسفية والعلمية، والدقة المتناهية فى ما يقع تحت الحس ويجول بالخواطر.. وأن وحدة اللغة تحقق وحدة التفكير، ووحدة التفكير تحقق وحدة الأمة، كل الأمة، فى عصر لم يبق للقوميات الصغيرة مكان فيه.. والشاهد اليوم المحاولات القوية التى تجرى فى العالم، هنا وهناك، لتكوين تكتلات سياسية واقتصادية بالرغم من تباين لغات هذه البلدان.

نحن لسنا فى حاجة لاختراع لغة جديدة تجمع بيننا.. وبشىء من العناية يمكن للغة العربية أن تكون عاملا مهما فى وحدتنا، كما كانت على مر العصور.

لقد دفعنى لكتابة هذا المقال ثلاثة أحداث الأول هو انعقاد ندوة كبيرة بالرباط، بعنوان «العربية فى الإشهار والواجهة» نظمها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، وهو تابع لجامعة محمد الخامس، كبرى الجامعات المغربية، والحدث الثانى هو أن المركز الثقافى المصرى بالرباط، قد نظم ندوة بعنوان «الرقم العربى بين الحقيقة والافتراء» ترأسها المفكر العراقى د. على القاسمى، وشارك فيها من مصر د. محمد يونس الحملاوى، ومن المغرب د. عبد الرازق تورابى، أما الحدث الثالث فهو أننى تلقيت منذ أسبوع نسخة من الكتاب القيم الذى قدمه للمكتبة العربية الصديق العزيز وأستاذى د. محمود المناوى بعنوان «أزمة التعريب».

أما عن الحدث الأول: الخاص بندوة «العربية فى الإشهار والواجهة» فهى ندوة قيمت على أنها واحدة من أهم الندوات التى عقدت فى الفترة الأخيرة، تعنى بالإشهار أو الإعلان، حيث إن الإعلان بات اليوم يشكل ضرورة وظيفية للترويج للبضائع والخدمات، ويقوم بدور أساسى فى توجيه الحياة المعاصرة، مما عزز من موقعه داخل النسيج العام للمجتمع الحديث، وبالطبع لا يمكن أن ننكر أن الإعلان قد قوى حضوره بتزايد القنوات التليفزيونية من أرضية وفضائية وإذاعة وصحف، ولأن الإعلان يستمد قدرته على خلق الأذواق والمواقف

★ د. حامد عبد الرحيم عيد، جريدة الأهرام، ١٧ من نوفمبر ٢٠٠٣ م.

والسلوكيات والتأثير فيها فإن توظيف لغة الإعلان يطرح قضايا عديدة تثير بالتالى نقاشات حادة، حول اللاتوازنات اللغوية، ومشروعيتها، وعلاقاتها بالمشروع المجتمعى العربى، ودور اللغة العربية اللغة الرسمية لكل البلاد العربية.. لقد سعى هذا اللقاء حقيقة إلى مناقشة عدد من الأسئلة والقضايا المهمة التى تتعلق بأزمة اللغة العربية فى بلادها.

منها: ما الإجراءات اللغوية التى يجب أن تتخذ لتنظيم الاستعمال الأمثل للغة العربية فى الملصقات واللوحات الإعلانية؟

لماذا يتم الإصرار على مخاطبة المستهلك العربى بغير اللغة العربية؟ وهل يحرص مصممو الإعلانات على الاستعمال الجيد والسليم للغة العربية حرصهم على إتقان الصورة والألوان؟، وهل يمكن إقامة تشريع لغوى يمكن من وضع ضوابط استعمال اللغة العربية فى الواجهة، ووضع آليات إلزامية لتنفيذ هذه الالتزامات؟

وأخيرا كيف نجعل اللغة العربية لغة إعلان وإشهار وخدمات، وبالتالى لغة اقتصاد ومال؟، ولقد تضمنت الندوة عدة مشاركات بعناوين مهمة، منها كتابة الأسماء التجارية الأجنبية بالأحرف العربية فى الواجهات، والإشهار حفظ اللغة العربية بين الشرع والقانون، قبل أن تشيع العرنسية لكاتب المقال، وشعرية الخطاب والإشهار والتى تضمنت لوحات إشهارية من الشعر العربى القديم.

أما الحدث الثانى وهو الندوة التى نظمها المركز الثقافى المصرى بالرباط بعنوان «الرقم العربى بين الحقيقة والافتراء» وحدث فيها ما يشبه المناظرة، كان طرفاها الدكتور يونس الحملاوى أستاذ الحاسبات بجامعة الأزهر، وأمين عام الجمعية المصرية لتعريب العلوم، الذى أوضح أن الأرقام المستخدمة فى المشرق العربى، والمسماة بالأرقام العربية، هى أرقام أوروبية هجينة تولدت من احتياجات الحضارة الأوروبية، وتحمل سماتها، وإن كانت قد صورت عن الأرقام العربية الأصيلة، وأن هذا الأمر قد تم حسمه مؤخرا بقرار من اتحاد المجامع اللغوية العربية، يدعو فيها إلى استعمال الأرقام المشرقية المعروفة بالهندية طالما لا يوجد عالم لغوى هندى واحد ينسبها إلى حضارة بلاده، وفى الجانب المعارض أو المدافع عن الأرقام المستخدمة فى المغرب العربى كان الدكتور عبد الرازق الترابى الحاصل على الدكتوراه فى الإسلاميات وعضو هيئة تحرير مجلة أبحاث اللسانيات، الذى أوضح بدوره أن الأرقام المستخدمة فى المغرب العربى هى وحدها العربية التى توصل إليها أهل الأندلس، وانتقلت منهم إلى أوروبا باعتراف الأوروبيين أنفسهم. وقدم ورقة توضح الرسوم التى

توضح تطور هذه الأرقام في الأندلس حتى أخذت شكلها الحالي، ووصف الدكتور الحملاوى هذه الرسوم أو الأشكال بأنها مجرد تكهن لا تدعمه أى مخطوطات عن التراث العربى الأندلسى، تم استخدامها فيه، وقد اتخذ دور الحكم بينهما الدكتور على القاسمى الكاتب والباحث العراقى المقيم فى المغرب، - الذى اختاره مؤخرا مجمع اللغة العربية عضوا مراسلا عن العراق - الذى وجد نفسه حائرا بين حجج الطرفين التى تبدو متساوية فى قوتها، ومنطقها، والتى تجاوزت أصل الرقم إلى الدفاع عن مزايا استخدامه، فبينما يعتبر الدكتور الحملاوى الرقم المشرقى أكثر تجانسا وتوافقا مع اللغة العربية، وخاصة فى منظومة الكومبيوتر، يعتبر الدكتور الترابى الرقم اللاتينى أكثر توافقا مع زمن العولمة.

لا مجال هنا إلى سوق حجج الطرفين، والتى زادتها المناقشات التى شارك فيها الحضور قوة أو ضعفا. ولكن الذى استرعى انتباهى هو وجود شبه اتفاق على أن شكل الصفر فى الرقم المشرقى، والذى يعبر عنه بنقطة قد تختلط بالنقطة التى توضع فى نهاية الجملة، هذا الشكل يمثل نقطة ضعف بالنسبة للأرقام المشرقية، وقد دافع الدكتور الحملاوى بالقول بأنه يمكن تجنب هذا الخلط عندما يوضع الصفر فى وسط الرقم السابق له وليس على السطر، وأنه لو تم استخدام الدائرة المجوفة المعبرة عن الصفر فى الأرقام اللاتينية لما أمكن التمييز بينها وبين رقم «خمسة» فى الأرقام العربية المشرقية.

أما الحدث الثالث وهو الذى أقف عنده باحترام، مقدرا الدور المهم الذى أسداه الفاضل الدكتور محمود المناوى، الذى تشرفت بالعمل معه فى العديد من اللقاءات العلمية، فى مجال التراث عندما اختير عضوا فى مجلس إدارة مركز التراث العلمى بكلية العلوم، وعندما تزاملنا معا فى اللجنة القومية لتاريخ وفلسفة العلوم، أقول لقد قدم د. المناوى كتابا قيما بعنوان «أزمة التعريب» طاف فيه وبنا بالعديد من المحاط التاريخية التى أفرد فيها الكثير عن دور روادنا الأوائل. والذين كان لهم الفضل الأول فى شد الانتباه إلى الاهتمام بالعربية كلغة علم ودين، وما بين دعوة مصطفى مشرفة فى الثلاثينيات بأهمية التعريب، مرورا بأستاذنا د. شوقى ضيف الذى نادى بتوحيد المصطلح العلمى، وعالمنا الجليل د. محمود حافظ الذى أرخ للدعوات التى ظهرت فى مصر، والتى نادت بتعريب العلوم، وعرج بنا د. المناوى إلى تلك الجهود المضنية المصرية والعربية من أجل الخروج من الدائرة المفرغة فى قضية تعريب العلوم والطب منها على وجه الخصوص، بدءا من إنشاء مدرسة أبو زعبل، مرورا على جهود وإنجازات الجمعية المصرية لتعريب العلوم، وانتهاء بما قام ويقوم به مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

إن قضية اللغة العربية فى مواجهة تحديات العولمة، وثورة الاتصال والقنوات الفضائية والسبق العلمى، وثورة الهندسة الوراثية، وغيرها من الطفرات العلمية التى طالما نتتبعها صباحا ومساء لم تعد مسألة اختيار أن نقبل أو أن نرفض ذلك، وأن الأمر يحتاج من العقل العربى أن يحدد الأولويات للمحافظة على أحد ثوابت الشخصية العربية، وإحدى الدعائم والركائز الأساسية فى بناء الإنسان العربى المعاصر، فاللغة هى وعاء الفكر، وإن هناك علاقة جدلية بين اللغة وتصور القضايا والمشكلات، فاللغة الجيدة تعبر عن الفكر الجيد، وإن الأمم الجادة هى التى تعنى بلغتها، وترسم المناهج الملائمة للمحافظة عليها، وإذا لم نستيقظ من الآن فسيأتى اليوم الذى نعرف أننا مقصرُون فى أداء الأمانة، وسيحاسبنا الله، ثم التاريخ، وفيما اعتقد أنه لا مفر أمامنا الآن إلا أن نولى هذا الأمر من الأهمية مثلما نهتم بالمأكل والمشرب.

اللغة العربية فى دور التعليم*

لا شك فى أن اللغة العربية تعانى التراجع والإهمال، ولم ينفعها أو يشد من عزم أبنائها كونها واحدة من سبع لغات عالمية، معترف بها لكى تتصدر المحافل الدولية، وأنها واحدة من أقدم اللغات المعروفة فى العالم، بل إنها من أكثرها ثراء فى المفردات، واستجابة لمتطلبات الحداثة الثقافية والصناعية. ومن المحزن أن هذا التراجع لم يحدث مع هذه اللغة العظيمة إلا بازدياد تعداد أبنائها الذين بلغوا فى أقرب إحصائية قرابة ثلاثمائة مليون نسمة، فضلا عن الناطقين بها فى الدول الإسلامية من غير العرب، وهم يعدون بالملايين فى القارة الآسيوية وغيرها من القارات.

وتبقى حالة اللامبالاة التى تمارسها الأنظمة العربية مثار سؤال كبير، باعتبار اللغة جزءا من الهوية الوطنية والقومية، وإصلاح شأنها ومحاولة إخراجها من دائرة الإهمال إلى دائرة الاهتمام يعتمد على قرار سياسى ملزم وفعال.

لا نغالى إذا قلنا إن العرب يمتلكون منذ عصور سحيقة أجمل كائن مبدع، عاش معهم منذ القدم، وامتد معهم عبر تاريخ طويل، وشاركهم التقدم والحياة فى كل لحظة تاريخية باعتباره ذلك «الكائن» الذى ليس باستطاعة أى إنسان العيش بدونه، فإذا ما اعتنى به عناية فريدة وخاصة، نما وأخصب وتطور وازدهر، فكان عنوان هوية راقية وتحضر كبير، وإذا ما أهمل المجتمع هذا «الكائن» الرائع المبدع، فتصيبه الأوجاع والضعف، والخلل، وخصوصا العرب الذين لم يدركوا البتة قيمة كائنهم اللغوى المبدع الحى، الذى صدق فيه توصيف حافظ إبراهيم «البحر الذى تزخر أحشاؤه بالدر المكنون»، وعلى الرغم من تقلب الأوضاع والأحوال التى مرت بها لغتنا العربية عبر تاريخها الطويل، واتساع مدى انتشارها فى قلب العالم، فإنها لم تصادف أبدا من التعديلات والتغييرات، بل حتى التحديات كما تصادف ذلك اليوم فى عصرنا هذا، وخصوصا فى تضاعيف القرن العشرين (سيار الجمل ٢٠٠١م)

«إن لغتنا الجميلة ظلت عبر القرون الطويلة، صامدة نابضة، بفضل انفتاحها المستمر على الحضارات والثقافات، واتجاهها الدائم إلى المستقبل، وأنها كانت تفقد حيويتها وجدتها

---

* د. عبد العزيز المقالح، الدورة السبعون لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أول صفر ١٤٢٥هـ ـ ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

ونبضها، عندما يتوقف انفتاح أصحابها على الجديد الذى تزخر به حياتهم وينغلقون على أنفسهم مضغاً واجترارا، وعندما يصبح الماضى مثلهم الأعلى المقدس، تتجه إليه رءوسهم، دون أن تتجه إلى حيث الهدف الطبيعى، والغاية الأصيلة... المستقبل» (فاروق شوشة).

وعلى الذين لا يكفون عن الشكوى من الازدواجية اللغوية فى حياتنا العربية أن يدركوا أن هذه الازدواجية قائمة فى كل اللغات. وأن البيت الإنجليزى كالفرنسى لا يتكلم الأول لغة أكسفورد ولا الثانى لغة السوربون.

والاعتقاد الوهمى الذى يسود الأوساط التعليمية العربية من أن اللغة العربية محفوظة بالقرآن الكريم، ولا تحتاج إلى العناية المستمرة المدروسة والمنظمة، ويكذب هذا الاعتقاد الوهمى الجهد الكبير الذى تركه أسلافنا الأوائل وما خلفوه من ابتكارات فى هذا المجال من أبحاث نظرية ومنهجية، كانت وما تزال موضع تقدير علماء اللغات الأجانب وإعجابهم المشوب بالدهشة.

إن الهجمة الحالية على اللغة العربية، واستهداف مراكز العناية بها، وتدهور وضعها فى المدارس والجامعات، لا يحتاج إلى دليل، والمتوقع أن تزداد الهجمة شراسة فى ظل العولمة الثقافية والاقتصادية، وتوجه العائلات الكبيرة والميسورة إلى تعليم أبنائها اللغات الأجنبية، التى تضمن لهم مستقبلا اقتصاديا وثقافيا يتوافق ويتناغم مع شروط العولمة ومتطلباتها الكونية.

وإصلاح النحو – شأن محاولات الإصلاح الأخرى لا يمكن أن يأتى من الخارج، وإنما يأتى من داخل اللغة العربية نفسها، وتنطوى هذه العملية على إسهام العلماء الذين يحترمون هذه اللغة ويحرصون على أن تكون الركيزة الأساسية للنهوض الثقافى والإبداعى فى تطويرها. وتقع على المجامع العلمية التى تضم علماء وأكاديميين من مختلف التخصصات مهمة هذا الإصلاح، حتى لا يتولاها قوم لا دراية لهم باللغة وقواعدها ومعانيها ولا بنوع التحديات التى تتعرض لها أو الإشكاليات التى يعيشها أبناؤها فى دور التعليم وأدوار العمل. إذ كيف يمكن لإنسان أن يعطى أمته من خارج لغته، وقد أثبتت الوقائع الراهنة أن الذين يجيدون اللغات الأجنبية من دون أن يجيدوا لغتهم الأم يعيشون فى أوطانهم علميا وعمليا كالغرباء، عاجزين عن خلق قنوات للتوصيل، ونقل ما اكتسبوه من تجارب داخل اللغة الأجنبية. وإصلاح النحو العربى أو تجديده أو تيسير قواعده فى العصر الحديث ليس أمرا عسيرا ولا هو دعوة إلى تحطيم ثوابته.

إن اللغة – أية لغة – ليست بديلا عن المعرفة، لكنها بالضرورة وسيلة الوصول إلى هذه المعرفة، ومن شأنها أن تلعب الدوْر الجوهرى فى بلورة المعارف وفى تحديد سماتها.

إن تعلم اللغة الأجنبية يعد بلا ريب مغنما لا يستهان بقيمته، غير أن غلبة الاهتمام به والتكريس من أجله يكون على حساب اللغة الأم، ويؤدى إلى إضعافها، وإلى تقليل البراعة فى استخدامها، وإن اختلف مدى هذا الضعف بحسب اختلاف السن والخلفية الثقافية التى يمتلكها الفرد وبحسب نوعية الممارسة لهذه اللغة ... إن غلبة الاهتمام باللغات الأجنبية، ولا سيما فى مجالات تعليم العلوم، أدت فيما يبدو إلى تقليص حركة التأليف والتصنيف باللغة الأولى وإلى الاكتفاء أحيانا بما يستورد من الكتب والمقررات والمراجع المدونة باللغات الأجنبية، التى تعتمد التدريس والتعويل عليها، وقد زاد ذلك بدوره من غلبة استخدام المصطلحات والتعبيرات الأجنبية، وساعد فى سريانها على الألسن وتسربها إلى اللغة فى أوساط المؤسسات المذكورة فقلل بذلك فرص استعمال مقابلاتها العربية، ومن فرص استخدام اللغة وإنعاش مخزونها اللفظى عن طريق القراءة والكتابة بوجه عام (أحمد المعتوق، ١٩٩٦م).

اللغة العربية فى الجامعات العربية

لاشك أن محنة اللغة العربية مع الجامعات تبدو أكثر سوادا وقتامة، فالجامعات فى نهاية الأمر ليست سوى مؤسسات علمية عليا لاستقبال الطلاب القادمين إليها من التعليم العام بكل تناقضاته وعيوبه، وكنت بعد خبرة طويلة فى التدريس الجامعى، ومتابعة تدهور التعليم العام أردد بوضوح وعلى مسمع المسئولين فى بلادى، أن على الجامعات على كثرتها أن تكتب على أبوابها الرئيسة السؤال الآتى: «وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟!» والعطار هنا، هو الجامعات المؤمل فيها أن ترتقى بالتعليم، وأن تعد الأجيال للمتغيرات المتلاحقة، أما الدهر المفسد، فهو التعليم العام الذى عجز عن إعداد أبنائه للمشروع الكبير، مشروع النهوض بالأمة، والخروج بها من محنة المراوحة فى مكان البحث عن المعين الآخر.

وما يثير الأسى، بل البكاء أن مسئولين وأساتذة فى الجامعات العربية يتندرون على تعليم طالب الطب اللغة العربية ويتساءلون بشىء من السذاجة إن لم نقل بشىء من الوقاحة وما الذى «يفيد طالب الطب من نحو سيبويه؟!» ومن المؤسف والمحزن معا أن نبرهن على ما نذهب إليه بما يفعله الكيان الإسرائيلى، الذى جعل من العبرية الميتة لغة الخطاب والدرس فى المدارس والجامعات والمؤسسات من دون أن يهمل العناية باللغات الأخرى، أو يجعلها

بديلا عن لغته الميتة الهشة التى كان الزمن قد أكل عليها وشرب، ولم تعد صالحة سوى لاسترجاع الأحزان التوراتية.

وما ينبغى التأكيد عليه أنه لا نمو ولا ازدهار فى الاقتصاد، والصناعة، والزراعة، ما لم تتم الاستجابة لدعوة إصلاح التعليم منذ مراحله الأولى، وحتى مستوياته العالية، وهى دعوة داخلية وطنية قومية دينية لا يصح أن تكون لها علاقة من قريب أو بعيد بالدعوات المشبوهة القادمة من الخارج، تلك الدعوات الهادفة إلى إنجاح مشروع العولمة، وفرض مزيد من الإحباطات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ودعوتنا هذه لا ترى مانعا من الاستفادة مما وصل إليه الآخرون، من تطوير فى المناهج والأساليب، والأدوات، التى مكنت لهم النجاح فى نظامهم التعليمى، وصارت معايير علمية كونية، ولضرورات لغوية خاصة، تهدف إلى تأكيد أهمية تيسير قواعد النحو العربى.

المصطلحات العلميــة★

المصطلح العلمى هو الكلمة أو العبارة الاصطلاحية فى أى فرع من فروع العلم، وتبدأ يسيرة محدودة، ثم تأخذ فى النمو والتكاثر، حتى تبلغ الآلاف فى أى علم، وبذلك تفصله عن اللغتين اليومية والأدبية، إذ اللفظة والعبارة فيهما حرة لا تتقيد بحقائق معينة. وللعلماء الحرية الكاملة فى وضعها، ومن قديم يقول أسلافنا: لا مشاحة أى لا جدال فى الاصطلاح.

المصطلح العربى

لم يكن للعرب فى الجاهلية مصطلحات علمية، إذ كانوا لا يزالون فى طور البداوة والحياة الفطرية، فلما نزل الإسلام فى ديارهم رأوا فيه شريعة إلهية ذات فروض لا عهد لهم بها، مثل الصلاة: الفريضة المكتوبة على المسلم، وأصل معناها الدعاء، وانتقلت إلى الفريضة المعروفة شرعًا، ومثلها الصوم ومعناه اللغوى الإمساك، فدل شرعًا على الإمساك عن الطعام من مطلع الفجر إلى غروب الشمس، ومثل الزكاة، وكانت دالة على النماء فأصبحت دالة شرعًا على ما يعطيه من المال صاحبه الفقراء والمساكين، ومثل الحج كان دالا على معنى القصد، فأصبح دالا فى الشرع على قصد الكعبة فى أشهر معلومات بإحرام وطواف ونسك معروف. وتبع هذه الفرائض فروض وضعت لها مصطلحات مثل ما يتبع الصلاة من الوضوء والتيمم والركوع والقيام والسجود. ولم يحدث ذلك فى العبادات وحدها، فقد حدث فى المعاملات وفى كثير من فروع الشريعة والفقه. وأخذت علوم كثيرة تنشأ حول القرآن مثل علم القراءات ومصطلحاته، ومثل علوم اللغة والنحو وعلوم البلاغة.

وأخذ العقل العربى يتلقى فى القرن الثانى الهجرى علوم الأمم الأجنبية، من طبيعة وكيمياء ورياضيات، وحيوان ونبات وطب، وصيدلة وزراعة وهندسة، وفلسفة ومنطق، وأخذت الدولة العباسية تنفق – منذ القرن الثانى الهجرى – نفقات كثيرة على المترجمين إلى العربية من السريان واليونان والفرس والهنود. ولم يلبث هارون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة للنهوض بالترجمة، وجعل أمينها يوحنا بن ماسويه، وجعل كتابا حاذقين يكتبون بين يديه.

★ د. شوقى ضيف، رئيس مجمع اللغة العربية، مؤتمر مجمع اللغة العربية، الدورة السبعون (٢٠٠٢–٢٠٠٤م).

وتحولت هذه الدار فى عهد المأمون إلى مؤسسة علمية كبيرة، واختار لها أعظم المترجمين: حنين بن إسحاق، وأعظم الرياضيين الخوارزمى مخترع علم الجبر. وازدهرت حينئذ الحركتان: العلمية والفلسفية فى القرون التالية حتى القرن السابع الهجرى.

وعادت الحركة العلمية إلى الازدهار منذ عصر محمد على وإرساله البعوث إلى فرنسا، وقامت نهضة علمية كبيرة فى القرن التاسع عشر، وما لبث الإنجليز أن احتلوا مصر سنة ١٨٨٢م وعملوا على إضعاف حركتها العلمية، وقاومهم المصريون وأنشئوا الجامعة المصرية وبدأت أهلية سنة ١٩٠٨م ثم تحولت حكومية سنة ١٩٢٥م، وواكبها نشاط فى وضع المصطلحات العلمية، وصدور بعض المعاجم مثل معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى سنة ١٩٢٦م جمع فيه كل ما عرف من أسماء النباتات فى المؤلفات العربية، وصدر فى نفس العام قاموس أو معجم الدكتور محمد شرف فى العلوم الطبية والطبيعة، ويضع فيه المقابلات العربية للمصطلحات الأجنبية، ويضم أكثر من أربعين ألف مصطلح علمى أجنبى.

وقبل وضع هذين المعجمين ظهرت دعوات لقيام مجمع لغوى، وتسمى أولاها دعوة مجمع البكرى سنة ١٨٨٢م، ولم يكتب لها تحقيق ذلك، وفى سنة ١٩٠٨م نادت بذلك دعوة فى نادى دار العلوم، ولم تحظ بالبقاء طويلا، ومثلها دعوة دار الكتب سنة ١٩١٦م لمديرها حينئذ أحمد لطفى السيد، إذ فكر فى تكوين مجمع لغوى، واقترح أن يكون أهليًا لا حكوميًا، وتألف من ثمانية وعشرين عضوا: خمسة وعشرين من العرب وثلاثة أعضاء من إيران والسريان والعبرانيين، ورأسه الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر وقرر بعض ألفاظ فى مسميات الحضارة والحياة العامة ولم يكتب لها البقاء، وقامت الثورة المصرية سنة ١٩١٩م وانفض هذا المجمع.

صَوْغ المجمع المصطلحات العلمية

تختلف اللغات فى مدى قابليتها ومرونتها لاستخدام المصطلحات العلمية، ومرونة اللغة العربية ومدى قابليتها لتلك المصطلحات لا تكاد تحد، وقد استطاعت – بعد الفتوح الإسلامية – أن تتحول سريعًا من لغة بدوية إلى لغة متحضرة، كما استطاعت أن تتحول سريعًا إلى لغة علمية، وازدهر فيها العلم وفروعه فى العصر العباسى ازدهارًا عظيمًا بفضل مرونتها الهائلة، ومرونة أهلها لها تميزها بالسعة فى اشتقاقاتها سعة لم تعرف للغة سواها، إذ تزخر بصيغ شتى للأسماء كاسم الزمان واسم المكان والمصدر الميمى واسم المصدر واسم الآلة، وأسماء الحرف والألوان وأسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة، سوى السيول التي لا حصر لها من الأسماء العربية، حتى قال اللغويون إن أصولها ترجع إلى

سبعين ألف مادة. وهذه المادة بل المواد الغنية فى الأسماء تقترن بها مواد غنية فى الأفعال، فكل فعل ثلاثى يمكن أن يصبح رباعيًا بصيغ أفعل وفعَّل وفاعل، أو خماسيًا بصيغ انفعل وافتعل وتفعّل وتفاعل وافعلّ، أو سداسيا بصيغ استفعل وافعوّل وافْعوعل وبالمثل كل فعل رباعى يمكن أن يصبح خماسيا بصيغة تفعلل أو سداسيا بصيغة افعللّ وافعلل.

واستطاعت العربية فى العصر العباسى بهذه السعة الهائلة فى اشتقاق الأسماء والأفعال أن تتحول سريعًا من لغة البداوة ومعارفها السطحية إلى لغة علمية، وبلغت فيها بالعلم إلى عصر ذهبى لا يقل مجدا عن عصر العلم المجيد للغة اليونانية، إن لم يفقه مجدا وازدهارًا. ووضع فى العربية حينئذ كثير من المصطلحات فى مختلف العلوم اللغوية وغيرها، واستعانوا فى ذلك بطبيعة اللغة الاشتقاقية، يستمدون منها ما يريدون من أسماء وألفاظ اصطلاحية. وفتح علماء العرب الأبواب واسعة لتعريب كثير من المصطلحات العلمية، عند الإغريق وغيرهم كالفرس والسريان، ولم يجدوا حرجا من الإسراف فى ذلك. واستقر فى نفوس المجمعيين وجوب الوصل بين المصطلحات العلمية القديمة للأسلاف ومصطلحات العلم الحديثة، وفى الدورة الأولى تقرر تفضيل المصطلحات العلمية القديمة فى الصناعات وغيرها على المصطلحات الحديثة، واتسع نقاش المجمعيين - منذ الدورة الأولى - فى أربعة موضوعات تتصل بصوغ المصطلحات العلمية الحديثة. وهى النحت والتعريب والتوليد والترجمة، ونتحدث بكلمات مجملة عن كل منها.

النحت

النحت نوع من الاختصار فى التعبير، وهو صوغ كلمة من كلمتين أو أكثر، ونحت الأسلاف صيغا كثيرة، فقالوا سبحل من سبحان الله، وحمدل من الحمد لله، وبسمل من بسم الله، وحوقل من: لا حول ولا قوة إلا بالله، وقالوا الفنقلة من قولهم: فإن قيل، وقالوا الفذلكة من قولهم فلذلك كذا، وقالوا فى النسب إلى قبيلة عبد شمس: عبشمى، وإلى حضر موت: حضرمى.

واختلف علماؤنا السابقون فى النحت أهو سماعى أو قياسى؟، وترى الكثرة أنه سماعى،غير أن بعض المعاصرين أجازوه قائلين إن ما فيه من ثقل يخف بكثرة الاستعمال على الآذان. وارتضى المجمع استعماله فى المصطلحات وخاصة حين تلجئ إليه الضرورة العلمية.

المعرب

عنى المجمع بتعريب المصطلحات الأجنبية منذ دورته الأولى، وكان أول قرار له فيه إجازته

على طريقة العرب فى تعريبهم، وظلوا يناقشون موضوع التعريب فى الدورات التالية، ويتخذون فيه القرارات، من ذلك قرار النطق بالمعرب قديمًا من الأعلام كما عربها نصارى المشرق، من ذلك بطرس فى (Peter) وبقطر فى (Victor) وبولس فى (Paul) ويعقوب فى (Jecob) وأيوب فى .(Job) ويحسن مراجعة القواعد التى أقرها المجمع فى كتابة الأعلام الأجنبية فى كتاب «مجموعة القرارات العلمية».

وواضح من أول قرار للمجمع فى المعرب، أنه أباح تعريب الألفاظ الأجنبية إذا لم يكن لها نظير فى العربية عند الضرورة، سواء أكان اللفظ على أوزان العرب أم لم يكن على أوزانهم، وقرر سيبويه ذلك فى المعرب قديما، وتشدد ابن برى اللغوى المصرى فى ذلك بالقرن السادس الهجرى إذ رأى فيما خالف أوزان العرب أن تلتزم فيه جميع حركاته.

واتضح لعلماء العرب أن ما فى العلوم من المصطلحات الغربية العلمية القديمة قليل وأن مصطلحات العلوم الغربية الحديثة تعد بالآلاف، فضلا عن أنها تتجدد باستمرار، فإن نحن لم نتوسع فى قبولها أغلقنا بأيدينا أبوابًا واسعة من تعريب المصطلحات العلمية الغربية الحديثة، مع ملاحظة أن لغة العلم ليست لغة محلية بل هى لغة عالمية، وفى ذلك ما يسوغ للمجمع فتح باب التعريب ودعا ذلك العربية من بعض الوجوه إلى الاستعانة بلغتين قديمتين هما اللاتينية واليونانية فاتخذت العربية كثيرًا من ألفاظهما مصطلحات علمية دقيقة لها حين توجد الحاجة العلمية الملحة.

التوليـــد

المراد بالتوليد هنا اطراد قواعد الاشتقاق على المصطلحات العلمية الأجنبية المعربة، وعد الأسلاف ذلك من باب التوليد، وأباحه المجمع بشرطين: إذا أساغه الذوق، واتضحت حاجة المجمع إليه، ومما أجازه المجمع من ذلك:

١) بستر بسترة، والفعل مأخوذ من بستور صاحب طريقة خاصة فى التعقيم، ومنه يقال لبن مبستر.

٢) بلور بلورة من البلور المعرب قديما.

٣) تلفن من كلمة التليفون المعربة.

٤) فبرك: من الفابريكة، والفعل يدل على صنع الشىء بآلة الفابريكة.

٥) كهرب كهربة من الكهرباء المعربة.

٦) تلفز إذا تحدث فى التليفزيون المعرب.

٧) أكسد أكسدة فهو مؤكسد بكسر السين، ومؤكسد بفتح السين، وأكسد تأكسدًا من الأكسدة المعربة.

ويطبق ذلك العلميون فى مصطلحات علمية معربة كثيرة.

الترجمـة

هى الوسيلة الغالبة فى صوغ المصطلحات العلمية الأجنبية، ودائمـًا تكب اللجان العلمية فى المجمع على البحث عن ألفاظ عربية تصلح أن تكون أسماء تطلق على تلك المصطلحات. ويغلب أن يؤدى المصطلح الجديد فى العربية بلفظ مفرد، حتى يصبح علمـًا واضحـًا عليه، شأن العربية فيما وضع فيها من مصطلحات علمية قديما. ويمكن الاستعانة فى الترجمة بالمبادئ والأسس التى قدمها الأستاذ الدكتور المرحوم محمود مختار إلى المجمع نهجـًا علميـًا فى الترجمة ومما جاء فيه.

أولا: وضع المقابل الإنجليزى أو الفرنسى بجوار المصطلح العربى المقترح، مع الاستضاءة بالأصل اللاتينى أو الإغريقى إن وجد، مع مراعاة أن يؤدى المصطلح العربى بوضوح مدلول المصطلح الأجنبى.

ثانيا: إيثار الألفاظ غير الشائعة لأداء المصطلحات العلمية، دون أى لبس مثل تفضيل كلمة امتزاز على كلمة امتصاص، ولذلك لجأ الغربيون فى المصطلحات العلمية إلى استخدام كلمات ترجع إلى أصول لاتينية أو إغريقيـة.

ثالثا: التعريب عند الحاجة الملحة، وذلك إذا كان المصطلح يعود إلى أصل لاتينى أو يونانى، أو شاع استعماله دوليـًا، أو كان منسوبـًا إلى علم عرف به بين العلماء مثل ديناميكا Dynamics ونيوترون Neutron إلى غير ذلك.

رابعا: عد المصطلح المعرب عربيـًا، وإخضاعه لقواعد اللغة فى الاشتقاق وغيره إن أمكن، فمثلا كلمة أيون Ion المعربة تثنى، وتجمع فيقال أيونان وأيونات، ويوصف بها فيقال جهد أيونى،ويشتق منها الفعلان: أين وتأين، واسما الفاعل والمفعول، فيقال غاز مؤين وأشعة مؤينة. وينحت من الكلمة حين تضاف إلى كلمة أخرى فيقال مثلا: كايتون (أى أيون كاثودى).

خامسا: صوغ لفظة مفردة للمصطلح ما أمكن، إذ العربية تميل فى المصطلحات إلى الألفاظ

المفردة، ويساعد ذلك على تسهيل الاشتقاق والنسبة والإضافة، ولذلك يفضل التعريب أحيانًا على الترجمة، فمثل كلمة ترمومتر المعربة أخف من ترجمتها بمثل مقياس درجة الحرارة.

سادسا: توحيد المصطلحات المشتركة، عربية أو معربة ذات المعنى الواحد بين فروع العلم المختلفة مثل نترون وإلكترون المتداولين فى كثير من العلوم.

سابعا: تبين الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة والمتقاربة المعنى مثل كلمتى المقاومة والممانعة.

ثامنا: يعرف المصطلح العلمى تعريفًا بينًا واضحًا. وتكتب الأعلام الأجنبية والمصطلح المعرب بالصورة التى ينطقان بها فى لغتيهما.

تاسعا: تكتب المصطلحات الأجنبية فى المعاجم مبدوءة بحروف صغيرة إن لم تكن أعلامًا. ولا يعرب المصطلح العربى بالألف واللام تيسيرًا للكشف عليه فى المعجم.

توحيد المصطلحات العلمية العربية

كان من أهم الأسباب فى ازدهار حركتنا العلمية قديمًا توحيد المصطلحات العلمية فى أوطاننا العربية، مما هيأ لقيام وحدة علمية بين علماء العرب فى جميع ديارهم وأقطارهم، من أقاصى إيران إلى أقاصى الأندلس، ولنضرب مثلا بعلم الطب، فمصطلحاته عند ابن سينا فى بخارى أو غيرها من مدن إيران التى نزلها هى نفسها مصطلحات الأطباء فى جميع بلدان العالم العربى، لا فرق فيها بين بلد فى الشرق وبلد فى الغرب، ولا بين عالم فى الأندلس وعالم فى مصر أو فى العراق. وأتاح ذلك للعلوم العربية نهضة كبيرة، إذ تعاون فى كل بلد عربى علماؤه مع جميع العلماء من العرب فى كل مكان، والعلم يخطو دائمًا إلى الأمام بجهود العلماء المشتركة، وكثيرًا ما كان يحدث رحيل عالم من وطن إلى وطن عالم عربى آخر سمع به ليحاوره فى آرائه العلمية على نحو ما نعرف عن ابن بطلان العراقى الطبيب ورحيله إلى مصر، ليلقى طبيبها ابن رضوان، ويحاوره فى بعض آرائه الطبية وظل بالقاهرة ثلاث سنوات يحاوره فيها ويناقشه فى مشكلات الطب وأمراضه وأدوائه. ولو أن مصطلحات علم الطب لم تكن موحدة فى زمنهما ما استطاع هذان الطبيبان العراقى والمصرى التفاهم، وهو – دون ريب – ثمرة الوحدة العلمية فى الطب التى كانت قائمة حينذاك بين علماء فى الطب وغير الطب.

وهى وحدة يفتقدها العرب اليوم، إذ لا تجد قطرين عربيين يتفقان على مصطلحات علمية فى أى علم، ومن أهم الأسباب فى ذلك ما كان من الاحتلال الإنجليزى والفرنسى ديارنا.

وسيطرة الدولتين على التعليم بلغتيهما فى البلدان التابعة لكل منهما، فاختلفت الصيغ العلمية فى البلدان المحتلة بالإنجليز عما يقابلها من الصيغ فى البلدان العربية المحتلة بالفرنسيين، وأدى ذلك إلى بلبلة واسعة فى نطق المصطلحات العلمية بالبلدان العربية.

ومن الحق أن المجمع اللغوى القاهرى يتخذ فكرة توحيد المصطلحات العلمية فى العالم العربى شعاراً له، حتى يعيد للعرب وحدتهم العلمية، ويتخذ لذلك وسائل كثيرة منذ إنشائه، منها أنه راعى منذ تأسيسه أن يضم إلى أعضائه المصريين العشرة المؤسسين له خمسة من الأعضاء اللغويين فى العراق وسوريا ولبنان وتونس، واتسع المجمع بالفكرة بعد ذلك فضم إليه أعضاء لغويين من المغرب والجزائر وليبيا وفلسطين والأردن والسعودية واليمن، وهم مع رئيس المجمع القاهرى وأمينه العام ورؤساء المجامع اللغوية العربية يكونون اتحاد المجامع اللغوية، وبعد انعقاد مؤتمر المجمع مباشرة ينعقد اتحاد المجامع اللغوية، ويدرس ما يعرض عليه من الاقتراحات والأعمال اللغوية العلمية، ابتغاء النهوض بها فى العلوم المعاصرة فى وحدة علمية، ولن يتم ذلك إلا إذا توحدت المصطلحات العلمية فى جميع أقطارنا العربية، كما كان الشأن عند أسلافنا، فمصطلحات علم مثل الطب فى كتاب القانون لابن سينا هى نفسها مصطلحاته فى مؤلفات مهذب الدين الدخوار، وابن القف فى دمشق ومؤلفات ابن رضوان وابن النفيس فى القاهرة ومؤلفات أحمد الجزار فى بيت الحكمة بتونس، ومؤلفات الزهراوى وابن رشد فى قرطبة. وهو ما نأمل أن يتم ذلك فى عصرنا لمجامعنا اللغوية.

وينشر مؤتمر المجمع القاهرى سنوياً قراراته ومصطلحاته ويرسلها إلى الهيئات العلمية فى الأقطار العربية، ويتقبلونها تقبلا حسناً ويستظهرها بعض علمائهم فى معاجمهم العامة على نحو ما يرى فى معجم المورد اللبنانى. وكل ذلك يدل بوضوح على أن ما تأمله البلاد العربية من تعريب التعليم الجامعى فى عصرنا يوشك أن يتحقق قريباً.

مواقف★

كنت ضمن الوفد المصرى الذى ذهب إلى اليونسكو يشارك فى قضية التعريب، وكانت د. سهير القلماوى رئيس الوفد، وكنت أنا الوفد. واختلفنا من أول لحظة على معنى الكلمات المشتقة من كلمة (فرد) فردية وفردانية وتفردية وأفرادية، والمذهب الفردى. وعدنا كما ذهبنا دون أن نتفق على معنى، أو مرادف، لا عندنا ولا عند الأشقاء العرب.

وقد استأنف د. محمود المناوى، أستاذ أمراض النساء بقصر العينى، فى كتاب جاد ضخم شاق بعنوان (أزمة التعريب) فى ٥٠٠ صفحة. وليس د. المناوى أحسن حالا، فهو يتراوح بين اليأس والأمل. يقول فى أول الكتاب، عن المؤتمرات المتكررة لجامعة الدول العربية والمجامع العربية والأهلية إنهم يجتمعون كل عام يذرفون الدمع كأنهم أمام (حائط المبكى).ولا يفعلون شيئا كأنهم ينتظرون صلاح الدين لينقذهم مما هم فيه . وسوف ينتظرون طويلا.

أما تأليف هذا الكتاب فلماذا؟ يقول د. المناوى فى نهاية الكتاب: إن قضية التعريب فى أزمة، وإن غاياتها فى أزمة أشد من القضية. وقد أراد أن يحرك الماء الراكد. وقد هزه ولكنه لم يحركه، فكأن شيئا لم يكن، وكأنه ما قال، ولكنه يهون علينا هذه الملحمة اليائسة بقصائد بديعة للشعراء الأطباء: إبراهيم ناجى وحسن على إبراهيم وعبد الرءوف حسن والشاعر الكبير على الجارم.. يقول إبراهيم ناجى فى البحر الميت:

عجبت لمن يسمى ذاك ميتا — وقلت يمين ربى ذا افتئات
يكاد المرء يشربه سرورا — كأن الملح فيه صار عذبا

وقال د. عبد الرءوف حسن

إلى القدس الشريف وفى حماه — نزلنا مكرمين معززين
غدوتم أهلنا حقا فكونوا — على ثقة بأنا عائدون

وقد ألقى د. حسن على إبراهيم قصيدته الرائعة فى نهج البردة النبوية فى المؤتمر الطبى سنة ١٩٧٩م.

★ أ. أنيس منصور، جريدة الأهرام، ٧ من يناير ٢٠٠٤م.

ثم ذلك الحوار البليغ الذى يتخيله الشاعر الكبير حسن إبراهيم بين المتنبى وأبى العلاء والبحترى وأبى تمام.

ما ذبت شوقا لجيران بذى سلم — ولا أرقت بذكر البان والعلم
وما أبحت لريم القاع سفك دمى — فى الأشهر الحل أو فى الأشهر الحرم
سألتك العفو ربى إننى بشر — جم الذنوب وأنت الواسع الكرم

ومهما تشعبت وتعقدت وتعملقت المشكلات، فأنت أمام باحث جاد أصدر كتابا عظيم الاحترام!

مواقف*

سألت عددا من الأصدقاء فى إسرائيل: أنتم تعلمون أولادكم أية لغة الآن؟! الجواب: اللغة العربية، هى اللغة الثانية أو هى اللغة الثالثة. المهم أن يتكلموا العربية، فإسرائيل دولة شرق أوسطية. وأنهم يجب أن يتعايشوا لا أن يقفلوا الباب والشباك فى وجه كل ما هو عربى، فلابد من السلام مع العرب فى السنوات العشر القادمة أو فى هذا القرن، لابد من السلام لتكون حياة، ولا سلام بغير عدل فيأخذ كل ذى حق حقه وكفانا جوعا وخرابا ودما!

وقد قرأت استفتاء لصحيفة (الاندبندانت) الإنجليزية عن الإقبال على دراسة الشرق الأوسط واللغة العربية واللهجات أيضا.

فجاء فى الاستفتاء أن عددا متزايدا من الطلبة اتجهوا إلى دراسة الشرق الأوسط، وأنهم تحولوا فى بريطانيا عن الاهتمام بأمريكا وآدابها وتاريخها، واتجهوا تماما إلى الشرق العربى والشرق الأوسط الأكبر حتى إيران وباكستان وأفغانستان.

وجاء فى الاستفتاء أيضا أن معاهد فى بريطانيا اعتذرت عن عدم قبول عدد من الطلبة المتفوقين، فلم تعد هناك أماكن، وأعلنت هذه المعاهد المتخصصة عن حاجتها إلى أساتذة كبار ومستشرقين وعلماء وأدباء عرب.

ونحن أولى من كل هؤلاء، فحاجتنا إلى أن نعرف عالمنا العربى أكبر وأكثر ضرورة، بل إن حاجتنا إلى أن نعرف بلادنا أيضا.

والذى نراه على التليفزيون المصرى يوجع القلب، فقد اعترف شباب من الجيزة بأنهم لم يروا الهرم، «وهوه حيروح فين واحنا وراه والزمن طويل»، وهى نكتة سخيفة تدل على أن صاحبها لا يستحيى من جهله! ويكفى أن تسمع طالبا جامعيا يقول إن (طابا) مساحتها ستون كيلو مترا أو من يقول: لا بل عشرون كيلو مترا، تصور مع أن مساحتها أقل من كيلو متر مربع!

---

* أ. أنيس منصور، جريدة الأهرام، ١٥ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

المناوى والتعريب *

أما المناوى فهو الأستاذ الدكتور محمود فوزى المناوى، أستاذ أمراض النساء والتوليد بطب قصر العينى، وأمين عام الجمعية الطبية المصرية، وعضو مجمع اللغة العربية، والحاصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الطبية، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، والذى تبلغ أبحاثه ما يقرب من ستين بحثا، منشورا فى المجلات الدولية، كما أن له سبعة مؤلفات يدور بعضها عن تاريخ الطب والأطباء فى مصر قديما وحديثا.

وأما التعريب فهو قضية القضايا التى مازالت الجامعات المصرية تعانيها، ولا تستطيع أن تجد لها حلا، وإذا وجدت حلا فإنها لا تجرؤ على تطبيقه، نتيجة ما استقر من أوضاع، أصبحت مع الأسف جزءا من العادات السائدة التى لا يفكر فيها أحد، مع أن الوقوف على نشأتها يملأ النفس حسرة ومرارة.

وتتلخص القصة فيما يلى: عندما أنشئت المدرسة الطبية المصرية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر قرر «كلوت بك» – وهو الفرنسى – أن يكون تعليم الطب باللغة العربية، حيث إن « التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطين العلم أو تعميم نفعه» لذلك فقد أتى بالمترجمين ليكسروا حاجز اللغة.

وعندما تخرج الطلاب المصريون أكملوا دراساتهم العليا فى فرنسا، فحققوا تميزا أذهل أساتذتهم هناك، واقتحموا ساحات العلم وألفوا وترجموا ونبغ منهم الكثيرون.

لكن الحال تبدل عندما وقع الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م ففرض هيمنته على البلاد، وقام بتقليص التعليم، ومحاولة طمس الهوية المصرية – العربية ففرض الإنجليزية لغة تدريس فى المدارس، الأمر الذى أدى إلى انتكاسة فى المجال الطبى بخاصة، وسائر مجالات المعرفة بعامة.

ثم بدأت دعوات الإصلاح تظهر على يد الإمام محمد عبده، وتلاميذه الذين نادوا بإنشاء مدارس تدرس العلوم باللغة العربية، وتبعه الزعيم سعد زغلول الذى فرض العربية لغة علم وتدريس فى المراحل التى تسبق التعليم العالى.

---

* د. حامد طاهر، جريدة الأخبار، ٢٤ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

ولما أنشئت الجامعة الأهلية «القاهرة الآن» كان من أهم قراراتها أن تكون اللغة العربية هى لغة التدريس بها، إلا أن الكليات العملية استثنيت من القرار لمدة عشر سنوات، حتى تتوافر فيها الكتب والمراجع والقواميس.. إلا أن عشر السنوات أصبحت مائة سنة، ولم يتغير شيء، وفزع لهذا الأمر وانبرى لمقاومة آثاره السلبية على هويتنا السيد عبد الله النديم، وحفنى ناصف، ومحمد توفيق البكرى ومجموعة من أساتذة مدرسة قصر العينى مثل عيسى باشا حمدى ومحمد شكرى باشا ثم على باشا إبراهيم وزملائه، الذين قادوا معركة التعريب فى النصف الأول من القرن العشرين.

هذا جانب من التاريخ الذى يرويه الدكتور المناوى فى كتابه الجديد «أزمة التعريب» والذى يقع فى حوالى خمسمائة صفحة، مزودة بالوثائق ومحاضر جلسات المؤتمرات المهمة التى عقدت لمناقشة تعريب العلوم، وصور الرواد الذين ارتفعت أصواتهم للدفاع عن اللغة العربية، وأنها لغة قادرة على استيعاب منجزات العلوم، وعدم التقصير فى نقل محتوياتها ودقائقها إلى المتعلمين، سواء كانوا فى مرحلة التعليم الأساسى أو فى المرحلة الجامعية.

ويؤمن الدكتور المناوى مثل من سبقوه من الرواد، بأن لغتنا العربية إذا كانت قد نجحت فى فترة ازدهار الحضارة العربية والإسلامية القديمة فى استيعاب ونقل الفلسفة والرياضيات والعلوم والطب والفلك، .. إلخ فإنها مازالت قادرة أيضا على استيعاب ونقل علوم الحاسبات والبرمجيات، والهندسة الوراثية، والفيزياء النووية.. إلخ.

أرجو ألا يكون الكتاب صرخة فى واد، وأتمنى أن يكون جرس إنذار ينبه أصحاب دعوات اللغات الأجنبية إلى أهمية اللغة العربية. ومن المؤكد أن حرصنا على أن «يتقن» أبناؤنا اللغة العربية لا يقل أبدا عن حرصنا على أن «يجيدوا» لغة أجنبية أو أكثر.

أهمية التعريب الجزئى*

نشرت مجلة «العربى» فى العدد (٥٤٦) مايو ٢٠٠٤م مقالا بعنوان «أى تعريب نريد؟!» لرئيس التحرير د. سليمان العسكرى يعالج موضوعًا خطيرًا خصوصًا على مستوى التعليم الجامعى فى الوطن العربى عمومًا.

وأنا أكتب هذه الملاحظات، فإنى انطلق من خلفية عملية كونى: مدرسًا جامعيًا فى كلية الهندسة – جامعة الموصل لمادتى الميكانيكى الهندسى ومقاومة المواد، لأكثر من عشرين عامًا، بالإضافة إلى أننى أحمل الماجستير من جامعة نيوكاسل – المملكة المتحدة، وقد ترجمت ثلاثة كتب فى مجال اختصاصى.

إن المقال كان محصورًا عمومًا فى تعريب الطب وهو أصعب المجالات خوضًا دون باقى العلوم ولا يمكن اتخاذه نموذجًا محوريًا للدوران حوله.

النقطة الثانية: إن مثل هذه المسائل على ما أعتقد يجب أن تناقش من وجهة نظر إحصائية – ميدانية – تطبيقية.

كما أن النزول لأرض الواقع يجب أن يفرق بين العلوم ومن ثم تقسيمها إلى درجات حسب تقبلها للتعريب والفائدة التى يمكن جنيها من التعريب أو من عدمه.

هذا الواقع يجب أن يفرق بين المستويات المتقبلة للتعريب من حيث الهدف – فالدراسات الأولية فى معظم العلوم الزراعية والعلمية والهندسية لا يمكن أن تستغنى عن دراسة العلوم الأساسية للاختصاص المعنى باللغة العربية، لأن غاية هذه الدراسات إعداد مهندس أو زراعى أو كيميائى ... الخ، يكون قد استوعب أساسيات اختصاصه، مع الإلمام الجزئى أو اليسير بالمصطلحات الإنجليزية لذلك العلم، بينما طلاب الدراسات العليا فى معظم الاختصاصات لا يمكن أن يستغنوا مطلقًا عن الدراسة باللغة الإنجليزية، وذلك لعمق الفجوة بين البحوث المتواصلة والكتب المتقدمة التى تعالج آخر ما توصل إليه العلم، وعدم استطاعة كل الدول العربية مجتمعة مواكبة هذا التقدم فى الوقت الحاضر.

---

* د. سعد سعيد الديوجى، مجلة العربى، العدد ٥٥١، أكتوبر ٢٠٠٤م.

من هذا المنطلق، فإننى أرى وأنا على يقين نتيجة الممارسة العملية أنه لا مناص من اتباع منهج (التعريب الجزئى) أو (التعريب التكميلى).

هذا المصطلح يعنى بوضوح تام أن تدرس بعض المواد باللغة العربية، وخصوصًا تلك التى تتناول الموضوعات التى تحتاج إلى شرح كثير وتفاصيل جزئية دقيقة بحيث لا ينشغل الطالب معظم وقته فى ترجمة المصطلحات، وينسى ما هو مطلوب منه من فهم، بينما تدرس المواد ذات الطبيعة الرياضية أو الهندسية البحتة باللغة الإنجليزية، وإنما يقتصر التعامل بمعظمه مع الأشكال والأرقام.

هذا فى مجال الهندسة، وقد يكون للمختصين فى مجال الطب أو الحاسبات أو غيرهما من الاختصاصات الدقيقة رأى آخر.

أؤكد هنا أن هذا الكلام ناتج من خلال التعامل مع مئات الطلاب لأكثر من عشرين سنة وبمصادر فى مجال اختصاصى مترجمة ومصادر باللغة الأصلية.

لقد وجد أن صعوبة الدراسة لهذه المواد الهندسية تخففها كون الكتاب المدروس باللغة العربية لا باللغة الإنجليزية خصوصًا إذا كانت الترجمة جيدة، وتصل إلى عقل الطالب بسلامة ويسر.

إن هذه التجربة تدعونا وعلى مستوى العالم العربى عمومًا إلى ممارسة «التعريب الجزئى»، وهى تجربة على ما أعتقد غير فاشلة، تمت ممارستها فى بعض الأقسام الهندسية فى الجامعات العراقية.

إن هذه التجربة تعنى فى بعض جوانبها أن الكتب المترجمة تأخذ طابعًا خاصًا حيث يجرى الإكثار من ذكر المصطلح الإنجليزى (بين قوسين) كلما دعت الضرورة بجانب المصطلح العربى ليتآلف الطالب مع المصطلحين خلال دراسته.

إن تعريب العلوم كلها فى هذه المرحلة من التاريخ العربى عملية فاشلة بكل جوانبها، حيث إن الاحتكاك بالغرب والأخذ منه مسألة حتمية لا نستطيع تجاهلها مطلقًا.

من هنا، فإن انقطاع العراق عن العالم فى السنوات العشرين الأخيرة نتيجة الحروب التى زج النظام السابق البلاد بها وتقوقع الدراسة داخل «أسوار» العراق قد أفرزت فى أحد جوانبها السيئة التى لا تحصى (دكاترة أو حتى أساتذة) لا يحسنون حتى كتابة أسمائهم باللغة الإنجليزية وهو أحد جوانب «التعريب» الشامل لبعض العلوم الصرفة والهندسية.

إن فهم المصطلح العلمى لصاحب الاختصاص أهم بكثير من معرفة من أين جاء هذا المصطلح، أو من أى لغة تم نحته، أو استعارته، ذلك أن هذه المصطلحات مفهومة بين أهل الاختصاص حصرا، وإن أراد شخص من خارج الاختصاص فهمها، فأنا أعتقد أن كل الناس غير المختصين، بمن فيهم الإنجليز والأمريكيون، لا يدركون فهم ما يعنى ذلك المصطلح فى لغتهم الأصلية.

فكلمة «Stress» وهى تترجم إلى العربية بالإجهاد لا يفهمها الإنجليزى غير المختص إلا أنها تعب أو إرهاق، بينما يفهمها المهندس الأمريكى أو العربى على أنها القوة مقسومة على المساحة، وهذا شأن الكثير من المصطلحات العلمية الأخرى.

هذا مثال من بعض المصطلحات التى راودتنى من خلال تجربة عملية معيشة، ومن خلال ترجمة متواضعة لبعض الكتب، والتى تؤكد يومًا بعد يوم أن التدريس المختلط باللغتين العربية والإنجليزية أمر وارد مطلوب، ولا يعتبر خطأ أو تشويهًا للدراسة خصوصًا على مستوى الدراسات الأولية الجامعية، وكذلك فإن التدريس وكتابة الأطروحات الجامعية على مستوى الدراسات العليا باللغة الإنجليزية أمر لا مناص منه، خصوصًا فى مجال العلوم لا فى مجال الإنسانيات، فهذا مجال آخر له وجه آخر.

التعريب تكريس لمبدأ الاستقلالية*

حرصت تونس وهى تقرر تعريب الإدارة والمحيط بوعى واقتدار على التفتح على اللغات الأخرى وتعلمها لتتمكن من النهوض بجدارة بقضايا العلم والتكنولوجيا. وبرز دورها فى هذا التمشى الحريص والمحافظ على لغتنا العربية والمنفتح على اللغات العالمية كجسر يصل بين الحضارات والثقافات. وعملت القيادة السياسية على ترسيخ اللغة العربية وتجذيرها باعتبارها الجسر الأساسى للحوار المتكافئ بين الهويات والخصوصيات، وأدرك التونسيون أن سمو الشعوب واستيعابهم أحدث العلوم والمعرفة المتقدمة لن يتم بمعزل عن التمسك باللغة الوطنية التى هى رمز من رموز حرية الفرد والشعب، وتكريس لانتمائه واستقلاليته.

ولقد ارتبطت المسألة اللغوية فى تونس قبل الاستقلال بالمسألة الوطنية واعتبر التونسيون –على الدوام، وحتى بعد نيل الاستقلال – اللغة العربية أهم مقومات السيادة الوطنية لأهمية دورها فى الحفاظ على هويتهم الأمر الذى جعل المسألة اللغوية محل جذب أيديولوجى وصراع سياسى.

والحقيقة أن هذا الصراع لم يحسم إلا مع فجر التغيير فى السابع من نوفمبر ١٩٨٧م. حيث أعلن الرئيس بن على عن مصالحة مع اللغة الأم للشعب التونسى، وعمل على دعم اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم، وأخذ إصلاح التعليم فى الاعتبار مسألة التعريب كمطلب حضارى متأكد باعتباره مقوما من مقومات الهوية الحضارية والتاريخية للتونسيين واستنادا كذلك لأنه مسألة جوهرية تحقق المصالحة التامة بين المجتمع التونسى وهويته الحضارية والثقافية بعد أن عمد الاستعمار الفرنسى عند احتلال تونس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى إحلال لغته محل اللغة العربية خاصة فى المجالات التعليمية النظامية والإدارية.

وواجه الشعب التونسى ذلك بالرفض متشبثا بثقافته العربية ولغته الأم. ولعبت جامعة الزيتونة دورا عظيما فى الذود عن لغة ديننا الحنيف وانبرى الزيتونيون لأعداء الثقافة

* وزارة الإعلام التونسية، رئيس الجمهورية التونسية جريدة العربى الناصرى، السبت ٢ من نوفمبر ٢٠٠٢م.

العربية يقارعونهم فى كل صعيد، وكان إسهامهم جليلا فى الحفاظ على لغة الأجداد وعلى الشخصية الوطنية التونسية. كما أسهمت مدرسة الصادقية فى هذا النضال. واعترافا بالجميل لهاتين المؤسستين عمل الرئيس (بن على) على رد الاعتبار لهما.

واستعاد الإسلام مع الرئيس بن على مضمون رسالته الإنسانية النبيلة ومجموع قيمه الفاضلة وقد تعددت المناسبات التى تجلت فيها تلك القيم التى بتنا نتعايش معها يوميا تراحما وتضامنا وتكافلا بين أفراد الشعب وكانت القيادة السياسية سباقة إلى إعطاء النموذج والمثال وتعددت المبادرات الرئاسية الكفيلة برعاية الدين الحنيف وشئونه.

تتويج مسيرة التعريب

إن انتصار الرئيس بن على للهوية العربية الإسلامية وانحيازه المطلق لها، هو الذى جعل من تونس مساهما فى صناعة التاريخ والحضارة، ومكنها من تقديم مقاربة للهوية تشكل نموذجا رياديا ينهى حالة الخوف على خصوصياتنا وثوابتنا من هذه العولمة الزاحفة. وقد أعطى الرئيس بن على المثل الصادق والحازم فى مسألة التعريب إذ عمل على أن تكون اللغة العربية، هى لغة كل نشاط أو خطاب يلقيه كان ذلك النشاط أو الخطاب داخليا أم خارجيا. واستكمالا لمسيرة التعريب أصدر الرئيس بن على قرارا يقضى بأن تنتهى قبل ٣١ من ديسمبر سنة ٢٠٠٠م اعتماد أى لغة أجنبية فى المراسلات الموجهة إلى المواطنين التونسيين مع إمكانية مخاطبة الأجانب بلغتهم. وكذلك منع استعمال أى لغة أجنبية فى الأعمال الداخلية الخاصة بالإدارة العمومية والمنشآت الحكومية.

مطلوب استراتيجية متكاملة للتعريب تقوم عليها مؤسسة قومية*

باتت قضية «تعريب العلوم» جوهرية وضرورة قومية وعصرية، لأية محاولة جادة لتحقيق النهضة الحضارية التى نصبو إليها جميعا ... فمن العسير على أمة تتعاطى العلم بلغة أقوام غيرها، أن تبدع وتنتج علما يسهم فى عطائها الحضارى المأمول ... وكذلك فإن تعريب العلوم كما يقول أهل الاختصاص حماية لهويتنا من الانجراف أمام الموجات العولمية الغربية الأمريكية العاتية، التى تريد أن تصبغ العالم بلونها والعقول والأذهان بطابعها حتى تكون تابعة لها باستمرار.

«اللواء الإسلامى» تفتح ملف قضية التعريب وقوفا على أبعادها وسبرا لأغوارها ... بعد ما تمكن د. محمود فوزى المناوى أستاذ أمراض النساء والولادة بكلية طب قصر العينى وعضو مجمع اللغة العربية من إعادة طرح القضية فى أحدث دراساته المتعمقة التى صدرت مؤخرا فى كتاب حمل عنوان «أزمة التعريب».

وفى تقديمه كتاب «أزمة التعريب»، أكد الدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية، أنه ثمرة ناضجة لتجربة المؤلف بوصفه عالما وطبيبا كبيرا، «يريد بها أن يوقظ العقول وأن يشحذ الهمم، كى يسارع أبناء العربية إلى النهوض بلغتهم، ومداواة ما أصابها من ضعف ومعالجة ما تعانيه من علل لا يد لها فيها، وإنما لأن أصحابها لم يوفوها حقها من احترام هى جديرة به، ولم يقوموا على رعايتها بما تستحقه من اهتمام وعناية».

ويرتكز د. محمود المناوى على قضية مهمة هى قضية التعريب التى ينبغى أن يوليها أبناء العرب من علماء ومفكرين جل اهتمامهم، كى يصبح أبناء اللغة العربية بالضرورة قادرين على مواجهة عواصف العولمة وثورة الاتصالات والمعلومات، والعلماء يؤكدون: تعريب العلوم مطلب قومى وضرورة عصرية لتحقيق النهضة.

ومن جانبه يتحدث د. محمود حافظ رئيس المجمع العلمى المصرى ونائب رئيس مجمع اللغة العربية، حول واقع التعليم الجامعى كمدخل أساسى عند الحديث عن عملية التعريب،

---

* أ. حازم عبده، تحقيق، جريدة اللواء الإسلامى، العدد ١١٤٣، الخميس ٢٤ من شوال ١٤٢٤هـ الموافق ١٨ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

ويقول: «متوسط عدد طلاب الجامعات يصل إلى نحو مليون و٢٠٠ ألف طالب، ٣٠٪ منهم يدرسون باللغة الإنجليزية، وهم طلاب الهندسة والطب والصيدلة والأسنان والتمريض والطب البيطرى، والواقع أنه من خلال الدراسة والتجربة، فإن نسبة التحصيل فى الدراسة بغير العربية أقل بكثير مما لو كانت الدراسة بالعربية، خاصة فى ظل تدنى مستوى إجادة المدرس أو الأستاذ اللغة الأجنبية التى يدرس بها، ولكن ذلك لا يدفعنا إلى القول بالتعريب على إطلاقه، فالتعريب أفضل فقط فى المرحلة الجامعية الأولى أما فى الدراسات العليا فالتعريب أمر غير وارد».

وحول ما يجب عمله قبل البدء فى عملية التعريب، يقول د. حافظ: «لابد أن يسبق التعريب أولا إيجاد مراجع بالعربية حديثة جدا، مترجمة من أمهات المراجع الأجنبية، ولابد أن يواكب التعريب والدراسة بالعربية إتقان لغة أجنبية حتى يتمكن الدارس من الاطلاع على أحدث الإبداعات العلمية، وإصدار قرار سيادى يقره المجلس الأعلى للجامعات وتلتزم به الكليات، وإنشاء مؤسسة قومية للترجمة العلمية حتى تقوم على ترجمة أمهات المراجع العلمية».

ويشير د. حافظ إلى «أن الدعوة للتعريب دعوة قديمة، فقد بدأتها مدرسة الطب المصرية فى عام ١٨٣٠م، وقد أشرف «كلوت بك» وقتها على ترجمة ٧٨ مرجعا أساسيا، وكذلك فى الجامعة المصرية قبل نحو ٧٥ عاما، حيث تضمن قانون الجامعة العمل على التحول للدراسة بالعربية، ولكن للأسف لم يتم العمل بهذا القانون، وكذلك فإن المجلس الأعلى للعلوم قام عام ١٩٥٦م بترجمة ٣٧ كتابا فى الطب، كما ترجمنا علم الحيوان وكتب علم الكيمياء والفيزياء والنبات، ويشدد د. حافظ على ضرورة العمل بشكل جاد فى مشروع «التعريب»، لمواجهة الهجمة الشرسة التى تتعرض لها اللغة العربية خاصة فى ظل انتشار المدارس والجامعات الأجنبية.

أما د. عطية عبد السلام عاشور أستاذ الرياضيات بعلوم القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية فيستنكر التطرف فى التشيع للتعريب أو التطرف فى التشيع للتدريس باللغات الأجنبية، ويقول: «التطرف فى الناحيتين أمر ممقوت، ولكن يجب أن تسير الأمور بشكل طبيعى عقلانى، بما يحقق المواءمة فى التعريب والمصطلحات العالمية المتعارف عليها فى العلوم، فعلى سبيل المثال نحن ندرس العلوم فى كلية العلوم بجامعة القاهرة باللغة العربية، ولكن هناك مصطلحات ومعادلات متعارف عليها بصيغ ورموز معينة على المستوى العالمى، نبقى عليها ونكتب بها حتى يكون ما نكتبه مفهوما على المستوى العالمى».

ويشير د. عاشور إلى «أن قضية التعريب تحتاج إلى جهد كبير، يبدأ بالنهوض بالتعليم فى جميع مراحله أولا، وترسيخ إتقان العربية قبل أن نبدأ فى تعريب العلوم».

ويقول د. عبد الحافظ حلمى العميد الأسبق لكلية العلوم بجامعة عين شمس ورئيس الجمعية المصرية لتعريب العلوم وعضو مجمع اللغة العربية: إن تعريب لغة العلوم فى بلادنا تعليما وتثقيفا قضية بالغة الخطر، وتنبع أهميتها من الدور الجوهرى الذى يؤديه العلم واللغة فى حياة الأفراد والأمم، والدعوة لتعريب العلوم مطلب قومى، والدافع لذلك أمران: «ضرورات ملزمة» و«منافع مؤكدة»، ويقف فى سبيلهما «اعتراضات مفندة» و«تسويفات مفتعلة».

ويشير د. عبد الحافظ حلمى إلى أن المشكلة فى العالم العربى فى المعاهد والجامعات، التى مازال العلم يدرس فيها بلغات أجنبية، وهذا يؤثر سلبيا على المستوى العلمى للطلاب فنجدهم فى مواقف النقاش العلمى ملجمى اللسان ومحجمين عن السؤال أو الجواب، هذا فى الوقت الذى نجد فيه مزايا متعددة حين نعلم أبناءنا العلم باللغة العربية، كما تفعل أمم أخرى حين تعلم أبناءها بلغتها الأصلية، ومن هذه المزايا جعل عملية التعليم عند الطالب أقرب إلى التمثيل البيولوجى الصحيح للغذاء، ويحيل العلم جزءا من صحيح بنائه الذهنى،له آثار أبقى وأقوى وأعمق، فتتجمع عنده أدوات المقدرة على التحليل والمناقشة والنقد والفهم الدقيق، وكذلك يصبح تعلم العلم عنده معرفة وثقافة، فضلا عن كونه تخصصا أو مهنة، ومن تعلم بالعربية سوف يكون قادرا على أن يعلم بالعربية ويمارس عمله ويفكر بها.

ويضيف د. عبد الحافظ: وتعريب التعليم الجامعى لا يتحقق إلا بقرار سياسى، وهذا يتطلب وضع برنامج عمل تشارك فيه الجامعات بكلياتها وأقسامها المختلفة لوضع القضية موضع التنفيذ، على أن يكون من أركان خطة التعريب الشروع فى تنفيذها مع دفعة جديدة من الطلاب، بحيث تلبى الخطة الحاجات، وتسد الثغرات، ويتم فى إطار ذلك ترجمة المراجع والمصطلحات وتأليف الكتب بالعربية.

أما د. أحمد هيكل وزير الثقافة السابق وعضو مجمع اللغة العربية، فيؤكد أهمية الإسراع فى تعريب العلوم كخطوة أساسية لأية محاولة للنهضة، ويقول: «عملية التعريب باتت ضرورة قومية، تتطلب وقفة حاسمة من جميع مؤسسات الدولة وأفراد المجتمع المخلصين، حتى تستعيد العربية مكانتها العلمية والمعرفية، التى سبق وأن أمدت العالم بالعلم والمعرفة والمصطلحات فى شتى فروع العلم والمعرفة، والعلم المسجل باللغة العربية حفظ الكثير من المعارف الإنسانية السابقة على الحضارة العربية، ثم أضافت إلى تلك المعارف إبداعات شتى».

من ناحية أخرى يؤكد د. طه أبو كريشة نائب رئيس جامعة الأزهر السابق وأستاذ اللغة العربية أن اللغة العربية أصبحت لغة عالمية بنزول القرآن الكريم بها، وهى تنتشر فى العالم الإسلامى، وهى باعتراف العالم اللغة السادسة فى العالم رسميا. ويقول: ولغة بهذا القدر حرى بأهلها أن يجعلوها لغة للعلم والتعليم، ولذا فإن التعريب يجب أن يكون قضية القضايا الأساسية فى منطلقاتنا نحو المستقبل، ويشير د. أبو كريشة إلى أن العديد من دول العالم تدرس العلوم بلغاتها المحلية، ودولة مثل إسرائيل أحيت لغة ميتة، وهى «العبرية»، وتدرس بها العلوم المختلفة، فى مختلف مراحلها التعليمية، ولذلك فمن باب أولى بنا أن نبدأ على الفور تعريب العلوم فى كل الدول العربية.

حول تعريب الطب*

قرأت بدهشة ما بعدها دهشة مقال الأستاذ الدكتور نادر عبد الدايم أبو العطاء، الذى نشر مؤخرا فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣/١٠/٢٠٠٣م فى موضوع تعريب العلوم الطبية وتدريسها بالعربية فى الجامعات العربية، ففوجئت بالأوصاف الشديدة التى وصف فيها هذا الموضوع، كالنكبة، والكارثة، إننى لا أستطيع تصديق هذه الأوصاف وعلى الأخص فى هذه المرحلة التى يتمزق فيها الجسم العربى وينهش نهشا من جميع الأطراف، فما النكبة الحقيقية، وما الكارثة الفعلية؟!

على أية حال، أود أن أتوجه للأستاذ نادر وللقراء عامة برد علمى، غير عاطفى أو انفعالى، بوصفى خريج كلية طب جامعة دمشق، وبكل فخر عام ١٩٧٥م، ثم تابعت التخصص فى الأمراض الداخلية ثم القلبية فى كليفلاند أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية، عملت فيها كل هذه السنوات، مترئسا قسم الأمراض القلبية فى ثلاث من مستشفياتها ومؤسسا فرع كليفلاند للجمعية الطبية العربية الأمريكية عام ١٩٨١م، وعاملا فعالا على نطاق أمريكا الشمالية فى هذه الجمعية، التى تضم ما يزيد على ألفين من الأطباء من أصل عربى، إلى أن ترأست هذه الجمعية عام ٢٠٠١م، إن معرفتى وخبرتى فى هذه الأمور تمكننى من الرد على الأستاذ نادر بشرعية وموضوعية.

عندما درسنا الطب بالعربية، لم نشعر بأى قصور بسبب اللغة نفسها، فمعظم الأسماء معروفة منذ مئات السنين، والمصطلحات الجديدة المعربة تثير الاهتمام والشغف، وكنا نقرأ المواد الطبية باللغتين، كتب جامعة دمشق العربية وبعض المصادر المعربة (المترجمة) والمراجع الإنجليزية، لم تمنعنا دراستنا بالعربية من حفظ المصطلحات باللغتين، علما بأن النص الطبى ليس مجموعة من المصطلحات الطبية، بل هو وصف وشرح وعرض وتحليل تتخللها المصطلحات، وهذا الشكل من الدراسة جعل الطلاب يبذلون جهودا مكثفة دفعتهم للدراسة بجدية، وكما هو معروف فإن خريجى جامعة الطب فى دمشق يحوزون أعلى العلامات فى فحوص القبول الأمريكية، دون أن تكون اللغة بحد ذاتها معوقا لذلك، إن نسبة نجاحهم

* د. وائل خورى، جريدة الأهرام، ١ من يناير ٢٠٠٤ م.

ومستوى علاماتهم مماثلة لباقى الجامعات العربية التى تدرس بالإنجليزية أو أفضل وثمة أرقام تدل على ذلك.

إن عدد الأطباء العرب فى أمريكا يزيد على عشرة آلاف طبيب، يشكل العرب السوريون من ٤٠ إلى ٥٠ فى المائة منهم، تخرجوا فى الجامعات السورية التى درستهم بالعربية، هذا والعشرات منهم لهم مراكز أكاديمية مرموقة ورفيعة المستوى، منهم على سبيل المثال أسامة المفتى فى الجراحة العصبية، ونزار الزين فى أمراض الكبد، وفراس قواص فى أمراض الهضم، وممدوح باخوس فى الجراحة القلبية إلخ... هذا بالإضافة إلى المئات منهم الذين يحتلون مناصب مرموقة طبية وإدارية، كرؤساء أقسام، ومديرى فروع فى الولايات والمدن الأمريكية.

وليس من شك أن نسبة العرب السوريين مماثلة أو أفضل من نسبة باقى الخريجين العرب معرفة وممارسة، وكذلك يتمتعون بأفضلية فى هذه المجالات بالمقارنة مع الخريجيين من أصل هندى وباكستانى أو فيلبينى، وهم الذى يدرسون الطب بالإنجليزية فى بلدانهم.

والجدير بالذكر هنا أن خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت يتميزون بوجود نسبة عالية جدا منهم فى مراكز أكاديمية، بسبب طريقة تدريسهم، وتركيزهم الأكاديمى، خلال دراستهم. وليس بسبب اللغة بالذات.

واستنادا لهذه الحقائق، لا أجد أن التعليم بالعربية كان عائقا فى طريق النمو التخصصى والمهنى الأكاديمى لخريجى الجامعات السورية.

إلا أننى أريد أن أقول إن الدراسة فى الجامعات الطبية العربية بأجمعها، تتسم بقصورات متعددة، ونقاط ضعف، يجب أن نعرفها، ونعترف بها، من أجل تصحيحها وتداركها، بصرف النظر عن لغة التدريس فيها، وأركز فى هذا العرض على أربع نقاط ضعف كبيرة:

- افتقار العمق فى ناحية البحوث الطبية وناحية تدريب الطلاب إلى منهج أكاديمى، يركز على البحث العلمى، ويحيطهم بالجو التدريسى الذى يحفزهم على التساؤل والشك والبحث عن الأجوبة وتشجيع التساؤل العلمى ومتابعة المقالات والدراسات الطبية الحديثة والمتلاحقة، وبالطبع فإن هذا المنهج الأكاديمى يتطلب تأمين الهيئات التدريسية المتفرغة لهذه الأمور، والبنية التحتية الضرورية لإنجاحها، هذا الضعف العام يجعل الغالبية الساحقة من الخريجين أيا كانت اللغة التى درسوا بها، يسيرون فى المسلك السريرىَ والممارسة العملية وليس فى المسار الأكاديمى.

– افتقاد الجهاز التدريسي المتفرغ من الأساتذة، إذ أن الجهاز التدريسي بشكل عام ضعيف جدا، بسبب ضعف الحوافز المادية، وغياب البنية التحتية التي تتيح للمدرسين أن يحصلوا على دخل مادي لائق، يحفزهم على الانصراف للتدريس والتركيز الأكاديمي.

هذه مشكلة حقيقية وصميمية يجب أن نواجهها ونعمل على إيجاد الحلول العملية لها، بل هي أكبر بكثير من مشكلة اللغة نفسها.

– الجامعات الطبية العربية تدرس وتخرج أعدادا هائلة من الطلاب لتأمين خدمات صحية أساسية للمجتمع، مما أدى إلى خلل كبير في توازن الكم مع النوع، إن البنية التدريسية ضعيفة والبنية التحتية غير كافية، وأعداد الطلاب كبيرة، فماذا نتوقع نتيجة هذا الخلل في التوازن؟، خريجون بالآلاف بنوعية ضعيفة يبحثون عن لقمة عيشهم، أو خريجون يرحلون لإتمام دراساتهم في الدول الأجنبية، أو نخبة من الخريجين الطموحين الذين لا تسمح لهم الظروف للاختصاص الخارجي، ولا يعود منهم لبلادهم إلا العدد اليسير، إنها خسارة كبيرة على جميع الأصعدة.

– افتقاد البرامج التدريبية التخصصية بشكل واسع النطاق التي تسمح لأغلبية الخريجين بأن يتدربوا ويتمرنوا في الحقول المختلفة بمختلف العلوم الطبية، وهذا موضوع مهم جدا ولم تبذل فيه جهود كافية لتوسيعه، كي يستوعب معظم الخريجين، وهو في صلب الضعف الطبي في الدول العربية، فليس ثمة خريج أوروبي أو أمريكي يستطيع أن يمارس مهنته فورا بعد التخرج في الكلية الطبية، فكل الخريجين ينخرطون في برامج تدريبية بجميع الفروع لعامين أو ثلاثة أعوام على الأقل قبل الممارسة.

هذه الأمور من أهم المشكلات التي يواجهها النظام الطبي العربي، وحبذا لو ركز عليها الأستاذ نادر، عوضا عن الاستهزاء والسخرية من الجهود التي حاولت إيجاد بورد عربي متخصص رسمي يعطي شهادات معتمدة لخريجيه.

إن هذا الوضع يأخذ أهمية أكبر هذه الأيام، بسبب زيادة الصعوبات المفروضة على السفر، وعلى خريجي الدول العربية لأسباب سياسية واضحة، مما سيخفض عدد الخريجين الذين يسافرون إلى أمريكا وأوروبا للتخصص، ويضيف عبئا عدديا على البرامج التدريبية التخصصية في العالم العربي.

ومع ذلك أعترف للأستاذ نادر بأنه ثمة ملابسات حول هذا الموضوع، يتوجب أيضا أن نعرفها أولا، ونعترف بها ثانيا، كي نستطيع تقويمها وإيجاد حلول لها:

إن تدريس اللغة الإنجليزية مازال بدائيا وضعيفا فى جميع المراحل الدراسية قبل الجامعة وخلال الجامعة.

وليس من مبرر لذلك. إن المدرسين من خريجى كلية الآداب الإنجليزية كثيرون، ويتوجب تطوير المناهج ورفع مستواها بتسارع يتماشى مع الضرورات العامة.

إن الطلاب الذين لم تتوافر لهم دراسة الإنجليزية بصورة كافية سيقصرون فى فهم المراجع وقراءة المقالات الحديثة، سواء كانت موادهم تدرس بالعربية أم الإنجليزية.

إن دور الترجمة التخصصية هو فى صلب الموضوع، إذ لا تزال حركة الترجمة ضعيفة أو بطيئة أو بنوعية غير جيدة، والتعريب فى هذه الحالة يصبح عقبة ومعضلة، والعكس صحيح. فإن نشطت حركة الترجمة ونظمت طاقاتها وبنيتها التحتية وسبلها فى عدة علوم فإنها تصبح وسيلة للتطور والتجديد، مع حفظ الهوية والتراث فى نفس الوقت، إن العصر الإلكترونى الآن يسمح بتجديد وتحديث المراجع بسهولة فائقة، ويلغى أشواطا كثيرة بالمقارنة مع الترجمة القديمة، أضف إلى ذلك، أن إيجاد كادر فنى خلاق من التراجمة هو عمل حضارى بحد ذاته، وفرصة ثمينة لامتصاص طاقات الخريجين من الفروع الأدبية، الذين يعانون قلة ظروف العمل، ويطرقون أبوابا بعيدة عن اختصاصاتهم كقيادة سيارات التاكسى وبيع السندويتشات.

لاشك أن ثمة صعوبة فى تعريب المناهج فى الكليات التى نشأت وترعرعت باللغة الأجنبية، بما فى ذلك العبء الذى يلقى على الجهاز التدريسى بكامله، الذى نشأ على اللغة الأجنبية، هذا أمر يمكن الإعداد له تدريجيا، وأهم من كل شيء الإيمان به معنويا، فلكل مشكلة حل عندما توجد الإرادة والإيمان.

لغتنا هى الجامع النهائى لنا، كأمة وتاريخ وحضارة وثقافة، وواجبنا تجاهها هو واجب تاريخى، لا نستطيع التهرب منه، حتى إذا أراد بعضنا ذلك.

إن الشرخ السياسى والحضارى بين الغرب والشرق، والعالم العربى والإسلامى بشكل خاص، لهو شرخ خطير جدا ولا أحد يعرف مداه المستقبلى ومداه العملى، وبما أن الطب هو الرابطة الإنسانية التى تجمع الشعوب فى إنسانيتها وخلقها، ولا تعرف حدودا إقليمية أو عرقية أو سياسية، فإن التحدى الموجه إلى أمتنا العربية لهو تحد تاريخى، لم يعرف له مثيل فى السابق، لذلك فإن اهتمامنا ببناء صرح حضارى علمى وطبى يلقى علينا مسئولية مزدوجة:

أن نتابع التواصل مع العالم الحضارى الحديث بأسلوبه وأيضا بلغته، وأن نركز اهتمامنا لبناء صرحنا الداخلى، وتدعيمه وتوفير البنية التحتية له، كى يكون قويا ومتينا فى مواجهة مستقبل غامض، حافل بالتحديات، وإن كان ذلك بالعربية فيا أهلا ومرحبا به.

تعريب لغة التعليم العالى*

اللغة قوام الفكر والثقافة، وهى علاقة تاريخية، وميراث اجتماعى متواصل، كما أنها تذهب إلى أبعد من المعانى المعجمية، إذ هى موقف وسياق حياة دافقة فياضة، زاخرة بالعلاقات والتفاعلات والمعانى المضمرة؛ بل والخافية، واللغة من أهم مقومات وحدة الشعوب، ولغتنا العربية من الركائز الأساسية للوجود العربى،فالوحدة اللغوية والثقافية بين الأقطار العربية – التى لا تتم إلا بالمحافظة على اللغة العربية – تؤدى إلى وحدة الشعور والفكر والاتجاه. بل لعل اللغة العربية هى أقوى الروابط التى تجمع بين أقطار العالم العربى؛ إذ هى الجامع النهائى لنا بوصفنا أمة وتاريخا وحضارة وثقافة، وهى الدرع الواقية لأمتنا فى مواجهة جحافل الغزو الثقافى إبان عصر المعلومات، العصر الذى صار فيه التفوق المعلوماتى قادرا على تحييد القوة العسكرية، أو هزيمتها بتكلفة أقل.

والتعليم باللغة الوطنية أمر طبعى، تحرص عليه جميع الأمم، مهما اتسع أو ضاق نطاق المتحدثين بلغتها، لا يخرج على هذا الإجماع إلا أصحاب اللغات البدائية الفقيرة، أو أصحاب اللغات المحلية التى بلغت من التشتت والتعدد ما جعلها متدابرة، مما أجبر أهلها على استخدام لغة أجنبية، واستخدام مثل هذه اللغة البديلة ضار باللغة الوطنية، وبالمجتمع نفسه.

ولا يمكن أن تقوم للعلم المتميز عندنا قائمة، إلا إذا تعلمناه ورسخ فى فكرنا بلغتنا القومية، وغرست بذرته وترعرعت فى أعماقنا، وحرصنا على ترجمة كل جديد فيه بترجمة فورية: فصار منا علماء ينتجون العلم، ويضيفون إليه، وفى هذه الحالة لو انقطعت الصلة بيننا وبين العالم كله لبقى العلم مزدهرا عندنا.

ويشهد التاريخ على صدق هذه المقولة: فعندما دخل الفتح الإسلامى بلاد فارس وما جاورها، وعرب لغتها؛ قام جانب كبير من الحضارة الإسلامية على أكتاف علماء من أصل فارسى أو تركى، ومنهم البخارى، وابن سينا، والفارابى، وسيبويه، والبيرونى، والخوارزمى، والرازى وغيرهم. وقد أضافوا علما كثيرا إلى ما ترجم عن علماء اليونان. ولعبت الترجمة إلى العربية دورا كبيرا فى العصر العباسى الأول، حين كان الخليفة هارون الرشيد يتقاضى الجزية كتبا، وكان المأمون يعطى من يترجم كتابا وزنه ذهبا.

---

* المجالس القومية المتخصصة، المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب والإعلام، شعبة الآداب، يونيو ٢٠٠٤م.

وقد قامت الحضارة الأوربية الحديثة على ما ترجم عن العلماء المسلمين فى مدارس المدن الأندلسية في أسبانيا وغيرها، واستمرت بلجيكا فى تدريس كتاب القانون لابن سينا حتى القرن السابع عشر، ومن ثم نلحظ أن العلم فى أوربا اتكأ على الكتب العربية المترجمة: فدرسها واستوعبها وتمثلها، ثم انطلق بعدها إلى آفاق أوسع. كما قامت النهضة المصرية الحديثة فى عهد محمد على على البعثات والترجمة، واضطلع كلوت بك - الفرنسى الأصل- بوضع أسس منهجية علمية تستند إلى تعريب المؤلفات والمصطلحات الطبية وترجمتها، حتى أمكن بناء قاعدة طبية من الأطباء المصريين الذين حملوا على عاتقهم التدريس والتأليف بالعربية فى القرن التاسع عشر.

وباللغة الأم وحدها يتاح للأمة التقدم العلمى والثقافى والحضارى،والذين ينبغون بغير لغاتهم فى مواطن غريبة قلة نادرة لا يقاس عليها، ولو توافرت لهم الإمكانات فى بلادهم لكان تفوقهم أعظم وأكبر. ومهما بلغنا مما نظنه تقدما علميا، وخاصة فى مجالات العلوم والطب والهندسة باللغات الأجنبية، فهذا المدى العلمى يظل محصورا تحت مظلة العلم الأجنبى،تابعا له، يستعمله ويستفيد منه، ولكنه لا يتخطاه ولا يضيف إليه، لأن عقول علمائنا تابعه له، ومحكومة بما تتلقاه من علم أجنبى اللغة، ومن المعلوم أن الشخص الذى يتعلم علما ما بلغته يعمل على نقل ما تعلمه إلى هذه اللغة، أما إذا تعلم هذا العلم بلغة أجنبية فإنه ينتقل من محيطه الحضارى والثقافى والفكرى واللغوى إلى محيط آخر أدواته أجنبية: لغة وفكرا وثقافة وحضارة، ولعل هذا هو ما دعا بلدا مثل إيران إلى تدريس العلوم بالفارسية، وتركيز جهود علمائها لترجمة الكتب الطبية العالمية إلى اللغة الفارسية.

واللغة العربية تواجه فى عصرنا الحالى تحديات كبيرة: تربوية وثقافية وسياسيه واقتصادية، فقد أصبحنا الآن أمام خطرين داهمين: أولهما: يعتمد عل الغزو الاقتصادى للشركات الأجنبية وسيادتها فى سوق العمل، وهو ما يدفعنا إلى تعليم أبنائنا اللغات الأجنبية، وعلى حساب اللغة القومية، فى مختلف المعاهد والجامعات. والخطر الثانى: يقوم على الغزو لا الاستغزاء الثقافى، وتسابق الدول الأجنبية لإقامة مدارس وجامعات فى مصر تدرس بلغات بلادها، ونحن نرحب طمعا فى العلم. يحدث هذا فى وقت تجتاح العالم الثالث بوجه خاص موجات العولمة، واتفاقيات الجات، وقوانين الملكية الفكرية، ومعنى هذا أنهم سيحجبون عنا العلم، ولن يتاح لنا إلا ما نشتريه بثمن أقواتنا: فنظل متخلفين نلهث وراءهم.

وأمام كل هذا فلا مناص لنا من أن نتعلم العلم بلغتنا القومية إذا كنا نعمل جادين على المحافظة على قوميتنا، ووضع أجيالنا القادمة على الطريق الصحيح لاكتساب العلم

وامتلاك أدواته. ذلك أننا قد نقبل أن تدخل اللغة الأجنبية بيوتنا وجامعاتنا ومعاهدنا العلمية، لكننا لن نستطيع تعويض ضياع لغتنا القومية، لذا فالمعادلة الصعبة هى أن ننفتح على الحضارات والثقافات والعلوم الحديثة والمتطورة، مع الحفاظ على هويتنا وذاتيتنا وشخصيتنا ولغتنا، وهو ما يحفظ لنا قوميتنا وكرامتنا.

وهكذا نرى أن قضية التعريب لم تعد نابعة من الحمية القومية أو المحافظة على الهوية الثقافية فحسب، بل صارت ضرورة لا غنى عنها لصقل أدوات التفكير، وتنمية القدرات الذهنية والملكات الإبداعية، وقد أشار تقرير التنمية الإنسانية فى الوطن العربى، الصادر فى نهاية عام ٢٠٠٣م - ببلاغة غير مسبوقة - إلى أن طريق التنمية لا يتحقق عبر الثقافات الوافدة، كما لا يؤتى ثماره من خلال لغات الآخرين، وإن كان يثرى من تجارب الآخرين بعد ترجمتها إلى اللغة الأم.

وقد نص قانون تنظيم الجامعات المصرية، فى سنة ١٩٧٢م، على أن الجامعات ومراكز البحث العلمى مؤسسات علمية تختص بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعى، والبحث العلمى الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها ومراكزها، فى سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية فى ذلك الإسهام فى رقى الفكر، وتقدم العلوم، وتنمية القيم الإنسانية، وتزويد البلاد بالمتخصصين ... وإعداد الإنسان المزود بأصول المعرفة، وطرائق البحث المتقدمة، والقيم الرفيعة، ليسهم فى بناء وتدعيم المجتمع ... وصنع مستقبل الوطن وخدمة الإنسانية».

ولن تستطيع هذه المراكز العلمية خدمة المجتمع إلا بالارتباط به، وتعرف حاجاته، ودراسة أسبابها ومواجهتها. أما الفصل بين الجامعيين ومجتمعهم فيؤدى إلى عواقب وخيمة يتمثل بعضها فى: التمزق النفسى المدمر لخبرة الجامعيين إزاء الاختلاف بين القيم التى يتلقونها فى جامعاتهم، والقيم التى يعيشونها فى مجتمعهم. فإن نجوا من هذا التمزق وقعوا فى شبكة من السخط على هذا المجتمع المتخلف (فى نظرهم)، دون أن يدفعهم ذاك السخط إلى محاولة الارتقاء به، فإن برئوا من التمزق والسخط خشينا أن يقعوا فى وهم يوسوس لهم أنهم فئة ممتازة لا تماثل بقية أبناء مجتمعهم، فيترفعون عنهم ويمزقون ما يربط بينهم من وشائج تبقى على المجتمع كله.

وتعريب لغة التعليم العالى فى بلادنا يعد مدخلا إلى تأصيل العلم عندنا، وتعريب فكرنا، ونهضة أمتنا، فلغة تدريس العلوم فى الجامعات والمعاهد العليا عندنا موضوع بالغ الخطر، وهو من أحق قضايانا بالدراسة الجادة، والمناقشة المستفيضة، والمواجهة الواقعية، إذا ما

أردنا أن نتلمس طريقنا إلى تعليم عال حى فعال، يسهم فى بناء المجتمع وتدعيمه، ونهضة حضارية شاملة تعمل على صنع مستقبل الوطن.

وتتخلص عناصر القضية فى أربع نقاط، هى: ضرورات ملزمة، ومنافع مؤكدة، واعتراضات مفندة، وتسويفات مفتعلة.

الضرورات الملزمة

المناداة بأن تكون اللغة العربية لغة تلقى العلوم فى المرحلة الجامعية الأولى، ليس مبعثه نعرة قومية، أو اعتزازا باللغة العربية وغيرة عليها – وهى جديرة بهما ولا ريب – وإنما هو استجابة لضرورات ملزمة يكابدها المعلمون والمتعلمون، وليست خيارا يجوز تركه، فالكثرة الغالبة من طلاب الجامعات المصرية قد أصبحت – منذ عقود – بعيدة كل البعد عن التمكن من اللغة الإنجليزية، ولذلك يضطر الأستاذ المحاضر إلى صرف جزء كبير من وقت المحاضرة فى تفسير ألفاظ وتراكيب إنجليزية عادية، وإلى اللجوء إلى الشرح والتعليق باللغة العربية – أو بالأحرى العامية – مضمنا كلامه عددا من الألفاظ المفككة والجمل البتراء باللغة الإنجليزية، ومتجنبا على قدر الإمكان الألفاظ والعبارات الدقيقة.

ويعلم الطالب أن (المذكرة) الرديئة الطباعة والإعداد، أو الكتاب (*المدرسى المقرر*) – إن وجدا – ستعصيان عليه، فيلهث وراء المحاضر محاولا تسجيل كل كلمة يتسقطها منه، فى بنيان غير محكم، ولأنه يدرك أيضا عجزه الكامل عن طلاقة التعبير باللغة الإنجليزية، يلجأ إلى استظهار ما دونه أو قرأه – على علاته – استظهارا دون فهم حقيقى أو استيعاب عميق. وهكذا حين ينبغى للطالب الجامعى أن يحلق ببصره إلى آفاق واسعة، ويتعمق فى أغوار بعيدة، نجد اللغة الإنجليزية قيدا محددا لأبعاد دراسته كما وكيفا، ومهددا التعليم الجامعى بالضحالة وعدم الدقة. هذا عن أثر اللغة الإنجليزية على التحصيل والاستيعاب.

أما عن وظيفة اللغة الإنجليزية من حيث اكتساب الطالب مقدرة التعبير البين الصحيح والمحاجة وتقليب الآراء، وإعمال الفكر، فيتجلى كونها قيدا على الطالب – فى هذا كله – حين نجد الطالب ملجم اللسان، يعجز عن النقاش، ويحجم عن الاستفسار أو الإجابة.

ومن مارس التدريس الجامعى يعلم جيدا أن إجابات الطلاب فى امتحاناتهم تعطى صورة واضحة لمعاناتهم محاولة التعبير عن أفكارهم، مما يشكل للأساتذة صعوبة بالغة فى محاولة تبين ما يحاول الطلاب الإفصاح عنه، ويوقع الأساتذة فى حيرة من أمرهم، إذ

يتجاذبهم أمران: واجبهم الذى يحتم عليهم الحكم الدقيق، وإحساسهم بأن العدل والإنصاف يقتضيان عدم تحميل الطلاب ما لا ذنب لهم فيه.

وإذا أردنا أن نؤيد هذا الرأى بشهادات حية، تؤكد فشل التدريس بالإنجليزية – فى مرحلة التعليم الجامعى – فى تخريج طالب يستوعب المادة، ويستطيع التعبير عنها بدقة بهذه اللغة، فضلا عن لغته العربية – التى استبعدت من التدريس فى هذه المرحلة – فيكفى أن نورد قصتين فى هذا الصدد: أولاهما حدثت فى أواخر السبعينيات من القرن العشرين، إذ يذكر أحد الأساتذة الأجلاء موقفا حدث فى جامعة عربية، كانت تعد فى الصف الأول بين نظيراتها، حين عرضت أوراق إجابة طلاب درجة بكالوريوس العلوم على أستاذ إنجليزى – كما كان يحدث فى مصر قبل الخمسينيات – فكتب الأستاذ الإنجليزى فى تقريره ما ترجمته:

إننى لم استطع أن أعرف لما كتب هؤلاء الطلاب رأسا من ذنب«!»، ولكنه أردف – بعد هذه الصراحة المرة – بجملة فيها مجاملة ولها مغزاها، إذ قال: «ولكنى ما أظن أننى سوف أكون أكثر توفيقا لو طلب إلى أن أكتب بالعربية». وكأنى بالأستاذ الأريب أراد أن يقول: «لماذا تفعلون هذا بأنفسكم وبأبنائكم ؟«!»

والموقف الثانى: كان للعالم الجليل فى أثناء فترة عمادته كليته –حين حاور أديبا واسع الثقافة كان يشغل منصب مدير مكتب المجلس البريطانى فى القاهرة فى ذلك الوقت، وأحس الرجل أن الأستاذ يقف موقف المدافع المبرر لدعوته إلى تعريب التدريس فى المرحلة الجامعية الأولى من كليات العلوم، فقال له: «لا شك أن الحق معكم، وأخبر زملاءك أننا غير راضين عما تفعلونه بلغتنا» «!».

واللغة ليست أمرا ثانويا فى حياة الإنسان، أو مجرد أداة تواصل فى مجتمعه، بل هى قوام فكره وخياله ووجدانه، وصيغة قيمه وعقائده. ودراسة العلوم بلغة أجنبية تضفى هذا الوصف (الأجنبى) على العلوم نفسها؛ فما يحس الطالب إحساسا عميقا بأنها شىء ينتمى إليه أو إلى بنى قومه، بل إنها أقحمت على ذاكرته وفكره إقحاما، فآثارها سرعان ما تزول. وحتى إذا احتاج الخريج إلى استعمال ما تعلم استعمله فنيا ومهنيا، ولا يكون العلم والأسلوب العلمى جزءا عضويا من كيانه الفكرى والسلوكى.

وهذه القيود المحددة، وتلك الغربة، قد تقتل فى الطالب ما فطر عليه من مقدرة على الإبداع والابتكار، إن لم تكن أساليب التعليم العام قد أجهزت عليها قبل التحاقه بالجامعة.

الاعتراضات المفندة والتسويفات المفتعلة

أول هذه الاعتراضات أن اللغة العربية تعجز عن استيعاب المفاهيم والمصطلحات العلمية الحديثة. وهذا الزعم يمكن تفنيده بأكثر من حجة كما يلي: فقد أجمع الباحثون على أن اللغة العربية أغنى اللغات السامية وأوسعها أفقا، وقد نزل القرآن الكريم بها إعلاء لشأنها وتثبيتا لأركانها، كما انتصرت اللغة العربية فى جميع البلاد التى فتحها العرب: فحلت محل اليونانية والقبطية والسريانية وغيرها. وقد استطاعت اللغة العربية أن تكون أداة طيعة لكل ما نقل من علوم الفرس والهنود واليونان، فدونت خلاصة هذه الثقافات باللغة العربية. كما استطاع العرب فى فترة زمنية قصيرة أن يعبروا بالعربية عن أدق نظريات إقليدس، وفلسفة أرسطو، وطب جالينوس، وفلك بطليموس. فضلا عن أن الشعوب التى احتفظت بلغتها رغم خضوعها لحكم العرب واعتناقها الإسلام - الترك والفرس - اتخذت اللغة العربية أداة للعلم والأدب. كما أن هذا الزعم دليل على عدم إدراك القوى البشرية من ناحية، وقوة اللغة من ناحية أخرى، فضلا عن عدم معرفة بتاريخ العربية، فلا توجد لغة تعجز عن التعبير، وإنما يوجد بشر يعجزون عن التعبير، فإن كان ذاك كذلك استوى العجز بالتعبير بالعربية مع العجز بالتعبير بلغة أجنبية، لأن المتكلم باللغة الأجنبية فى تلك الحالة لا يكون معبرا حقيقيا أو أصيلا، وإنما يكون حاكيا لما سمعه من أستاذ أو قرأه فى كتاب. ولن يرتفع عن هذا المستوى إلا إذا استطاع أن يصل إلى مستوى لإدراك الحق، الذى يؤدى إلى التجديد أو المخالفة أو الابتكار، وليس الواقع العلمى للعربية اليوم بأسوأ ولا أفقر من واقعها فى ضحى الإسلام، حين استطاعت أن تنقل كل ما وجدته عند الأمم المجاورة من الحضارات والعلوم والفلسفات والفنون إليها، ثم استطاع أبناؤها بعد أن يتمثلوها فهما، ولم ينقض كبير وقت حتى شاركوا فى الإنتاج والابتكار.

وشهادة التاريخ حاسمة فى هذا الصدد، كما أن الأشهاد من أعلام المؤرخين كثر، ومنهم البروفيسور ستيفن جوكروجر، الأستاذ بكلية الفلسفة فى جامعة سيدنى،الذى عرض موسوعة كبيرة عن العلوم الإسلامية، صدرت عام ١٩٩٦م، فى دورية Metascience العالمية، وصدر عرضه بما ترجمته - كانت العربية لغة العلم من القرن التاسع حتى نهاية القرن الحادى عشر، بمعنى أنها كانت اللغة العالمية لعلماء المسلمين من سمرقند إلى غرناطة، أيا كانت لغاتهم الأصلية، وبمعنى أن الحضارة العربية كانت مستودع العلم الكلاسيكى والمبتكرات العلمية المعاصرة فى ذلك الزمان - (مع التحفظ على المدى الزمنى الذى يحدده الأستاذ).

وسجل البروفيسور دونالد كامبل فى كتابه (الطب العربى وتأثيره على العصور الوسطى) للعرب اهتمامهم الكبير بالتعليم، وتشجيعه بين رعايا الدولة الإسلامية – ذكر ما ترجمته: «لقد رفع العرب منزلة مهنة الطب، فسموا بها من حرفة وضيعة إلى مكانة المهن العلمية الرفيعة، وكانوا أول من أدخل الرسوم التوضيحية ذات الترتيب المنهجى فى كتاباتهم الطبية، كما أنهم متحونا نظامهم الترقيمى، الذى حل بصورة شبه كاملة – محل الأرقام الرومانية المرهقة. وطوروا علم الكيمياء لكى يكون تطبيقا فى خدمة الطب».

أما بروفسيور ج.أ. رسل (معهد ولكوم لتاريخ الطب، بلندن) فيزيد الأمر تحديدا فى مرجع حديث عن تاريخ العلم، حين يقول (بعد استعراض أهم جوانب العلوم الإسلامية).

«وكانت العربية هى أداة هذا النشاط العلمى كله. ولما كانت اللغة العربية لغة القرآن، أصبح لها أهمية خاصة فى الإسلام، بيد أن طبيعة هذه اللغة نفسها هى التى قامت بالدور الحاسم: فمرونتها الرائعة قد مكنت المترجمين – المشتغلين بالعلم الأصيل بعدهم – من سك مفردات محددة دقيقة للمصطلحات العلمية والتكنولوجية أو ابتكارها، وهكذا اتخذت لغة شعرية اللغة العالمية للعلم والحضارة!».

ومن الأمثلة الحية نذكر المثل التالى: نظم المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة – مشتركا مع عدد كبير من الجامعات والهيئات والأفراد فى مصر وفى فرنسا – برنامجا حافلا امتد أربعة أشهر (مارس – يونيو ٢٠٠٢م) فى القاهرة والإسكندرية، أطلق عليه هذا العنوان البديع المعبر: «عندما تكلم العلم بالعربية: من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلاديين من القرن الثانى إلى القرن التاسع الهجريين».

ومن المقرر أن يعاد هذا البرنامج فى فرنسا وفى بعض العواصم الأخرى.

وهذا قليل من كثير، إذا فكل ما يرمى به الجاهلون اللغة العربية اليوم من عجز وقصور إنما هو فى واقع الأمر عجز منهم هم فى العلم، والعمل، واللغة جميعا.

ومن الاعتراضات المكررة مشكلة المصطلحات العلمية العربية، وهذه المشكلة مبالغ فيها كثيرا، فقد توافر من هذه المصطلحات ألوف وألوف، وصنف كثير منها فى معجمات، وتعريب التعليم سوف يزيد هذه الألوف، ويروج هذه المعجمات، ويكفى أن نشير إلى ما أنتجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة من هذه وتلك، وقد ساعد المكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية بالقاهرة على جمعها موثقة ومصنفة، فى نسخة ورقية تتألف من سبعة آلاف ورقة تملأ

صندوقا كاملا، وفى نسخة إلكترونية فى قرص مدمج بقدر راحة الكف. كما يمكن أن نشير إلى قوائم المصطلحات التى أقرها مكتب تنسيق التعريب بالرباط، وفى فروع العلوم المختلفة.

ثم إنهم يقولون: إن المصطلحات ليست موحدة فى البلاد العربية، والجهود والمؤتمرات فى هذا الباب كثيرة ومتلاحقة، ولا ننسى أننا يمكن أن نستخدم قواعد البيانات المعجمية لتوحيد المصطلحات. ولكننا يجب أن نعترف أن المصطلحات، بأية لغة كانت، ليست هى - على أهميتها - جوهر قضية التعريب، حتى إن ظلت، أو ظل بعضها غير مترجم أو معرب، فيمكننا الإبقاء على المصطلح باللغة التى وضع بها إلى أن نتفق على مقابل له باللغة العربية وإنما المشكلة - كل المشكلة - هى اللغة من حيث هى وسيلة الطالب فى التلقى - قراءة أو سماعا - وفى الاستيعاب والتعبير، بل فى التفكير والتصور أيضا.

ويحتج أيضا بغرابة بعض المصطلحات العربية، كأسماء العظام والعضلات، ولكن عجبا أهى أشد غرابة من مقابلاتها الإغريقية أو اللاتينية؟ إنما هى ألفة الاستعمال التى تذهب هذه الغربة، وثمة وهم آخر، هو أن المصطلح العربى لا يؤدى فى بعض الأحيان المعنى الذى يؤديه المصطلح الأجنبى،ويبدو أنهم لا يدركون، أو يتناسون، أن المصطلح لا يعدو أن يكون عنوانا أو رمزا لفكرة شاملة، أو صورة مملوءة بالتفاصيل التى لا يعبر المصطلح، بمجرد معناه الحرفى،إلا عن أدنى شىء من هذا كله، بل إنه قد يتجاوز معناه اللغوى تماما.

ومما يساق من الاعتراضات أن الإنجليزية تتخذ لغة لتدريس العلوم، لأنها توفر لقارئها مددا غنيا من المراجع، فضلا عن مصادر المعلومات الأخرى، ولكننا إذا تأملنا واقع الحال وجدنا أن اللغة الإنجليزية تصبح - لقدرة الطالب المحدودة للغاية فيها - أغلالا يرسف فيها الطالب مقيدا فى متن واحد ضيق، حاول أستاذه جاهدا أن يذلله له، ولا تمكنه قدراته اللغوية من ارتياد سواه. وعلى نقيض ذلك تماما، لن تكون اللغة عائقا أمامه للاستزادة من مراجع متعددة باللغة العربية لو أنه تعلم بها.

ويؤيد ذلك أن عدد الأطباء العرب فى أمريكا يزيد على عشرة آلاف طبيب، يشكل السوريون ما يقرب من نصفهم، وقد درسوا الطب بالعربية فى الجامعات السورية، ونجد أن العشرات منهم قد تبوءوا مراكز مرموقة ورفيعة المستوى، وصاروا رؤساء لعدد من المراكز الطبية فى الولايات والمدن الأمريكية، وليس من شك أن نسبة العرب السوريين تتميز عن الخريجين من أصل هندى أو باكستان أو فيلبينى، وهم الذين يدرسون الطب فى بلادهم بالإنجليزية.

وقد يعترض بعدم وجود عدد كاف من المؤلفات فى العلوم باللغة العربية، وبافتقار المكتبة العربية إلى المراجع والمصادر العلمية العربية، المؤلفة أو المترجمة، التى تدرس فى الكليات العملية كالعلوم والهندسة والطب، ولا شك أنه ينبغى إثراء مكتباتنا بترجمات جيدة لأمهات الكتب العلمية، وبكتب مؤلفة تقدم آخر منجزات العلوم ومستحدثاتها، معروضة عرضا حسنا يناسب مستويات الطلاب الذين تقدم لهم، ومتضمنة أمثلة من بيئاتها، ومتعرضة لمشكلاتنا الإقليمية الخاصة، ثم تحدث طبعاتها المتلاحقة. والواقع يشهد أن هناك جهودا كثيرة مبعثرة، قد أجهض عدم تعريب التدريس كثيرا منها، أو أهدر ثمارها. وهكذا تدور الدائرة المفرغة.

ومما يذكر أن الوزير الأديب الدكتور محمد حسين هيكل، أصدر عام ١٩٣٨م قرارا بتعريب التدريس فى الجامعة، ولكن كلية الطب طلبت استثناء لمدة عشر سنوات، حتى يتم وضع المصطلحات العربية، وتؤلف الكتب الجامعية، ثم جددت هذه المهلة آليا، حتى تطاولت إلى أكثر من ستة عقود.

ويتعلل بعض المعترضين على تعريب التدريس بعدم استطاعتهم التدريس باللغة العربية، ونقص معرفة بعضهم بالمعاجم العربية، وعدم قدرة بعضهم على الاطلاع على المصطلحات العلمية فى تراثنا العلمى العربى،ولكنها حجج توضح اختيارهم الطريق الأقصر والأيسر لهم، فهم قد تعلموا بالإنجليزية ومراجعهم بها، والتعريب يفرض عليهم عبئا إضافيا، ولكن هذه الدائرة المفرغة ينبغى أن تكسر فى حزم، إذ يمكن - عن طريق تكنولوجيا المعلومات - توفير نظم لدعم المؤلفين، مزودة بالمعاجم، وقوائم المترادفات، والتعابير الاصطلاحية، كى تساعد على التأليف والتعليم بالعربية، عندما توجد الإرادة والاقتناع.

الفوائد المؤكدة

إذا عنّ للمرء أن يتساءل: ما بغيتنا من تعريب لغة تدريس التعليم العالى؟ وما المنافع المؤكدة لهذا التعريب؟ فإننا نوجز أهمها فى النقاط التالية:

١) أثبتت التجارب العلمية المقصودة أنه عند تدريس مقرر جامعى بعينه لجماعتين متكافئتين من الطلاب، تلقته إحداهما بالعربية، وتلقته الأخرى بالإنجليزية، كانت حصيلة طلاب المجموعة الأولى أكبر، وفهمهم للموضوع أتم وأعمق، فى وقت أقصر وبجهد أقل.

٢) اللغة عنصر رئيسى للكيان الذهنى والعاطفى للإنسان، ولذلك كان من مزايا التدريس بلغة المتعلم الأصلية، أنه يجعل عملية التعلم أقرب إلى التمثيل البيولوجى السوى للغذاء، إذ

يجعل عملية التعلم جزءا من صميم البناء الذهنى للمتعلم، له آثار أبقى وأقوى وآصل وأعمق؛ فتجتمع عنده أدوات المقدرة على التحليل والمناقشة والنقد، وعدة الابتكار الأصيل. كذلك يصبح تعلم العلم عنده معرفة وثقافة، فضلا عن كونه تخصصا ومهنة.

٣) ويمكننا أن نتصور العلم مركزا لأربع دوائر متداخلة: فى الأعمال والمهن العلمية، وفى نشر الثقافة العلمية، وفى تدريس العلوم، ثم – رابعا – فى البحث العلمى ونشر نتائجه. وتدريس العلوم بالعربية يزيد تآزر الدوائر الثلاث الأولى: فمن (تعلم) بالعربية لن يكون عسيرا عليه أن (يعمل) بالعربية، وأن (يعلم) بالعربية، وأن يقوم بدوره فى العطاء والإسهام فى نشر الثقافة العلمية بين بنى وطنه.

٤) إن تدريس العلوم فى الجامعة باللغة العربية سوف يزيل الحواجز بين طبقة المتخصصين الجامعيين ومن يليهم من الفنيين وأمناء المعامل والمساعدين، وهذا سوف يزيد كفاءة الأعمال العلمية بصفة عامة، ويوجد طبقة وسيطة بين العامل القديم والمتخصص الجامعى ذى التعليم العالى،طبقة تلقت قدرا من العلوم المتقدمة، يجعلها قادرة على العمل تفيد من خبرات رؤسائهم الجامعيين وعلمهم، ويفتح لهم أبواب الاطلاع على الكتب الجامعية المنشورة بالعربية، فيستكملون ما ينقصهم، ويحرزون تقدما أصيلا فى فنونهم، فتعريب لغة التعليم هى دعوة إلى تجويده، وإلى ديمقراطية العلم، وإشاعته بين الجماهير العريضة.

٥) نحن الآن نعيش فى عصر العلم، ومن المؤكد أن شيوع تدرب اللسان القومى والقلم القومى والفكر القومى على تناول قضايا العلم ضرورة من ضرورات العصر، إذ إنه يتيح للهواة والطامحين – من غير المتخصصين – أن يطلعوا على العلوم، فيتسع نطاق الثقافة العلمية فى المجتمع ويرسخ الميل إليها، ويتمكن المواطنون، فى جملتهم وعلى تنوع مراتب ثقافتهم وتباينها، من أن يعيشوا عصرهم ويحسنوا فهم قضاياه. وهذا يسهم بدوره أيضا فى عبور الفجوة، أو (الجفوة) بين أهل (الثقافتين)، مما يعنى زيادة فى ترابط الأمة.

٦) وتدريس العلوم بالعربية فى الجامعة فيه خدمة جليلة للغة العربية نفسها، فهذه اللغة قد حفظها الله بحفظ قرآنه الكريم، ولكن خدمتها وإغناءها وتجديد حيويتها بحسن توظيفها فى قضايا الحياة المتجددة فى عصورها المتعاقبة، ويظل هذا كله أمانة مفروضة على أبنائها فى كل عصر، والحق أن أسلافنا فى عصور الإسلام الزاهرة قاموا بحقوق هذه الأمانة على خير وجه، وينبغى ألا نقصر نحن فى إسهامنا بدورنا التاريخى نحوها.

٧) التعريب اللغوي للعلوم هو الخطوة الأساسية نحو (تعريب العلم) بمعناه الشامل وتأصيله فى مجتمعنا، أخذا وعطاء وتطبيقا، أما الخطوات التالية فهى قضية أخرى فيها جوانب اقتصادية واجتماعية، وهى مسئولية الجامعات والأكاديميات العلمية ومراكز البحوث.

ولا يخفى علينا أن الدراسة بكليات الطب، والهندسة والعلوم، فى العالم العربى كله تتسم بقصور ونقاط ضعف، لا علاقة لها بلغة التدريس فى هذه الكليات، وعلينا أن نعرف أوجه هذا القصور ونعترف بها، حتى نصححها، ونعمل على تداركها، ويتمثل فيما يلى:

أ) الافتقار إلى العمق فى المنهج الأكاديمى الذى يرتكز على البحث العلمى فى تدريب الطلاب، ويحيطهم بالجو التدريسى الذى يحفزهم على التساؤل العلمى والشك المنهجى، والبحث عن الأجوبة، ومتابعة المقالات والدراسات الطبية الحديثة المتلاحقة، والمنهج الأكاديمى العميق يتطلب توفير الهيئات التدريسية المتفرغة لهذه الأمور، والبنية التحتية الضرورية لإنجاحها.

ولاشك أن هذا الضعف العام يجعل الغالبية الكبرى من الخريجين يكتفون بالممارسة العملية، ويبتعدون عن الدراسات الأكاديمية العليا، أيا كانت اللغة التى تلقوا بها دراستهم.

ب) افتقاد الجهاز التدريسى المتفرغ من الأساتذة – بسبب ضعف المرتبات والحوافز، إذ أن هيئات التدريس قد تنشغل عن العطاء الأكاديمى المتميز – الذى يتفرغ ليركز جهوده لبناء جيل من الصف التالى الذى يخلفهم مكتسبا خبراتهم، ومضيفا إليها، فى محاولة لرفع المستوى المادى الذى يكفل لهم ولأسرهم حياة مناسبة.

ج) زيادة أعداد الطلاب بكليات الطب والهندسة والعلوم زيادة كبيرة، وكان من نتائجه تخريج أعداد هائلة من الطلاب لمواجهة حاجة المجتمع إلى الخدمات الطبية والهندسية وغيرها، وهو ما أدى إلى خلل كبير فى توازن الكم مع الكيف.

د) افتقاد البرامج التدريبية التخصصية الشاملة، التى تسمح لأغلب الخريجين أن يتدربوا فى فروع العلوم فى تخصصاتهم المختلفة، ومما يذكر أن خريج كليات الطب فى أوروبا وأمريكا لا يسمح له بممارسة مهنته عقب التخرج، إلا بعد الانخراط فى برامج تدريبية بجميع الفروع لمدة عامين أو ثلاثة أعوام على الأقل.

إن الشرخ السياسى والحضارى بين الغرب والشرق، والعالم العربى والإسلامى بشكل خاص، خطير للغاية، ولا أحد يعرف مداه المستقبلى والعملى،والتحدى الذى يواجه أمتنا العربية الآن تحد تاريخى لم يعرف له مثيل من قبل، لذا فإن اهتمامنا ببناء صرح حضارى علمى يلقى علينا مسئولية مزدوجة: أن نتابع التواصل مع العالم الحضارى الحديث بأسلوبه وبلغته، وأن نركز اهتمامنا لبناء صرحنا الداخلى،وتدعيمه، وتوفير البنية التحتية له؛ كى يكون قويا متينا فى مواجهة مستقبل غامض حافل بالتحديات.

خطة التعريب

ثم يأتى السؤال المنطقى التالى: ما خطتنا لتعريب لغة العلم؟

كثير ما يقال عن (استراتيجيات) تعريب العلوم على المستويات القطرية والإقليمية، كما ينادى بعض أعضاء الجمعية المصرية لتعريب العلوم بأن تكون بدايات التعريب جهودا فردية، وهم يحضون أساتذة الجامعات، أو يحرضونهم، على ذلك إعمالا للقانون، ولكن هذا المدخل له أضراره النظامية – أو العشوائية – فى متابعة الطلاب مقرراتهم المترابطة والمتلاحقة. والاستراتيجية المثلى قد تكون فى الشروع بلا توان، مع دفعة جديدة من طلاب الجامعة، فيدور الدولاب، وتلبى الحاجات، وتسد الثغر، وتفتق الحيل، ثم تنمو الخطة وتتكامل مع مضى طلاب هذه الدفعة فى التعليم عاما بعد عام (مع تفاصيل انتقالية يعتنى بها عند التنفيذ).

ومسئولية مصر فى تعريب لغة العلوم فى الوطن العربى كبيرة، فهذا ما يؤكده أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة من البلاد العربية الأخرى. وكثيرا ما نسمع أن تعريب تدريس العلوم فى الجامعات لا بد أن يكون قرارا سياسيا، ونحن نتفق مع هذا الرأى،ولكن ينبغى أن يكون هذا القرار صادرا من القيادات الجامعية نفسها، أى أن يكون قرارا سياسيا جامعيا، وقد اقترح فى المؤتمرات السنوية لكل من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وللجمعية المصرية لتعريب العلوم، أن تجمع الآراء والآمال الخاصة بهذا الموضوع، وتعرض على السيد وزير التعليم العالى، برجاء أن يحيل سيادته الأمر برمته إلى المجلس الأعلى للجامعات الذى يرأسه، لكى يضعه المجلس موضع الدراسة الجادة الناجزة – فى غير تباطؤ أو تعجل – لمجالس الجامعات والكليات والأقسام المعنية به، توطئة لاتخاذ القرار عن اقتناع وبينة، ومقترنا بخطة مفصلة مدروسة، وعلى أن يكون من أركان هذه الخطة الشروع فى تنفيذها مع دفعة معينة من الطلاب، بعد فترة إعداد محسوبة.

التعريب واللغات الأجنبية

وهذه الخطة ما تزال فيها ثغرة واضحة، هى: ما وضع اللغة الأجنبية فيها؟

فعلينا، ونحن ننادى بأن نجابه واقع الحال، وألا ندفن رءوسنا فى الرمال، أن نحذر - فى الوقت نفسه - أن نتعالى بها أكثر مما ينبغى، فننعزل هنا عن تيار المعرفة العالمية، إذ أنه يتحتم علينا أن نحافظ على قنوات الاتصال بالعلم العالمى كلها مفتوحة جارية، وعلينا أن ندرك أن بعض اللغات الأجنبية (وبخاصة الإنجليزية) سوف تظل أمدا طويلا وسائط نشر البحوث العملية الأصلية، والاتصال بالأوساط العلمية العالمية، ومن ثم كان لزاما على الصفوة المختارة للبحث العلمى والدراسات العليا والقيادة العلمية أن تتقن لغة أجنبية، على الأقل، وهذه هى الدائرة الرابعة من دوائر لغة العلم الأربع التى سبقت الإشارة إليها.

والذين يلتحقون بالدراسات الجامعية العليا قلة، فضلا عن تميزهم النسبى،وتحدد خط مستقبلهم العلمى والعملى،وهذا كله يجعل العمل على إتقانهم لغة أجنبية أمرا ممكنا من ناحية، وعملا مجديا من ناحية أخرى، فهؤلاء هم الذين يطلعون ويبحثون وينشرون؛ أما عامة الخريجين فقلما يطلب منهم، أو يتاح لهم شىء من هذا. ولهذا ينبغى أن يكون إتقان لغة أجنبية من بين الأهداف البارزة عند إعداد طلاب الدراسات العليا، وينبغى أن تتخذ جميع الوسائل الكفيلة بتحقيقه، ولا بأس من أن يتفرغ هؤلاء الطلاب زمنا يبذلون فيه جهدا مكثفا لبلوغ هذا الهدف. ومما يدعم هذا الرأى أننا نرى بعضا من شبابنا أوفدوا إلى بلد لم يكونوا يعرفون من لغة أهله شيئا، وإذا بهم - بعد أن عهد بهم إلى مدرسين خبراء بوسائل التعليم المستحدثة - قد أصبحوا، بعد أشهر معدودات، أكفاء لإنجاز مهامهم العلمية بنجاح، كما ينبغى أن تفرض جامعتنا على طلاب الدراسات العليا أن يحرزوا مستويات محددة فى بعض الاختبارات العالمية للغة الإنجليزية.

والعلميون الأكفاء فى اللغات الأجنبية واللغة العربية هم الذين يمكن أن يعهد إليهم بأعمال الترجمة العلمية، أو التلخيص والعرض باللغة العربية لنتائج بحوث إخوانهم العرب المنشورة باللغات الأجنبية، وكذلك للفيض المتدفق من الأبحاث العلمية العالمية.

ومن الخير أن ينظر فى أن تنفرد إحدى الجامعات المصرية العناية بتدريس العلوم باللغة الإنجليزية فى المرحلة الجامعية الأولى، أو أن تخصص شعب معينة فى بعض الكليات العلمية لهذا الغرض (وهى التى تستقبل الطلاب الوافدين من غير الناطقين بالعربية، والراغبين من الطلاب المصريين الذين أتموا دراستهم الثانوية فى الخارج أو فى مدارس

اللغات). وغنى عن القول أنه يجب أن يعتنى بأن يتابع طلابنا الذين يدرسون باللغة العربية اهتمامهم باللغة الإنجليزية العلمية فى دروس معينة، على أن يكون التدريس بها فى مادة واحدة سنويا، بحيث تتغير المادة كل عام، وأن تعرض على الطلاب – بصورة مستمرة – المصطلحات الأجنبية للعلوم التى يدرسونها.

وقد يقال إن الحل البديل للمشكلة هو رفع مستوى الطلاب فى اللغة الإنجليزية، ولكن المحاولات الدءوب والمتكررة، والمتباينة الأساليب، لتحقيق هذا الهدف في عدد من الكليات، لم تحقق الغاية المرجوة، وقد يقال إن أصل الضعف فى اللغة الأجنبية سابق على المرحلة الجامعية؛ فيجب معالجته فى التعليم العام، ولكن هذا الحل غير عملى،وغير صائب أيضا؛ لأسباب تربوية وعملية واضحة.

إن تعريب تدريس العلوم فى جامعاتنا أصبح «ضرورة ملزمة»، حتى إن ظن البعض أنه ليس الوضع الأمثل، والاعتراف بهذه النتيجة هو ما تمليه علينا النظرة الموضوعية العملية الشجاعة للقضية، ونحن لا نكاد نعرف بين أمم العالم، صغيرها وكبيرها، أمة تقدم العلم لأبنائها بغير لغتهم سوى ما يحدث فى الجامعات العربية. فلا صعوبة كتابة اللغة اليابانية – مثلا – ولا صغر حجم إسرائيل وبعض دويلات أوروبا – مثلا – قد حال دون أن تكون اللغة القومية هى لغة تدريس العلوم فى تلك البلاد، وإنجازات الطلاب الألمان أو الإيطاليين أو المجريين أو السوريين – ممن يتابعون دراستهم فى أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا – تشهد على أن الدراسة العلمية باللغة الأم ما كانت أبدا عقبة أمام متابعة التخصص الجامعى بلغة أخرى، لا يستغرق الإعداد لها أكثر من عام.

وأن الموازنة بين بداية التعليم العالى والنهضة الحديثة فى مصر فى عهد محمد على، وبين المحاولات التى كانت تترسم خطاها فى اليابان، لهى موازنة ذات مغزى عميق لمن يتدبرها. ولا شك أن العامل الأساسى الذى ساعد اليابان على أن ترقى بصناعتها فى خلال نصف قرن، هو أنها وضعت أحدث النظريات التطبيقية فى الصناعة الأمريكية والأوروبية بين أيدى العمال والفنيين فى اليابان بلغتهم القومية.

إن مسئوليتنا وواجبنا يحتمان علينا أن نقف مع التعريب؛ لقيامه على اللغة التى تقوم عليها الثقافة والحضارة ومقتضيات الحياة، ويلزمنا أن نصوب مسار لغتنا لأن ذلك هو الطريق السوى لتحديث العقل العربى، الذى هو أهم أهداف مرحلتنا الراهنة.

التوصيات

بناء على ما تقدم يوصي بما يلي:

١) تشكيل لجنة عليا تمثل وزارة التعليم العالى والمجلس الأعلى للجامعات ووزارة التربية والتعليم، تكون مهمتها وضع برنامج زمنى، مع تحديد الخطوات الإجرائية اللازمة، ليكون تدريس العلوم كلها فى جميع المدارس والجامعات المصرية باللغة القومية، وأن تنظم الدراسة فى المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية على أساس أن يكون للغة القومية المكان الأول فيها.

٢) تنظيم تعليم اللغات الأجنبية فى مدارسنا جميعا، على أساس أن يتعلم التلميذ لغة أجنبية واحدة يختارها، ودراسة إحدى اللغات الأجنبية القديمة - اللاتينية أو الإغريقية - فى مرحلة ما بعد الدراسة الجامعية، حتى تتيح للباحث التعرف على جذور المصطلح.

٣) أن تهتم الدولة اهتماما كبيرا بالترجمة، وألا تدخر فى ذلك جهدا ولا مالا، فتقوم على الترجمة مؤسسة قومية كبرى، تحدد الأولويات لترجمة الكتب المتميزة والمستكشفات الحديثة فى فروع العلوم المختلفة، وتتكفل - بطرق مدروسة ووسائل ناجعة - بمتابعة التطورات العلمية العالمية، وترجمة الثقافة الأجنبية المعاصرة ترجمة تضعنا فى إطار الحركة الثقافية العالمية.

٤) أن تخصص الدولة الحوافز والجوائز الكبيرة للترجمات المتميزة، وبخاصة للمراجع الأساسية فى المجالات العلمية والأدبية المختلفة، وأن تخصص الجامعات منحا للأساتذة للتفرغ لترجمة الكتب الأجنبية.

٥) اعتبار الترجمة عملا لا يقل أهمية عن التأليف أو البحث الميدانى عند ترقية أعضاء هيئات التدريس، وعدم السماح بالترقية إلى درجة الأستاذية، أو تولى المناصب القيادية، إلا لمن قام - منفردا أو بالاشتراك مع غيره - بترجمة كتاب علمى أو ثقافى أو تقنى فى مجال تخصصه، مع تخصيص جزء منه لتحديد المصطلح الأجنبى وإيراد مقابله العربى.

٦) العناية بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، بمضاعفة إمكاناته المادية والبشرية، حتى يبذل أقصى الجهد فى تعريب المصطلحات العلمية، وإعداد معاجمها، ونشرها، وفرض

استعمالها بقوة القانون فى الجامعات والمعاهد والجهات المعنية، ومتابعة نشرها، والإعلام عنها بكل الوسائل.

٧) عدم إجازة رسائل الماجستير والدكتوراه إلا إذا ضمت ثبتا بالمصطلحات العلمية العربية فى مجال تخصصها ومقابلاتها باللغة الأجنبية.

٨) إنشاء مركز للمصطلحات العلمية فى كل جامعة، يكون من مهامه جمع المصطلحات العلمية فى كل مجال، وتبادل المصطلحات بين المراكز المناظرة فى الجامعة الأخرى، والتعاون مع مجمع اللغة العربية والمؤسسة القومية للترجمة فى سبيل توحيد المصطلحات العربية.

٩) إنشاء بنك قومى للمصطلحات العلمية والإنسانية، تصب فيه جهود مراكز المصطلحات الخاصة بالجامعات والمراكز العلمية والبحثية، يكون همزة وصل بيننا وبين دول العالم، ونافذة للباحثين فى مصر والدول العربية.

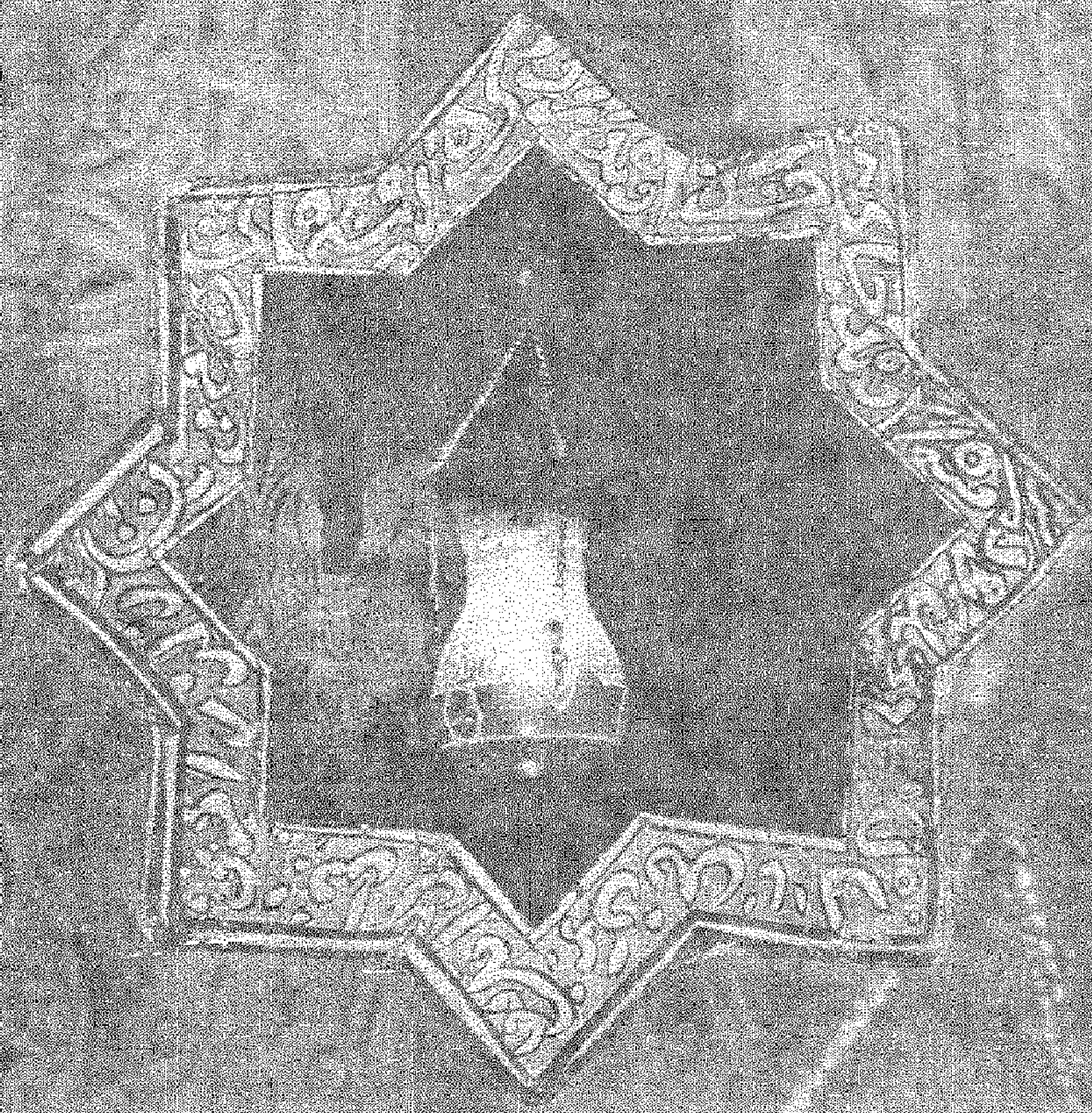
١٠) أن تجرى فعاليات الندوات العلمية والمؤتمرات، وكافة الملتقيات والمحافل العلمية فى الجامعات والمعاهد والأكاديميات ومراكز البحوث، وفى مختلف المحافل الرسمية، باللغة العربية دون غيرها.

١١) دعوة قيادات الدولة ورموزها إلى الالتزام باللغة العربية وحدها فى كلماتهم وتصريحاتهم ومؤتمراتهم الصحفية خارج مصر.

١٢) تفعيل التوصيات الصادرة عن مؤتمرات التعريب وندواتها لتعرف طريقها إلى أرض الواقع.

١٣) نشر الحملات الإعلامية، على جميع الأصعدة، لبيان أهمية التعريب الشامل، وخاصة تعريب تدريس العلوم، وفوائده الجمة فى تدعيم لغتنا العربية باعتبارها الركيزة الأساسية فى القضاء على التخلف العلمى فى الوطن العربى.

١٤) توزيع الأقراص المدمجة الخاصة بالمصطلحات العلمية على المتخصصين كل فى مجاله، بسعر التكلفة؛ حتى يمكن المساعدة على نشر المصطلحات، وتعميم استعمالها، والسير فى طريق توحيدها.



الفصل الثانى
عن لغتنا العربية

مقدمة

كما تعرضنا لكثير من المآزق والمحن؛ كذلك حدث للغتنا، ولكنها لم تعدم المنافحين عنها في كل محنة ومأزق، وكانت غيرتهم مرتبطة بالغيرة على الدين. وكان كثير من المدافعين في الماضي البعيد من المحبين لها، المقدمين لها على غيرها من اللغات، حتى ممن كانوا يصنفون «بالشعوبيين» الذين يرفعون أصولهم الأعجمية فوق الأصول العربية، ولكنهم ظلوا متمسكين بالإبداع باللغة العربية، نثرا وشعرا، ومن أعلامهم «بشار بن برد» و«أبو نواس».

وليس غريبا بعد ذلك أن نجد كثيرا من أعلام علماء العربية، من غير العرب، من أمثال: سيبويه، والزمخشري، وابن جني، وابن فارس. الذي أفاض في الحديث عن لغة العرب وأنها أفضل اللغات وأوسعها.

ويبدو أن الخوف على اللغة جاء مصاحبا لتراجع القوة العربية، وسيطرة غير العرب على أوضاع البلاد الإسلامية، ولعل هذا ما جعل المتنبي يقول:

سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبُد القزم

وفي هذا الإطار نجد نصا يلفت النظر، لأنه يشير إلى شيوع الخطأ على الألسنة، وتراجع مكانة العربية، واتجاه الناس إلى النطق باللغات الأجنبية، وترجع أهمية هذا النص إلى أنه كتب في مصر – في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي على الأرجح – كاتبه صاحب أكثر المعاجم العربية شهرة، وهو جمال الدين بن منظور، صاحب «لسان العرب» والذي يشير في مقدمته إلى أسباب تأليفه بقوله: «فإنني لم أقصد بتأليفه سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها.. وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحنا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية. فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون».

فكأن ابن منظور يعيش بيننا، ويتحدث عن المحنة نفسها التى نعيشها، من تفاصح البعض بغير لغتنا، لأن النطق بها يكاد يكون لديهم «من المعايب».

وكأنها دورات نمر بها، وتمر بها هذه اللغة العظيمة، وتأتى كل دورة بمثالبها وهمومها، ولكن يظهر دائما الغيورون الذين يجاهدون فى سبيل حماية «العربية»، ويكون جهادهم هذا لدى البعض مثارا للتندر والسخرية، وهذا ما أشار إليه «ابن منظور» منذ قرون، حيث يبدو المدافعون عن اللغة وكأنهم «نوح» عليه السلام، وهو يصنع سفينة النجاة، «وقومه منه يسخرون».

ويمكن لأى مواطن عندنا الآن، أن يلحظ طوفان الكلمات الدخيلة التى يستملحها البعض، ويرددونها على ألسنتهم، بينما يوجد لها مقابل أجمل وأوضح فى التعبير تتمتع بها لغتنا. ولا يعرف أحد على وجه اليقين لماذا يفضلون الدخيل على الأصيل؟ أهى هجمة «التفرنج» عادت من جديد؟ أم هى اتجاه إلى نبذ أصالتنا وهجر انتمائنا؟.

لا شك أننا نعانى ضغوطا خارجية تهدف إلى زعزعة هويتنا، ولكن أين شعورنا بذاتنا، واستمساكنا بأصولنا وجذورنا؟.

هذا هو السؤال الذى يجب علينا جميعا أن نسأله أنفسنا، وأن نحاول- بصدق- أن نجيب عنه. آخذين فى الاعتبار أن شخصيتنا متبلورة فى لغتنا، التى نفكر بها، ونكتب بها، وتستوعب كل إبداعاتنا.

وهذا ما نبهنا إليه شاعر النيل «حافظ إبراهيم»، حينما اشتدت دعوة بعض الأجانب إلى نبذ العربية الفصحى واستخدام العامية. وحينما كثرت الأخطاء حتى فى الجرائد والصحف، فانبرى يتحدث عن عظمة هذه اللغة، متحدثا بلسانها، وكأنها تنعى حظها. وإذا كان «حافظ» قد نشر هذه القصيدة سنة ١٩٠٣م، فعلينا أن نستعيدها الآن، وأن نلقنها أبناءنا، ليعرفوا قيمة لغتهم، وليدركوا أيضا أن كل عصر تظهر فيه الدعاوى ضد «العربية»، فإنه يبرز – دائما – من بين أبنائها من ينبرى للدفاع عنها.

وإذا كان البعض يعتبر هذه القصيدة تعبيرا عن أوضاع عصر مضى، فإننى اعتبرها وثيقة تستحق أن نحفظها فى صدورنا، لنحذر مما حذرنا منه على لغتنا، ويكفى على الأقل – أن نتذكر بعض أبياتها:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن   فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى   ومنكم وإن عز الدواء أساتى؟
فلا تكلونى للزمان فإننى   أخاف عليكم أن تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة   وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا   فياليتكم تأتون بالكلمات

ولعلى لا أكون مغاليا إذا رجوت أن تتصدر هذه الأبيات صفحات بعض مجلاتنا وجرائدنا المعنية بهموم لغتنا، أو أن توضع – على الأقل – فى صدر ركن الأدب من كل منها. وربما كان الأهم من ذلك أن توضع فى لوحة واضحة فى صدر كل برنامج تلفزيونى، يستضيف أهل الفكر والرأى والفن، لعلهم يتذكرون أن لنا لغة جميلة تستحق احترامنا.

اللغة أبرز مقومات الشخصية فهى الإطار الذى يحفظ كيان أصحابها ويحدد هويتهم، وهى العمود الفقرى للقومية، فضلا عن أنها مرآة ووعاء الأفكار والمشاعر، وأداة التفكير، وأساس ولادة الحاسة العلمية والفنية وتكوين التصورات الذهنية. هى ميراث اجتماعى متطاول، وخط اتصال للتجارب العامة والخاصة، كما أنها وسيلة النمو العاطفى، والنضج الذهنى، وأهم مظهر يتجلى فيه إبداع أبناء الأمة، فضلا عن أنها من أهم الوشائج الاجتماعية بين أبناء الأمة.

لم يحدث أن نجحت لغة فى توحيد الأمم، وتجميع الشعوب وتشكيل وجدانها الثقافى، كما فعلت اللغة العربية، وهو ما عجزت عنه اللغتان اليونانية واللاتينية فى العالم القديم. فالأولى عجزت عن تغيير لسان الشعوب الشرقية ومنها مصر، واللاتينية انحلت منذ القرن الخامس عشر الميلادى وقامت على أنقاضها اللغات المحلية الحديثة التى تتكلمها الشعوب الأوروبية، حين نجحت العربية فى أن تكون وعاء ثقافيا واحدا تنهل منه شعوب المنطقة، وصارت لغة التخاطب اليومية بين سائر السكان، سواء منهم المسلمون وغير المسلمين، كما باتت لغة الثقافة والإبداع والحضارة.

أزمة اللغة العربية حقيقية، وطاحنة، ونكرر أنها تعكس أزمة الوجود العربى الأعم والأشمل، وتفرز أزمات تالية، تكثف وتسرع من تفاقمها كأزمة أم، وأوضح الأمثلة على ذلك هو أزمة التعريب التى فى استمرارها إفقار للغة الأم نفسها.

ومن المحزن أن هذا التراجع لم يحدث مع هذه اللغة العظيمة إلا بازدياد تعداد أبنائها، الذين بلغوا فى أقرب إحصائية قرابة ثلاثمائة مليون نسمة، فضلا عن الناطقين بها فى الدول الإسلامية من غير العرب، وهم يعدون بالملايين فى القارة الآسيوية وغيرها من القارات.

وتؤكد الشواهد العملية أن وسائل الإعلام العربية تسهم فى إيذاء اللغة العربية، من خلال الأخطاء التى تفشت بصورة واضحة، فى البرامج الإذاعية والمقالات الصحفية، ومن خلال الترويج للأفكار والألفاظ التى تحرف كلماتها. وتغير معانيها، مما أصبح ينذر بخطر محدق على لغتنا الجميلة.

ومع ذلك فالضرورة ماسة لتيسير مناهج «تدريس النحو» بصورتها الحاضرة لكن هذا التيسير لا يعنى مرة أخرى، الإجهاز على القاعدة، وإنما يعنى تقريبها من البسطاء وتنقيتها من الزوائد. وإصلاح النحو – شأن محاولات الإصلاح الأخرى – لا يمكن أن يأتى من الخارج، وتقع على المجامع العلمية - التى تضم علماء وأكاديميين من مختلف التخصصات – مهمة هذا الإصلاح، حتى لا يتولاها قوم لا دراية لهم باللغة، وقواعدها، ومعانيها، ولا بنوع التحديات التى تتعرض لها.

إن اللغة العربية – بلا شك – هى أبرز ملامح ثقافتنا العربية، وهى أكثر اللغات الإنسانية ارتباطا بالهوية، وهى اللغة الإنسانية الوحيدة التى صمدت سبعة عشر قرنا، سجلا أمينا لحضارة أمتها فى ازدهارها وانتكاسها، وشاهدا على إبداع أبنائها. والحرص على العربية، ليس من أجل الناطقين بها فقط، بل هو واجب إنسانى وروحى تجاه جميع المسلمين من غير العرب، خاصة فى ظل الحملة المسعورة لتفتيت التكتل العربى الإسلامى التى يتعرض لها العرب والمسلمون اليوم.

نعيب لغاتنا والعيب فينا   وما للغاتنا عيب سوانا!!

اللغة العربية.. والأمن القومى العربى ★

هناك فرق كبير بين دعوات تطالب بتطوير اللغة العربية وتنقيتها من شوائب كثيرة علقت بها.. ودعوات أخرى تسعى إلى تدميرها.. ومن وقت لآخر يثور جدل وحوار حول موقف اللغة العربية.. هناك من يرى أنها تخلفت كثيرا عن روح العصر.. وهناك من يرى أنها فى حاجة إلى زلزال كبير يحرك مياهها الراكدة، وينطلق بها نحو آفاق من التطور والمعاصرة.. وهذه الدعوات كلها مطلوبة مادامت تسعى إلى تأكيد أهمية اللغة العربية ليس على المستوى الثقافى أو التعليمى.. ولكن على المستوى السياسى والقومى لهذه الأمة، فلا شىء يسبق اللغة العربية فى أهميتها ودورها فى جمع ما تبقى بيننا من أشلاء تناثرت بين الحروب والاحتلال والضياع السياسى والعجز بكل ألوانه.

ولاشك فى أن محنة اللغة العربية قد وصلت إلى أسوأ حالاتها ومن يرد أن يتأكد من ذلك فعليه أن يراجع مستوى تعليمها فى المدارس.. ودرجة استخدامها فى أجهزة الإعلام والثقافة، بل وصل الأمر إلى أن اللغة العربية أصبحت غريبة فى بيتها، وفى مؤسسة عريقة مثل الأزهر الشريف.. كثيرا ما يخطئ المدرسون فى تعليم اللغة العربية، وكثيرا ما يخطئ العاملون فى أجهزة الإعلام والثقافة فى أبسط قواعدها.. وكثيرا ما يخطئ الدعاة والأئمة على المنابر، وفى ساحات المساجد وهم يتحدثون لغة القرآن.

ومن جانب آخر فإن الساحة ممتلئة بنماذج فجة فى الكتابة التى تحمل اسم الإبداع، حيث نرى الروايات والقصص، وهى تجمع كل ألوان التفكك والركاكة فى الأسلوب، والصياغة، ومدى الالتزام بأصول اللغة وجمالياتها.

ولا توجد فى الكون لغة لقيطة.. إن لكل لغة جذورها ونسبها، وأصولها وقواعدها وأشكالها الفنية المتعددة الصور والألوان.. ومن الخطأ أن ننظر للغة على أساس مجموعة من القواعد الشكلية الجامدة.. فإذا كانت هناك قواعد فى النطق أو الحركة أو السكون، وإذا كانت هناك ضوابط فى النحو أو الصرف، فهناك قيم أهم وأخطر تتجسد فى الجوانب الجمالية للغة من الأسلوب والإيقاع والصورة والقدرة على التعبير.

★ الشاعر فاروق جويدة، جريدة الأهرام، ٣٠ من يوليو ٢٠٠٤م.

وللأسف الشديد أن كل من يهاجم اللغة العربية يتوقف عند قواعد النحو والفاعل والمفعول.. وهذه ثوابت لا توجد فى اللغة العربية وحدها، ولكن لكل لغات العالم ثوابتها وقواعدها الملزمة.. ولهذا ينبغى أن يكون الهدف هو تطوير اللغة فى أساليبها.. وجمالياتها وقدرتها على مواجهة ظروف ومتغيرات الحياة.. ولن يكون ذلك بالهدم، ولكن ينبغى أن يكون بالبناء.

ولو أننا تتبعنا جذور الأزمة، لاكتشفنا أن لها أكثر من جانب.. يجب أن نبحث عن وسائل حديثة لجذب الطلاب إلى لغتهم.. إن هناك فجوة كبيرة بين الطلاب واللغة العربية، والسبب فى ذلك يرجع إلى تلك المناهج المتخلفة التى تفرض عليهم نماذج لغوية، لا تتناسب مع روح العصر ومتغيرات الحياة.. مازال الأسلوب التقليدى فى تعليم اللغة العربية هو السائد.. ومازالت نماذج الشعر القديم بكلماته المعقدة وصوره البعيدة عن الفهم، تقف حائلا بين أبنائنا وعشق لغتهم العربية.. وفى شعرنا القديم نماذج سهلة، وأساليب مفهومة، ولا ينبغى أبدا أن يكون الاختيار الخاطئ للنماذج الشعرية والنثرية عقبة أمام أبنائنا، تجعلهم يهربون من لغتهم.

ولا مانع هنا من استخدام التكنولوجيا الحديثة فى الكمبيوتر والإنترنت من أجل تشجيع الأجيال الجديدة على التعامل مع لغتها.

إن نقطة البداية أن يكون هناك مصالحة، بين النص اللغوى.. والعقول الشابة.. ولا يعقل أن نطبق فى مدارسنا نفس القواعد فى تعليم اللغة العربية كما تعلمتها أجيال سبقت من خمسين عاما مضت.. هناك وسائل حديثة فى تعليم اللغات يجب أن نطبقها فى مدارسنا.

يأتى بعد ذلك دور الإعلام، وليس معنى أن يجيد المتحدث اللغة العربية ألا يكون بسيطا فى اختيار الألفاظ، أو متعاليا فى طريقة الحوار، أو قادما إلينا من عصور مضت.. ليس من الصعب أبدا أن تكون هناك لغة ميسرة تحافظ على ثوابت اللغة العربية ولكنها تحمل فى نفس الوقت روح الزمن الذى نعيشه، والعصر الذى لا نستطيع الخروج منه.

وهذا ينطبق على أحاديث العلماء، ورجال الدين والمفكرين، وكبار المثقفين.. يجب أن يكونوا قدوة فى الوضوح والقدرة على الإقناع، بعيدا عن التقعر واستخدام الكلمات الغريبة.. وفى نفس الوقت يجب أن يكون هناك حرص كامل على استخدام اللغة الفصحى لأنها النموذج، خاصة فى البرامج الثقافية، والفكرية، والحوارات، ونشرات الأخبار، والموضوعات التسجيلية، لأن ذلك يمثل دروسا فى اللغة قبل أن يكون عملا إعلاميا.

ولا أدرى ما السبيل لتقديم مدرس عصرى للغة العربية، خاصة أن الثانوية العامة هى التى تدفع بالآلاف من الطلاب إلى كليات اللغة العربية والتربية ودار العلوم، وللأسف الشديد أنهم يدخلون هذه الكليات ليس حبا فى لغتهم، ولكن أمام ضرورات المجموع.. إن هذه الكليات فى حاجة إلى أجيال جديدة، تدرس لغتها من منطلق الحب والإحساس بقيمها، وهذه الأجيال لن تخرج من مدارس مازالت حتى الآن تقدم اللغة العربية فى صورة غريبة لا تتناسب مع الزمن.. وما ينطبق على الجامعات والمدارس ينطبق أيضا على وسائل تدريس اللغة العربية فى معاهد الأزهر وجامعته العريقة.

ولاشك فى أن إهمال اللغة العربية انعكس بصورة واضحة على مستوى الإبداع فى الشعر والقصة والرواية والأغنية.. لقد صارت اللغة الفصحى غريبة فى كل هذه المجالات.. ومنذ سنوات مضت كان استخدام بعض الكلمات العامية فى قصة أو رواية مثار قلق بين المبدعين الكبار، ولكننا الآن نقرأ روايات كاملة ليست فيها جملة واحدة باللغة العربية الفصحى.. وهذا يحتاج إلى مراجعة من كبار مبدعينا ونقادنا، حتى لا يأتى يوم لا نرى فيه عملا إبداعيا باللغة الفصحى.

والغريب فى الأمر أن البعض يشن هجوما ضاريا على اللغة العربية الفصحى، وهناك من يطالب بإلغاء النحو.. والتوسع فى استخدام العامية.. وتخليص اللغة من قواعدها وهذه دعوات تحتاج إلى مراجعة حكيمة.. إن إلغاء النحو يعنى أنه لا فاعل فى اللغة ولا مفعول.. وإلغاء النحو يعنى إلغاء حروف التذكير والتأنيث.. وإلغاء النحو يعنى أن نجد أنفسنا أمام هيكل عظمى متآكل للغة عريقة تمتد فى أعماق التاريخ، ويتحدث بها الآن أكثر من ٣٠٠ مليون إنسان.. وهذا ليس من الحكمة فى شيء.

ولا أستطيع أن أفصل ذلك كله عن البعد السياسى الذى يسعى من خلاله البعض إلى تهميش وتسطيح اللغة العربية الفصحى.. وإذا كانت كل دولة عربية تسعى الآن لدور خاص بها.. وإذا كان كل شعب يريد أن يعيش لنفسه. وإذا كانت العلاقات الثقافية والسياسية بين العرب تشهد أسوأ مراحلها بأن كل بلد عربى يسعى الآن إلى تعميق لهجته المحلية.. وهنا انتشر ما يسمى بالشعر النبطى فى دول الخليج، وانتشرت اللهجات العامية فى دول أخرى.. وهذا كله يصب فى هدف واحد هو تقطيع جسور التواصل بين الشعوب العربية على المستوى الثقافى، وهو هدف تسعى إليه أطراف كثيرة، إن تهميش دور اللغة العربية الفصحى فى حياة الشعوب العربية وبين أجيالها الجديدة سوف يصل بها يوما إلى درجة القطيعة الثقافية.. وهنا سيحدث انفصال كامل عن الواقع الذى نعيشه.. والتاريخ الذى ربط بيننا.. والجذور التى

امتدت قرونا طويلة فى تشكيل الثقافة العربية.. ولهذا فإن الدعوة لتطوير اللغة العربية يجب أن يكون هدفها تأكيد هذه اللغة وليس التشكيك فى قدرتها على الاستمرار.

وبجانب هذا فإن اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وهذا يعنى أن تراجعها، شئنا أم أبينا، سيكون على حساب عقيدتنا الدينية.. وهناك أطراف دولية كثيرة تحاول النيل من ثقافتنا، وديننا، ولغتنا، تحت دعاوى كاذبة أن هذه الثقافة تصنع الإرهاب.

إن اللغة العربية واحدة من أعرق وأجمل وأثرى اللغات فى العالم، وبقدر حرصنا على تطويرها، ومواجهة الظروف الصعبة التى تعانيها سيكون مستقبلها.. أما إذا اتجه البعض منا إلى توجيه السهام إليها، فهذا لن يخدم لغتنا، ولكنه يخدم أطرافا أخرى، كلنا نعرفها، تسعى الآن إلى ضرب جذور هذه الأمة.

لقد شهدت السنوات الأخيرة عشرات المؤتمرات التى تطالب بحماية اللغة العربية.. وهنا يجب أن نطالب بالحماية ليس على المستوى الثقافى فقط. ولكن على المستوى السياسى والقومى.. لأن اللغة العربية فى حقيقة الأمر تدخل فى إطار قضايا الأمن القومى العربى.. وفى ظل دعوات مشبوهة لشرذمة العالم العربى وتشويه تاريخه.. وضرب ثقافته تقف اللغة العربية فى مقدمة هذه الأهداف، فلا أحد يريد الآن للعرب أن يجمعهم تاريخ واحد.. ولغة واحدة وعلى الأجيال الجديدة التى يجرى الآن استنساخها أن تتشكل فى ظل واقع جديد بلا جذور أو هوية.. أو انتماء. وهذه دعوات يجب أن نتصدى لها حتى لا يصبح العرب يوما أمة بلا لغة.. ولا تاريخ.

جدد دعوته لتعريب العلوم وهاجم من أسماهم «المثبطون»

شوقى ضيف: العامية المصرية تلوذ بالفصحى وتحاول اللحاق بها*

الدكتور شوقى ضيف أكبر من أى تعريف، فهو رئيس مجمع اللغة العربية، وأستاذ الأدب العربى، صاحب عشرات المؤلفات، التى لعبت دورا مهما على مدار نصف القرن الأخير فى التعريف بتاريخ الأدب العربى، ورصد تحولاته، وسماته المميزة فى مراحل التاريخ العربى المختلفة، بداية من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، وتعد مؤلفات الدكتور شوقى ضيف المرجع الأساسى فى هذا المجال لكل الباحثين والدارسين ولعشاق الأدب ومبدعيه ومتذوقيه. ومن نافلة القول أن الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع المصرى هو نفسه رئيس اتحاد المجامع اللغوية العربية وقد انتخب لهذا الموقع عام ١٩٩٦م.

وشوقى ضيف هو تلميذ طه حسين، كلاهما أسهم بطريقته فى الحفاظ على هوية الأمة وتطويرها، من خلال الحفاظ على وعائها اللغوى وآدابها، وهو الأستاذ بجامعة القاهرة، والمشارك فى تأسيس العديد من أقسام اللغة العربية وآدابها فى الجامعات العربية المختلفة، وقد اختص «العربى» بهذا الحوار، والذى سألناه فى بدايته عن رؤيته لتجديد اللغة العربية ووضعها فى ثوب يناسب العصر؟

فقال: إن المجددين العظام من أدبائنا أحدثوا فى الفصحى العربية مرونة واسعة، وقد أخذت جماعتهم تتكاثر، وتتسع لعناصر من الشباب الذين أجادوا اللغة العربية، بحيث أصبحنا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية من القرن الماضى نملك أدبا مصريا عربيا، نبت فى وطن مصرى على أيدى طائفة من المصريين. من جهة ثانية أنشأت الجامعات المصرية أجيالا متخصصة فى كل فرع من فروع العلم والأدب الغربيين، ونتيجة لذلك أصبحت الفصحى لسانا لكثير من ألوان الأدب والعلم، ونشأت بيننا طبقة من العلماء تحسن التعبير العلمى والأدبى، واتسعت ترجمة الفكر الغربى، مما أثرى اللغة الفصحى، ثم جاء بعد ذلك دور

* أ. أحمد عبد العزين، جريدة العربى، ٢٣ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

الصحافة التى أحدثت تحولا كبيرا فى الفصحى، فأسهمت ولاتزال فى الحفاظ على لغتنا، بل يمكننا القول إن الصحافة أنشأت لنا فصحى جديدة تتراوح ما بين العربية الموروثة والعامية التى نتداولها فى حياتنا اليومية، ففيها فصاحة الأولى وسهولة الثانية، وقربها من المتلقى، كما أتاحت الصحافة المصرية لهذه الفصحى الجديدة أن تنتشر لا فى مصر وحدها بل أيضا فى العالم العربى جميعه، إذ تقبل عليها الجماهير القارئة فى البلاد العربية بأسرها، وأصبحت الفصحى الصحفية المصرية هى الفصحى الشائعة، خاصة فى ظل تكاثر وازدياد عدد الصحف والمجلات التى تصدر، وبذلك استطاعت الصحافة أن توجد لغة وسطى بين اللغتين الفصحى والعامية.

الحوار عن الفصحى يقودنا للعلاقة بينها وبين العامية ومدى التأثير عليها سلبا وإيجابا؟

رغم ما حققته الفصحى العصرية من نهضة كبيرة فى جميع الفنون الأدبية والصحفية، إلا أنه لا تزال العامية لغتنا اليومية فى البيت والسوق والمصنع، ومن يدقق فيها جيدا يكتشف أنها استعارت الكثير من ألفاظ الفصحى العصرية فى السياسة والأدب وغيرهما، فهى دائما تلوذ بالفصحى وتحاول اللحاق بها، وليس صحيحا أن هناك قطيعة بينهما، بل إن العامية لتلتحم بالفصحى فى مئات، بل آلاف من الألفاظ، وهناك الكثير من الباحثين فى هذا المجال الذين تنبهوا إلى ذلك، وقد عرضوا جميعا مئات من الألفاظ التى يظن البعض أنها عامية وهى تمت إلى الفصحى بنسب صحيح، كما عرضوا لبعض الألفاظ الفصيحة الأصل والتى أصابتها العامية ببعض التحريف فى الحركات أو فى الحروف، كل هذا يؤكد أن هناك علاقة وثيقة بين الفصحى والعامية.

والمجمع ألف منذ فترة لجنة للنظر فى اللفظ والأسلوب اللذين تجرى بهما أقلام الكتابة، مما يظن أنهما غير فصيحين بينما هما كذلك، وذلك بشهادة الأعلام من اللغويين، ومن شأن هذه اللجنة أن تزيل الحواجز بين ألفاظ العامية والفصحى، وحصر صور التحريف فيها، فى محاولة لرفع الحواجز بين العامية والفصحى.

بماذا تفسر العزوف عن استعمال اللغة العربية الفصحى وتردى المستوى فى هذه الجزئية تقريبا على جميع المستويات؟

عموما المجمع ناقش هذا الموضوع طويلا، توصلنا فى نهاية المطاف إلى سبب رئيسى وهو وسائل الإعلام، فهى المسئولة عن ذلك فى المقام الأول، فجميع صور الإعلام فى الإذاعة

والتليفزيون يغلب عليها استخدام العامية، ويظن أنها لغة تقابل الفصحى، وهى ليست لغة بل هى لهجة مولدة من تحريف كلمات الفصحى، وتبلغ الفصحى المحرفة فيها نحو ٨٠٪ من كلماتها، ومن أكبر الأخطاء فى الإذاعتين المسموعة والمرئية عرض مسلسلات قصصية عامة، يتابعها الطلاب عندنا فى الأمسيات بعد قضاء يوم طويل فى الدراسة، إذ تفسد عليهم ما تعلموه فى مدارسهم صباحا من اللغة العربية الصحيحة، وأطالب وزارة الإعلام بوقف هذه المسلسلات، فليس المهم التسلية والترفيه بقدر التعليم والتثقيف، كما يجب أن تكون لغة الإذاعات المسموعة والمرئية هى اللغة العربية الفصحى، حتى تفهم البلاد العربية جميعها ما يذاع، وليس المصريون وحدهم، وأعتقد أن هذا هدف مهم وهذا ليس بالصعب على المذيعين والمذيعات.

يضيف د. شوقى ضيف قائلا إن الأخطر فى الأمر هو زحف كثير من الألفاظ الأجنبية على البرامج، بل إن هناك بعض البرامج التى تسمى بأسماء أجنبية فمثلا أتذكر برنامج كان يذاع باسم « Take Away» وأنا أرى أن الألفاظ الأجنبية مثل الألفاظ العامية ينبغى أن تُمحى محوا من وسائل الإعلام، إذا كنا حقا جادين فى التمسك بلغتنا الفصحى، لغة أدبنا الرفيع وعلومنا واقتصادنا وثقافتنا وفكرنا وفلسفتنا وديننا.

إذن ما السبب فى تردى مستوى اللغة العربية فى وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية؟

فى البداية أنا لا أشكك فى وطنية أحد، خاصة هؤلاء الذين يستهينون باللغة العربية، سواء فى وسائل الإعلام أم المؤسسات التعليمية، ولا فى إخلاصهم لأمتهم، وأرى من وجهة نظرى أن المسألة عند الإعلاميين وأساتذة الجامعة والمعلمين بصفة عامة ترجع إلى الكسل فى بذل المجهود، سواء فى التحدث، أم فى إلقاء المحاضرات، حيث من المفروض بالنسبة للمتحدث والمحاضر أن يبذل شيئا من الجهد لكى ينطق بالألفاظ نطقا عربيا سليما، ولكى يتلفظ بحركات الكلمات إعرابيا تلفظا سديدا، وعموما ليس هناك فى الحياة شىء يريده الإنسان دون أن يؤدى له جهدا سواء قليلا أم كثيرا حسب حجم هذا الشىء.

هذا يجرنا إلى مجال الفن حيث المسلسلات والأفلام والمسرحيات وعلاقة ذلك بتراجع المستوى فى اللغة العربية نقصد الفصحى بالتحديد؟

أنا شخصيا لا أشك فى أن جميع الممثلين لدينا يستطيعون أن يسهموا بشكل كبير فى إثراء اللغة العربية إذا أرادوا ذلك لسبب بسيط، وهو أن جميع هؤلاء الممثلين على الأقل حصلوا على

الثانوية العامة، فهم تعلموا العربية، وحفظوا نصوصها سنوات طوالا، ومنهم من نال شهادة عالية وكان يستعمل اللغة فى أداء امتحاناته، وليس هناك وجه أن يقول أحدهم إننى لا أعرف اللغة العربية، لسبب بسيط وهو أنه عربى وأنفق فيها الساعات يتعلمها ويدرسها، وهناك دليل قوى جدا على قدرة هؤلاء الممثلين على أداء أدوارهم باللغة العربية الفصحى. وأن هذا ميسور وسهل، فعلى الرغم من أنهم يمثلون المسلسلات فى التليفزيون عندنا بالعامية، لكن إذا طلب منهم فى بلاد عربية أن يعرضوا على جماهيرها مسلسلا عربيا أى باللغة الفصحى مثلوه بكل سهولة، فلماذا هذه التفرقة بين ما يعرض على أبنائنا من المسلسلات وما يعرض منها على أبناء السعودية أو غيرها.

ما دور المجمع للحد من استخدام اللافتات الخاصة بالمنشآت وخلافه المكتوبة بأسماء أجنبية والتى أصبحت ظاهرة ملفتة للجميع؟

المجمع يتبنى هذه القضية منذ فترة طويلة ففى عام ١٩٨٧م، أوصى فى مؤتمراته الحكومة المصرية بل والحكومات العربية، بإصدار تشريعات تحظر كتابة اللافتات على الفنادق والمحال والشركات التجارية والمؤسسات الاقتصادية بلغات أجنبية، مع حظر كتابة الأسماء والألفاظ الأجنبية بحروف عربية، وذلك للمحافظة على هوية الأمة وشخصيتها، بحيث تكون كتابة اللافتات دائما بلغة الأمة العربية لغتها القومية، وليس معنى ذلك ألا نعنى فى تعليم الناشئة باللغات الأجنبية، بل إن هذه العناية واجبة، وهو ما تتكفل به دائما وزارة التعليم دون المساس بلغتنا القومية.

ما رأيك فى قضية تعريب العلوم الحديثة وهل نحن بحاجة إلى ذلك، أم تدريس العلوم الغربية بلغتها الأصلية هو الأجدى؟

فى البداية أقول لك حقيقة لا جدال فيها، وهى أن جميع الأمم، ما عدا الأمة العربية باستثناء سوريا التى تعلم هذه العلوم بالعربية منذ ما يزيد على سبعين عاما، هذه الأمم جميعا تعلم العلوم فى جامعاتها بلغاتها الوطنية حفاظا على شخصيتها وهويتها وتاريخها وحضارتها، وكأن الأمة العربية تنازلت عن كل ذلك، علما بأن لغتها هى التى استطاعت استيعاب العلوم، وقادت العالم علميا طوال خمسة قرون، وعادت فى عهد محمد على إلى قيادة العالم العربى علميا فى العلوم الغربية الحديثة وترجمتها إلى العربية.

وأن من ينادون بتعلم هذه العلوم بلغتها الأصلية وعدم تعريبها، هؤلاء هم المثبطون من

أصحاب المستشفيات والعيادات التى تغدق يوميا على أصحابها إغداقا ماليا عظيما، هذا فى مجال العلوم الطبية وهذا ليس منطقا بالتأكيد، لكن لابد من الاهتمام بلغتنا الوطنية، وأنا أهيب بالأساتذة فى كليات الطب والهندسة والعلوم أن يحملوا بقوة على تعريب العلوم فى جامعاتنا، حتى تتخلص من تبعيتها العلمية للغرب، كما تخلصت دول الغرب من تبعيتها للغة اللاتينية..... فلما تركوا هذه اللغة اللاتينية وأخذوا يعلمون العلوم بلغاتهم الوطنية نفذوا إلى النهضة الحديثة، وهو ما ننتظره لأمتنا العربية على أيدى علمائنا فى القرن الحادى والعشرين، بحيث يتم تعريب العلوم طب وغيره إلى العربية، وتحدث لدينا نهضة عربية علمية، لا تقل ازدهارا واكتمالا عن نهضة أسلافنا فى العصور الوسطى.

اللغة العربية فى مواجهة المخاطر ★

عقدت لجنة الصياغة المؤلفة من السادة أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق، مقررى جلسات المؤتمر، عدة جلسات درست فيها مجمل البحوث، وما اشتملت عليه من أفكار، واستعرضت الاقتراحات التى وردت فى المناقشات التى جرت عقب إلقاء البحوث، وخلصت إلى صياغة التوصيات التالية:

١) مناشدة الدول العربية إصدار تشريعات ملزمة لحماية اللغة العربية، من خطر استعمال اللهجات العامية، واللغات الأجنبية فى الإعلام، والإعلان، والإشهار، وترتيب عقوبات على المخالفين الذين لا يبالون بجعل العربية غريبة فى دارها.

٢) دعوة الدول العربية إلى رسم سياسة لغوية واضحة تتفق مع النصوص الواردة فى دساتيرها، التى تنص على أن اللغة العربية لغتها الرسمية، مما يرتب عليها تعميم استخدامها فى مختلف ميادين مناشطها، فتكون لغة التعليم بجميع مراحله وأنواعه، ولغة الإدارة والقضاء والاقتصاد والإعلام وسائر وجوه الحياة الأخرى.

٣) دعوة الدول العربية، وخاصة وزارات التربية فيها، إلى إيلاء تعليم اللغة العربية فى مدارسها العناية الفائقة، وتحسين طرائق تدريسها قراءة وكتابة، وتعويد التلامذة والطلاب المطالعة المفيدة التى تنير الفكر وترهف الحس وتغذى الناشئة، مع اتباع الأساليب المشوقة، وإكساب الناشئة المهارة اللغوية وأساليب التعليم الذاتى، وإجراء التدريبات اللازمة لاكتسابها، مع دعوتها لتحديد مجالات القصور فى أساليب تعليم اللغة العربية وسبل الارتقاء بالواقع.

٤) دعوة مجامع اللغة العربية ووزارات التربية فى الدول العربية إلى وضع الدراسات المتعلقة بتطوير مناهج تدريس اللغة العربية، وخاصة الصرف والنحو والإملاء، وتأليف مرجع ميسر لهذه القواعد، مع الاستفادة مما وصلت إليه نظريات علم اللغة وفروعه الخاصة.

★ توصيات المؤتمر الثانى لمجمع اللغة العربية بدمشق، ٢٧ من شعبان ١٤٢٤هـ ٢٠ إلى ٢٣من أكتوبر ٢٠٠٣م.

٥) دعوة الدول العربية، وبخاصة وزارات التربية، إلى تدريس المواد العلمية فى المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية باللغة العربية دون سواها، وذلك دون إهمال تعليم الطلاب فى المراحل العليا من التعليم العام لغة أجنبية أو أكثر، للحاجة إليها فى التخصص والتواصل مع الآخر.

٦) مناشدة الدول العربية التى شرعت فى تعريب تدريس المواد العلمية فى معاهدها وجامعاتها، استكماله وتوفير مستلزماته، كيما يكون التعريب عامل تقدم علمى لها، وسبيلا لاستيعاب الطلاب العلم استيعابا صحيحا، مع تحويل البحث العلمى إلى اللغة العربية تحقيقا لتوطين العلم، وفتح السبيل إلى الكشف والإبداع فى العلم.

٧) مناشدة الدول العربية التى لم تشرع فى تعريب التدريس العلمى فى مرحلة التعليم العالى، مباشرته دون تأخير، مع توفير متطلباته الأساسية: المدرس الكفء، والكتاب المؤلف بالعربية أو المترجم إليها، والمصطلح العلمى الصحيح.

٨) الإفادة من المنجزات التى تحققت فى البلدان الآخذة بالتعريب، وذلك بعقد اتفاقات تعاون ثنائية بين الجامعات والمؤسسات العلمية العربية الراغبة فى التعريب والجامعات والمؤسسات المعربة فى البلدان العربية.

٩) الإفادة من الجهود والمنجزات التى حققتها المجامع اللغوية والعلمية والجامعات والمركز العربى للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، ومركز تنسيق التعريب بالرباط والهيئات والمؤسسات الثقافية العاملة فى ميدان المصطلح والترجمة وتصنيف المعاجم العامة والمتخصصة والموسوعات العلمية.

١٠) دعوة الدول العربية، ووزارات التربية والتعليم إلى تنفيذ المقررات التى اتخذتها المؤتمرات الوزارية (وزراء التعليم العالى، وزراء الثقافة)، والتوصيات التى أصدرتها الندوات والملتقيات والاجتماعات التى دعت إلى انعقادها، بشأن التعريب والترجمة والمصطلح، والعمل على إنفاذ الخطة الشاملة للثقافة العربية والخطة القومية للتعريب، هذه الخطط التى وضعت بإشرافها.

١١) دعوة الدول العربية لاتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الهوية الثقافية واللغة العربية من أخطار الغزو الثقافى الجامح، والعولمة الزاحفة، التى تسخر لتحقيق أغراضها جميع أدوات الاتصال والإعلام الحديثة، وتسعى جاهدة لاختراق ثقافتنا ولغتنا.

١٢) دعوة جامعة الدول العربية والدول العربية جميعها إلى المساعدة على نشر اللغة العربية السليمة فى مواطن الاغتراب، وبلدان الشعوب الإسلامية المتعطشة إليها، وتعزيز استعمالها فى هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، وذلك بتقديم العون البشرى والمادى والفنى لها، مع دعوة ممثلى الأقطار العربية إلى الالتزام باللغة العربية.

إن جهودا مخلصة ومستمرة تبذل فى هذا السبيل، تمكن اللغة العربية من تحقيق عالميتها وبلوغ مرتبة متقدمة بين لغات العالم.

١٣) دعوة مجامع اللغة العربية إلى الاهتمام بإعداد المعجم التاريخى للغة العربية، الذى يرصد اللغة من أقدم عصورها حتى اليوم، لما فى ذلك من خير للعربية، وكشف عن جوهرها الذى لا تضاهيها به لغة أخرى.

١٤) توفير الآليات الضرورية لتحقيق الزيادة المطلوبة فى المحتوى العربى للشبكة العالمية (الإنترنت) عن طريق التحول نحو الرقمية، وإصدار التشريعات الحافزة لقيام صناعات فى المحتوى العربى للشبكة، وتعليم المعلوماتية والاتصالات بالعربية، واعتماد مبادرات على مستوى كل دولة عربية، وعلى المستوى القومى تهدف إلى تحقيق الآليات لذلك التطور، وإلى إيجاد الحلول للعقبات التقنية التى تعوق ذلك.

١٥) السعى لإنشاء مرصد عربى للمصطلحات، يشجع التعاون على البحث المصطلحى النظرى والتطبيقى، ورصد المولدات وجمع البيانات المصطلحية والمعجمية ومعالجتها وخزنها وتحليلها وتبادلها ونشرها، وتطوير التدريب المصطلحى، والمساعدة على اعتماد سياسة تخطيط مصطلحى فى إطار الخطط الثقافية التى أقرتها الهيئات المختصة، إضافة إلى إقامة علاقات خارجية، والمشاركة فى المشروعات المصطلحية الدولية.

١٦) دعوة مجامع اللغة العربية إلى متابعة جهودها فى تحقيق التراث ونشره، للكشف عن كنوز حضارتنا العربية الإسلامية التى رفدت الحضارة البشرية بالعلم والمعرفة، ودعوة المجامع اللغوية الجديدة إلى انتهاج النهج نفسه، وإقامة أشكال مختلفة من التنسيق والتعاون بين المجامع فى هذا المجال.

١٧) تشجيع مراكز الترجمة والتعريب، بيوت الحكمة المعاصرة، على أداء مهامها على الوجه الأكمل، وذلك بالعناية باختيار الكتب المراد ترجمتها، واختيار المترجمين والمراجعين

الأكفاء فى شتى فروع المعرفة، والاستعانة بقواعد المعطيات الاصطلاحية والتجهيزات الحاسوبية، وربطها بشبكة اتصالات تساعد على تواصل الأفراد والجمعيات والهيئات، مع التشجيع على إنشاء جمعيات للمترجمين، تساعد على حماية حقوقهم وجمع شملهم خدمة للثقافة العربية، وتحقيق التواصل مع الثقافات الأخرى.

١٨) ينوه المؤتمر بالجهود التى بذلتها المجامع اللغوية والعلمية العربية فى مجالات حماية اللغة العربية، ووضع المصطلحات وتوحيدها، وفى تحقيق التراث العربى ونشره.

اللغة العربية ومجتمع المعرفة ★

فى الوقت الذى نرى فيه بعض المثقفين يتخلون عن دورهم النضالى فى الحفاظ على الهوية، والدفاع عن ثوابت الأمة، بل نرى من المحسوبين عليها من يهاجم هذه الثوابت، ويمهد لهيمنة وسيطرة ثقافة القطب الأوحد فى عالمنا المعاصر – فى هذا الوقت الذى نرى فيه هذا وذاك، نجد من يدافع عنها لا بالشعارات الجوفاء، أو المبررات الساذجة، وإنما بالحقائق العلمية، وبلغة العصر، وفى صمت، ومن قبل ومن بعد بإيمان ثابت واعتقاد راسخ فى أهمية هذه الثوابت، وضرورة تفعيلها فى عصر التحديات، عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. فى مقدمة هؤلاء الخبير المعلوماتى، والعالم الفذ، مهندس الطيران «نبيل على» الذى لا يقل إبداعه فى مجال الثقافة واللغة عن إبداعه فى هندسة الطيران (تخصصه الدقيق الذى نال فيه درجة الدكتوراه عام ١٩٧١م).

فمنذ ثلاثة عشر عاما تخصص فى بحوث «اللغويات الحاسوبية»، بهدف تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعى على معالجة اللغة العربية بالكومبيوتر. كما أنه وضع أول كتاب فى المكتبة العربية يتناول قضية «اللغة العربية والحاسوب». وهو مؤلف كتاب «العرب وعصر المعلومات» (١٩٩٤م)، بالإضافة إلى سفره الخالد «الثقافة العربية وعصر المعلومات» رؤية لمستقبل الخطاب الثقافى العربى (٢٠٠١م)، وفى هذه الإبداعات وغيرها كانت الثقافة واللغة العربية شغله الشاغل وهمه الأكبر، وإن حظيت الأخيرة باهتمام خاص فى أحدث إصداراته « اللغة العربية وتكنولوجيا المعلومات» (٢٠٠٣م).

وهنا نقول: إن هذه النقلة النوعية فى سيرة «نبيل على» العلمية تضعنا ولا شك أمام شخصية مثيرة – ليس فقط للإعجاب – وإنما للتقدير والإكبار، فلقد استطاع وهو مهندس الطيران، أن يحلق بنا – فى معالجته قضية الثقافة واللغة العربية – إلى آفاق أرحب وأبعد بكثير من تلك المعالجات التقليدية قصيرة النظر، ضيقة الأفق، مما يجعلك – وأنت تقرأ أو تسمع له –تشعر أنك لست أمام مهندس فى الطيران، وإنما خبير متخصص فى الثقافة، وفى أدق خصائص اللغة العربية وفنونها: نحوا وصرفا، بلاغة وبيانا، علما وفقها أسلوبا وفكرا، وفى الجملة شكلا ومضمونا، مما يبرر لنا أن نطلق عليه «مهندس اللغة العربية فى عصر

★ د. محمد سكران، جريدة الأهرام، ١٢ من فبراير ٢٠٠٤م.

تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وأن نطيل فى بيان اجتهاداته الإبداعية فى مجال اللغة العربية، فقد غطتها العديد من مؤلفاته ودراساته، ونكتفى هنا بالإشارة إلى ما جاء فى ورقة العمل القيمة، التى ألقاها فى الندوة الفكرية، التى عقدتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية لمناقشة العدد الثانى من تقرير التنمية الإنسانية، الذى يحمل عنوان «مجتمع المعرفة» وحضرها نخبة من المهتمين بقضايا وطنهم وأمتهم العربية، وكان لكاتب هذه السطور شرف الدعوة لحضور هذه الندوة، وجاءت أفكار ورؤى «نبيل على» حول «اللغة العربية ومجتمع المعرفة» لتزيد من ثراء وخصوبة وحرارة المناقشة، يستهل ورقة العمل بمقدمة تكشف عن أهمية اللغة، ودورها المتعاظم فى مجتمع المعرفة، لاعتبارات وعوامل عديدة، منها:

- محورية الثقافة، التى لم تعد مجرد بنية فوقية، أو أحد العناصر المكونة لمنظومة المجتمع، وإنما المحور الأساسى الذى تدور فى فلكه عملية التنمية المجتمعية الشاملة.

- محورية اللغة فى منظومة الثقافة، لتعاظم الدور الذى تلعبه فى جميع العناصر المكونة لهذه المنظومة فى مجتمع المعرفة.

- محورية معالجتها آليا بواسطة الكومبيوتر فى تكنولوجيا المعلومات، فاللغة هى المنهل الطبيعى الذى تستقى منه هذه التكنولوجيا أسس ذكائها الاصطناعى، وقواعد معارفها، وهى التى تكسب أجيال الإنسان الآلى القدرة على محاكاة الوظائف البشرية.

- تعاظم أهمية اللغة على خريطة المعرفة الإنسانية، حيث ازدادت علاقتها وثوقا بمختلف أنواع هذه المعرفة، حتى أوشك المدخل اللغوى أن يصبح نهجا معرفيا عاما تستهدى به ليس فقط العلوم الإنسانية، وإنما - أيضا - العلوم الطبيعية.

- اتساع مفهوم مجتمع المعرفة، ليشمل مجتمع التعلم مدى الحياة - ليس فقط للبشر - وإنما أيضا للآلات والنظم والمؤسسات، بل للخلايا والفيروسات، وكل هذا يرتكز فى الأساس على اللغة: إنسانية كانت أو برمجية اصطناعية.

- احتياج مجتمع المعرفة دوما إلى التواصل الأوسع نطاقا والأكثر تنوعا، بما يفرض تأصيل العلاقة بين اللغة - بصفتها النسق الرمزى المحورى - وبين الأنساق الرمزية الأخرى

- تعاظم الدور الذى تلعبه اللغة على مختلف الأصعدة والمستويات، خاصة بعد أن أصبحت

من أشد الأسلحة الأيديولوجية ضراوة، وبعد أن فرضت قوى السياسة والاقتصاد سيطرتها على أجهزة الإعلام، وعلى صنع الثقافة بوجه عام.

- وباتت هذه القوى – ومن خلال اللغة – تعمل على توليد خطاب يخدم مصالحها، ويتحكم فى أقدار الأفراد والجماعات، والدول والمجتمعات.

لهذه العوامل، ولغيرها، يتعاظم دور اللغة فى مجتمع المعرفة، مما يتطلب نظرة أعمق وأشمل لمنظومة اللغة العربية بعناصرها الداخلية، وعلاقاتها الخارجية التى تربطها بالمنظومات المجتمعية الأخرى.

ويقول «نبيل على»: إن العالم العربى فى مسعاه لدخول مجتمع المعرفة يواجه تحديات قاسية فى كل الميادين والمجالات، وعلى كل الجبهات خاصة جبهة اللغة، حيث يعيش أزمة لغوية طاحنة على جميع الأصعدة: تنظيرا وتعليما، نحوا ومعجما، استخداما وتوثيقا، إبداعا ونقدا، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى خليط هذه الأزمة عنصرا تكنولوجيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا، بواسطة الكومبيوتر، مما يجعل منها «الأزمة الأم» لشدة خطورتها وتعقيدها، إذا ما قورنت بغيرها من الأزمات التى تواجهها الأمة العربية، وهى على عتبة نقلة نوعية حادة، ولا فكاك من دائرة هذه الأزمة إلا باستغلال الفرص العديدة التى يتيحها مجتمع المعرفة، لتفجير الطاقات الكامنة فى اللغة العربية: ابتداء من آليات تكوين الكلمات اشتقاقا وتصريفا ومزجا، وامتدادا، إلى أساليب صياغة أنواع الخطاب المختلفة: علمية كانت أو إنسانية أو أدبية، ومن هذه الفرص – كما يقول «نبيل على».

- الثورة العلمية التى تشهدها اللغويات الحديثة وما أفرزته من عشرات المناهج التى يمكن من خلالها تناول الكثير من إشكاليات اللغة العربية، التى استعصت على الحل، كالمنهج الأنثروبولوجى، والصورى والرياضى والمنطقى، والسلوكى الإمبريقى، والتوليدى والإحصائى، والنصى، والوظيفى، والمعجمى، والبيولوجى، الأعصابى، والمنهج الحاسوبى، وغيرها من المناهج العلمية التى يمكن الإفادة منها فى إصلاح لغتنا العربية، وتوظيفها لدخول مجتمع المعرفة.

- التطور التكنولوجى الهائل فيما يسمى «هندسة اللغة» القادرة على معالجة النظام اللغوى شديد التداخل والتعقيد.

- ما تزخر به شبكة الإنترنت من فرص، يمكن استغلالها فى تطوير مواقع مختلفة لخدمة اللغة العربية.

- استثمار التحالف غير المعلن بين الدول غير الناطقة بالإنجليزية، من أجل التصدى لهيمنة هذه اللغة معلوماتيا وإعلاميا وترفيهيا، وغيرها من الفرص المتاحة التى يمكن اغتنامها فى تطوير اللغة العربية، وتعظيم دورها فى مجتمع المعرفة.

كما أوضح «نبيل على»: علاقة اللغة العربية بمنظومة اكتساب المعرفة بمراحلها المختلفة، ابتداء من النفاذ إلى مصادرها، وامتدادا إلى نقلها واستيعابها، وتوظيفها، وتوليد معارف جديدة. وهذه العلاقة تتطلب – أول ما تتطلب – تحليلا دقيقا لعلاقة اللغة العربية بالفكر على كافة المستويات، وتوفير الآليات والوسائل المناسبة التى تمكنها من القيام بدورها فى كل مرحلة من هذه المراحل، فمرحلة النفاذ إلى مصادر المعرفة تتطلب العديد من الوسائل البرمجية، لمعالجة النصوص العربية آليا: كالفهرسة والاستخلاص والتلخيص، ويتطلب نقل المعرفة واستيعابها تعريب التعليم فى جميع المراحل التعليمية بما فيها التعليم العالى والجامعى، والمراجعة الجذرية لتعليم اللغة العربية.

أما دور اللغة فى توظيف المعرفة فإنه ينطلق فى الأساس من منظور حل المشكلة الذى يتطلب بدوره دقة فى تحديد وصفها والمقارنة المنهجية بين البدائل المطروحة لحلها. وبخصوص اللغة العربية فى توليد المعرفة الجديدة فإنه يمكن أن يتعاظم من خلال دعم جهود البحث العلمى الحديث فى المجالات العلمية المختلفة، وتشجيع الإبداع الفنى والأدبى على اختلاف أنواعه وتوجيهاته.

وفى المحور الأخير من ورقة العمل يوضح نبيل على: علاقة اللغة العربية بالسياق المجتمعى، الذى تمارس فيه وظائفها المتعددة، حيث لا يمكن أن تؤتى جهود الإصلاح اللغوى ثمارها، أو قيام اللغة العربية بدورها فى مجال مجتمع المعرفة دون تحليل دقيق لطبيعة التفاعل «اللغوى – المجتمعى»، واقتفاء مسالكه على الصعيدين السياسى والاقتصادى، الإقليمى والعالمى.

ويختم «نبيل على» أفكاره وتحليلاته بكلمات تكشف عن اعتزازه وإكباره لغته العربية، فكما يقول – وبحق – لقد أثبتت هذه اللغة جدارتها على مر العصور، ويشهد تاريخ الفتح الإسلامى على سرعة انتشارها، واندماجها فى بيئات لغوية متباينة – وأنها كانت أداة فعالة لنقل المعرفة، ومن ثم فإن من حقها أن تصبح لغة عالمية، خاصة أنها – من منظور فقه اللغة – تتسم بالعديد من الخصائص الجوهرية، من أهمها: التوسط والتوازن اللغويان، فاللغة العربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى على مستوى جميع فروعها اللغوية، كما أنها تثبت – من منظور معالجة اللغات الإنسانية أليات بواسطة

الكومبيوتر - جدارتها كلغة عالمية، فبفضل توسطها اللغوى يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية، لتلبية مطالب اللغات الأخرى، وعلى رأسها الإنجليزية. وأخيرا - وليس آخرا - يقول نبيل على: إن ثقافة مجتمع المعرفة تفرض علينا توطيد العلاقة بين اللغة العربية، واللغات العالمية، والتوسع فى الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية، وضرورة إخضاع اللغة العربية للنظرية العامة للغة التى تندرج فى إطارها جميع اللغات الإنسانية، انطلاقا من عالمية الخطاب القرآنى، وبالتالى عالمية لغته، بل إن هذه العالمية تفرض أن تكون اللغة العربية من أوائل اللغات التى تنضم إلى حظيرة العموم اللغوى العالمى.

لغتنا العربية.. المظلومة★

نحن على يقين من أن هناك من مدرسي اللغة العربية في مدارسنا كثرة غالبة، يبذلون جهدهم في سبيل تذليل تدريس اللغة وقواعدها وآدابها لطلابهم، على الرغم من الاختيار غير الموفق للنصوص، التي تقرها لجان الوزارة، بعد كل هذا العدد من المؤتمرات والندوات والجلسات، التي عقدتها الوزارة بهدف تنقية دراسات اللغة العربية من الحشو والزيادة، وأيضا من اللغو والغلو، ومع هذا ظلت حال دراسات اللغة العربية مملوءة بالثغرات التي تنفر التلاميذ والطلاب وأيضا الأساتذة من مقررات اللغة العربية.

ونحن على يقين من أن هناك العديد من المحاولات لإدخال فن المسرح والعناصر الجاذبة لتدريس اللغة العربية، إلا أن تلك الجهود لا تزال في مرحلة التجارب، وأيضا تصطدم بالعقلية الجافة لبعض من بيدهم أمر هذه اللغة في المدارس، وأدى هذا كله إلى التقليل من شأن مادة (اللغة العربية) في مختلف المستويات التعليمية، وأصبحنا أمام جيل لا يحسن النطق بلغته، ولا الكتابة بها، وانتشرت ظاهرة الأخطاء في الإملاء والنحو في كتابات موظفي الدولة، وكادت تختفي (ملكة اللغة) عند خريجي الجامعات والمعاهد، وأصبح من الأمور العادية عدم إجادة اللغة العربية كتابة ونطقا، كما أصبح من الشائع استخدام (مفردات لغوية) في غير معناها، أدى هذا إلى الابتعاد عن القراءة بداية من الكتاب إلى الجريدة، كما شاعت (مفردات وكلمات) دخيلة على ألسنة رجال الإعلام خاصة على ألسنة مذيعي التليفزيون.

وكان هذا كله سببا في انتشار الدروس الخصوصية في اللغة العربية التي تحولت إلى هم يلاحق الطلاب، واستغل هذا الهم الطلابي، والعياذ بالله، بعض المدرسين ذوي الضمائر الهاربة، وللأسف فإن تحليل نتائج الطلاب في الشهادات العامة، الذين أخذوا دروسا خاصة في اللغة العربية، تدل على عدم الاستفادة من تلك الدروس – ولم يحققوا نتائج مبهرة كما توهم الآباء، إن النظر إلى مادة اللغة العربية التي تدرس في المدارس على جميع مستوياتها على أنها مجرد مادة مثلها مثل بقية المواد، أمر يجب تغييره، والنظر إلى اللغة العربية على أساس قومي حياتي، يخص المواطن قبل أن يخص الطالب والمدرس، يخص المجتمع كله لا يخص وزارة التربية والتعليم وحدها، إنه لسان هذا المجتمع، وضمير هذه الأمة، ومنبع

★ أ. فتحي سلامة، جريدة الأهرام.

حضارتها ومنار تطورها، والرابطة التى يجتمع عليها العرب جميعا، فكيف نتركها لزمرة من المنتفعين لا يهمهم إلا كيفية حفظ قاعدة كان وأخواتها!

واللغة العربية، ليست قواعد نحو وصرف، كما أنها ليست بلاغة وميزان شعر، إنها حياة، حياة أمة بأسرها، يجب أن تعيش، وتتواصل، تربط تاريخ تلك الأمة العريقة بحاضرها المتطلع إلى غد أفضل.

واللغة، إذا نظرنا إليها على أنها حياة متكاملة، وعملنا على إحيائها بشتى الطرق، لانطلقت الألسن الحبيسة من عقالها، لأنها ليست واردة مستحدثة، إنما هى تعيش داخل نفوسنا.. ولا تحتاج إلا لحسن الاستخدام والتعلم.

الأزمة ليست فى اللغة ولكن فى أسلوب التعليم ★

لأن الكلمة والجملة أكثر الوسائل شيوعًا لنقل الأفكار والتعبير عن المشاعر، ولأن اللغة كائن حى يتغير ويتطور، حتى على مستوى اللاوعى، طبقا لمتغيرات العالم الخارجى، ولأن عمليات تعلم اللغة واستخدامها تمر بأكثر من مرحلة، وتخضع لأكثر من عامل، مثل العوامل السيكولوجية والاجتماعية وأساليب التلقين، وحفظ المعلومة واسترجاعها وغيرها، ولأن اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولأن.. ولأن.. تشغل قضايا اللغة العربية ومشكلاتها حيزًا لا يستهان به فى أذهاننا جميعًا..

الجميع يشكون.. يتعجبون.. ويتساءلون عن مستقبل اللغة العربية بداية من الآباء والمدرسين فى مراحل التعليم المختلفة ممن تخرق عيونهم الأخطاء الإملائية الفاحشة، وخطوط الأبناء التى تتحول إلى طلاسم من المستحيل حل ألغازها، إلى أبناء جيل سابق تعلم اللغة العربية على حق، وبعض الأكاديميين وأعضاء المجمع اللغوى ممن يرهفون السمع محاولين العثور على حروف من اللغة كادت تندثر تماماً مثل القاف والضاد والصاد، فلم يعد لها وجود، اللهم إلا على ألسنة جيل قراء القرآن الكريم الذين رحلوا، أو بعض من تلاميذهم، أو على ألسنة فئة محدودة فى مؤسسات تعليمية أو إعلامية.

وإذا كانت اللغة العربية قد تطورت واختلفت عن اللغة التراثية لتلائم حركة المجتمع وتطوره، لتتلاشى من قاموس محادثاتنا اليومية أو ما نسطره على الأوراق كلمات بخ بخ أو ملمة (كارثة) أو مضنى أو النشيش (النبتة) أو يتبهنس (يتبختر) أو الرئبال/ الضيغم / الهزبر (الأسد) أو البرحاء (الشدة والألم)، فهناك كلمات جديدة دخلت فى سياق الحديث اليومى على لسان الشباب، واكتسبت شيوعًا لتصبح جزءا من سياق ثقافتهم اللغوية، التى تمتد لتصل لكل من يتعاملون معهم، وإن لم يستخدموها هم أنفسهم.

وتتجسد الصورة بشكل أوضح عندما يتحدث الطلبة مؤكدين أنهم يفضلون اللغات الأجنبية على حصص اللغة العربية وقواعدها السخيفة، وهو ما ارتبط بالطبع بعودة ظهور الدعوة التى ظهرت فى ثلاثينيات القرن الماضى لإلغاء التشكيل فى اللغة العربية، وإن اكتسبت فى

★ أ. سناء صليحة، جريدة الأهرام، ١٥ من فبراير ٢٠٠٤م.

تسعينيات القرن وألفيته أبعاداً أكبر لتمتد للمطالبة بتغيير قواعد النحو وإلغاء الضمائر وأدوات الربط والتذكير والتأنيث تحت شعار تبسيط اللغة وتطويرها.

ولأن صوت هذا التيار يعلو ثم يخفت (لأسباب لا يعلمها سوى الله) فإن الأمر وصل إلى حد منح الجائزة التشجيعية فى أحد الأعوام لعمل يتبنى هذا الأسلوب. بالرغم من عدم اعتراف المجتمع الأدبى به بعد، وعدم الاقتناع الشخصى لأكثر من محكم بهذا الاتجاه، كما صرحوا آنذاك. واستبعاد رواية للأديب محمد ناجى.

على جانب آخر وبعيداً عن الجدل المحتدم بين حماة اللغة العربية الفصحى، والمدافعين عن اللهجة العامية المصرية، ومقارنة فاعلية كل منهما فى نقل الأفكار والتفكير الإبداعى، من منا لم يلحظ دخول مفردات جديدة سقيمة، وغير مفهومة فى فنوننا وتسللها حتى إلى فن الشعر؟! مفردات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بعاميتنا المصرية بكل دلالاتها الواقعية وطلاوتها ووقعها المحبب للأذن - كما تتجلى فى أبيات بيرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد وغيرهم، كما أنها لا تنتمى بالقطع للغة العربية الكلاسيكية بكل رصانتها وقوتها أو للغة الثالثة التى تجمع بين الاتجاهين.

وبعيداً عن محاولة إصدار أحكام مسبقة لمصلحة أو ضد أى اتجاه أو ظاهرة، أو واقعة اختفاء أصحاب الأعمال التى تبنت فكرة تغيير طبيعة اللغة بعد عمل أو اثنين، يصبح التساؤل المنطقى: أما تشهده اللغة العربية الآن تطور طبيعى يمكن أن يستمر أو مواراة لعجز وعدم تمكن من لغة الضاد؟ ولماذا تنتحر الحروف على شفاه الشباب والأطفال؟! أين تكمن المشكلة؟! وكيف نصل للحل؟! فى سياق حديث أجريته مع د. عز الدين إسماعيل قبل سنوات قال «إن ما يحدث تحت عنوان ما بعد الحداثة فى الشكل والكلمة تهريج.. قد تجدين جملة لامعة لكن بقية النص مهترئ ساقط، تنبئ عن جهل كامل باللغة وكيان لا يعيش لغته.. إنه نوع من تخريب العقل والنفس.. ثم تساءل متعجبا «هل يجب أن أكسر اللغة لكى أعبر عن تفتت المشاعر والتمزق؟!»».

وبرغم تجاربه وانتقاله بين اللغة العربية الكلاسيكية والعامية المصرية سواء فى ترجماته أم أعماله المسرحية أم أشعاره وترجمته أخيراً لمختارات من مدارس وأجيال مختلفة من شعراء العامية فإن د. محمد عنانى ضد أى محاولة لتكسير قواعد اللغة وأساليب تركيب الجملة لأنها كفيلة بأن تفقد اللغة مذاقها. ومع ذلك فاللغة العربية على حد تعبيره تتجه الآن نحو التيسير وتتحرر من كثير من قيود اللغة التراثية، وتنهل من مناهل العامية، بل إنها قبلت كلمات عامية لا تخرج عن قواعد الصرف والصياغة. ويضيف د. عنانى إن اللغة

المعاصرة لم تلغ اللغة التراثية تمامًا لأنها لغة القرآن الكريم، لتظل الكلمات فى اللغة سواء عرفناها أم جهلناها.. فواقع الأمر أننا نعيش اليوم مستويين لغويين يسيران جنبا إلى جنب هما اللغة التراثية والفصحى المعاصرة.

ولكن يظل واقع العلاقة بين اللغة الفصحى والعامية والتركيبات الركيكة على لسان الشباب أمرًا يثير الحيرة.

فلماذا يشعر الشباب بالعجز أمام اللغة العربية والكلاسيكية ويفشلون فى معظم الأحيان فى استخدامها؟!

يشير د. علاء الجبالى فى دراسته عمليات اكتساب الطفل العربى اللغة حتى سن التاسعة إلى أن احتكاك الطفل الحقيقى بالفصحى يبدأ مع دخوله المدرسة، ليواجه بشكل مختلف للعربية، وبالرغم من أن العامية والفصحى تشتركان فى كثير من الصفات، إلا أن كلا منهما يمثل نظامًا لغويًا قائمًا بذاته.

ويقول «إن وعاء الفصحى الواسع، خاصة ما يتعلق فيه بالتراث يرتبط فى كثير من ملامحه بخصائص تعبر عن ثقافة قد تختلف اختلافًا جذريًا عن ثقافة الطفل المعاصر، أو فى أفضل الأحوال لا تقترب منها كثيرًا» ويشير فى موضع آخر إلى أن الطفل فى هذه المرحلة العمرية يجد صعوبة فى اكتساب بعض الأصوات التى تتميز بها الفصحى، ولا يجدها فى العامية، كما يواجه بقائمة من الألفاظ المعبرة عن دلالات لها مسميات لفظية أخرى فى العامية (مثل العاديات والغضنفر)؛ كذلك فإن ما يدرسه الطفل من قواعد النحو والصرف فى المراحل السنية الأولى يمثل تناقضا لقواعد اللهجة العامية التى تمثل اللغة الأم للطفل، كما تتجاهل مناهج النحو مراحل النمو والإدراك الذهنى للطفل، فتتحول القواعد لأدوات تحليل لغوى متخصص لا يستوعبه الطفل أو يستسيغه أو يرى فيه أى فائدة.

مع ذلك فإن د. علاء الجبالى يؤكد أن اكتساب الفصحى إلى جانب العامية أمر غير مستحيل، بل إنه يمثل مصدرًا ثريًا للتعبير اللغوى فى المواقف الاجتماعية الرسمية والحياتية بشرط تغيير واقع تعليم اللغة العربية فى مدارسنا بما يتواءم مع معطيات الطفل اللغوية والإدراكية والمعرفية، وتقديم اللغة فى إطار وظيفى لاكتساب المعرفة والتواصل مع ثقافة المجتمع.

وبعد هذا الاستعراض السريع المختصر لجوانب الأزمة، نتوجه لوزير التربية والتعليم ومراكز تطوير المناهج لمراجعة واقع مناهج اللغة العربية، لا نجد أبلغ من كلمات د. عائشة عبد

الرحمن عندما وصفت الأزمة بقولها «ليست عقدة الأزمة فى اللغة ذاتها، العقدة فيما أتصور، هى أن أبناءنا لا يتعلمون أن اللغة لسان أمة ولغة حياة، وإنما يتعلمونها بمعزل عن سليقتهم اللغوية، قواعد صنعة وقوالب صماء، تجهد المعلم تلقينا والتلميذ حفظا، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها وبيانها».

وسائل الإعلام أسهمت فى إيذاء اللغة العربية ★

التمسك باللغة العربية هو الخندق الأخير للحفاظ على هوية الأمة فى عصر العولمة، فهى اللغة التى كرمها الله تعالى فاختارها لسانا لوحيه القرآن الكريم، ومن ثم فهى لغة جميع المسلمين بحكم مكانتها المقدسة بينهم، وهى اللغة التى تم بها تأليف جميع كتب التفسير والسنة والفقه والأصول، وهى اللغة التى يتم بها أداء العبادات وتنظيم المناسك الإسلامية.

إن الدراسات والبحوث العلمية والمعاجم اللغوية، أكدت أن اللغة العربية هى أكثر اللغات السامية احتفاظا بالأصوات التى اشتملت عليها تلك اللغات، بل وزادت عليها بأصوات كثيرة لا وجود لها فى أى واحدة من هذه اللغات، كما أنها أوسع هذه اللغات جميعها، وأدقها فى قواعد النحو والصرف، حيث إن جميع القواعد التى تشتمل عليها اللغات السامية الأخرى توجد لها نظائر فى اللغة العربية، كما تشتمل اللغة العربية على قواعد كثيرة لا نظير لها فى واحدة منها. ولا يستطيع أى منصف أن ينكر الدور المهم الذى يجب أن تتحمله المؤسسات الإعلامية فى الحفاظ على هذه اللغة، وتقويم اللسان العربى ورعايته، حيث إن هذه المؤسسات يقع عليها العبء الأكبر فى تصحيح الأخطاء التى ترتكب فى حق اللغة العربية، وحماية الجماهير من الانحراف بها، لأن كل سقطة لغوية ينطق بها مذيع أو معلم أو مقدم برامج أو صحفى أو محاضر أو خطيب أو حتى ممثل، تترك آثارها الضارة وبصماتها البارزة فى حياة الجماهير العربية.

وتؤكد الشواهد العملية أن وسائل الإعلام العربية تسهم فى إيذاء اللغة العربية، من خلال الأخطاء التى تفشت بصورة واضحة بين البرامج الإذاعية والمقالات الصحفية، ومن خلال الترويج للأفكار والألفاظ التى تحرف كلماتها، وتغير معانيها، مما أصبح ينذر بخطر محدق على لغتنا الجميلة، ولاسيما أن الواقع المر فى وسائل الإعلام قد أفرز كوادر ضعيفة فى ثقافتها، متدنية فى لغتها، يمسكون بميكروفون الراديو، ويحتلون شاشات التليفزيون، ولا يستطيعون أن يفرقوا بين الكاف والقاف أو الدال والضاد، ومن ثم يقومون برفع المنصوب ونصب المرفوع حتى فى أثناء حديثهم عن أمجاد العروبة. إن الابتذال واستخدام بعض

★ د. محيى الدين عبد الحليم، جريدة الأحرار، ١٣ من فبراير ٢٠٠٤م.

الألفاظ الهابطة والكلمات غير اللائقة فى البرامج والفقرات فى مجال الأعمال الدرامية والمنوعات التى تقدم باللهجات المحلية، والتى يندر فيها استعمال الفصيح من اللغة، ما هو إلا تدمير معلن وتخطيط مدبر للقضاء على اللغة الأم وعلى المنتسبين إليها.

إن عدم الاهتمام الكافى من قبل أجهزة الإعلام بقضايا الفكر الدينى يأتى فى مقدمة العوامل التى تسهم فى هبوط المستوى اللغوى للجماهير، ذلك لأنه كلما اهتمت المؤسسات الإعلامية والثقافية والتعليمية بعلوم القرآن والحديث والشريعة وغيرها من العلوم الإسلامية زاد الاهتمام باللغة العربية، التى من دونها يصعب فهم هذه العلوم، لأن اللغة العربية والعلوم الإسلامية وجهان لعملة واحدة، فالقرآن الكريم هو الذى حافظ على هذه اللغة من الضياع والتحريف.

وإذا أردنا أن ننقذ لغتنا الجميلة من الضياع، فإنه يجب على أجهزة الإعلام أن تضع مقاييس دقيقة لاختيار العاملين فيها، فإذا كان معلم اللغة العربية يتحمل مسئولية تعليم أعداد محدودة من التلاميذ، فإن رجال الإعلام مطالبون بتعليم الجماهير العريضة فى كل مكان. ومن ثم فإنهم يجب أن يكونوا فى مستوى علمى رفيع، وعلى درجة عالية من الذكاء والثقافة، ولديهم القدرة العلمية واللغوية لمتابعة أحدث الاتجاهات فى تطور الحياة الإنسانية، كما أنه يجب على أجهزة الإعلام أن تهتم بتدريب العاملين بها على فن الإلقاء، للعمل على ضبط مخارج الحروف والكلمات، كما يجب عليها أن تلتزم بقواعد وحدود اللغة فى تأليف الكلام، حتى تأتى النصوص الإعلامية معدة على الوجه المعقول، ومنظومة بصورة تخلو من التناقض والشذوذ، وهذا يفرض على الكتاب والمعدين التمكن من قواعد اللغة العربية والسيطرة على معانيها. ويجب على أجهزة الإعلام الحث على الابتعاد فى قنوات الاتصال عن استخدام الألفاظ المبتذلة، والإسفاف فى اختيار الكلمات الهابطة لعرض المعانى، حتى تستطيع الارتقاء بمستوى الجماهير ورفع مستواهم اللغوى. وهناك ضرورة استعمال اللغة العربية فى مختلف المجالات العلمية الحديثة، ذلك لأننا إذا لم نحاول استخدامها فى هذه المجالات، فإننا نحكم على أنفسنا بالعزلة والتخلف، لأن اللغة والفكر وجهان لشىء واحد كالعملة، واللغة العربية يجب أن تعبر عن الفكر الحديث، وهى قادرة على ذلك، بدلا من تركها تعانى الإهمال وعدم الاستخدام.

حاجتنا إلى تنمية لغوية تستجيب لحياتنا اليومية*

منذ القرن الثانى للهجرة – بعد أن أصبحت اللغة العربية تعايش أقواما رحلوا إليها ورحلت إليهم – منذ ذلك التاريخ شعر أسلافنا الأعلام من رجال اللغة بضرورة وضع معاجم تحفظ للغة العربية أصولها من جهة، وتوفر لها الطريق لمواكبتها المجال الواسع الذى أمست عليه وقتئذ.

ومن هنا سمعنا عن كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى(ت ١٧٥هـ = ٧٨٦ م)، وسمعنا عن كتاب اللغات لأبى عمرو إسحاق الشيبانى (ت ٢٠٦هـ = ٨٢١ م)، والألفاظ ليعقوب ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ = ٨٥٨ م)، والجمهرة لابن دريد (ت٣٢١ هـ = ٩٣٣م)، والبارع والأضداد لأبى على إسماعيل القالى (ت ٣٥٦هـ = ٩٦٧م)، وتهذيب اللغة للأزهرى (ت ٣٧٠هـ = ٩٨١م)، ومقاييس اللغة والمجمل لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ= ١٠٠٤ م)، والصحاح لإسماعيل الجوهرى (ت ٣٩٣هـ = ١٠٠٣٩م)، كما وصل إلينا كتاب الماء، أول معجم طبى لغوى للأزدى الصحارى المتوفى ببلنسية سنة (٤٥٦هـ = ١٠٦٤م) وكتاب المحكم والمخصص لعلى بن إسماعيل المعروف بابن سِيْدَه (ت ٤٥٨هـ = ١٠٦٦م)، والعباب للصاغانى (٦٥٠هـ= ١٢٥٢م) ولسان العرب لمحمد بن منظور (ت ٧١١هـ =١٣١١ م)، والقاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى (٨١٧هـ = ١٤١٥م) وتاج العروس لمرتضى الزبيدى(١٢٠٥هـ =١٧٩٠م) الذى لا ننسى، بهذه المناسبة، إشادته العطرة بمساعدة العالم اللغوى المغربى ابن الطيب الشركى الفاسى المتوفى بالمدينة المنورة عام (١١٧٠هـ = ١٧٥٧م). كما نذكر محيط المحيط لبطرس البستانى (ت ١٣٠٠هـ = ١٨٨٣م)، وأقرب الموارد لسعيد الشرتونى (ت ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م)، والمنجد للأب لويس معلوف (ت ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م)، بما تبع طبعته الأولى عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م، من طبعات منقحة متطورة مصورة.

وقد كان لمجمع اللغة العربية بالقاهرة إسهام جيد فى هذه الصناعة عندما قام بإصدار (المعجم الوسيط)، بجزأيه، فى طبعته الأولى، قبل أن يطبع ثانية عام ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م، وثالثة عام ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م الأمر الذى يدل على مدى تطلع الجمهور لمثل هذه المعاجم.

---

* د. عبد الهادى التازى، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة السبعون لمؤتمر مجمع اللغة العربية، أول صفر ١٤٢٥هـ. ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نشيد بتفكير مجمعنا منذ إنشائه عام ١٣٥١هـ=١٩٣٢م فى أن يجعل من أهم أغراضه أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية، كما نشيد بالجهد المبذول منذ ذلك التاريخ من لدن المجمع انطلاقا من مشروع العالم الألمانى المستعرب فيشر، وانتهاء بتبنى اتحاد المجامع اللغوية العلمية إخراج هذا المعجم إلى حيز الوجود.

لقد مرت اللغة العربية خلال حياتها الطويلة، بعدة طفرات وأحداث تاريخية كبرى، غيرت من ملامحها وتركت آثارا واضحة فيها، وإن من أبرز تلك الأحداث ما سماه الدكتور طه حسين بالمعجزة الكبرى: الإسلام، ثم الحركات الثقافية العظيمة التى أحدثها عصر الترجمة والازدهار العلمى فى العصر العباسى، ثم الصحوة التى عرفها النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادى فى أعقاب الاتصال المباشر بالغرب.

فى كل مرحلة من هذه المراحل البارزة كانت اللغة العربية تبرز إلينا بوجه جديد، وملامح متغيرة فى مفرداتها ودلالة ألفاظها وتراكيبها واستعمالاتها، وهكذا ففى الإمكان التوصل إلى وضع تصنيفات للتمييز بين تلك المراحل فى تطور اللغة عبر هذا التاريخ الطويل.

ولكن القصد إلى ما نطمح إليه من العمل بجد على تنمية لغوية شاملة لملاحقة الركب، أى العمل على خلق معجم حداثى حضارى يتخلص من الرواسب المعوقة ويختصر الطريق لأبنائنا ولا يكررها.

أريد بعد كل هذا أن أخلص ونحن ننشد التنمية اللغوية إلى نظرات أخرى فى رؤيتى معجم الألفية الثالثة الذى نتوق إليه خدمة للغة العربية وتيسيرا على مريديها من الذين يتأججون غيرة على مستقبلها.

وأريد فى بداية هذه الفقرة من حديثى أن أشيد إشادة بالغة بالمتقدمين الأوائل الذين حركوا كلمات المصحف الشريف، لقد أسدوا للغة العربية عطاء لا يقدر بثمن، وبفضله سهل حفظ القرآن واستظهاره طوال القرون الخالية، وبفضله أيضا سهل ضبط قواعد النحو كذلك.

لهذا فإن توفرنا على معاجم محركة مما ييسر عملنا فى ترويج العربية ترويجا واسعا ودون أية صعوبة أو عرقلة تذكر.

وأحب أن أذكر فى ختام هذه الفقرة من بحثى بما وقع فى إيران أيام الشاه الأول، عندما فكر فى كتابة الحروف الفارسية بالحروف اللاتينية، على نحو ما قامت به جارته تركيا.

لقد استدعى الشاه (البروفيسور لوى ماسينيون) من باريس إلى طهران ليستمزج رأيه، نذكر بالمناسبة أن ماسينيون كان عضوا بمجمعنا هذا بل من المعتزين بالانتساب إليه. وقد كان الشاه الكبير يتوقع من العالم الفرنسى الأكاديمى أنه سيزكى فكرته فى تغيير الحرف العربى بالحرف اللاتينى، لكن الشاه فوجئ وهو يسمع أن رأى ماسينيون، كان ضد هذا الاختيار، وقد عاش حياته مع الحرف العربى، مؤكدا أنه لا يرى مبررا للانتقال من هذا الحرف الأصيل الجميل إلى مجرد أشكال وخطوط عادية لا تحتوى على أدنى قسط من الجمال علاوة على ما فى ذلك من تنكر إيران لحضارة عاشتها قرونا طويلة، وارتمائها فى أحضان فضاء آخر غريب عنها!!

وهنا أخذ الشاه يحاول أن يذكر مزايا مشروعه، وذكر فى صدر تلك المزايا أن الحرف اللاتينى يحمل تحريكه معه كما قلنا، بينما الحركات العربية تنفصل عن الحرف، وتجعل فوقه أو تحته، فأجابه ماسينيون بأن هذا الوضع مما يزيد فى تأثيث الحرف العربى، وإكسابه الأنس والدفء والروعة، أكثر من هذا حذر ماسينيون الشاه بمغبة إثارة الفتن عليه إذا هو أقدم على هذه المبادرة المارقة!

أرجو فى الختام أن أنقل هذه الفقرات من التاريخ الدولى للأمة العربية، وهى تتعلق بشهادة عن اللغة العربية، قدمها سفير «أندلسى» مغربى عاش أوائل القرن الحادى عشر الهجرى الموافق أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، وهو يحمل اسم أحمد بن قاسم الحجرى ويلقب بأقوقاى.

لقد جاء فى مذكرات هذا العالم الكبير، وهو فى الأراضى المنخفضة (هولندا) أنه بعد زيارته لأمستردام اجتمع فى ليدن، (Leiden) ببعض المستعربين الذين تحدثوا له عن مخطوط عربى وسألوه: هل ما إذا كان يستطيع قراءته، فأجابهم: نعم، وبأنه يستطيع كذلك ترجمته لهم بالأعجمية! فأخذهم العجب وقالوا: إنهم حصلوا على هذا المخطوط من جزيرة نائية من جزر الهند الشرقية التى تفصلها عن العرب مسافة بعيدة وزمن طويل، فكيف يدعى أنه يستطيع قراءته!

وقد أطلعهم الحجرى – بالفعل – على محتوى المخطوط، الأمر الذى تعجب منه القوم واقتنعوا بأن اللغة العربية لسان واحد عام فى سائر البلاد العربية، بينما كانت لغة الهولنديين تختلف من جهة إلى أخرى، على نحو ما هو الأمر فى بلاد الإنجليز التى لها لغة أخرى، والحالة كذلك بالنسبة لأهل فرنسا، وفى بلاد الأندلس أعجمية أخرى وفى إيطاليا وألمانيا وشقوبية، كل لسان مختلف عن غيره، أما العربية فإنها واحدة فى الدنيا كلها، كما

قال الحجرى الذى نسخ لعلماء ليدن كتاب المستعينى فى المفردات الطبية، وقد ختم رسالة موجهة إليهم بتاريخ ١٥ من ربيع ١٠٢٢هـ الموافق ١٠ من يونيو ١٦١٣م ختمها بخطه الذى يقول فيه: «... إن الحرف العربى له بركة مشهورة ولا ترى من يكرم تلك الحروف إلا مكرما عزيزا»!

هكذا قال الحجرى قبل أربعة قرون أو تزيد، ونرى أن من تكريم تلك الحروف اليوم أن نعمل على تفعليها وإشاعتها وتنميتها، وأعتقد أنه لن تتم لنا تنمية «لغوية» دون العمل على الاندماج فى المحيط الكونى، بمعنى أن نتفاعل مع ما نشاهده أمامنا يوميا من تطورات على مختلف الصعد لنعيش حاضرنا، فتح باب الاجتهاد، وقد صدق جوته Goethe عندما قال: إن من لم يعرف من اللغات إلا لغته فقد جهل حتى لغته!

طرق تنمية وتحديث متن اللغة العربية في العصر الحديث؟ ★

إن اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تتطور في ارتباط وثيق بالتغييرات والتحولات التي تجري في الحياة المادية والروحية للمتكلمين، غير أن هذه التغييرات تحصل بسرعة أكبر أو أصغر في مختلف ميادين اللغة، ويمكن ملاحظاتها بسهولة أكبر أو أصغر، لكنها تحدث دون انقطاع في جميع قطاعات اللغة (مارتينه ١٩٦٣م). وبصرف النظر عن قطاع اللغة التي تحدث فيها «تعتبر التغييرات اللغوية دائما مسببة ومحكومة أو على الأقل موجهة بضرورة استمرار استخدام اللغة كوسيلة للاتصال بين الناس الذين يستخدمونها» (مارتينه ١٩٧٥م)، يلاحظ أيضا أنه «على مدار تاريخ لغة ما تجري تحولات دون انقطاع، ويمكن تمييز مراحل مختلفة، لكن بنيتها الأساسية ثابتة نسبيا» (هيبلمسليفز ١٩٦٦م). إن اللغة وبخاصة ألفاظها تتطور وتتغير باستمرار، تماشيا مع التطورات الحاصلة في المجتمع، وتجاوبا معها، واستجادة لها، «إن اللغة المثالية هي اللغة التي تنبع من روح عصرها، والتي تستجيب لمقتضياتها على أتم صورة» (مدكور، ١٩٥٣م).

وطوال تاريخ اللغة العربية ظلت الصوتيات وصرف اللغة ثابتة غير متغيرة على وجه التقريب، بينما حصلت تغييرات باستمرار في معجمها أي في مخزونها من الألفاظ، وفي القرن الرابع الهجري الذي يصادف القرن العاشر المسيحي تقريبا كانت اللغة العربية تمتاز بسمة لغة كبرى من لغات الحضارة في الشرق، مثل اللغة اللاتينية في أوربا في العصر نفسه والعصور التالية. وبعد فترة من الركود والسبات سجل القرن التاسع عشر بداية صحوة الوعي القومي العربي من جديد، وبداية النهضة الروحية الحضارية العربية، وقد لعب التعليم دورا مهما جدا في تطوير الثقافة العربية واللغة العربية، أما في القرن العشرين فقد ظهر وتطور أدب جديد أثر هو الآخر تأثيرا إيجابيا في تهذيب اللغة العربية وتحديثها، وخلال النصف الأول من القرن العشرين أسست المجامع العربية الثلاثة في دمشق (١٩١٨م) ثم القاهرة (١٩٣٤م) ثم بغداد (١٩٤٧م) والتي حددت بين أهدافها الأساسية وضع معاجم من المصطلحات العلمية والحضارية تتلاءم مع متطلبات العصر الحديث.

★ د. نيقولا دوبرشان، جامعة بوخارست، رومانيا، الدورة السبعون، لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة أول صفر ١٤٢٦هـ، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

خلال القرن الماضى بذل مجمع اللغة العربية بالقاهرة جنبا إلى جنب مع سائر المؤسسات المعجمية والتعليمية والثقافية والباحثين جميعا جهودا دءوبة حميدة من أجل تحديث المعجم العربى، وسجلت خطى مرموقة فى هذا الاتجاه، ولاشك أن الاحتكاك بين اللغات، بين اللغة العربية من ناحية وبين اللغتين الإيطالية والفرنسية فى المرحلة الأولى ثم الإنجليزية أيضا فى المرحلة اللاحقة، لعب دورا مهما فى إنجاح ونجاح هذه الجهود، وبعد أن أعطت اللغة العربية الكثير إلى مختلف اللغات – بما فيها اللغات الأوربية – أصبحت فى العصر الحديث تأخذ القليل منها من أجل إغناء معجمها وتحديثه.

يمكن القول ختاما أن الطرق الداخلية الخاصة باللغة العربية –وبالدرجة الأولى الاشتقاق – لاتزال الوسيلة الرئيسة لتنمية متن اللغة العربية، لكن تعريب الألفاظ والتراكيب الأجنبية، واقتراض المعانى الجديدة، تلعب أيضا دورا مهما فى تحديث متن اللغة العربية، وتقدم كلها أسطع دليل على إمكانات اللغة العربية غير المحدودة للتنمية والتحديث، بحيث تتماشى اللغة العربية، حفظا لهويتها وأصالتها، مع أحدث المستجدات العلمية والتقنية، جنبا إلى جنب مع اللغات الأوربية الحديثة، وكبريات لغات الحضارة التى تعد العربية من بينها.

وقد أتاحت لنا المشاركة فى مؤتمرات مجمع اللغة العربية بالقاهرة فرصة الاطلاع على الجهود التى يبذلها جميع الباحثين واللغويين المصريين بل والعرب عامة لتنمية معجم اللغة العربية وسائر فروعها. وأصدر مجمع القاهرة منذ إنشائه إلى الآن العديد من القرارات بصدد مختلف القضايا اللغوية، وتجدر الإشارة إلى أن هذه القرارات تجاوبت مع التطورات الطبيعية الدائرة فى اللغة وبالنتيجة استوعبها سواء الاختصاصيون أو عامة الناس، إن التطورات التى حصلت فى المعجم العربى فى العصر الحديث تثبت الحقيقة العامة أن اللغة تتطور وفق القوانين الموضوعية الملازمة لنظامها الذاتى، وأن المخططين اللغويين يمكن بل ينبغى أن يتدخلوا لتنظيم هذه التطورات وتقنينها، وأن مدى نجاحهم كان فى ارتباط وثيق بمدى ملاحظة التطورات الطبيعية الجارية فى النظام اللغوى، والوقوف إلى جانب هذا الاتجاه الطبيعى.

وعلى ذلك، أيمكن اعتبار العربية الفصحى لغة ميتة أو كلاسيكية مثل الإغريقية واللاتينية والعبرية – على ما يدعى البعض؟ لا أبدا! وأخيرا وليس آخر، هل تعتبر اللغة العربية لغة حضارة كبرى؟ لا يمكن أن يكون الجواب على هذا السؤال إلا إيجابا، وذلك أن اللغة العربية كانت حاملة تراث علمى وحضارى ضخم، وأنها أصبحت فى العصر الحديث تعبر من جديد عن حضارة أمة عظيمة واحدة موحدة ذات ماض وحاضر مجيدين، وذات مستقبل فى تطور وتقدم مستمرين.

اللغة العربية أساس الهوية*

تتعرض لغتنا العربية بين الحين والآخر لحملات من التشويه للنيل منها، ضمن ما نتعرض له نحن العرب من هجوم طال كل ما يتصل بحياتنا، وأصحاب تلك الحملات يدركون ما للعربية من تأثير هائل علينا نحن العرب فى تشكيل وعينا القومى والدينى والثقافى، وهم يدعون أنهم يريدون لنا أن نسير فى ركب التقدم وأن نترك لغة مندثرة صعبة التركيب عفا عليها الزمن إلى لغة أخرى أكثر سهولة ويسرا، وذلك بالتخلى عن الكثير من القواعد اللغوية والنحوية التى لا يرون طائلا من ورائها، وهم يتناسون أن تلك اللغة التى يريدون هجرها أو تحديثها هى التى اختارها الله مدادا لقرآنه الخالد، الذى وعد الله بحفظه إلى أن تقوم الساعة، وأصحاب تلك الدعاوى يغفلون شيئا مهما، وهو أن اللغة هى لسان الشعوب ودليل حضارتها. وأن جميع الدول المتقدمة التى يريدون أن نلحق بركبها هى أكثر الدول حرصا على الحفاظ على لغتها، وهم يبذلون جهودهم حثيثا من خلال رصد الميزانيات الضخمة لمشروعات ثقافية، تهدف فى المقام الأول إلى نشر لغتهم والحفاظ عليها، إدراكا منهم لما للغة من أهمية قصوى فى تشكيل وعى الفرد، وترسيخ المشروع الحضارى للدولة بأكملها.

أما آن لهؤلاء « الحضاريين» أن يتركوا اللغة العربية وشأنها، وأن يدركوا أن هناك العديد من الأمور الأخرى التى تستأهل منهم البحث والدراسة إذا كانوا فعلا يريدون لنا اللحاق بركب الدول المتقدمة، وختاما أقول إنه يجب علينا أن نقف فى وجه تلك الحملات المغرضة، وأن نبين مراميها الحقيقية، وأن نرجع إلى عربيتنا ننهل منها، لا أن نهملها أو نستبدلها بلغة هشة. لا تزيدنا إلا تخلفا وانحطاطا.

إن لغتنا العربية جميلة، وستظل كذلك إلى أبد الأبدين رغم أنف الحاقدين.

---

* أ. سامح توفيق، جريدة الوفد، ٨ من أغسطس ٢٠٠٤م.

الإنسان العربى المعاصر.. ولغتنا العربية*

أتألم مكررا حين يعاودنى الشك فى أن الإنسان العربى المعاصر هو صاحب هذه اللغة الجميلة المسماة «اللغة العربية». إن ما وصل إليه الإنسان العربى حاليا يفرض علينا أن نعيد النظر فى مدى انتمائه إلى هذه اللغة، ناهيك عن مدى جدارته بحمل مسئولياتها، ومن ثم التصدى لتطويرها «دون أو بدل نفسه».

اللغة كيان وجودى بيولوجي غائر، وهى غير الكلام وإن ظهر بعضها من خلاله، هى نسيج الثقافة الحالية بقدر ما أنها تعلن جذور الثقافة الممتدة فى التاريخ.

فى فترات التحول الحرجة - تطورا أو انحلالا - تتعرض أى لغة إلى خلل مؤقت، قد يدوم إذا لم يحتمل أصحابها مسئوليته، أو يستوعبون دلالته.

الإنسان العربى المعاصر، وصورته، يعلنان حالة خطيرة من السلبية والخمول والجمود والتبعية، في حين تعلن لغته الأصيلة أنه مشروع قادر واعد. من نصدق، ومن نكذب؟ من نحن؟ أنحن كما صرنا إليه حقيقة وتشويها؟ أم نحن ما تقوله لغتنا عنا إذ تشير إلى أصل شامخ ذى إبداع متجدد، ومرونة رحبة، وطبيعة سخية، وحوار خلاق؟

هذا التباعد بين الإنسان العربى الحالى ولغته الأصيلة جعلها عبئا عليه، فراح يتعامل معها كجسم غريب ناشز، أو فى أحسن الأحوال، كأثر تاريخى يوهم بفخر زائف: أحدهما راح يندب حظها، ويرثى مآلها، ثم يتمادى فى تثبيت مواقعها فى سجون معاجمها، وكهوف نحوها، أما الآخر فقد انصرف هربا منها وهو يتخلى عنها سرا أو علانية، إهمالا أو تشويها، حتى ظهرت تلك البثور المتقيحة على وجهها: إما من لغات أخرى أو من لا لغة أصلا.

لعل ما آلت إليه حال لغتنا هكذا ليس إلا إعلانا عما آل إليه حالنا كله فى أكثر من مجال، هذا الرطان المتقيح يعلن فيما يعلن عن احتمال رطان اقتصادى، ورطان اجتماعى، ورطان سياسى بشكل أو بآخر.

---

* د. يحيى الرخاوى، جريدة الأهرام، الإثنين ٩ من أغسطس ٢٠٠٤م.

لغتنا والموقف المطلوب!*

من باب احترام الذات والهوية والكيان والشخصية القومية والتاريخ يجب إيقاف المساس بالعربية، أو محاولة النيل منها، ليس من باب المصادرة على الاجتهادات كما يزايد بعض الأدعياء، فالاجتهاد مطلب علمى واجب، ومطلب دينى مكفول وصريح، ولكن من خلال أدوات ومناهج، وفكر، وأرصدة عقلية ومؤهلات علمية، وإلا تحول الأمر إلى فوضى، والمسافة بعيدة جدا بين الاجتهاد والفوضى!

ومن المؤكد أن مستوى الحوار حول لغتنا العربية يجب أن يكون كريما كرامة اللغة، وعلو منزلها وتاريخها، ودورها الحضارى والثقافى من واقع فضلها على الإنسانية كلها بين المشرق والمغرب على مدى ثمانية قرون من عمر البشرية فى كل أنحاء العالم، كان العلم يتكلم بالعربية فى شتى فروعه ومجالاته.

ومن المؤكد أيضا أن مساحة العربية لابد أن تظل نقية صافية، لا يكدر صفوها من يرمى فيها بحجر، وهو لا يعرفها، ولا يتقنها، أو ربما أصابه الحرج فى مواقف بسبب عجزه أو قصوره، أو عدم إلمامه بقواعدها، أو تلعثمه فى الأداء بها، فهذا شأن خاص لا صلة له باللغة فى ذاتها بقدر صلته بقصور أهلها أو جهلهم حتى عن الذود عنها بما هى أهل له، والتبعة هنا على عاتق المعلم والمناهج والإعلام.

والمسألة الحضارية والواقعية لا تستحق معارك، ولا حتى مشاكسات، لا سيما إذا ارتبط الرهان بلغة رفيعة المستوى مثل لغتنا التى استوعبت كل علوم البشر وإبداعهم وأحلامهم، فكانت لهم منبر الفكر والتصوير، ولقرائهم مدخلا للإعجاز وأسرار البلاغة والبيان.

من هنا تتضاءل قامة خصوم اللغة من أبنائها، ولكنهم يفتحون الأبواب لكل من أراد المساس بها دون مبرر، وليست اللغة كلأ مستباحا نتحدث عنه كما نتحدث عن الأغانى الهابطة – مثلا – أو الموجات الساقطة فى مجال الفن، فالأمر مختلف بما يستوجب منا نحن المثقفين بصرف النظر عن طبيعة التخصص العلمى مراعاة عدة اعتبارات وقيم واجبة:

* د. عبد الله التطاوى، جريدة الأهرام، ٢٩ من أغسطس ٢٠٠٤م.

١) أن ننطلق من الصدق مع الذات، بعيدا عن الانفلات والشطط والادعاء الأهوج باقتحام حقول معرفية لسنا مؤهلين للخوض فيها، إلا من باب الهراء أو الافتراء، عندئذ ننأى عن العلمية، ونفقد تقديرنا أنفسنا، كما نفقد احترام الآخر لنا.

٢) أن يتأمل إعلامنا طبيعة الخريطة اللغوية من حيث تشخيص الداء، واحترام الأداء الفصيح ببساطة المرحلة بعيدا عن التعقيد والتكلف، وبعيدا أيضا عن الإسفاف والترخص، والابتذال والسوقية، ذلك أن الأمة التى تفرط فى لغتها إعلاميا فهى تتنازل عن كبريائها وكيانها وشخصيتها، تنازلها عن عبقرية تاريخها وجذورها القومية والحضارية، وأحسب أن أمتنا غير مستعدة لمثل هذه التنازلات أمام أى من الأقلام المغرضة حتى مع افتراض حسن النوايا، أو سلامة المقاصد، فهى تنطلق فى شكل مدرسى لا يليق وصمت ذوى الاختصاص إزاءه.

٣) أن ثمة مؤسسات وهيئات وجمعيات معنية بأمر اللغة والثقافة من حقها – أقصد من واجبها – أن تعبر عن أصواتها وتصوراتها وقراءاتها ومناهجها وفكرها ورؤاها أمام ظاهرة التطور اللغوى، وهى ظاهرة محسومة ومحسوبة بمعايير حركة التاريخ، الذى لم ولن يسقط حق العربية فى البقاء، مهما تعددت صيغ العداء، وتنوعت مصادره، فمن واجب الإعلام أن يلتفت – ولو قليلا – إلى تفعيل توصيات الندوات والمؤتمرات، والاهتمام – ولو قليلا جدا – بعرض المسلسلات التاريخية بشكل يومى، وكذلك القصائد المغناة، والبرامج الثقافية فى ظلال الأدب، وحول قضايا اللغة ومناهج الفكر والثقافة وأظن ظنا أن قراءة كتاب جامعة القاهرة حول نظرية الثقافة ومشكلة اللغة قد يدفع دفعا إلى مثل هذا الاهتمام من باب المؤازرة والتزكية والترشيح والمباركة.

٤) أن ثمة واجبا قوميا يتطلب من أهل اللغة والمتخصصين موقفا واضحا وصريحا بعيدا عن التعصب والتشنجات، وبمنأى عن تعطيل الملكات، أو الاستهانة بصوت الآخر، فهذا الواجب يبدأ من علمية الأشياء، ولتكن المبادرة صادرة أولا من مجامع اللغة العربية، ثم اللجان الكثيرة المسئولة عن اللغة والأدب فى المجالس القومية المتخصصة، والمجلس الأعلى للثقافة، ورابطة الجامعات الإسلامية، وجامعة الدول العربية وغيرها، بما يوجب حتمية التلاقى والحوار الجماعى حول سبل تطوير مناهج اللغة، وتدريب معلميها وسرعة معالجة أوجه القصور فى الأداء بها، وتكثيف الأداء الإعلامى الجيد من خلالها، قبل أن يفتح الباب لكل أعدائها، بما لا نطمئن إلى نتائجه، ولا سيما إذا أدلى بدلوه حول قضاياها وأعلامها من لا صلة له بهم ولا بها.

٥) أن يظل الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه شريطة امتلاك الأدوات الأولية له، أو إدراك مداخله الأولى فى لغة التعامل، وأساسها احترام الثوابت والمقدسات والأصول، والانطلاق من صوت الحكمة والعقل وصواب المنهج، وسلامة الفكر والتجديد والابتكار فى قراءة الفروع، حتى لا تختلط الأوراق فتسقط الخيوط الرفيعة بين الجهل والعلم، بين المنهج والفوضى، بين الحق والباطل، بين الفضيلة والرذيلة، الأمر الذى ينذر بخطر، خاصة فى حالة النوم والسبات التى تنتاب بعض علماء اللغة، ممن لا يعنيهم أمرها بقدر ما يعنيهم من أمر غيرها أو حتى أمورهم الخاصة، وهو ما توقعه – للأسف – شاعر النيل منذ مائة عام وعام، حين صور العربية – أو تصورها – تنعى حظها بين أهلها!!

ضرورة التمسك باللغة العربية
حتى لا تتحول من «لغة» إلى «لغو» ★

قداسة البابا: أنا من رأيى أن نتمسك باللغة العربية بكل قواعدها فى النحو والصرف، وإلا لا تصبح لغة عربية، وتتحول من لغة إلى لغو، وهذا أمر يسىء إلى اللغة بشكل عام، وليست اللغة العربية فحسب، فلا نستطيع مثلا أن نلغى أو نوقف قواعد تصريف اللغات الفرنسية أو الإنجليزية، فالتحرر من قواعد اللغة إساءة لها، وهذا الأمر سبقه أمر آخر، وهو تحرر الشعر من موازينه، وقوافيه، وأنا عن نفسى تعلمت الشعر على كتاب اسمه « أهدى سبيل إلى علمى الخليل» وعلمى الخليل هما العروض والقافية، فالعروض هو الأوزان والتفاعيل والقافية هى نهاية الكلام، وحاليا يوجد شعر لا يرتبط بوزن ولا قافية ولا نستطيع أن نعتبره شعرا عربيا أصيلا، ولكنه مع ذلك منتشر، فالتحرر من قواعد الشعر دخل أيضا فى النحو والصرف وفى هذه الحالة ما موقف التلاميذ فى المدارس الذين يدرسون العربية ونختبرهم فيها!؟

يعنى اللغة العربية ما يبقاش فيها نحو وصرف..؟ إزاى بقى؟!! ما تبقاش لغة عربية، اللغة العربية لها قواعدها حتى فى أمريكا يمكنهم تحرير اللغة من جهة النطق وليس من ناحية النحو وحتى ذلك لا يكون مقبولا أيضا.

★ قداسة البابا شنودة، جريدة الأهرام، ١٥ من أغسطس ٢٠٠٤م.

دراسة فى أركيولوجيا اللغة العربية★

اللغة ظاهرة بشرية عامة، بها يتميز الإنسان عن باقى المخلوقات الأخرى، لأن لغة البشر وثيقة الصلة بالفكر، وهى كما يعرفها العالم اللغوى ابن جنى «إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»، فاللغة إذن ما هى إلا رموز صوتية منطوقة ومسموعة قبل أن تكون رموزا مكتوبة مقروءة، فالنطق يأتى أولا، ثم يليه التدوين للألفاظ المنطوقة.

وللغة وظائف متعددة، لعل أهمها ما ذكره ابن جنى فى تعريفه لها حين قال (يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)، فاللغة بمقتضى هذا التعريف: هى وسيلة التفاهم الاجتماعى والتواصل بين البشر، يعبرون بها عن حاجاتهم المختلفة وأغراضهم المتعددة.

أيضا فإن للغة وظيفة أخرى وهى: التعبير عن المشاعر الإنسانية المتنوعة بالإضافة إلى وظيفتها الاجتماعية فى المناسبات المختلفة، التى تستعمل فيها تأكيدا للعلاقات القائمة بين البشر.

أضف إلى هذه الوظائف السابقة للغة كونها «أداة للتسجيل والرجوع عند الحاجة»، فاللغة إذن تسجل كتابة وتسترجع قراءة.

ومن الحقائق المقررة التى لا مجال للشك فيها، ولا مناص من الاعتراف بها، أن اللغة من أقوى مظاهر القومية وأبرز مقوماتها، وأنها فى الوقت نفسه عنوان تقدمها، ومرآة ثقافتها، وأنها الأداة الفعالة التى بها يأخذ الخلف عن السلف معارفهم وثقافتهم.

من أجل هذا، كان الاهتمام بلغتنا العربية واجبا حتميا، تفرضه علينا عروبتنا وقوميتنا وهويتنا، وتوجبه علينا تقاليدنا الاجتماعية التى هى عناصر شخصيتنا ومظاهر استقلالنا وهويتنا العربية.

فاللغة كائن حى صالح للنمو والتطور فى كل زمان ومكان، وهى ظاهر اجتماعية تخضع فى نموها وتطورها لنمو البيئة التى تعيش فيها وتطورها، وليس اللغة العربية بدعا من اللغات، وليس أدل على ذلك من تاريخها، فهى لغة مرنة، فيها حيوية ذاتية تجعلها صالحة

★د. عصام أحمد عيسوى، دراسة فى أركيولوجيا اللغة العربية، دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٤م.

لأن تنمو نموا ذاتيا استقلاليا، ولأن تساير الثقافة فى نموها، والحضارة فى نهضتها وتقدمها.

إن اللغة العربية لا ينقصها خصائص اللغة العلمية والحضارية ولا مقوماتها، والذين يتهمون العربية بالعجز عن مجاراة التطورات الحضارية إنما يعترفون بعجزهم هم، فليس أدل من قول المستشرق الفرنسى ماسينيون: «إن المنهاج العلمى قد انطلق أول ما انطلق باللغة العربية، ومن خلال العربية فى الحضارة الأوربية».

فلا جدال إذن فى أن لغة كل قوم تتأثر بأحوال الناطقين بها، فإن ارتفع شأنهم السياسى وارتقى مستواهم الأدبى والثقافى ارتفعت اللغة، وإن انخفض هذا المستوى وهانوا بين الأمم، هانت لغتهم وذلت بين اللغات.

فحين كانت العربية لغة العلم ولغة السياسية أيام ازدهار العرب، كان الملوك والعظماء يسعون إلى تعلمها وإجادتها، لذلك فإن مكانة العربية تذبذبت صعودا وهبوطا بحسب المكانة التى يتبوأها العرب فى العالم، وبحسب أهميتهم العلمية والسياسية والاجتماعية، وثقلهم الاقتصادى والعسكرى، وعطائهم الفكرى والثقافى وصورتهم فى أذهان العالم.

ومن المؤكد أن الأفكار والمعانى لا تعيش بمعزل عن الألفاظ والتعابير، وكلما كان الإنسان متمكنا من اللغة، عارفا بأساليبها ودقائقها، كان أقدر على التعبير عن مشاعره وأفكاره، وأقوى على إفهام الآخرين مقاصده ومطالبه.

والواقع يؤكد أنه كلما ارتبط قوم بلغتهم وأحبوها وتعلقوا بها، كلما تفانوا فى الحفاظ عليها وحمايتها من الخطأ والزلل، وتحمسوا لرفعة شأنها والذود عنها ضد أية هجمات أو محاولات للنيل منها، أى أن الإحساس الوطنى والشعور بالانتماء يلعبان دورا مهما فى هذا الصدد.

لقد وفدت على مصر – فى ظل الدولة العثمانية – جماعات من الموظفين الأتراك ليعاونوا الباشا على حكم مصر. وقد أحل هؤلاء الموظفون العثمانيون مصطلحهم الملفق من شتى اللغات محل المصطلحات العربية الراسخة فى التقدم. لذلك فقد ازدوجت اللغة الرسمية الديوانية فى مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى، حيث أصبح يوجد فى المحيط اللغوى لغتان. هما لغة خاصة تباشر بها الإدارتان العليا والتنفيذية وهى اللغة التركية، ويستعملها كبار رجال الدولة، كما تستعملها الحكومة المحلية فى صلتها بالباب العالى فى الأستانة،

ثم لغة رسمية دارجة، هى العربية لغة الإدارة المباشرة، ويستعملها صغار الموظفين فى الدواوين وفى اتصالهم المباشر بجماهير الشعب، وكان من أثر ذلك، أن أضحت الدواوين الحكومية معتركا صخبا، تتزاحمه اللغتان الرسميتان، وكل منهما ملاق من عناية الحكومة، ما يحفظ عليها كيانها ومظاهرها الخاصة، وقد نجم عن ذلك عدم إجادة أى منهما واضطراب قوام اللغتين الرسميتين كلتيهما، وبلبلتهما، وتداخلهما والنزول بمستواهما معا.

وظلت اللغة العربية فى مصر – خلال القرن التاسع عشر الميلادى – على ما كانت عليه فى ظل الإدارة العثمانية، مزيجا من العربية والتركية والفارسية، وزاد عليها الفرنسيون بعض الاصطلاحات الفرنسية التى استحدثوا مسمياتها.

أضف إلى ذلك ما أصاب اللغة العربية من تخلف فى تعليمها، وما تبع ذلك من إشاعة اللغة العامية حتى فى المكاتبات الرسمية فى الدولة، حتى جاء الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م، فأخذ المحتلون يحاربون اللغة، ويفرضون لغتهم على مواد التعليم كله، مع محاولتهم إحلال العامية المصرية محل اللغة العربية، إذ أن ذلك كان يحقق مآربهم الاستعمارية.

وفى ظل هذه الظروف، فقد كان مستوى العربية، كلغة مضطربا غير مستقر على وتيرة واحدة، لما اقتحم مجالها من عناصر وافدة من شتى بقاع الأرض، متباينة الثقافة، ومتعددة فى القدرات اللغوية التى تستخدمها، فمن طوائف المستشرقين المتفاوتين فى درجة تمكنهم من اللغة تفاوتا بالغا إلى أخلاط المترجمين، المختلفى الثقافة واللهجات العربية، من الأجانب والشوام والمغاربة والأتراك والأرمن، بالإضافة إلى علماء الأزهر، وهم أرباب اللغة العربية، ثم سائر الموظفين الذين اضطلعوا بالأعمال الحكومية والرسمية فى الدولة، فأولئك جميعا نيطت بهم العبارة العربية، على المستويين الرسمى والشعبى فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادى.

لقد بدأت فى مطلع القرن التاسع عشر صحوة عربية للحاق بركب الحضارة، ودعوة قوية لإعادة الأمة للعلم واللغة العربية كسابق مجدها، فبدأ فى مصر هذا النشاط المرموق فى حركة الترجمة والنقل إلى العربية ووضع المصطلحات، وهذا هو السبيل الذى انتهجه (رفاعة رافع الطهطاوى) وغيره الكثيرون من أبناء عصره، وذلك للاستفادة القصوى من علوم الغرب ومعارفه وألفاظ حضارته الحديثة، لذلك كان منهجه فى ترجمة المصطلحات أو المفردات الأجنبية هو أن يحدد فى ذهنه معانى هذه المفردات، ثم ينقب عما يتلاءم معها من المفردات العربية، وكان يلجأ عند ذلك إلى المعاجم العربية ليأخذ منها ما يصح معناه ليكون ترجمة

للمعنى الأجنبى، وفى بعض الأحيان كان يلجأ إلى اللغة العامية الدارجة فى مصر آنذاك، وفى أحيان أخرى كان يلجأ إلى تعريب المصطلح الأجنبى فيضعه بنصه مع بعض التعديل الذى يتلاءم مع النطق العربى، وكان من رأيه أن هذه المصطلحات والألفاظ المعربة يمكن أن تأخذ طريقها إلى اللغة العربية كغيرها من المصطلحات المعربة عن اليونانية والتركية والفارسية وغيرها.

إن الألفاظ والمصطلحات الوثائقية تنتمى من حيث أصولها اللغوية إلى عصور سابقة ومتفاوتة فى القدم، إذ أن المصطلح الذى يكتسب معانى جديدة بعض الشيء خلال تعاقب الزمن، يستقر عند معنى محدد فى وقت وإطار معينين، وإذا كان للفظ الواحد معنى عام مشترك، فإنه يكتسب فى سياق تاريخى اجتماعى معنى أكثر تمييزا ودقة.

ولذلك فإن دراسة (علم الآثار اللغوية) أو (الأركيولوجيا اللغوية) – كما أنه يهدف إلى التنقيب عن الأصول اللغوية والتاريخية للألفاظ والمصطلحات الوثائقية – فإنه يتجاوز إطار قواعد اللغة ليدخل فى تركيب البنى الاجتماعية التى تصلبت حول تعريفات ذات أبعاد متنوعة، لأن المشكلة لا تكمن فى الماضى الذى انقضى، ولكنها تكمن فى الحاضر المتصل والمستمر، فى المفردات والمصطلحات التى لا تزال تشكل وعينا الإدارى والسياسى والاقتصادى والعسكرى والاجتماعى، وفى الجملة فهى تشكل وعينا الحضارى فى العصر الحاضر.

وقد تأثرت اللغة العربية المكتوبة فى وثائق القرن التاسع عشر الميلادى بعوامل سياسية واجتماعية كثيرة، أدت إلى انحطاط أسلوبها، وركاكة ألفاظها وسقامة عبارتها وبلبلة معانيها ومبانيها، لذلك فإن اللغة الرسمية الديوانية يمكن وصفها آنذاك بأنها لغة مضطربة غير مستقرة، دون المستوى الذى مثله الكتاب وموظفو الحكومة عند تدوينهم الوثائق والسجلات، وهو ما يعكس مستوى الحالة الثقافية لذلك العصر بعامة، وللبيئة الأميرية ومجتمع الموظفين بوجه خاص.

وليس أدل على قدرة اللغة العربية، وتدنى مستوى المصريين – والعرب – فى استخدامها من شهادة (كلوت بك) ذلك الطبيب الفرنسى الذى وفد إلى مصر واستفاد منه (محمد على باشا) فى خدمة المصريين مدة طويلة خلال ذلك العصر حين قال: « .... وغاية ما يمكننى قوله إن آداب اللغة العربية من أوسع الآداب اللغوية فى العالم نطاقا، وأكرمها جوهرا، وأحسنها حلاوة وطلاوة، ولكن دولتها قد زالت وانقضى عهد مجدها وعزها،.. ثم إن اللغة العربية

عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تتقوض معالمها، غير أن الضعف والجهل قد غشيا الشعوب الناطقة بها، فبعد أن كانت من الأمم المتسلطة صاحبة الغلبة والحكم فقدت استقلالها وأضاعت معه المواهب العالية التى كان أبناؤها يبتكرون بها أسمى الأفكار معنى وأجلها مغزى، وتثبت فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة ....».

وبناء على ذلك فقد قرر (كلوت بك) أن يكون تعليم الطب باللغة العربية، إذ أنه رأى أن التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطين العلم، أو تعميم نفعه، وهو بذلك قد عبر بشكل واقعى عن الحالة المتردية التى كانت عليها اللغة العربية فى مصر فى ذلك الوقت. فإذا كانت هذه هى شهادة أحد الأجانب الوافدين للعمل فى مصر والمقيمين بها، فإن الاستشهاد بالوثائق الرسمية لهذا العصر، وما ورد فيها من ألفاظ واصطلاحات لهو أبلغ فى التعبير عن تلك الحالة التى وصلت إليها اللغة العربية آنذاك.

دعوة لتوظيف التكنولوجيا فى تطوير عطاءات اللغة العربية*

فى مستهل موسمها الثقافى للعام الجامعي الحالى، عقدت جامعة القاهرة ندوة عن «اللغة العربية والهوية القومية، شارك فيها الدكاترة: كمال بشر، وأحمد فؤاد باشا، وعبد العزيز حمودة، والرائد الإعلامى طاهر أبو زيد، والشاعر الكبير محمد التهامى. وأكدت الندوة أهمية ربط اللغة بالهوية للحفاظ على شخصية الأمة.

وأكد د. عبد الله التطاوى نائب رئيس جامعة القاهرة - فى كلمة ألقاها نيابة عن الدكتور نجيب الهلالى جوهر رئيس الجامعة - أن اللغة العربية انفتحت على اللغات الأخرى واستوعبت الدخيل منها والمعرب، وقال: إن الاهتمام بلغتنا لا يعنى التقصير فى تعلم اللغات الأجنبية خاصة، ونحن نعيش عصر الثورة العلمية والتراكم المعرفى، مما يتطلب معرفتنا بثقافة الآخر، مشددا على ضرورة الاهتمام بتطوير مناهج تعليم اللغة العربية وثقافتها أمام هيمنة ثقافة القطب الواحد.

وأضاف أن اللغة العربية وهى أقدم لغات الأرض لها فضل إنارة أوروبا فى العصور المظلمة، والأمر يدعونا الآن إلى توظيف التكنولوجيا المعاصرة فى تطوير عطاءات لغتنا، لإنشاء جيل قوى لا يفرط بأى حال فى دينه ولا بلده ولا لغته القومية. وانتقد الرائد الإعلامى طاهر أبو زيد أخطاء الرسميين الذين يلحنون فى لغتهم حين يقرءون أوراقهم فى المحافل الرسمية دون اعتناء بتشكيلها فيقعون فى أخطاء مفزعة، كما انتقد الأخطاء الفاحشة التى تقع من التربويين والعاملين بالصحافة والإعلام وتفضيل اللغة الأجنبية فى الحديث، وقال إنه من أجل ذلك كان إنشاء جمعية حماة اللغة العربية التى تعنى التصدى للقتال فى سبيل حماية العربية بكل ما نملك من جهد وإيمان.

وتعرض الدكتور كمال بشر لواقع اللغة العربية وقال إن اللغة هى أنت فكرا وروحا وجسدا، وشرح فكرته التى تدور حول اللغة العربية الموحدة - بفتح الحاء المشددة - والموحدة - بكسر الحاء - وأن العامية لا نستطيع عزلها ولا ننكر أهميتها، ولكن لابد أن يكون للقوم لسان موحد لتوحيد الفكر والاتجاه، حتى يصير القوم أمة واحدة، تستطيع أن تدافع عن نفسها وقت الأزمات، وما أكثرها هذه الأيام.

---

* أ. عبد الحسيب الخنانى، جريدة الأهرام، ٧ من مارس ٢٠٠٤م.

وأشار إلى تنوع الثقافات والمناهج بين طلبة المدارس الحكومية والأجنبية، والاختلاف فى أسلوب التفكير حتى بين أبناء البيت الواحد دون أن تكون هناك بنية ثقافية قومية موحدة، منتقدا قرار إنشاء ٤ كليات تدرس مناهجها بالإنجليزية، منها كلية للتربية، وقال إن هذا كله يؤدى للاختلاف فى وقت يدعونا إلى التوحد، لأنه لا قومية ولا هوية إلا بلغة موحدة. وقال الدكتور أحمد فؤاد باشا إن الأمة العربية تتعاقب عليها كل صور التحدى، وهى تعيش مرحلة التدنى فى كل شىء.

وقال: إن الله تعالى وعد بحفظ العربية ولن يضيعها لأنها لغة القرآن، ولكن علينا أن نعض عليها بالنواجذ لأنها أساس هويتنا، ونتساءل: لماذا نعجز عن الأخذ فى تعريب العلوم؟ ونحن نرى غيرنا يسعى من وراء ضرب لغتنا إلى طمس هويتنا؟

وقال الدكتور عبد العزيز حمودة: إنه إذا كانت الشعوب قد اتفقت على أن اللغة هى بيت الهوية، فيجب ألا نحرم - كما يحاولون الآن أن يفعلوا - من بيت هويتنا، وهى لغتنا العربية بين الكينونة والهوية، فهم يريدون أن يفقدونا ثقتنا بثوابتنا ومن أهمها لغتنا، وهناك محاولات بالغة التكاليف لتحسين الوجه الثقافى للآخر.

وأضاف إننا للأسف أصبحنا نقتات فتات الآخرين، ومن الغريب أن نجد أمريكيا يزور القاهرة منذ ٣ أعوام ويطالب بتفتيت المؤسسات اللغوية، لنكون مستعدين لتقبل ذلك الآخر الذى تلقى فى سبيله الخطب، وتقام الندوات. ولكن الحقيقة أننا فى معركة ثقافية، وفى مقدمتها المعركة اللغوية، وإذا خسرناها سنخسر كل شىء.

لغتنا المعتدى عليها ★

لغة أى أمة تعد ركنا أساسيا من هويتها.. ثقافتها.. قيمها.. شخصيتها.. والذى يتابع ما يحدث فى حياتنا يجد أن هناك عملية انفصال عن لغتنا العربية، وأنها بالنسبة للبعض لغة «دقة قديمة».. لغة غير متطورة أو عصرية ولهذا يتسابق هذا البعض إلى استخدام المفردات الأجنبية وبطريقة بلهاء.. محل وجدته يكتب على لافتته بالحروف العربية الكبيرة «تر جولى» ولم أفهم المعنى إلا عندما قرأت فى جانب من اللافتة الاسم المستخدم بالفرنسية ومعناه «جميل جدا» ومحل آخر كانت لافتته «مرسى بيكوب» وتصورت أن صاحب المحل اسمه مرسى على اسم الفنان الكبير محمود مرسى، ولكننى اكتشفت أن العبارة أصلها فرنسى ومعناها «متشكر جدا».

ومن يسر فى حى المهندسين أو مدينة نصر وهما حيان حديثان نسبيا يكتشف تنافس أصحاب المحال فى اختيار الأسماء الأجنبية حتى يخيل للذى يسير فى بعض الشوارع أنه يسير فى شوارع مدينة لا تتحدث العربية!

فى التليفزيون هناك نوع من تسلل الأسماء الأجنبية، مثل سواريه، وويك إند، وفيديو كليب، وهو اتجاه نرجو أن يتوقف عند هذا الحد ولا يمتد أكثر من ذلك، لأن الطبيعة المصرية « الغلابة» هى أن يبدأ الغلط صغيرا فى شكل خلية صغيرة سرعان ما تتكاثر وتهدد المجتمع كله..

لكن آخر اتجاهات ارتداء البرنيطة فى لغتنا ما لاحظناه فى اجتماع المجلس الأعلى للصحافة الأخير، من امتداد ظاهرة الأسماء الأجنبية إلى عدد غير قليل من تراخيص جديدة لإصدار الصحف، وقد احترنا فى المجلس، فحسب القانون المعمول به لم تتضمن المواد أى شرط خاص باسم الجريدة أو المجلة التى تطلب الترخيص بالصدور، ولكن بحسب أن الصحيفة فى جانب منها هى تعبير عن الوطن الذى تصدر عنه، فإن الواجب أن تحمل الصحيفة أو المطبوعة التى تصدر فى مصر اسما عربيا واضحا.

★ أ. صلاح منتصر، جريدة الأهرام، ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠٣م.

والواقع أن أسباب غربة اللغة العربية لم تعد فقط فى تداول الكلمات والعبارات الأجنبية، وإنما فى سوء الخط الذى تكتب به هذه اللغة، سواء فى المدارس أو فى أى لافتة. وقد كانت الصحف من بين القلاع التى ظلت تدافع طويلا عن الخط العربى، عندما كان فى الصحيفة أكثر من خطاط يتنافسون فى كتابة عناوين الصحف بخطوط جميلة كأنها لوحات .. ومع التطور حلت الحروف المجموعة محل المكتوبة، ومثل صناعة الطرابيش اختفت بدون مناسبة فئة الخطاطين، انظر الخطوط البدائية القبيحة التى تظهر فى بعض إعلانات التليفزيون وفى اللافتات الملصوقة فى الشوارع .. وانظر الطريقة السيريالية التى يكتب بها اليوم كثير من التلاميذ وإلى درجة أتساءل معها: كيف يقوم المصححون فى أى امتحانات بتقدير درجات التلاميذ إذا كانت خطوطهم لا تقرأ ؟، هذا هو السرطان الحقيقى الذى يهدد لغتنا .. اللغة التى شرفها الحق وجعلها لغة القرآن!

تستوعب كل جديد والعيب فينا *

توجد مشروعات لتيسير اللغة العربية قدمتها المجامع اللغوية على مستوى الوطن العربى، بالإضافة إلى المشروعات الشخصية فى الكتب التى ألفها علماء اللغة الأفذاذ فى العصر الحديث. وهناك تجربة لرفاعة الطهطاوى فى «التحفة المكتبية لتيسير قواعد اللغة العربية» إذن جهود التيسير قائمة، لكن المشكلة أن هذه الجهود مجمدة على الأرفف لا ترى النور، ولا تدخل حيز التطبيق لأن هناك ما يشبه القطيعة بين من يملكون سلطة القرار لتفعيل هذه المشروعات فى التربية والتعليم والإعلام والثقافة، وبين المشروعات الإصلاحية لدى المؤسسات المتخصصة مثل مجمع اللغة العربية وعلمائه، ومن هنا كان أصحاب هذه المشروعات الإصلاحية الخاصة للتيسير والتطوير كأنهم يؤلفون لأنفسهم. إن مسألة التطوير شيء فى غاية الأهمية، لكن كل مشروعات التطوير خاصة بأساليب التعليم وما يلائم كل مستوى سنى أو ثقافى، وما يناسب كل مجال معرفى، لأن كل مشروعات التيسير تقر حقيقة بشأن اللغة العربية، وهى أن المشكلات التى تواجه اللغة العربية فى معركة الحضارة المعاصرة هى مشكلات استعمالية، وليست مشكلات قواعدية، ولكن المشكلة فى أساليب التعليم القديمة والتلقينية التى تعتمد على حفظ القواعد دون ممارسة اللغة، وهذه مشكلة خطيرة، ولكن المهارة فى اللغة وإجادتها تتوقف على قدر استعمال هذه اللغة فى أنشطة الحياة المختلفة.

★ د. محمد داود، جريدة الأهرام، الجمعة ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

هى لغة متطورة ولكن *

اللغة العربية تعد أوسع لغة بمفرداتها، لذلك هى أكبر لغة قابلة للتطوير باستعمال الآليات المتعددة، مثل الاشتقاق وهو أخذ كلمات متعددة من جزء واحد، والاقتراض والتعريب بمعنى أخذ اللفظ الأجنبى وتعريبه على النموذج العربى، أو الأوزان العربية مثل التليفزيون بالإنجليزية، أخذناها وقلنا التلفاز ومن الآليات ما يعرف بالقياس.

إن إرهاصات القواعد بدأت من عهد الخلافة الراشدة بشكل ابتدائى ضئيل على يد أبى الأسود الدؤلى، وزادت قواعد النحو فى البصرة والكوفة، والسبب يرجع لوقوع الناس فى اللحن والخطأ، وكان من أكثر المناهضين لوضع هذه القواعد الخليل بن أحمد الفراهيدى، وعلى يديه تتلمذ سيبويه الذى نظم قواعد النحو تنظيما استنباطيا، استنبطها من القرآن الكريم، وليست هى قواعد تجريدية، بل هى قواعد عملية تطبيقية. هذه الطريقة تسمى الاستقرائية وكتاب سيبويه فى منتهى الوضوح، ويعد عمدة وأساسا لكتب النحو.

أما بالنسبة للتطور فإن النحو ينقسم إلى قسمين القواعد الأساسية التى إذا حصرها الشخص يستطيع أن يكتب كتابة صحيحة. والقواعد الخلافية التفصيلية وهذه لا يهتم بها إلا المتخصصون لتعدد الإعراب للكلمة الواحدة.

وهناك تطويرات وتسهيلات كثيرة دخلت قواعد النحو منها كتاب ابن مضاء الأندلسى فى تجديد النحو ومنها كتاب الدكتور شوقى ضيف ويعد كتاب «النحو الوظيفى» للأستاذ عبد العليم إبراهيم من أفضل كتب النحو المباشر، ونحن للأسف لا نقرأ، ولو قرأنا لعرفنا قيمة لغتنا. فاللغة العربية القرآنية لغة مقدسة لأنها نزلت من السماء بكل كمالها.

وأحب أن أشير أيضا إلى من يطالبون بحذف نون النسوة والمثنى، والمفعول إلى آخره إنهم يدعون من حيث لا يدرون إلى هدم اللغة العربية والقضاء على الدين، فإذا ألغينا نون النسوة كيف نقرأ قوله تعالى: «**يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ...**» (الأحزاب: ٣٢) كيف ننطقها؟ والحديث الشريف «الناس رجلان بر تقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله» فكيف تقرأ بالله عليكم!

---

* د. جابر قميحة، جريدة الأهرام، الجمعة ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

من يجدد قواعدها ... وكيف؟ ★

أولا نسلم – ابتداء – بأن فى العناية بالعربية، نطقا وكتابة صونا للدين ذاته، إذا كانت هذه اللغة وعاء مختارا لهذا الدين. قال تعالى: **«نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربى مبين»** (الشعراء: ١٩٣ إلى ١٩٥)

وكان من هدى النبى صلى الله عليه وسلم أن يصوب من «يلحن» أى من يخطئ فى الأداء اللغوى، وقد ورد فى الحديث أن رجلا لحن بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله لأصحابه: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»، بمعنى نبهوا صاحبكم إلى خطئه، وبادروا بتصويبه حتى لا يعود لمثلها، ومن ثم كان تصويب الأخطاء اللغوية على ألسنة الناطقين بالعربية «واجبا شرعيا» حتى لا تستفحل الأخطاء اللغوية ويشيع اللحن.

ثانيا: اللغة العربية من أقدم اللغات السامية «نسبة إلى سام ولد نوح» منذ اعتمد تقسيم العائلات اللغوية فى العالم فى علم اللغة الحديث. وقد تمكنت العربية من مواكبة الزمن فظلت عبر تاريخها تتجدد من قرن إلى قرن ومن عقد إلى عقد، وكان المجددون هم «أهل الصفة والاختصاص» ممن درسوا النحو والصرف والمعجم ووقفوا على مباحث اللغة فى مصادرها، ولم يكن مثل هذا التجديد. «نهبا مباحا» لمن يعرف ومن لا يعرف.

إن المستشرق «جوستاف لوبون» اعترف بأن العربية تملك فى حلقات تطورها خيوطا واضحة من الانسجام وأنها من أكثر اللغات انسجاما – فى كتابه «حضارة العرب».

ثالثا: لم يقل أحد إن الأخفش أو الزجاج أو سيبويه أو سواهم من علماء العربية، كانوا «معصومين» فى جهودهم للتنظير للغة، بل إن عالما «كابن تيمية» فيما روى عنه قال: «ما كان سيبويه نبى النحو ولا كان معصوما، بل إن «ابن تيمية» فيما روى سجل على سيبويه فى «كتابه» الخطأ فى ثمانين موضعا، وهو ما كان مدعاة لمناظرة دارت بين ابن تيمية وأبى حيان النحوى.

لكن الملاحظات على بعض الجهود العلمية هنا أو هناك، لا تعنى الإجهاز على قواعد اللغة وتحطيم شفراتها التواصلية أو اجتثاث هياكلها.

★ د. طه أبو كريشة، جريدة الأهرام، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤.

رابعا: الضرورة ماسة لتيسير مناهج «تدريس النحو» بصورتها الحاضرة، لكن هذا التيسير لا يعنى مرة أخرى، الإجهاز على القاعدة، وإنما يعنى تقريبها من البسطاء وتنقيتها من الزوائد كما صنع مثلا د. شوقى ضيف حينما تقدم عام ١٩٧٧م بمشروع متكامل إلى مجمع اللغة العربية لتيسير اللغة، مقترحا إعادة تنسيق أبواب النحو وإلغاء الإعراب التقديرى فى المفردات، مقصورة ومنقوصة ومضافة إلى ياء المتكلم ومبنية، فضلا عن مقترحات أخرى بناءة فى إطار فكرة «التصفية والتنقية» التى تقرب من القاعدة، تلغيها أو تجهز عليها! وهى مقترحات طرحها من قديم «ابن مضاء القرطبى» فى كتابه الشهير «الرد على النحاة» فكانت جهود ابن مضاء وشوقى ضيف ومن على شاكلتهما فى الإطار والبناء الذى يتحرك من داخل اللغة وليس انسلاخا عنها وإن هناك فارقا جوهريا بين أن ألغى المنهج العقيم الذى يدرس به «المثنى» وبين أن ألغى «المثنى ذاته»!!

والقائم بالجهود التيسيرية فى هذه الحالة أساتذة النحو والصرف واللسانيات والناشطون فى المجامع اللغوية، وهم الأصلاء فى مجال «تجديد اللغة»، وأصحاب الحق فى الاضطلا ع به، والنهوض بتبعاته.

الخلـود .... لسيبويه!*

نعيب لغتنا والعيب فينا. وما للغتنا عيب سوانا!! ألا بل الله ثراك يا سيبويه .. فمتى رفعت البيوت دون قواعد؟ متى صمدت اللغات بغير قواعد؟؟ أم ترانا نعيش عصر العجز العربى الذى صور لبعض أهله أن ما خيم علينا من فشل وإحباط، وجعل الدنيا أمام ناظرينا أضيق من سم الخياط، سببه استعانتنا بلغة كتاب الله الكريم!! دائما نبغنا وأدمنا ابتداع مشاجب، نعلق عليها تراكمات ومخلفات أخطائنا وخطايانا، بعد أن ننفض منها أيدينا التى كثيراً ما اقترفتها ورعتها.. فعلنا هذا حين وهب الزمان أمتنا العربية.. نصف القرن الماضى.. فك خلاله إسارها من الاحتلال والاستغلال، وكان بمقدورنا بعد طول شتات وجهاد أن نحقق إبان سنواته الأخيرة الاتحاد. لنغدو قوة عظمى حاكمة، وإذ بأمجادنا الأشاوس عبر أغلب أقطارنا، يهدرون نفحة القدر فى الاقتتال والاغتيال والافتئات على حرية المواطن، التى هى غاية تحرير الأوطان، ولم تكن مصادفة أن يثب علينا الذئب القادم من وراء البحار، وفلوله الرابضة بقدس الديار، يلتقمون ويلتهمون كما ورد بالحديث الشريف أغنامنا القاصية، لنعود إلى الولولة والنهنهة، وتجفيف دموعنا بمناديل نشرناها على مشجب الاستعمار. دون أن نذكر أن كرامتنا هانت بداية على أنفسنا، فهانت من بعد على غيرنا، ممن يتأبطون شرًّا لنا. وقس على ذلك شتى الأحداث، ومنها صفر المونديال المعظم، تجاهلنا تدنى درجاتنا الرياضية، وعشوائية إدارتنا، وتضعضع طرقاتنا، وتواضع مرافقنا، وأمسكنا بتلابيب محكمى العالم، ورميناهم جميعًا بسوء الطوية وخراب الذمة!!

وهانحن أولاء اليوم نجابه نفرا منا، لم يروا مبررا لاندحارنا، وتردى أحوالنا سوى أننا اعتصمنا بلساننا العربى المبين!! إنهم يلمحون فى لغتنا الجميلة الثقيلة على بعضهم تمييزها بين المثنى والجمع، وإفرادها نون النسوة لجمع المؤنث، وتفرقتها بين الفاعل والمفعول به، وحفاظًا من قبل على تشكيل حروفها.. يلمحون فيه خطرًا مستطيراً يفضى إلى تعقيد لغتنا وتوطيد جهلنا، ومن ثم فطريق الخلاص على أيديهم لتيسير التعقيد هو فى تدمير التقعيد!!

واعجباه! أن لغتنا العربية الرصينة المصونة لها قواعدها شأن لغات العالم قاطبة وما زالت أذكر أننى حين نزلت باريس لتحضير رسالة الدكتوراه والتحقت بمدارس alliance لتنشيط

* د. على فاضل حسن، جريدة الأهرام، ٣٠ من أغسطس ٢٠٠٤م.

اللغة.. كنا ندرس كل تصاريف النحو حتى ما عفا عليه الزمن مثل Subgonctif فإذا ما حاورت رجل الشارع بمثل ما لقنونى بتلك المدرسة ابتسم طالبًا منى التبسط فى لهجة الخطاب.. إذن اللهجات النحوية والعامية شقائق فى سائر أنحاء المسكونة، ونحن لا نتطلع يومًا أن يكتب كل العرب بأسلوب العقاد أو المنفلوطى، فلدينا مستويات سهلة سلسة للتعبير على قدر ثقافة المتحدث والمتلقى. ومن يلق نظرة على كتب الشريعة الصفراء العتيقة يروعه الفارق الشاسع بين نهج تحريرها المائج بالجناس والطباق والسجع. وأسلوب كتابتنا الآن.. إنما دون المساس بقواعد اللغة لأنها الهيكل الأساسى الراسى فى وجدان الناطق بها، وكم من القواعد تعلمناها ثم نسيناها. وإن بقى فى أعماقنا إحساس خفى يسيطر على سلامة الإعراب شأن العازف المتمرس حين يدع النوتة جانبًا لتقوده أذنه متجاوبًا.. وبعد تجريد العربية من تفاعيل ركائزها سيتجاوز اللغة ليطول كينونتنا وديونتنا. وإلا كيف سنتعلم ونتفهم القرآن الكريم بحسبه الصياغة الإلهية الملتزمة بها.. كيف ننظم ونطرب للشعر لو هجرها وهى الضابطة لقوافيه وأوزانه؟ لقد سطرت فى مقال قريب بأهرام ٢٢من مارس ٢٠٠٤م: نضر الله وجه ابن حزم حين أجرى أقلامه فى كتابه الأحكام أن اللغة يسقط أكثرها بسقوط همة أهلها.. تجربة أجيالنا فى أن درايتنا بلغات أجنبية ولو تعددت لن ينال من استحواذنا على لغتنا واشتمالنا على جرسها وجمالها إن أردنا.. كل هذا عبر أزمان انقضت، شحذت فيها همتنا القعساء إيماننا الغافى بين الجوانح، رغم احتلال عسكرى لبلادنا، وسيطرة أجنبية على أسواقنا.. اللغة هى نبض الحرية، ولغة الضاد بالذات هى القناة السرية السحرية التى تصل بين أبناء العروبة.

متى نعلق ولو على مشجب واحد الأسباب الحقيقية لإخفاقنا.. ضحالة استيعاب أبنائنا لغتنا مرده ضآلة مناهج تدريسها.. انحسار انتشار لغتنا بين الأمم، مرجعه شحوب بل نضوب ما تحمله من معارف، وسقيا لدهور ظلت جامعات أوروبا على مدى سبعة قرون تقبل على كتاب ابن سينا «القانون فى الطب» بكل ما أورده من مفردات وتراكيب.

لكونها لغة القرآن
هل العربية مقدسة!؟*

قال تعالى: «**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**» (يوسف: ٢)، نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين، فكان للغة العربية مزية لا تتأتى لغيرها من اللغات، وكما أثر القرآن الكريم فى الأمة العربية فى أخلاقها وعقيدتها وشتى نواحى حياتها، فقد أثر أيضا فى اللغة العربية تأثيرا بالغا، وارتباط العربية بالقرآن الكريم جعلها محفوظة بحفظه باقية ببقائه، وسبحانه الله القائل: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» (الحجر ٩) والذى يدقق النظر فى العربية المعاصرة يجد الكثير من ألفاظها قد فاق أمه، وظلت تلك الأم الفصحى حية مقصورة على الاستخدام الدينى المرتبط بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بل إن القرآن أعطى الألفاظ التى استخدمها شهادة خلود أبدى، فهل العربية مقدسة؟ وأهى غير حضارية كما يتهمها المتغربون؟ وهل المساس بها يعد مساسا بالدين والقرآن؟ هذه الأسئلة يجيب عنها علماؤنا الإجلاء فى هذا التحقيق.

إن الداعين لانسلاخنا عن هويتنا ولغتنا العربية هم - بحق - الداعون إلى تراجعنا للخلف، فالعربية هى التى حفظت التراث لأنها مؤيدة ربانيا، لأن القرآن الكريم نزل بها والله تكفل بحفظ القرآن من الزوال. والمنطق القوى يقول: إن حفظ الله القرآن من الاندثار هو حفظ للغة العربية، فهى أساس الثقافة العربية والإسلامية، وفى البداية يقول: د. طه الدسوقى حبيشى الأستاذ بكلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف: اللغة العربية فيما أزعم أنها من أعلى لغات الدنيا كعبا وأطولها قامة، ويرجع زعمى هنا إلى حقيقة لا ينكرها إلا مكابر، هذه الحقيقة هى أن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة فى العالم المشتملة على كلام الله كما أنزل. وهذا الاشتمال يعد مفخرة من مفاخر هذه اللغة، وإذا كانت اللغة العربية قد احتفظت وحدها بكلام ربنا وثيقة إلهية وحيدة ليس لها فى الدنيا نظير، فإنه يجب أن ننظر إليها بغاية التقدير والاحترام، بل إن العربية تعد دراستها شرطا أساسيا لمن أراد أن يفهم حضارة الإسلام والمسلمين فهما دقيقا، وفى العصور المتأخرة اعتبرها دعاة القوميات مقوما أساسيا لكل جماعة تريد أن تنضم فى نوع من التكتل الاجتماعى سموه وقتها «القومية».

* أ. صابر رمضان، جريدة الوفد، الأربعاء ٢٠ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

ولما فطن أعداء الإسلام فى الداخل والخارج إلى أهمية اللغة، كان هدفهم الأساسى هو القضاء على اللغة العربية لتحل محلها «العامية» أو ليحل محلها لغة أجنبية عن القرآن وعن دين الإسلام.

أما الدكتور جابر قميحة أستاذ اللغة العربية فيقول: لم يقل أحد إن اللغة مقدسة، ولكن نقول بإيجاز شديد إن اللغة العربية شرفت بنزول القرآن بها، أو باختيار الله سبحانه وتعالى لها، لكى تكون وعاء تعبيريا للقرآن الكريم، أما مسألة مقدسة وغير مقدسة فهذا يعنى افتعالا غير موفق ومرفوض جرى فيه البعض وراء العلمانيين، لأن اللغة العربية ككل لغة ترتفع بمضمونها وليس بذاتها، فمثلا اللغة العربية فيها أحاديث عن القيم الإنسانية العليا والدعوة إلى الإسلام مثل شعر حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة مثلا، وفيها وفى هذا الحال نقول إننا أمام لغة راقية شريفة إذا كان الأداء التعبيرى راقيا والمضامين إنسانية ذات قيمة، ولكن إذا كنا أمام أحاديث منحطة المضمون تدعو إلى الفحش والسقوط كالغزل الجنسى الفاحش الذى نظمه سحيم عبد بنى الحسحاس، فهنا نكون أمام لغة منحطة فى مضمونها وفى شكلها. ولعلك لاحظت أننى لم استعمل كلمة «مقدس» لأنها كلمة غلب عليها الطابع اللاهوتى المسيحى فلا يجوز أن نطلقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على أى نبى من الأنبياء ولكن نطلقها على الذات الإلهية فنقول: إن من أسماء الله «القدوس» ونقول عن جبريل إنه «روح القدس» وأما عن اتهام اللغة بأنها غير حضارية فيقول د. قميحة: هذا كلام فارغ لأن اللغة تفرض نفسها على الشعوب الأخرى بقدر نهضة أبنائها وارتفاع مركزهم السياسى والاجتماعى، فمثلا كانت اللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى، وفى العصر العباسى وفى الأندلس تطعم اللغات الأخرى وتهرع إليها الشعوب الأوربية ويفخر أبناء ملوكهم بأنهم تعلموا العلوم المختلفة فى الجامعات الإسلامية بقرطبة والمدن الأندلسية وقد بينت «زيجريد هونكة» فى كتابها «شمس العرب تشرق على الغرب» أن أكثر من ثلث اللغة الفارسية كلمات عربية وكذلك اللغة الأردية وكذلك اللغة التركية وبعض اللغات اللاتينية، ومازالت كلمة «Sheriff» الشريف تطلق على منصب إدارى اجتماعى فى الولايات المتحدة كلها وهى كلمة عربية «بمعنى عمدة» وغير ذلك كثير بينه العقاد فى كتابه «أثر العرب فى الحضارة الأوربية». ويكفى أن نعرف أن جذور كثير من اللغات اللاتينية والسامية ترجع إلى أصول فى العربية، فاللغة تتجمد أو تتخلف لضعف أهلها وتخلفهم.

على جانب آخر يقول الدكتور طه مصطفى أبو كريشة نائب رئيس جامعة الأزهر السابق وأستاذ اللغة العربية: النظر إلى المسائل اللغوية وإلى اللغة لا ينظر إليها لا من خلال طرح

سؤال أهى مقدسة أو غير مقدسة؟ لأنه لا علاقة بين هذه الصفة وبين وظيفة وطبيعة أى لغة فى أى مكان، ولكن الذى يطرح: هل اللغة العربية صالحة لأن تعيش بين أهلها والمتحدثين بها الآن؟ أو أنها أصبحت عاجزة عن هذه الحياة وأصبح أهلها عاجزين عن الحياة معها بصورتها التى تعيش بها بينهم؟ وللإجابة عن ذلك، إن اللغة العربية الفصحى لم تصبح عاجزة فى يوم من الأيام عن الوفاء بمطالب المتحدثين بها، بدليل أن من هاجم العربية من أبنائها لم يتحدث إليهم إلا من خلالها فقط، وكان الأجدر به أن يتحدث إليهم بطريقة عملية من خلال تصوره الوضع الذى يحب أن تكون عليه، والأمر الآخر الذى نقوله فى هذا المجال إن الدعوة إلى التخلى عن اللغة العربية الفصحى، هى دعوة إلى التخلى عن كل التراث المكتوب بها بما فى ذلك القرآن الكريم نفسه، لأن الناس إذا عجزوا عن التعبير، بها فهم عاجزون من باب أولى عن فهم ما كتب بها، وبذلك نقطع صلة الحاضر بالماضى انقطاعا كاملا، وليس هناك أى تعليق بعد هذه النتيجة الحتمية فيما يثار حول صلة اللغة بالدين وأهى مقدسة أم غير مقدسة.

أما الدكتور محمد محمد داود أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة قناة السويس، فيرى أن العربية لغة مقدسة فى القرآن، لأن كلام الله عز وجل الذى تعهد الله بحفظه، قال تعالى: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» (الحجر: ٩). أما خارج القرآن فالعربية شأنها شأن كل اللغات، تسمو إلى القمة على لسان من يحسنها، وقد تهبط على لسان من لا يحسنها، ولا خلاف بين العلماء فى هذا، وإثارة هذه القضية إنما هى تحصيل حاصل، وعن الربط بين العربية والدين والقرآن فهذا واقع موجود ولا يمكن فصل العربية عن القرآن والربط الموجود فى الواقع اللغوى ربط إيجابى يدفعنا إلى حب العربية، والحرص على تعلمها، والاعتزاز بها، وكلها دوافع لو أحسن استخدامها وتوظيفها فإنها ستكون دعما وعونا على تطوير العربية لمواكبة العصر، وعن ضرورة أن يجيد كل مسلم العربية يقول فضيلته: إن هنالك قدرا يسيرا ينبغى على المسلم تعلمه من العربية وهو القدر الذى يمكنه من النطق بالشهادتين وأداء الصلاة، وهذا قدر يسير جدا «الجزء المتعلق بالعبادات»، أما بعد ذلك فكل على قدر رغبته واستطاعته يعنى أن المسلم لا يشترط لإسلامه تعلم العربية، فهل المساس بالعربية مساس بالدين والقرآن؟ فأولا نريد أن نستوضح معنى المساس، فإن كان يعنى به التيسير والتسهيل دون العدوان على القواعد الراسخة المستقرة للعربية فلاشىء فى هذا، بل القرآن نفسه صنع بالعربية شيئا عظيما، حيث هذبها واصطفى منها أيسر الألفاظ والكلمات، فلا تجد فى القرآن وزنا من الأوزان الثقيلة، بل إن القرآن الكريم أعطى الألفاظ التى استخدمها شهادة خلود أبدى.

اللغة المقدسة وقدسية اللغة*

هل هناك لغة مقدسة وما معنى قداستها؟ وإلى أى مدى نتمسك بتلك القداسة؟

١) اللغة المقدسة عند علماء اللغويات توصف بها اللغات التى كُتب بها نص مقدس، له أتباع يأخذونه كمصدر لمعرفتهم وأحكام حياتهم أو إطار لسلوكهم، وبهذا التعريف فإن اللغة العبرية التى كتبت بها (التوراة)، واللغة السنسكريتية التى بها كتبت (الفيدا)، واللغة العربية التى بها نزل وكتب (القرآن الكريم)، هى لغات مقدسة، قال تعالى: «**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**» (يوسف: ٢).

وقال تعالى «**بلسان عربى مبين**» (الشعراء:١٩٥) وقال سبحانه «**قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون**» (الزمر: ٢٨)، فلا يقبل الناطقون بهذه اللغات والذين آمنوا بمرجعية هذه النصوص أن يتركوها لا للتطور ولا للتدهور، ولا يغيرون فيها دلالات الألفاظ ولا وسائل الفهم من نحو وصرف، حيث إن استنباط الأحكام من النص يقتضى ذلك، وهذا مبنى على أن اللغة لها وظيفتان: الوظيفة الأولى: هى الأداء، وفيه يعبر المتكلم عما فى ذهنه من معان بألفاظ لها دلالة متفق عليها بين أهل اللغة الواحدة، حيث وضعت هذه الألفاظ مقابل هذه المعانى، وواضع ذلك عند بعضهم هو الله، قال سبحانه «**وعلم آدم الأسماء كلها**» (البقرة: ٣١)، عند آخرين هم البشر، وفريق ثالث يرى أن أصول اللغات وقوانينها من عند الله، وأن الألفاظ المولدة من وضع البشر، وليس هذا مهما الآن، ولكن المهم أن الوضع بمعنى جعل الألفاظ بإزاء المعانى أمر لابد منه، حتى يتم التفاهم بين البشر، وذلك أن المتكلم يقوم بنقل المعانى التى قامت فى ذهنه إلى السامع، الذى يحمل هذه الألفاظ على مقابلها من المعانى التى سبق للواضع أن تواضع عليها، وبذلك الحمل من السامع تتم الوظيفة الثانية للغة، وهى وظيفة التلقى. فتحصل عندنا ثلاث عمليات: الأولى الوضع، والثانية الاستعمال، والثالثة الحمل. حتى قال علماء أصول الفقه: إن الاستعمال، من صفات المتكلم، والحمل من صفات السامع. والوضع قبلهما.

ويرى بعض الناس من مدارس ما بعد الحداثة أن عملية الوضع ينبغى أن تكون مرنة، لا تتقيد بالموروث، ولا يقتصر هذا المفهوم على اتساع اللغة طبقا لزيادة مساحة عالم الأشياء والأشخاص والأحداث والأفكار والنظم، وهو الاتساع المتفق عليه نظرا وعملا. بل

* د. على جمعة، جريدة الأهرام، ١١من سبتمبر ٢٠٠٤م.

مقصودهم تغيير دلالات الألفاظ بحيث تزداد مساحة الحرية الفكرية. وترى بعض المدارس المتطرفة من مدارس ما بعد الحداثة أن هناك خمسة أشياء يجب أن تزول، حتى يستطيع الفكر البشرى أن يبدع وأن ينطلق بدون أى عائق، وهذه الخمسة هى: الثقافة والدين والأسرة والدولة واللغة. ورفع سلطان الثقافة السائدة أمر سيؤدى إلى الاتجاه نحو (النسبية المطلقة) التى تدعو هذه المدارس الفكرية لتبنيها، والتحرر من سلطان الدين قد تم من قبل فى الحضارة الغربية، والأسرة أصبحت تطلق عندهم على أى اثنين فلم يعد المعنى زوجا وزوجة وابنا وابنة، وأبا وأما عائلة. نفس المعانى التى ورثناها عمن قبلنا ويعدون هذا من المعانى المعجمية أى التى وجدناها فى المعجم اللغوى، ومن هذا المدخل أصبح الشذوذ الجنسى – الذى لعن عند عقلاء البشر، دع عنك الأديان كلها – من حقوق الإنسان. ورفع سلطان الدولة وأن يستبدل بها الجمعيات غير الحكومية ومؤسسات المجتمع المدنى يحتاج إلى تغيير النظام القانونى والاجتماعى، بل قوانين الفكر، والنموذج المعرفى. والإطار المرجعى. أما إنهاء سلطان اللغة فهو أمر مفزع حقا.

٢) وعند هؤلاء الحداثيين وظيفة اللغة هى التلقى فقط، ومعنى هذا أن السامع يحمل الكلام على ما يشاء من معنى، بغض النظر عن مراد المتكلم من كلامه، وبذلك يفتح باب التأويل من غير ضابط ولا رابط، ونصل إلى النسبية المطلقة، حيث يفهم كل سامع ما يشاء أن يفهم، ولا ينظر إلى حمل الكلام على ما وضع له، ولا إلى حمله على مراد المتكلم، وكأنه يتمثل بقول المتنبى فى قصيدته الخيل والليل:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصموا

٣) واللغة المقدسة فى العربية تحتاج منا إلى إدراك إحصاءات تبين حقائق قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، فيكثر اللغط والجدال على أمور قد نكون متفقين عليها، أو يجعلنا ننزل القطعى منزلة الظنى، والظنى منزلة القطعى، فيختل ميزان العدل الذى أمرنا به فى كل جزئيات حياتنا وقضايانا.

٤) جاء القرآن ليهذب لغة العرب التى كانت مملوءة بالغرائب، ووحشى الكلام، وأذكر شعر صفى الدين الحلى حيث يقارن بين القديم والجديد فى لغة العرب، ويظهر من ذلك مدى تهذيب القرآن لغة العرب:

إنما الحيزبون والدردبيس	والطخا والنقاخ والعلطبيس
لغة تنفر المسامع منها	حيث تتلى وتشمئز النفوس
أين قولي هذا كثيب قديم	من مقالي عقنقل قدموس

٥) وألفاظ القرآن نحو ١٨١٠ ألفاظ تمثل جذور الكلمات القرآنية، فى حين أن معجم لسان العرب لابن منظور نحو ثمانين ألف مادة أعنى جذرا، أى أن جذور القرآن تمثل نحو اثنين فى المائة (تماما ٢,٢٥) من جذور لسان العرب، والجذور الواردة فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم هى ٣٦٠٠ جذر، أى ما يمثل (٤,٥٪) من لسان العرب والقرآن أصغر نص مقدس وعدد كلماته نحو ٦٦ ألف كلمة، منها ١٦٢٠ كلمة لم ترد فى القرآن إلا مرة واحدة، ويقول بعضهم إن الأديب (الروسى تولستوى) لم يكرر ٤ كلمات فى كتابه الحرب والسلام فعُد ذلك من بلاغته وتمكنه اللغوى، فإذا صح ذلك فإن هذا التفرد فى القرآن الكريم بهذا العدد الضخم من الألفاظ غير المكررة يكون معجزة بمعنى الكلمة. تضاف إلى وجوه إعجازه التى تخرجه عن نظام كلام البشر.

٦) إن هذه الحقائق تجعلنا نذهب إلى أن هناك لغة مقدسة، ولكن هذه اللغة المقدسة يجب الحفاظ عليها فى حدود النص المقدس، حيث نحتاج إليه، وفى حدود أدوات فهمه على مستوى ألفاظه ومعانيه، وعلى مستوى تركيباته، ودلالاتها المختلفة، وعلى مستوى سياقه أيضا، وأن تطوير اللغة وارد ولكن بصورة لا تفقدنا الاتصال بالتراكم المعرفى التراثى من ناحية، وأن تكون وعاء قادرا على انطلاق الفكر بكل جوانبه العلمى والحسى والتجريبى، وحتى الفكر الفلسفى، وإعمال العقل، ليبقى الإنسان إنسانا، يقوم بواجبه من عبادة الله وعمارة الأرض وتزكية النفس، وأن هذا التغير يجب ألا يمس أيضا ثوابت البشر، وأن يكون فى سعته متسقا مع الاتساع الطبيعى الذى هو من سنن الله فى كونه، **«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»** (فصلت: ٥٣)

ولابد أن نعى أيضا فى أثناء عملية الاتساع ما آلت إليه المدارس المتطرفة لما بعد الحداثة التى انتشرت فى عصرنا، وغايتها لا تتفق مع رؤيتنا للعالم، ولا مع مقررات ديننا، وأسس حضارتنا وتاريخنا، وأن يكون تعاملنا مع اللغة بناء لا هدم فيه.

٧) وهذه الحقائق أيضا تجعلنا نذهب إلى عدم قدسية اللغة، وأن هناك فارقا كبيرا بين اللغة المقدسة التى يجب الحفاظ عليها من أجل فهم النص، وبين قدسية اللغة التى تمتع من

اتساعها وقيامها بواجب عصرها وزمانها، ويذكرنا هذا الفرق بقصيدة حافظ إبراهيم فى شأن اللغة، حيث يقول، وهو يعرف قدرتها على البقاء ومسايرة التطور:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ... وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى ... رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات؟

نحن وسيبويه*

يولد الطفل اليوم مثلا غير قادر على الكلام والتفاهم، حتى إذا بلغ الثالثة من عمره اتقن بالسماع والممارسة للكلام استعمال لغة قومه، دون أن يعرف لها نحوًا ولا صرفا. لهذا كانت برامج التعليم في مدارسنا تشتمل إلى جانب درس النحو على دروس أخرى طابعها الممارسة. وذلك كالإنشاء والمطالعة والمحفوظات والتعبير، وهي جميعًا من وسائل كسب المهارة في الكلام، والنحو للكلام كالمنطق للفكر، كلاهما يستعمل لضبط الأداء لا لكسب المهارة، أما اكتساب المهارة فوسيلته استعمال الكلام والاتصال.

ومن المعروف أن اللغة نظام أكبر، مؤلف من أنظمة فرعية مترابطة ومتصاعدة، أدناها نظام الأصوات، وفوقه نظام الصرف، وفوقهما نظام النحو، ومن مظاهر ترابط هذه الأنظمة أن نتائج علم الأصوات تعد من وسائل الوصول إلى فهم نظامي الصرف والنحو، وأن نتائج الأصوات والصرف معا تعد من لبنات بناء نظام النحو. ونحن لا ننطق اللغة، وإنما ننطق الكلام بحسب نظام اللغة، فالكلام سلوك، واللغة قانون هذا السلوك، ودراسة اللغة تتم من خلال الكلام.

ليس من شأن النحو إذن أن يطلق اللسان بالكلام الصحيح، وإنما شأنه أن يدل المتكلم والسامع كليهما على مبلغ الكلام الذي قيل من الصواب، وأن يجعل الكلام مادة صالحة للدرس واستخراج القواعد منه، هكذا كان شأن النحاة في درسهم النحو العربي.

عمد النحاة إلى كلام العرب فاختاروا منه نصوصًا بعينها لقبائل معينة تعرف باسم قبائل وسط الجزيرة، أو قبائل الفصاحة، أخضعوا هذا المسموع للاستقراء الناقص، فوجدوا أن ضبط بعض مكوناته يفتقر إلى الطرد (أو الاطراد كما يسمونه)، فلو نظرنا إلى أفعال الأمر التالية: (اضرب – قل – ق) لوجدناها تستعصي على الخضوع لقاعدة واحدة تجمعها، ومن هنا لجأ النحاة إلى تجريد ما سموه: أصل الوضع، وبهذا جعلوا لكل واحدة من هذه الصيغ حروفا ثلاثة أصلية، هي بالترتيب: ضرب – قول – وقي بالبناء على الفتح، ومنها جاءت صيغة الأمر. يفهم من قولنا: (بالبناء على الفتح) أن أصل الوضع يشتمل على الحروف الصحيحة والحركات في الوقت نفسه، ويتضح صدق هذه الدعوى من عبارات الرد إلى الأصل

* د. تمام حسان، جريدة الأهرام، ٢ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

كما فى قولهم: (نقلت حركة كذا إلى الساكن الصحيح قبله). كما فى تصريف الفعل «استقام».

من جهة أخرى جرد النحاة ما يسمى (أصل الاشتقاق)، وهو مكون من الحروف الصحيحة التى اشتمل عليها أصل الوضع دون الحركات، كما يتضح من مداخل المواد المعجمية مثلا. وتتمثل قيمة هذا الأصل فى تحديد العلاقة بين المفردات، وفى بيان الأصلى والزائد من حروف الكلمات، والنص على رتبة الحروف، وعلى حذف بعضها عندما يقع الحذف، والزيادة عندما تقع الزيادة.

وثالث الأصول التى تكلم عنها النحاة أصل القياس. لقد كان من أسباب إنشاء نحو اللغة العربية أن يتكلم الناس كلامًا فصيحًا سليمًا، كما كان الفصحاء يتكلمون. ومن الأقوال المأثورة فى هذا المجال قولهم: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ويختلف أصل القياس عن سابقيه فى أنه ينتمى إلى الكلام لا إلى اللغة، أى أنه من قبيل المنطوق لا من قبيل المجرد. وجعلوا للقياس أركانًا أربعة هى: المقيس والمقيس عليه والعلة والحكم، وسنعود إلى الكلام فى بعض ذلك بعد قليل.

كما تكلم النحاة فى مجال أصل الوضع عن أصل وضع الصوت، وأصل وضع الصيغة الصرفية، نراهم عند الوصول إلى النحو يتكلمون عن أصل بناء الجملة، وأنها مركبة من مسند إليه ومسند، وما عداهما لا يعد من موضوعات «الأصول». ومن الطبعى عند الكلام عن أصل وضع الجملة أن تقودنا المناسبة إلى تناول مصطلحات وضعها النحاة لمفاهيم يشتمل عليها الكلام فى هذا الموضوع، ومنها (القاعدة - الاستصحاب - العدول - الرد - النقل) كما فى المجاز (المعاقبة) كما فى حلول «إذ» محل «أن» فى قوله تعالى: «**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**» (آل عمران: ٨)، الرد - العلة - الحكم - القرينة - الرخصة..الخ.

فالقاعدة من شأنها أن تكون عبارة واصفة مختصرة، توضح ما يميز حكم عنصر ما من مكونات الجملة أو علاقته بما حوله، كأن نقول: الفاعل مرفوع، أو الفاعل يأتى بعد الفعل، هذا هو الشأن فى لغة الباحث، أما فى حجرة التعليم فمن شأن لغة المعلم أن يقول: يجب أن يكون الفاعل مرفوعا، ويجب أن يذكر بعد الفعل، أى أنه يقف من تلاميذه موقف من يردد ما سعى إليه أصحاب أصل القياس، فيأمرهم أن يتكلموا كما تكلمت العرب من قبل.

المفروض فى القاعدة أن تكون كالتعريف جامعة مانعة، ولكنها قد لا تكون كذلك أحيانًا، فإذا صدقت القاعدة صدقًا تامًا فإن النحاة يقولون إنها مستصحبة، أى تحققت لها كل

الصفات التى نسبت إليها، كما فى الفعل «ضرب» مسندًا إلى المفرد الغائب، أما إذا لم يتحقق فى القاعدة ما ذكره النحاة من خصائصها، فإنها عندئذ تعد معدولا بها عن أصلها. وهنا تكون مناسبة الكشف عن علل العدول عن أصل الوضع، وعن رد المعدول به إلى أصل وضعه، فالفعل «قال» مثلا عدل به عن أصله هو «قول» بفتح حروفه جميعا، وهكذا يكون رده إلى أصل وضعه على النحو التالى (تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت الواو ألفا) فصار الفعل «قال».

أما الطرد(أو الاطراد) فهو مع أنه من خواص القاعدة، فإن من المألوف أن لكل قاعدة استثناء يطعن فى القول بمطلق اطرادها، ولكن النحاة لم يترددوا أن يجعلوا الطرد فى بعض الصور علاجًا لبعض الظواهر غير المطردة. مثال ذلك أن الأصل فى مضارع الفعل «أكرمت» أن يكون (أؤكرم) فلما كان التقاء الهمزتين ثقيلا حذفت إحدى الهمزتين طلبًا للخفة.

هذا باختصار شديد هو شأن اللغة العربية فى نظامها وطرق استعمالها. إنها لغة ثرية بطرق الأداء وجمال التركيب، يشهد بذلك تاريخها وتراثها العظيم وقرآنها الكريم. فمن هتف بحياتها فنحن معه، لكن ماذا جنى سيبويه ليهتف أحد بسقوطه؟ لقد ولد سيبويه ونشأ فى منطقة تقع على الحدود بين لغتين فكان يتكلم هاتين اللغتين Bilingual ولم يكن سيبويه ممن رحلوا إلى الصحراء ليجمعوا المسموع من لغة العرب، ولم يبدأ حياته التعليمية فى طلب اللغة، بل بدأها طالبًا الحديث النبوى، ولم يتحول إلى طلب اللغة إلا بعد أن نبهه شيخه إلى أنه يلحن فى كلامه، عندئذ دفعه الضيق بهذا اللحن إلى طلب النحو، فتتلمذ على عدد من الأئمة اللغويين، وسمع منهم وروى فى كتابه ما سمع منهم.

ليس من العدالة أن نلقى اللوم فى جهلنا باللغة وسوء موقفنا منها على سيبويه.

إن سيبويه صاحب أول كتاب نحو فى العربية، هذا معروف. لكن المادة التى يعرضها هذا الكتاب هى ما سمعه سيبويه من شيوخه وما تعلمه منهم. وبعد ظهور هذا الكتاب اتخذه النحاة دستورًا لمادة النحو، وكما تختلف القوانين فى ظل الدستور اختلف النحاة فى ظل الكتاب. ثم مرت القرون بعد سيبويه والناس يضيفون إلى جهوده النحوية حتى أصبح كتاب سيبويه واحدًا من كتب النحو، وإن كان أعظمها احترامًا بين طلاب النحو. وبهذا أصبح النحو أوسع ساحة من أن يصبح سيبويه مسئولا عنه، بل أصبح النحاة جميعًا أصحاب المسئولية عن علم النحو تراثا وتطورا. ومن التطور بعض ما عرضه هذا المقال. فهل يقصد المنادى أن ينادى بسقوط الجميع متخذا سيبويه رمزًا للنحاة فى كل العصور؟ وما موقع المنادى فى هذه المساحة الواسعة؟ أهو من أعضائها أم هو دخيل عليها؟ لست أدرى!!

لغتنا الجميلة أهلها أهملوها ★

الوحى الذى بدأ نزوله على نبى الإسلام فى ليلة القدر جاء باللغة العربية، وكان المفروض أن تكون لغتنا الجميلة هى الأولى من حيث الانتشار على مستوى العالم! ومن المؤسف أن الإنجليزية نجدها فى الصدارة عالميا تليها الفرنسية، أما العربية فقد تراجعت بسبب إهمال أهلها.

وهذا التقصير موجود من زمان ومن مظاهره أن قواعد لغتنا من صرف ونحو وبلاغة وضعها الأعاجم من المسلمين وليس أبناؤها الأصليون ... ولم ينجح العرب فى تعريب الأتراك الذين قادوا العالم الإسلامى قرونا عدة، وكذلك فشلوا فى نشر العربية بين الهنود والإندونيسيين، ودخل الإسلام البلقان بأوربا ولم تدخل لغته معه، فخرج من هناك ولا تزال أوضاعه فى تلك البلاد مهتزة.

واشتد التقصير فى حق لغة القرآن فى السنوات الأخيرة، ورأينا لغات ميتة يحاول أصحابها إحياءها من جديد، بديلا عن العربية مثل لغة أهل البربر المنتشرين بالمغرب العربى، ولغة الأكراد الموجودين بالعراق وسوريا وتركيا، وهناك من يحاول إحياء اللغة القبطية فى مصر المحروسة!

وتعرضت العربية لهجوم كاسح بدأ منذ سنوات عدة، وتمثل فيما نراه من استخدام ألفاظ سوقية فى الروايات التمثيلية، وكذلك السخرية من الفصحى، ومعظم زعماء العرب لا يجيدون الحديث بلغة القرآن، ويأتى كلامهم خليطا من العربية واللهجات المحلية، وهم مولعون بنصب المرفوع وجر المنصوب! و«لخبطة» كل قواعد النحو!! ولا نعرف لغة فى أرجاء الأرض يتحدث رؤساؤها بهذه الطريقة!

وهناك من يتعمد الحديث فى حياته العادية بلغة «خواجاتى» مثل الإنجليزية والفرنسية بالرغم من أنه مواطن عربى!! لكنه يظن أن هذا المسلك من سمات الطبقة المترفة وهو يحاول الانتساب إليها يعنى المسكين عنده عقدة نقص!

★ أ. محمد عبد القدوس، جريدة الميدان، ١١ من نوفمبر ٢٠٠٤م

ومن أخطر الاتهامات الموجهة إلى لغة القرآن أنها غير قادرة على مسايرة علوم العصر ومن الأفضل دراستها بلغتها الأصلية، وشاع ذلك خاصة فى السنوات الأخيرة، ورأينا فى الجامعات المصرية ذاتها دراسات للمواد الجامعية بلغة الخواجات، وهى باهظة الثمن، فلا يلتحق بها إلا أبناء الأثرياء ... بينما يدرس بالعربية أولاد غير القادرين!!

وهذا التفكير له عيوب عدة، أولها ضياع الوحدة الثقافية التى تربط أبناء الوطن الواحد نتيجة لاختلاف المناهج وطرق الدراسة، وأسلوب الحصول على المعلومة، ومن أخطر سلبياته كذلك إهمال اللغة الأم والحط من شأنها، والعديد من الأمم يحرص على هويتها الوطنية، والدراسة فيها بلغتها الرسمية مثلما رأينا عند العدو الصهيونى! وكذلك فى الصين، وألمانيا وهولندا وفرنسا وغيرها .. فما بال العرب يهملون لغتهم مع أنها ذات طابع عالمى حيث إنها لغة القرآن وهذا سر خلودها.

ومن ناحية أخرى فأنت إذا درست بلغة أجنبية فلن تستطيع التفوق على أصحاب تلك اللغة الأصليين، وستظل دائما تابعا لهم وهم متفوقون عليك!، وحركة الترجمة إلى العربية ستكمش فلم يعد لها داع بعدما استغنيت عن لغتك الأصلية، والأهم أن هذا المسلك فيه ظلم شديد للعربية بقدراتها وإمكاناتها الهائلة.

وأخيرا فإن الدراسة باللغة الأم لا يعنى أبدا إهمال اللغات الأجنبية وتعلمها بل إنها تكون فى هذه الحالة أكثر أهمية لمسايرة التطورات العالمية .. ولكن هناك فارقا بين التعمق فى دراسة اللغات الأجنبية وهو أمر مطلوب وبين طرح لغتنا الجميلة جانبا انتصارا للإنجليزية والفرنسية، وهذه جريمة فى حق العربية التى هى لغة الإسلام! والعرب لم يتراجعوا عن مكانتهم بين الأمم إلا بعد أن فرطوا فى خدمة دينهم ولغتهم، والمطلوب منهم تغيير مسلكهم والعودة إلى أصولهم التى أوصلتهم للصدارة يوما ما .. ووجودنا اليوم فى ذيل الأمم أمر طبعى، لأننا رضينا أن نكون تابعين للغير.

أرقامنا عربية أو جوبارية؟★

اختلف العرب في الأرقام وأشكالها، وقد كنت أعتقد بأن الأرقام التى يستعملها الغرب عربية. لأنهم يسموها Arabic Numerals وقد أكد المثقف العربى هذا الرأى ونشره فى الساحة الفكرية، وآمنت به الفضائية السورية وأخذت به، كما سرت الفكرة فى الفضائية المصرية فى بعض نشراتها، وسبق أن أخذت به جريدة الشرق الأوسط التى تصدر من لندن مع بعض الصحف العربية الأخرى.

وقد بذل المغاربة جهدا كبيرا فى نشر الفكرة جريا على تسمية الغرب، وقد ظهر لى بعد ذلك بأن هذه الأرقام هندية سنسكريتية جوبارية آرية برهمية الأصل، وصلت إلى العرب عبر الترجمات العربية لكتب الحساب الهندى والجبر والمقابلة، ولما ترجمت هذه الكتب من العربية إلى اللاتينية حسبها الغرب أرقاما عربية، لأنها جاءت إليهم عبر العرب، وأما الأرقام الشائعة فى المشرق العربى فهى فى أصلها فينيقية – آرامية – نبطية – تدمرية وهى لذلك عربية الأصل.

وقد بحث الدكتور قاسم السامرائى فى هذه الأصول بحثا مستفيضا فى كتابه علم الاكتناء العربى الإسلامى، وجاء بالوثائق التى تبرهن على أن الأرقام التى تستعمل فى أوروبا والمغرب العربى أصلها هندى وليس عربيا، وهى لذلك فى الأصل هندية سنسكريتية، وعرض آراء الدكتور التازى وآراء الباحثين فى المغرب وأشار بأن المغرب العربى أخذها من الأندلس، وأن أهل الأندلس كانوا يستعملون خليطا من الأرقام حتى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) التى لم يزل الإيرانيون والباكستانيون يستعملونها حتى اليوم، إضافة إلى ما يسمى بالأرقام الفاسية التي تعود فى أصولها للأرقام اليونانية النبطية، التى سماها محمد المنونى «الأرقام الرومانية المتمغربة» وأشار إلى أن مخطوطة «المسالك والممالك» للبكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ والمؤرخة فى القرن السادس الهجرى مرقمة بهذا الترقيم، وإلى هذا أشار قاضى فاس إبراهيم بن محمد البزناستى حين قال «إن الرسم الرومي قد استفاض بين المسلمين حتى صار كسائر رسوم المسلمين بأشكال الغبار وغيرها من المصطلحات».

★ د. يوسف عز الدين، مؤتمر مجمع اللغة العربية، القاهرة، الدورة التاسعة والستون ٢٢من مارس إلى ٧ من إبريل ٢٠٠٣م.

وقد شرح الخوارزمى نفسه فى أول كتابه فى الجبر والمقابلة نوعية الأرقام فقال «ولدى الهنود تسعة أحرف والتى تبدو مثل التالى: 9. 8. 7. 6. 5. 4. 3. 2. 1. وهناك اختلافات فى شكل الأحرف وذلك باختلاف الأشخاص الذين يكتبونها. وخاصة ما يتعلق بـ 5. 6. 7.8. إلا أن ذلك يجب أن لا يسبب صعوبة تذكر، حيث هى رموز تدل على أرقام، وإن هذه صور الأرقام حدثت بها الاختلافات التى ذكرناها». وهنا نسب الخوارزمى هذه الأرقام إلى الهند وإن كتبت بأشكال مختلفة، فالأرقام على رأى الخوارزمى هندية سنسكريتية.

وقد استمر الحسابون فى المشرق والمغرب يستعملونها مع الأرقام العربية، وتبرهن النقائش والنقود وكتب التراث الرياضى التى وصلت إلينا على ذلك مثل: رسالة فى كيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب، ورسالة فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها للبيرونى، ونزهة النظار فى علم القلم الهندى الغبار لابن الهائم وغير ذلك كثير.

وقال ابن الياسمين المتوفى بمراكش سنة ٥٠١هـ : «أعلم أن الرسوم التى وضعت للعدد تسعة أشكال يتركب عليها جميع العدد وهى التى تسمى أشكال الغبار، وهى: 9. 8. 7. 6. 5. 4. 3. 2. 1. وقد تكون: ٩.٨.٧.٦.٥.٤.٣.٢.١، ولكن الناس عندنا على الوضع الأول، ولو استطعت مع نفسك تبديلها أو عكسها لجاز ووجه العمل على حالة لا يتبدل. فإن قوله: «ولكن الناس عندنا على الوضع الأول» يريد به أهل الحساب، وهذا ما لم يتنبه إليه من كتب فى أصول الأرقام، كما يتضح ذلك من قول قاضى فاس، كما أنهم لم يتنبهوا إلى أن لفظة «الغبار» هى تحريف للفظة «جويار» الهندية وأن الأرقام الهندية السنسكريتية هى التى تسمى بـ «الأرقام الغبارية».

لاشك فى أن السمو الحضارى عند الأنباط دعاهم إلى اختراع الأرقام الخاصة بهم، أو طوروا ما كان معروفا عند الفينيقيين والآراميين قبلهم، وهم تجار ورأس مال التاجر الأرقام الحسابية، وقد ثبت أنهم استعملوها إضافة إلى نظام حساب الجمل فى تواريخ حوادثهم، فانتقلت هذه الأرقام مع خطهم إلى الهند، وبخاصة إلى المناطق الغربية من الهند بحكم تجارتهم مع الهند. كما نراه عند البيرونى، وإلى عرب الحجاز قبل الإسلام، وانتقلت بعد الفتوحات الإسلامية إلى المناطق الأخرى، بعد أن مرت بأدوار من التطور والتغيير فى أشكالها وطرائق رسمها.

إن ظاهرة كتابة الأرقام من اليسار إلى اليمين تلائم اللغة السنسكريتية، ولذلك لما ترجمت كتب الحساب والجبر والمقابلة من العربية إلى اللاتينية، كتبوها من اليمين إلى اليسار كما

جاءت فى المخطوطات العربية، وهذا ما نراه واضحا فى كتب الحساب والجبر والمقابلة اللاتينية المترجمة من العربية.

ولست بصدد ذكر براهين الدكتور قاسم السامرائى والوثائق التى قدمها، ولكن أرجو أن تؤلف لجنة فى البت فى الأرقام بالاعتماد على الباحث نفسه، أو على كتابه، فهذا من واجب، المجمع فقد برهن أن الأرقام فى المشرق إنما هى أرقام فينيقية – آرامية– نبطية، عربية الأصل، أثرت فى الهند ونقلت من العرب إلى الغرب الأوروبى، فظنها إخواننا المغاربة بأنها عربية لأن الغرب سماها فى أول الأمر «الأرقام العربية» Arabic Numerals ولكنهم تخلوا عن تسميتها بهذا الاسم منذ زمن طويل وبقينا نسميها كذلك، وهى ليست كذلك.

صورة تمثل شكل الأرقام المستعملة

أ) الأرقام الفينيقية

ب) أرقام تدمر فى القرن الأول إلى الثالث الميلادى

ج) الأرقام السورية فى القرن السادس والسابع الميلادى

هـ) الحروف السامارياتنية التى تمثل الأرقام

و) الحروف العبرية التى تمثل الأرقام أيضا

ز) الحروف الربانية (الخاخامية) التى تمثل الأرقام

ح) أرقام جزيرة كريت فى حدود القرن ١٥ قبل المسيح

ط) أرقام الأتك

ى) الحروف اليونانية التى تمثل الأرقام فى أقدم صور لها

ك) الحروف اليونانية التى تمثل الأرقام فى القرن الثالث قبل المسيح

ل) الأرقام الرومانية

م) الحروف العربية التى تمثل الأرقام (حساب الجمل)

ن) الحروف السنسكريتية التى تمثل الأرقام من القرن الثانى للميلاد

س) الأرقام السنسكريتية الحديثة

ع) الأرقام العربية الحديثة

ف) وما بعد كل هذا الأرقام المستعملة فى سيام وبرما والتبت وسيلان

ص) أرقام المايا

اللغة العربية ... وخطر الدياجلوسيا★

تعد اللغة العربية من أغنى لغات العالم بالمفردات والمترادفات، هى أغنى بمفرداتها من مجموعة اللغات السامية، وقد انقرضت كلها على وجه التقريب ولم يعد منها إلا آثار تاريخية فى النقوش والمخطوطات، وهى الكنعانية والفينيقية والعبرية والآرامية والبابلية والسريانية والهيروغليفية والحبشية. ولا يدل على مرونة اللغة العربية واتساعها وشموليتها كثرة مفرداتها التى تعد بمئات الألوف فحسب، ولكن يدل على ذلك أيضا كثرة الروافد والطرائق التى تغذى اللغة العربية، وتسمح لها بالتوليد والإضافات كالقياس والاشتقاق والنحت والتعريب وغيرها ...» ولعل هذا الشرف الذى تتوج به اللغة العربية يرجع إلى تميزها بعدد من السمات والملامح يجعل منها لغة جديرة بالمكانة الراقية من بين لغات العالم منها:

١) هى لغة القرآن الكريم، قال تعالى «**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**» (سورة يوسف: الآية ٢) فهى محفوظة بحفظ القرآن.

٢) لغة قادرة، فهى أغزر اللغات السامية مادة، وأكثرها تنوعا فى الأساليب، وأدقها فى القواعد.

٣) وهى لغة قومية: جمعت أواصر الصلة بين العرب من قديم الزمان.

لغة تراثية بمعنى أنها حفظت التراث العربى والإسلامى من الضياع. ولقد تنبه أعداء العرب والإسلام من المستشرقين والمبشرين والمستعمرين لأهمية اللغة العربية، وآمنوا بأن المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ من الفصل الدراسي، ومن المدرسة، بتدمير التعليم الدينى ونشر المدارس الأجنبية. ومحاربة اللغة فى عقر دارها، وتلفيق الاتهامات لها، بأنها لاتساير التعلم والتكنولوجيا والعلوم العصرية، ورموها بالعقم، ورد حافظ إبراهيم قائلا:

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلم أجزع لقول عداتى.

وأفصحوا عن أسلوب خبيث لمحاربة اللغة العربية، وهو الدعوة إلى العامية وإضعاف العربية الفصحى، وهذا الأسلوب خبيث بدرجة كبيرة، لأنه يحمل بين طياته أمرين كليهما شر على الإسلام والمسلمين:

★ أ. محمد السيد حافظ، مجلة الأزهر، ١٢ من نوفمبر ٢٠٠٤م.

الأول: أن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يفهمان إلا باللغة العربية، والمبشرون والمستعمرون لا يريدون أكثر من أن المسلمين لا يفهمون دينهم، فتضيع أحكام الإسلام حكما حكما.

الثانى: أن اللغة العربية الفصيحة هى وسيلة التفاهم بين العرب والمسلمين، وضياعها وإحلال اللهجات العامية يقطع أواصر الصلة بين أبناء الأمة.

فحين يدعو المبشرون والمستعمرون إلى العامية، ويضعفون العربية، فإنما هى دعوة تنطوى على الكيد للإسلام والمسلمين، وهذا ما يعرف باسم «دياجلوسيا» وهو الضياع بين لغتين عامية وفصحى لا يتقن إحداهما، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقى عندما تحدث عن العربية بوصفها عاملا مهما جدا فى الوحدة فقال:

رب لسان جمع الأقواما	وكان كالجنس لهم قواما
واستمسكت واعتصمت به الفطن	كعروة الملة أو حبل الوطن

وكان من أشهر الأصوات الداعية إلى العامية من هؤلاء الأجانب والمبشرين المستشرق الألمانى الدكتور «ولهلم سبيتا» الذى كان مديرا لدار الكتب المصرية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر فى كنف الاحتلال البريطانى. ففى سنة ١٨٨٠م وضع كتابا سماه «قواعد اللغة العربية العامية فى مصر» وقد أورد فيه نبذة عن الفتح الإسلامى لمصر سنة ١٩ هجرية وقضاء لغتهم على اللغة القبطية، محاولا إثارة العنصرية العرقية المصرية ضد اللغة العربية.

وغيره كثير وكثير، ولكن كان من أشدها مهندس الرى الإنجليزى «وليم ولكوكس» فانطلق يهاجم العربية الفصحى هجوما شديدا وضاريا واصفا إياها بأنها مصطنعة، وإن وصلت إلى الرأس لا تصل إلى القلب، وهى تقف عقبة فى سبيل التقدم ودراستها نوع من السخرة العقلية.

وأتى من بعده على نفس الدرب كتاب ومفكرون من بنى جلدتنا طنطنوا بهذه النغمة، وجرهم التيار العلمانى إلى الهجوم على اللغة العربية، ومن أمثال هؤلاء طه حسين الذى عد التمسك باللغة العربية أمرا تافها، فقال «لا تنخدعوا، لو كان للغة وزن فى تقرير مصير الأمم، لما كانت بلجيكا وسويسرا وأمريكا ولا البرازيل ولا البرتغال» وجاء من بعده سلامة موسى الذى وصف الفصحى بالصعوبة والعجز والعمل على بعثرة الوطنية المصرية، وعلو النبرة بلا داع.

ومن هؤلاء أيضا لطفى السيد الذى لم يكتف بتمجيد العامية، بل وصف العوام بأنهم يملكون بالوراثة سر اللغة، ويصرفون البيان فيها تصريفا حيا مألوفا، وغيرهم كثير وكثير. وأجدنى أرد على هؤلاء الأفاقين والمنسلخين من العربية إلى غيرها من لغات المستعمرين والمبشرين، أرد عليهم جميعا برائعة حافظ إبراهيم، القصيدة الشهيرة «اللغة العربية تتحدث عن نفسها» والتى مطلعها:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى — وناديت قومى فاحتسبت حياتى

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى — عقمت فلم أجزع لقول عداتى

وإنه لمن المحزن أن يخرج اليوم بيننا كاتب مناديا لتحيا اللغة العربية ... يسقط سيبويه، وما ساقه فى كتابه لا داعى أن أرد عليه هنا، ويكفى ما رد به أساتذتنا وعلماؤنا الأفاضل. فيا أيها العرب ويا أيها المسلمون اعتصموا بلغتكم، وحافظوا عليها، فإنها سر نهضتكم، وسر علو همتكم ... هدانا الله أجمعين.

دور الكمبيوتر فى تطوير الخط العربى لجعل اللغة العربية أسهل انتشارا ★

تشهد الساحة العربية التقنية من جديد دعوات تنادى مرة أخرى بتطوير شكل جديد لخط عربى، فى محاولة لحل بعض الإشكاليات فى الأحرف العربية المعتادة، التى يرى البعض أنها تشكل عائقا أمام انتشار اللغة العربية، ومنها وجود أحرف يمكن أن تظهر حسب موقعها فى الكلمة بثلاثة أو أربعة أشكال مختلفة، وهو الأمر الذى يرى فيه البعض عائقا أمام تعلم اللغة العربية ليس من قبل غير العرب فحسب، بل وحتى من الأطفال العرب أنفسهم. وقد برز فى العصر الحديث مجموعة من المختصين الذى اقترحوا خطوطا جديدة، تتميز جميعها بالاعتماد على شكل واحد للحرف العربى، لا يتغير مهما كان موقعه فى الكلمة، نذكر منهم مراد بطرس الذى صمم خطا أسماه «الخط العربى المبسط» عام ١٩٩٣م، الذى التقيناه فى لندن لنتعرف على الدوافع الحقيقية وراء هذا الاتجاه، ومشكلاته، ومستقبله.

قال: لقد قمت بتصميم «الخط العربى المبسط» بناء على طلب خاص من الأستاذ سيسيل حورانى، المستشار السابق للرئيس الحبيب بورقيبة، وأستاذ سابق فى العلوم السياسية فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، نتيجة علاقته مع الخطاط الشهير نصرى خطار رحمه الله، وتبنيه شخصيا فكرة «الخط العربى المبسط» للحلول الطباعية، وليس كحرف جديد أو أى طريقة جديدة لتحل محل الخط اليدوى، بحيث يهدف إلى اختصار الأشكال الأربعة للحرف العربى، بحيث يكون لها شكل واحد فقط، وقد قمت بعملى هذا من منطلق تجارى بحت.

وأنا من مؤيدى التطور والأفكار الجديدة دائما، لكن وبالطبع بناء على بحث واف وعميق وأخذ جميع الآراء والانتقادات البناءة بعين الاعتبار. لم تكن فكرة تصميم هذه النوعية من الخطوط حديثة على الإطلاق، إذ تقول بعض المراجع إنها تعود إلى عام ١٩٣٨م، كما يذكر كتاب «الخط العربى: نشأته، تطوره، مشكلاته، دعوات إصلاحه» لمؤلفه الدكتور: أميل يعقوب الصادر عام ١٩٨٦م عن «جروس برس» فى طرابلس بلبنان، عندما أسس مجمع اللغة العربية فى القاهرة فى ذلك العام لجنة لدراسة اقتراحات تيسير الخط العربى، بعدما تنادى بعض من تأثر بتجربة كمال أتاتورك بإجبار الشعب التركى على التوقف عن استخدام الأحرف العربية فى كتابة لغته، واستخدام الأحرف اللاتينية عوضا عنها، بتطبيق ذلك على

★ أ. وليد الأصفر: حوار أجراه مع أ. مراد بطرس، جريدة الشرق الأوسط ٢٣ من مارس ٢٠٠٤م.

اللغة العربية، كما تلت ذلك بعد بضعة عقود محاولات مماثلة، من أبرزها تصميمات قام بها الكاتب والروائى محمود تيمور(١٨٩٤-١٩٧٣م)، وسعد الله عويضة (١٩١٢-١٩٧٥م)، وتصميم قام به نصرى خطار عام ١٩٥١م، وأطلق عليه اسم «الأبجدية الموحدة» وفى الخمسينيات من القرن الماضى اقترح أحمد الأخضر غزال خطأ آخر، أما فى السبعينيات فقد قدمت اقتراحات من محمد سعيد الصكار ومأمون صقال وعبد المالك بوحدجيرة، والبشير ابن سلامة وغيرهم.

عندما طلب منا تصميم «الخط العربى المبسط كانت الفكرة مبنية على تصميم حرف طباعى لتحقيق هدفين أساسيين: تسهيل تعلم اللغة العربية للأطفال العرب، وتسهيل تعلم اللغة العربية للشعوب التى لا تنطق بلغة الضاد، وبناء على أبحاث جرت على مستوى خاص، تبين أن الطفل العربى يتم تعليمه كيف يقرأ قبل أن يتعلم كيف يكتب، وأنه لكى يستطيع أن يقرأ نصوص الخطوط التقليدية عليه أن يتعلم فى معظم الحالات أربعة أشكال مختلفة، فى حين وجدنا أن الطفل الذى يريد أن يتعلم اللغة الإنجليزية على سبيل المثال، فإنه يتعلم كيف يكتب قبل أن يتعلم كيف يقرأ، وبما أنه يتعلم أن يحفظ شكلا واحدا فقط لكل حرف، فإنه يتعلم بالتالى بطريقة أسهل وأسرع، ولهذا السبب يتعلم الأطفال العرب اللغة الإنجليزية أسرع من تعلمهم اللغة العربية التى هى لغتهم الأصلية حيث يقرءون الإنجليزية قبل العربية. ويتميز «الخط العربى المبسط» بأنه يظل مقروءا بوضوح سواء كتب بأحرف متصلة أو منفصلة. وعلى كل حال وللتأكد من صدقية هذه الفكرة يقترح تجربتها بدون أى مس ببرامج تعليم الأطفال الموجودة حاليا.

على الرغم من جميع الجهود التى بذلت خلال ما يقارب القرن، لم نشهد حتى الآن أى تطبيق فعلى لها حتى الآن، والسبب بكل بساطة هو أن جميع الشركات الغربية التى تحتكر سوق الخطوط فى العالم، لن تسمح برأيى بتشجيع أى فكرة جديدة إلا إذا كانت تضمن لهم الفوائد التجارية من جهة، نحن لنا كل الحق فى تسويق «الخط العربى المبسط» وسنبدأ بذلك فعلا قريبا، وما كان يؤخرنا حتى الآن هو تقرير الطريقة الفضلى لتحاشى أضرار القرصنة وسرقة الخطوط إلى أدنى حد.

وهناك شروط يجب أن تتوفر لدى من يرغب بتطوير خط عربى يستخدم فى الكمبيوتر، لذا بناء على طلب أو هدف معين، نعمل على إجراء الأبحاث اللازمة للحصول على النتيجة المتوخاة، التى تحدد لنا كيفية سير العمل المطلوبة لتنفيذ التصميم، وعند التصميم والتنفيذ نراعى جميع متطلبات قواعد الخط العربى قدر الإمكان، مع الأخذ بعين الاعتبار متطلبات

وضوابط التقنية الغربية لإمكان التوصل إلى تصميم خط جاهز للاستخدام فى الكمبيوتر، كما يجب أن يتحلى مصمم الخط بالقدرة على تذوق جماليات الخط العربى.

مع العولمة ودخول الخط العربى عالم النشر، ليس أمامنا إلا التطور مع ما هو متاح لنا من التقنية الغربية، بكل ما فيها من تعقيدات، بأمل الحصول على أفضل النتائج. إن الشركات العالمية تزود المطورين بما لديها من تقنية بناء على أهداف تسويقية بحتة لمصلحة الشركة المزودة للتقنية، وعلى قواعد الخط العربى أن تتماشى مع أنظمة هذه الشركات وليس المقابل، وبما أن العالم يتطور بصورة مذهلة اقتصاديا وسياسيا وبسبب تطور التقنية والمواصلات السهلة، انتشرت اللغة العربية فى جميع أنحاء العالم، ولكن الخطاطين انتشروا بشكل أقل. فمن الصعوبة مثلا وجود خطاطين فى أوربا لخدمة الصحافة ودور النشر كما يجب. إن التقنية فى النشر والصحافة هى لخدمة الخطاط والمصمم، ولكنها لا يمكن أن تحل محلهما، وفى المقابل فإن التطور الدائم لتقنية النشر المكتبى جعل وجود الخطاط ضروريا أكثر من السابق، إذ أنه أصبح يملك حرية أكثر لتصميم الخط الذى يريد، لأنه يعلم أن بإمكانه ترميمه بعد إدخاله الكمبيوتر. التقنية موجودة لخدمة المطورين، بقدر ما يعطون من فن ومهارة وخبرة تقنية، بقدر ما يحصلون على نتائج إيجابية. وليس هناك ما يمنع الخطاط من أن يعود إلى الجذور ويرسم لوحات وينظم معارض للمحافظة على التراث. إلا أنه ما يزال يواجه مشكلة أخرى قد تنغص عليه إبداعه وعطاءه، تتمثل فى قراصنة الخطوط العربية، ولا أعنى هنا الأفراد فحسب، بل وحتى مؤسسات وشركات محلية وعالمية، وبخاصة مع عدم وجود ما يردعهم بشكل مناسب.



تنمية اللغة حاسوبيا فى عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصال ★

الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية

كانت الثورة الصناعية معينا لجسم الإنسان ودعما لعضلاته. أما ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال، فهى امتداد لعقل الإنسان، وتطوير لنشاطه الذهنى.

فقد قامت الثورة الصناعية، فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، والنصف الأول من القرن العشرين، على اختراع آلات تحول مواد الطاقة أو الوقود، إلى قوة محركة فى شكل محركات بخارية وكهربائية وغيرها. واعتمدت تقسيم العمل إلى أجزاء متخصصة، للإسراف فى عملية الإنتاج ووفرته. وكانت تلك المحركات بمثابة امتداد لجسم الإنسان، فوهبته قدرات مادية جديدة مكنته من تغيير كثير من معالم الطبيعة لترقية معيشته.

وصاحب الثورة الصناعية سيل من المصطلحات الحضارية والعلمية والتقنية، ونمو كمى وكيفى فى حقول المعرفة الإنسانية. فاضطلعت المجامع اللغوية العلمية العربية بالتصدى لنقل تلك المصطلحات، التى توصف بأنها مفاتيح العلوم، إلى اللغة العربية، لتمكين الأمة من استيعاب المعارف العلمية والتقنية الجديدة، وتمثلها، وإعادة إنتاجها، والإبداع فيها.

أما ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال، فقد تفجرت فى أواخر القرن العشرين، وقامت على علم الذكاء الاصطناعى، الذى يسعى إلى فهم طبيعة الذكاء البشرى، وتصميم برامج حاسوبية قادرة على محاكاة عمل العقل الإنسانى، بحيث تستطيع هذه البرامج انتقاء الطريقة التى ينبغى اتباعها لحل مشكلة من المشكلات، أو لاتخاذ قرار من القرارات، أى تمكين الحاسوب من إنجاز المهام التى تتطلب ذكاء وفطنة. وهكذا أصبح الحاسوب مجالا تطبيقيا لاختبار صحة الفرضيات حول الكيفية التى يعمل بها العقل البشرى.

ولما كانت دراسة العقل البشرى تتطلب جمعا من التخصصات العلمية كاللسانيات والمنطق وعلم النفس والتشريح والكيمياء، فإن علم الذكاء الاصطناعى أصبح، هو الآخر، ملتقى لتلك العلوم. فانتقلت طريقة الإنجاز من التخصص وتقسيم العمل إلى شمولية المعرفة ووحدتها.

★ أ. على القاسمى، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة السبعون، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

وتوصلت دراسات الذكاء الاصطناعى إلى أن الوظيفة الأساسية للعقل الإنسانى، التى تميزه عن العقل الحيوانى، هى قدرته على إنتاج واستعمال الأنظمة الرمزية، وفى مقدمتها النظام الرمزى اللغوى المستخدم فى التواصل، وتمثيل المعلومات، وتخزين المعارف ونقلها. فقامت برامج الحاسوب على هذا الأساس.

وإذا كانت برامج الحاسوب نتيجة دراسة المبادئ التى تحكم النشاط الذهنى، والتوصل إلى الكيفية التى يعمل بها العقل البشرى، فإن هذه البرامج وبنيتها أخذت تؤثر فى النشاط الذهنى للإنسان. وتغير طريقة عمل العقل البشرى نفسه، إذ أصبحت مثالا يحذو حذوه هذا العقل فى التحليل والتركيب والاستدلال واستخلاص النتائج.

ومثلما أفرزت الثورة الصناعية كما هائلا من المفاهيم العلمية والتقنية والمصطلحات التى تعبر عنها، فإن ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال أفرزت وما زالت تفرز طيفا واسعا من البرامج الحاسوبية.

ولا تقتصر هذه البرامج على برامج تشغيل الحاسوب، وإنما اتسعت لتشمل جميع أوجه النشاط الفكرى الإنسانى: العلمى، والاقتصادى، والاجتماعى. فهناك برامج للتعلم الإلكترونى والجامعات الافتراضية، وهناك برامج طبية تعين الطبيب على تشخيص الأمراض، أو قيام الحاسوب بإجراء بعض العمليات الجراحية بدقة متناهية، وهنالك برامج للمكفوفين، تحول معلومات الشبكة الدولية إلى معلومات منطوقة أو مكتوبة بطريقة بريل، وهنالك برامج للتجارة الإلكترونية، وهنالك برامج لاختيار الزوج الصالح أو الزوجة المناسبة، الخ.

ولهذا كله فإن تكنولوجيا المعلومات والاتصال أخذت تؤدى دورا أساسيا فى التنمية البشرية الشاملة، فهى تطور الزراعة والصناعة والخدمات، وتؤثر فى الاقتصاد فى مختلف مراحله فى التخطيط والإنتاج، والتسويق، واستثمار الأرباح.

تنمية اللغة العربية والتنمية البشرية الشاملة

وتنمية اللغة العربية ليست عملية لفظية خالصة، وليست غايتها تحسين اللغة لذاتها، وإنما تشكل تنمية اللغة العربية جزءا من التنمية البشرية الشاملة، الهادفة إلى توسيع مدارك الإنسان وقدراته، وترقية صحته، ليعيش عمرا مديدا بحالة جيدة وزيادة دخله لتحسين ظروف عيشه ونوعية حياته.

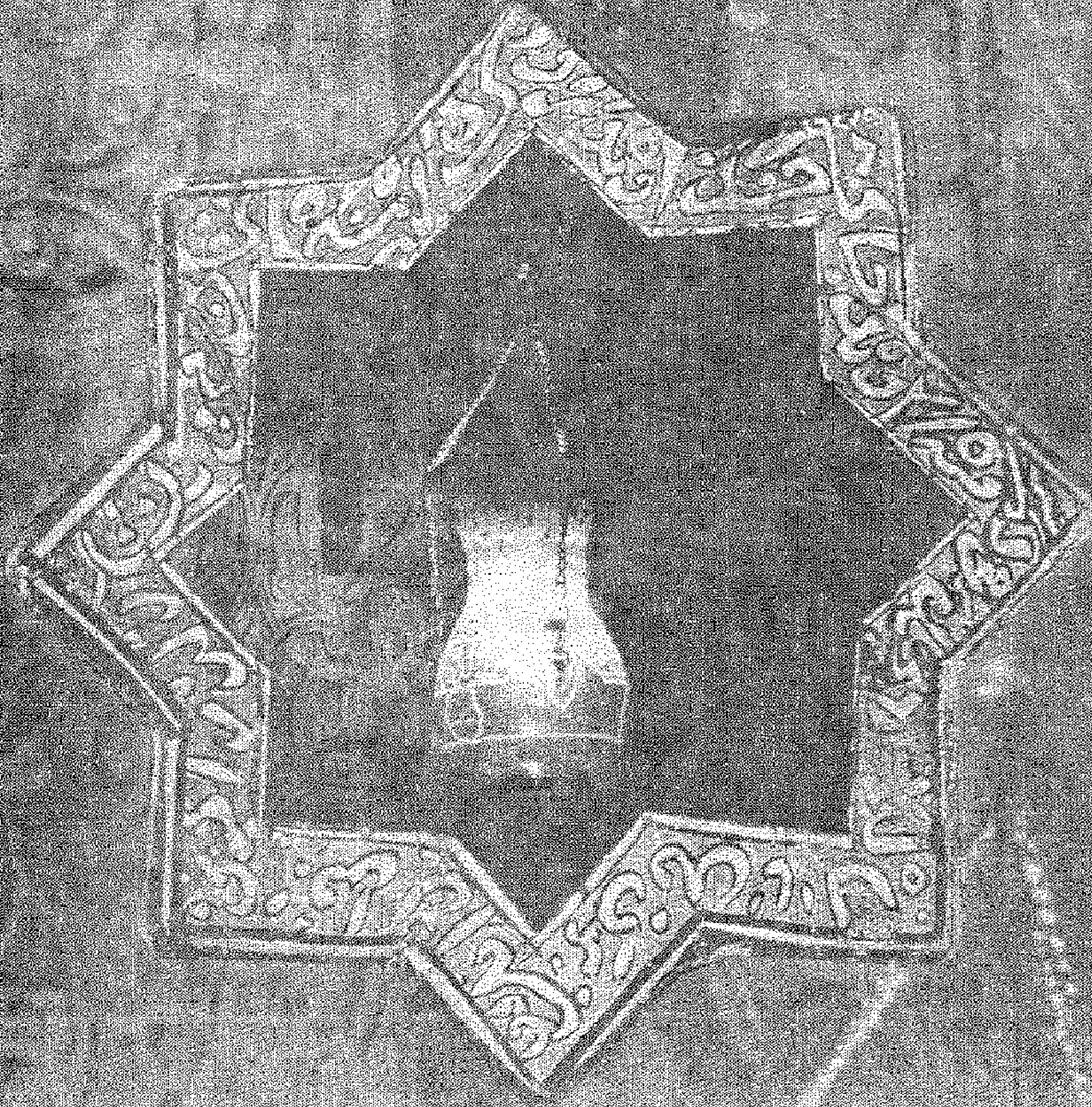
وغنى عن القول أن التنمية اللغوية هى أساس التنمية البشرية الشاملة، فإتقان اللغة يؤدى إلى تيسير اكتساب المعرفة، وتمثلها وإعادة إنتاجها، والإبداع فيها وتوثيقها، ونقلها من جيل إلى جيل. وقد ثبت أن الاقتصاد العالمى الجديد مبنى على المعرفة، فالنمو الاقتصادى يرتبط بالنمو العلمى والتقنى للقوى العاملة، وبسرعة تبادل المعلومات والمعارف والخبرات. ومعروف أن أداة هذا النوع من التبادل هى اللغة، كما أن أداة تبادل السلع فى السوق هى العملة. وكلما كانت العملة جيدة وموحدة، أصبحت عملية التبادل التجارى أيسر وأسرع. وبالمثل، كلما كانت اللغة ثرية موحدة يتقنها جميع المواطنين، أصبحت إشاعة المعارف والتقنيات وتبادلها ميسورة، وصار التعاون بين أفراد المؤسسات الاقتصادية ممهدا، فيتكون مجتمع المعرفة، وتزداد وتيرة النمو الاقتصادى وتتحقق التنمية البشرية المنشودة.

متطلبات ثورة المعلومات والاتصال

وإذا كانت مرحلة الثورة الصناعية قد تطلبت منا نقل المصطلحات الأجنبية إلى العربية لاستيعاب مفاهيمها، فإن ثورة المعلومات والاتصال تستلزم منا نقل البرامج الحاسوبية إلى اللغة العربية لغنم معطياتها، ومن ثم إثراء مخزون اللغة العربية المتجدد وتنميته.

ويشرفنى أن أقترح، من هذا المنبر المتميز، أن يبادر مجمع اللغة العربية إلى إنشاء لجان خاصة بنقل البرامج الحاسوبية إلى العربية، أسوة بلجان نقل المصطلحات العلمية والتقنية إلى العربية. وستضم كل لجنة من هذه اللجان الجديدة اختصاصات متعددة، طبقا لشمولية المعرفة التى تتطلبها تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والتى تفرضها طبيعة البرامج الحاسوبية، فهذه البرامج تضم المصطلحات العلمية والتقنية فى سياقاتها.

كما أقترح أن يستعمل هذا المجمع الموقر مكانته الأدبية المرموقة، لتشجيع المؤسسات العربية المتنوعة على ابتكار برامج حاسوبية عربية، تستجيب للحاجات الوطنية، وإنشاء مواقع باللغة العربية على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، وحث الجامعات العربية على توفير عدد متنام من مناهجها الدراسية فى شكل برامج تعليم إلكترونى.



الفصل الثالث

وثائق الأمس وتوجهات اليوم

مقدمة

المصرى لا تقتضى مصريته إنكار عروبته، ولا عروبته تستلزم إنكار مصريته، ولا الانتماء إلى أحدهما يؤدى إلى تحقير العظيم من الحضارتين اللتين تستحقان كل الإعزاز من كل البشر وخاصة من كانت في عروقه دماء فرعونية أو عربية.

منذ نهايات القرن التاسع عشر الميلادى شن الفكر الاستعمارى التغريبى حربا شرسة على اللغة العربية، متهما إياها بالجمود والصعوبة والغرابة! وعجزها عن استيعاب فنون الأدب الغربى الحديث، كما هاجموا الأسلوب القرآنى، والجملة القرآنية بهدف تشكيك المسلمين فى القرآن، وشريعته التى تلعب اللغة العربية وعلومها دورا كبيرا فى فهمها واستنباطها منه.

«والتغريب مصطلح استعمله الاستشراق الغربى، للتعبير عن الخطة التى تقوم بها القوى ذات النفوذ السياسى الخارجي، فى حمل العالم العربى والإسلامى على الانصهار فى مفاهيمه وحضارته، والعمل على إخراجهم من هويتهم وصهرهم فى بوتقة الغرب، مع القضاء على ثقافتهم وعاداتهم المتوارثة بإدخال عناصر غريبة عليها، لتحويلها عن طبيعتها ووجهتها، على نحو يقضى على تميزها، ويجعلها قريبة من المفهوم الغربى».

وحركة التغريب هى دعوة كاملة، لها نظمها وأهدافها ودعاتها، وتخدمها مؤسسات، ويقوم عملها على الغزو الفكرى عن طريق التعليم والصحافة ووسائل الإعلام المتطورة، على أمل أن تتمزق وحدة وثقافة ولغة العالم العربى والإسلامى. ومن أهداف التغريب الخضوع للثقافات الغربية، وهذا ما دعا محمد على باشا للاهتمام باللغة العربية. ويطمع دعاة التغريب إلى تغيير الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية على نحو يقربها من الموازين الغربية، تمهيدا لطمسها، وقد ظهر هذا جليا فى كتاب هاملتون جب (وجهة الإسلام) – أول كتاب وضع عن مخطط التغريب – وكشف عن أن المقصود بالتغريب هو بذل الجهود المكثفة لحمل العالم العربى الإسلامى على الانصهار فى الحضارة الغربية، وهدم الحضارة الإسلامية بهدف أن يتجه كل قطر إلى اقتباس ما يلائم ظروفه من الحضارة الغربية. وعندئذ يتعدد أسلوب الاقتباس بتعدد البيئات المختلفة، فتفقد الحضارة العربية الإسلامية طابعها الموحد. وقد أشار «جب» إلى أهمية التعليم والصحافة فى تطبيق التغريب، فقال «إن السبيل الوحيد –ولا سبيل غيره – هو طبع التعليم فى الدول العربية والإسلامية بالطابع الغربى،

لأن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى احتواء الزعماء المدنيين، وقليل من الزعماء الدينيين، أما الصحافة فكتب عنها «إن تغريبها من شأنه أن يخلق رأيا عاما مغربا، وأن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى».

لقد بدأ مخطط التغريب بعدما تيقن الغرب أنه لن يستطيع السيطرة على العالم العربى والإسلامى عن طريق الحرب. نظرا لما يحتويه الإسلام من منهج حاسم لمقاومة الاحتواء والانصهار، والمحافظة على التميز وعلى استقلالية الذات الإسلامية، والتضحية بكل شىء فى سبيل حمايتها. ومن هنا اتجهت خطة التغريب إلى ما أطلقوا عليه (حرب الكلمة) بدلا من حرب السيف. وجاء المخطط حاويا تحطيم الوحدة الإسلامية وإعلاء القوميات والإقليميات، والحد من نفوذ اللغة العربية، ومغالبتها بالعاميات من ناحية وباللغات الأجنبية من ناحية أخرى، مع إفساد المراجع وتغيير المفاهيم. وقد أعدوا لجنة خماسية لدراسة مخطط التغريب من كل من هاملتون جب (جامعة لندن)، ماسنيون (جامعة باريس)، كامبغماير (جامعة برلين)، برج (جامعة لندن)، ولفتنانت كولونل فرار بالجيش الهندى سابقا للتعرف على المدى الذى وصلت إليه خطة التغريب وإلى أى حد أصبح العالم الإسلامى مغربا، وما العوامل التى تحقق إتمام تغريبه؟ وقد توقع (جب) أن تمضى حركة التغريب فى طريقها ودعا إلى ضرورة التقليل من المعاهد الدينية والقضاء على حفظ القرآن ودراسته.

إن الدعاة إلى التغريب والغزو الفكرى يخفون أغراضهم، ويظهرون ألفاظا براقة كالتقدم والعصرية والحداثة والتطور الحضارى. لكن أغراضهم الخفية تظل واضحة للمفكرين، وهى سيطرة النفوذ الأجنبى سياسيا واقتصاديا وثقافيا والقضاء على اللغة العربية – لأنها لغة القرآن– وإنكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة الإنسانية وفضلهم على منهج التجريب، وتأخير يقظتهم أو تذويبها وتحويلها عن وجهتها التى أوصاهم القرآن الكريم أن يتحاموها. «**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**» (سورة الأنعام، الآية ١٥٣)، وقوله تعالى: «**ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**» (سورة النساء، الآية ١٠٢).

إن الفرق بين التعريب والتغريب نقطة، ولكنها نقطة سوداء بحجم الكرة الأرضية تغشى عيوننا فلا نرى ما حولنا. وعندما حدثونا عن تنوير مصطنع بدلوا هذه النقطة بقرص الشمس عند الظهيرة فبدلا من أن ينير لنا الطريق غشيت الإبصار فضللنا الطريق.

إن الشرخ السياسى والحضارى بين الغرب والشرق، والعالم العربى والإسلامى بشكل خاص. لهو شرخ خطير جدا، ولا أحد يعرف مداه المستقبلى ومداه العملى. إن التحدى الموجه إلى

أمتنا العربية لهو تحد تاريخي لم يعرف له مثيل في السابق، لذلك فإن اهتمامنا ببناء صرح حضاري علمي يلقي علينا مسئولية مزدوجة: أن نتابع التواصل مع العالم الحضاري الحديث بأسلوبه وأيضا بلغته، وأن نركز اهتمامنا لبناء صرحنا الداخلي وتدعيمه، وتوفير البنية التحتية له، كي يكون قويا ومتينا في مواجهة مستقبل غامض حافل بالتحديات، وهذا لن يستقر إلا إذا حافظنا على لغتنا وثقافتنا وتراثنا وثوابتنا الدينية والأخلاقية.

لقد شهدت السنة الأخيرة عشرات المؤتمرات التي تطالب بحماية اللغة العربية، وانتهت توصياتها إلى المطالبة بالحماية ليس على المستوى الثقافي فقط، ولكن على المستوى السياسي والقومي، لأن اللغة العربية في حقيقة الأمر تدخل في إطار قضايا الأمن القومي العربي. وفي ظل دعوات مشبوهة لشرذمة العالم العربي وتشويه تاريخه، وضرب ثقافته تقف اللغة العربية في مقدمة هذه الأهداف، فلا أحد يريد للعرب أن يجمعهم تاريخ واحد، ولغة واحدة مع تركيز شديد على الأجيال الجديدة التي يجري الآن استنساخها لتتشكل في ظل واقع جديد، بلا جذور أو هوية أو انتماء. هذه دعوات يجب أن نتصدى لها جميعا – أبناء هذا الجيل – حتى لا يصبح العرب يوما أمة بلا لغة ولا تاريخ.

والعولمة ليست موجهة نحو المال والاستهلاك فحسب إذ هي غزو ثقافي متكامل، لأنها موجهة إلى فكر الإنسان ولغته وثقافته، بفضل حيازتها معرفة منظمة، ووسائل فاعلة لنشر هذه المعرفة. ومهندسو العولمة يستخدمون اللغة بوصفها وسيلة للاختراق الحضاري للتأثير على الهوية الثقافية، ثم خلخلتها من الداخل للقضاء على الموروث الحضاري الذي هو أهم مقومات الدول. ومن هنا يجب تأكيد ضرورة الارتقاء باللغة والتمسك بالتعريب للحفاظ على ثقافاتنا وقيمنا الإيجابية المكتسبة على مر العصور. ولا بد أن يكون هناك إدراك واع لطبيعة الدور الخطير الذي يلعبه كل من التعريب والتغريب، واضعين نصب أعيننا نمو أمتنا العربية ومستقبلها وهويتها، والتواؤم مع التطورات التقانية بالغة التأثير والسرعة، وسيادة تقنيات الاتصالات والحاسبات الإلكترونية والمعلومات والمصطلحات العلمية، وتأكيد اندماج اللغة والعلم والتقانة مع جميع المنظومات المجتمعية حتى يمكن التفاعل والتعامل الإيجابي مع متطلبات عصر المعرفة والتقانة والعولمة.

هناك فرق كبير بين دعوات تطالب بتطوير اللغة العربية وتنقيتها من شوائب كثيرة علقت بها، ودعوات أخرى تسعى إلى تدميرها. ومن وقت لآخر يثور جدل وحوار حول موقف اللغة العربية. هناك من يرى أنها تخلفت كثيرا عن روح العصر، وهناك من يرى أنها في حاجة إلى زلزال كبير يحرك مياهها الراكدة، وينطلق بها نحو آفاق من التطور والمعاصرة. هذه

الدعوات كلها مطلوبة مادامت تسعى إلى تأكيد أهمية اللغة العربية، فلا شىء يسبق اللغة العربية فى أهميتها ودورها فى جمع ما تبقى بيننا من أشلاء، تناثرت بين الحروب والاحتلال والضياع السياسى والعجز بكل ألوانه.

وهناك مشروع خطير هدفه «تغيير شكل حروف اللغة العربية واستبدال اللغة اللاتينية بها» تحت مسمى تحديث الثقافة العربية، واعتبار هذا المشروع جزءا من خطة الإصلاح فى المنطقة والتى تدخل ضمن إطار مشروع «الشرق الأوسط الكبير».

ويذكرنا التاريخ أنه بعد أن نجح دعاة التغريب فى تحويل كتابة اللغة التركية إلى استخدام الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية حاولوا إعادة التجربة فى إيران لكنهم أخفقوا، كما أخفقوا كذلك فى مصر مرتين، مرة فى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وأخرى فى بداية الستينيات من ذلك القرن، مع فارق فى منشأ الفكرة، ففى إيران نشأت من توجه سياسى مرفوض من علماء إيران، أما عندنا فقد دعا لها اثنان من المفكرين المصريين بزعمَ التطور الحضارى، ومواكبة التقدم.

ولعل فى هذين النموذجين درسا لكل بلد عربى معرق فى عروبته، ولنا أيضا، فى مصر العربية، التى صانت لغتنا القومية – على مدى أحقاب مديدة من التاريخ، ألفت فيها أعظم معاجم العربية وأوسعها، وأكثر فنون النحو والصرف وشروحها شهرة فى حياة لغتنا.

وعلينا أن ننشئ تخصصا جديدا فى جامعاتنا يطلق عليه «علم الاستغراب» يتناول الشخصية الأوربية وثقافاتها تجاه الآخر، وأن الغرب ليس دولة واحدة بل عدة دول على مستوى واحد من الثقافة الغربية، وليسوا على مستوى واحد بمعرفتهم بالعرب والإسلام. إن «علم الاستغراب» سوف يبحث عن هذه النقاط توضيحا للقارئ والمثقف العربى الإسلامى حتى يستطيع أن يجدد من مناهجه لدراسة تراث المستشرقين عن الإسلام من ناحية ثم دراسة الشخصية الغربية التى فهمها وتعمق فيها إدوارد سعيد فى كتابه عن الاستشراق الذى فضح فيه معايبهم وأكاذيبهم، حتى أصبح المستشرقون أنفسهم يستخفون من لقب الاستشراق.

أنصمت انتظارا للكارثة التى يبدو أنها ماضية بكافة السبل، أم أننا سنتحرك ونقول: «لا» لمحاولة طمس هويتنا والقضاء على عقيدتنا بل ووجودنا من الأساس؟!

التمسك باللغة العربية هو الخندق الأخير للحفاظ على هوية الأمة فى عصر العولمة، فهى اللغة التى كرمها الله تعالى فاختارها لسانا لوحيه القرآن الكريم ومن ثم فهى لغة جميع

المسلمين بحكم مكانتها المقدسة بينهم وهى اللغة التى تم بها تأليف جميع كتب التفسير والسنة والفقه والأصول وهى اللغة التى يتم بها أداء العبادات وتنظيم المناسك الإسلامية.

وتنص المادة ١٤٩ من الباب السادس من الأمر الملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣م بوضع نظام دستورى للدولة المصرية «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية»، وتنص المادة السادسة عشر من دستور جمهورية إيران الإسلامية «بما أن لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية هى العربية، وأن الأدب الفارسى ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية فى جميع الصفوف والاختصاصات الدراسية»، ويرجع أهمية هذا النص إلى التأكيد القاطع على ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم، ومن ثم بالإسلام بعلومه ومعارفه. وأن هذه الرؤية واضحة تمام الوضوح لدى المسلمين من غير العرب. وأن الفصل بينهما يعتبر من بين المستحيلات.

يجب إيقاف المساس بالعربية، أو محاولة النيل منها، ليس من باب المصادرة على الاجتهادات كما يزايد بعض الأدعياء، فالاجتهاد مطلب علمى واجب، ومطلب دينى مكفول وصريح ولكن من خلال أدوات ومناهج، وفكر، وأرصدة عقلية ومؤهلات علمية، وإلا تحول الأمر إلى فوضى، والمسافة بعيدة جدا بين الاجتهاد والفوضى! وفى اليوم الذى يتم فيه ترسيخ مفهوم قصور اللغة العربية وتبنى لغة أخرى يرى البعض أنها لغة التقدم والعصرنة، سوف يتم التخلى عن كينونتنا وهويتنا.

إن الاهتمام باللغة العربية وقواعدها قد أصبح أحد التحديات الرئيسة التى تواجه العالم العربى والإسلامى، فى ظل المتغيرات التى أفرزتها ظاهرة العولمة، من محاولة تذويب الثقافات والانتماءات القومية، وأن الأداة الرئيسة لذلك هى تطوير الأساليب التعليمية لدراسة اللغة العربية، وتفعيل دور المؤسسات والهيئات المعنية باللغة.

لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها*

قال جلّ ثناؤه: «**وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربى مبين**» (سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥)، فوصفه جلّ ثناؤه بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان.

وقال جلّ ثناؤه: «**خلق الإنسان، علمه البيان**» (سورة الرحمن: ٣-٤) فقد جل ثناؤه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه وتفرد بإنشائه، من شمس وقمر ونجم وشجر، وغير ذلك من الخلائق المحكمة والنشايا المتقنة. فلما خص جل ثناؤه اللسان العربى بالبيان، علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه.

فإن قال قائل: فقد يقع البيان بغير اللسان العربى، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين.

قيل له: إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ؟ فهذا أخس مراتب البيان، لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما، فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا.

وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط، لأنا لو احتجنا [إلى] أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة. فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ هذا مالا خفاء به على ذى نهية.

وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن فقال: ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أنه ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب.

---

* ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريا) (٣٩٥هـ): كتاب الصاحبى، شرح وتحقيق: السيد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، أول يوليو ٢٠٠٣م.

ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله جل ثناؤه: «**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**» (سورة الأنفال: ٥٨)، لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى الذى أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد، فخفت منهم خيانة ونقضا، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم، وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء.

وكذلك قوله جل ثناؤه: «**فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا**» (سورة الكهف: ١١).

فإن قال قائل: فهل يوجد فى سنن العرب ونظمها ما يجرى هذا المجرى؟

قيل له: إن كلام الله جل ثناؤه أعلى وأرفع من أن يضاهى أو يقابل أو يعارض به كلام، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام العلى الأعلى، خالق كل لغة ولسان. لكن الشعراء قد يومئون إيماء، ويأتون بالكلام الذى لو أراد مريد نقله لاعتاص، وما أمكن إلا بمبسوط من القول وكثير من اللفظ. ولو أراد أن يعبر عن قول امرئ القيس:

«فدع عنك نهبا صيح فى حجراته»

بالعربية فضلا عن غيرها لطال عليه.

وكذا قول القائل:

«والظن على الكاذب»

و «نجارها نارها»

و «عى بالإسناف»

«انشأى يرم لك»

«هو باقعة»

«قلب لو رفع»

«على يدى فاخضم»

«وشأنك إلا تركه متفاقم»

وهو كثير بمثله طالت لغة العرب اللغات.

ولو أراد معبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة والإخفاق، واليقين والشك، والظاهر والباطن، والحق والباطل، والمبين والمشكل، والاعتزاز والاستسلام لعى به، والله جل ثناؤه أعلم حيث يجعل الفضل.

ومما اختصت به العرب – بعد الذى تقدم ذكرناه – قلبهم الحروف عن جهاتها، ليكون الثانى أخف من الأول، نحو قولهم: «ميعاد» ولم يقولوا: «موعاد» وهما من الوعد، إلا أن اللفظ الثانى أخف.

ومن ذلك تركهم الجمع بين الساكنين، وقد تجتمع فى لغة العجم ثلاث سواكن.

ومنه قولهم «ياحار» ميلا إلى التخفيف.

ومنه اختلاسهم الحركات فى مثل:

«فاليوم أشرب غير مستحقب»

ومنه الإدغام، وتخفيف الكلمة بالحذف، نحو لم يك ولم أبل.

ومن ذلك إضمارهم الأفعال، نحو «امرأً اتقى الله» و «أمر مبكياتك، لا أمر مضحكاتك».

ومما لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح، وغير ذلك من الأسماء المترادفة، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسما غير واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم.

وحدثنى أحمد بن محمد بن بندار قال: سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمذانى يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين.

وأخبرنى على بن أحمد بن الصباح قال: حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثنا ابن أخى الأصمعى، عن عمه: أن الرشيد سأله عن شعر لأبى حزام العكلى، ففسره، فقال: يا أصمعى، إن الغريب عندك لغير غريب! فقال: يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما؟

وهذا كما قاله الأصمعى، ولكافى الكفاة – أدام الله أيامه وأبقى للمسلمين فضله – فى ذلك كتاب مجرد.

فأين لسائر الأمم ما للعرب؟

ومن ذا يمكنه أن يعبر عن قولهم: ذات الزمين، وكثرة ذات اليد، ويد الدهر، وتخاوصت النجوم، ومجت الشمس ريقها، ودر الفئ، ومفاصل القول، وأتى بالأمر من فصه.

وهو رحب العطن، وغمر الرداء، ويخلق ويفرى. وهو ضيق المجم، قلق الوضين، رابط الجأش.

وهو ألوى، بعيد المستمر.

وهو شراب بأنقع.

وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب.

وما أشبه هذا من بارع كلامهم، ومن الإيماء اللطيف والإشارة الدالة؟

وما فى كتاب الله جل ثناؤه من الخطاب العالى أكثر وأكثر، قال الله جل وعز: «**ولكم فى القصاص حياة**» (سورة البقرة: ١٧٩)، و «**يحسبون كل صيحة عليهم**» (سورة المنافقون: ٤)، و «**أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها**» (سورة الفتح: ٢١)، و «**إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا**» (سورة النجم: ٢٨)، و «**إنما بغيكم على أنفسكم**» (سورة يونس: ٢٣)، و «**لايحيق المكر السيئ إلا بأهله**» (سورة فاطر: ٤٣)، وهو أكثر من أن نأتى عليه.

وللعرب بعد ذلك كلم تلوح فى أثناء كلامهم كالمصابيح فى الدجى، كقولهم للجموع للخير: قثوم، وهذا أمر قاتم الأعماق، أسود النواحى، واقتحف الشراب كله، وفى هذا الأمر مصاعب وقحم، وامرأة حيية قدعة، وتقادعوا تقادع الفراش فى النار، وله قدم صدق، وذا أمر أنت أدرته ودبرته، وتقاذفت بنا النوى، واشتف الشراب، ولك قرعة هذا الأمر: خياره، وما دخلت لفلان قريعة بيت، وهو يبهر القرينة إذا جاذبته، وهم على قرو واحد: أى طريقة، وهؤلاء قرابين الملك، وهو قشع: إذا لم يثبت على أمر، وقشبه بقبيح: لطخه وصبى قصع: لا يكاد يشب، وأقبلت مقاصر الظلام، وقطع الفرس الخيل تقطيعا: إذا خلفها، وليل أقعس: لا يكاد يبرح، وهو مهزول قفر.

وهذه كلمات من قرحة واحدة، فكيف إذا جال الطرف فى سائر الحروف مجاله؟

ولو تقصينا ذلك لجاوزنا الغرض، ولما حوته أجلاد وأجلاد.

محمد على باشا واللغة العربية★

صدر أمر من الباشا إلى باغوص بك فى ٢٢ من ربيع الأول عام ١٢٤٩هـ «بأنه كان قد تنبه على كلوت بك بإلزام الطلبة الذين أرسلوا إلى أوربا لتلقى فنون الطب بها بترجمة الكتب التى يدرسونها أولا بأول إلى العربية وإرسالها، فإذا لم تكن وصلت التراجم، يكتب للطلبة أنفسهم على أوامر من المختومة بختم الوالى الموجودة بطرف زكى أفندى مأمور ديوان خديوى بالإسكندرية بمعنى ذلك بحيث تكون الأوامر بالعربى لأولاد العرب وبالتركى لأولاد الترك، وعرض ما يكتب قبل إرساله».

٢) صدر أمر منه (الباشا) إلى وكيل ديوان الجُهادية فى ٢٨من رجب عام ١٢٤٩هـ «بأنه اطلع على قرار المجلس الخاص بالتنبيه على شوراى الأطباء الأجانب بالسعى والاجتهاد فى تعلم اللغة العربية ورفت التراجمة الموجودين مع من يكون أدى الخدمة مدة سنة من الحكماء المذكورين وحصول الإجابة من شورى الأطباء بأنه لم يحضروا إلى مصر لتعلم اللغة العربية وعلى فرض علمهم بها قليل فإنهم لم يقدروا على فهم ما يعبر عنه المريض من الأمراض ولكون أن إجابتهم هذه مغايرة للآداب وأنه ليس من عدم علمهم اللغة العربية بل يعلم منها أنهم يريدون منفعة الأجانب الذين بمعييتهم وبأن ما أجاب به المجلس فى غاية الموافقة».

٣) فى ٢٦ من صفر عام ١٢٤٨هـ «قرر مجلس الجهادية انتخاب اثنين مصححين بمعرفة الشيخ الهوارى رئيس مصححى مدرسة الطب البشرى من المشايخ عبد الرحمن الصفدى والشيخ محمد هدهد والشيخ محمد عياد الطنطاوى والشيخ عبد المنعم الجرجاوى بدلا من كل من الشيخ السيد أحمد الرشيدى والشيخ السيد حسين غانم من مصلحى الترجمة بالمدرسة المذكورة نظرا لسفرهما إلى أوربا صحبة كلوت بك وهذا بناء على تعريف وكيل كلوت بك المومى إليه».

★أمين سامى باشا: تقويم النيل وعصر محمد على جـ٢ط١ القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٨م، ص٤١٤، ص٤٥٥، ص٤٠١.

اللغة العربية الفصحى واللغة العامية*

قرأنا لجناب المستر وليم ولكوكس خطبة تلاها فى كلوب الأزبكية، ودرجتها جريدة الأزهر الغراء فى عددها الأخير الصادر فى الشهر الماضى، وموضوع تلك الخطبة «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟ وقد أفاض حضرة الخطيب فى ذكر الأسباب المانعة لتلك القوة، ثم أتى على ذكر العلاج، وعدد الطرق المؤدية إلى إيجادها، وليس من غرضنا الخوض فى شيء من مآل تلك الخطبة إلا فيما يتعلق باللغة العربية.

فقد قال حضرته إن من جملة العوامل فى فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى، وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى، وذكر منها بنوع خاص الأمة الإنكليزية، وقال إنها استفادت إفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنكليزية الحاضرة.

وعندنا أن المستر ولكوكس لم يصب المرمى فى رأيه من هذا القبيل، لأن ما صدق على اللغة الإنكليزية لا يصدق على لغتنا لأسباب كثيرة نذكر منها.

أولا: إن الإنكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الإنكليزية قد استبدلوا لغة أجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحال فى اللغة العربية، فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشيء الكبير، وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة.

ثانيا: إن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية إذا أنقذنا من شر فإنه يوقعنا فى شر أعظم منه، لأن الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية اختلاف الاصقاع، والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية، وكذلك بين لغة أحد هذين البرين ولغة بلاد المغرب أو الحجاز أو غيرها من البلاد العربية، ولا يخفى مابين هذه الأقطار العربية من العلائق الأدبية والمدنية والسياسية، فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلا نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه فى تلك اللغة،

* أ. جورجى زيدان، مجلة الهلال، القاهرة، الجزء السادس، السنة الأولى، أول فبراير ١٨٩٣م.

وهكذا لو استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية وإذا لم نخسر بذلك إلا الجامعة العربية فكفى بها خسارة.

ثالثا: إن اللغة فى كل أمة تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطا فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها، وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيما العربية لأنها أرقى لغات العالم، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله، فإذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما ارتأى حضرة الخطيب فلا أظنها تقوم بتأدية المعانى الكتابية كما يجب، ومن أين نأتى بالألفاظ التى نعبر بها عن الاصطلاحات العلمية ولاسيما الحديثة منها، وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها.

فإذا قال إننا ندخل إليها تلك الاصطلاحات نقول إن الاصطلاحات المشار إليها ليست بالشىء القليل، وإنما هى قسم عظيم من اللغة، ولاسيما لغة العلم، فإن معظمها اصطلاحات علمية. وتعليم العامة ألفاظ اللغة الفصحى كما هى أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية وإدخالها لغتهم، وهذا شأن اللغة فى سائر أنحاء العالم. والمستر ولكوكس يعلم أن الكتب العلمية العالية المكتوبة بالإنكليزية الآن لا يستطيع عامة الإنكليز فهمها مهما بولغ فى إيضاحها وبسطها، وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجابا لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فسدلته.

رابعا: إن الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى، إذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام، وعودنا إليه فى إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا. لتشتت شمل الشعب العربى وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلا عن الآخر، لا يفهم لغته كتابة ولا تكلما، كما حصل بالأمم التى كانت تتكلم اللغة اللاتينية، فقد أصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الأمة الأخرى، مثال ذلك فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها، والفضل الأكبر فى حفظ الجامعة العربية إلى الآن للقرآن الشريف والمحافظة عليه.

خامسا: إن إغفال اللغة الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمائة سنة، وهى خسارة لا تعوض، مهما قيل فى فائدة اللغة العامية فى الكتابة.

فيتضح مما تقدم أن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأى إغفاله أولى

بنا، ليس فقط لكونه عقيما، بل لأنه مضر باللغة والناطقين بها علميا ودينيا وأدبيا، على أننا لا يليق بنا ختام الكلام فى هذا الباب قبل الإشارة إلى ما طالما شكوناه، من توخى بعض الكتاب اختيار الألفاظ المستهجنة المهجورة إما إظهارا لبراعتهم فى حفظ مفردات اللغة، وإما إحياء لألفاظ طوتها يد الأيام، لما اقتضته حالة الحضارة وتنوع احتياجات الناس. فإذا قال المستر ولكوكس إنه إنما أراد أغفال مثل هذه اللغة فإننا نوافقه فيه، نؤيد قوله لأن استعمال الألفاظ المستهجنة يحول دون الغاية المقصودة من تلك الكتابة، ولاسيما فى المواضع العمومية كالكتب التاريخية والقصص الأدبية، أما فى الموضوعات العلمية العالية فإن الضرورة تبيح لهم استخدام الألفاظ الوضعية لما وضعت له بغير تساهل، وعلى الخصوص لأن تلك الموضوعات إنما يقرأها أفراد من خاصة الناس وهم مكلفون بمعرفة أوضاعها واصطلاحها.

أما فى القصص والروايات والتواريخ وسائر الموضوعات الأدبية العمومية فالكاتب مكلف بانتقاء الألفاظ التى تفهمها العامة مع مراعاة جانب اللغة والإعراب، فإذا عرض للكاتب معنى له لفظان الواحد مهجور والآخر مألوف، فإنه مطالب بإغفال المهجور واستعمال المألوف، وتلك قاعدة من قواعد الإنشاء الصحيح لا تخفى على حضرات الكتاب، فبدلا من أن نقول «وجلس سجاح وجهه» نقول «وجلس تجاه وجهه» لمطابقة سجاح وتجاه للمعنى المقصود زنة ومعنى، وعندنا أن المجاوزة إلى ما وراء ذلك واستخدام كلمتين أو ثلاث مألوفة تؤدى معنى مرادا أفضل من استخدام كلمة واحدة مهجورة تؤدى ذلك المعنى، وإن خالفنا فى ذلك نوعا ما قاعدة من قواعد البلاغة لأننا نتمكن من الجهة الثانية من إفهام المطالع إذا كان عاميا أو غير عامى ما أردنا فهمه بدلا من أن نحمله على الملل من القراءة والتقاعس عن المطالعة، ونحن نود مواظبته عليها لتحصل الفائدة المقصودة من كتابتنا. ويجب علينا فهم المقصود بالذات من كتابة الكتب الأدبية للعامة، بأننا إنما نريد بذلك اكتسابهم المبادئ الأدبية أو التاريخية، لا تعليمهم ألفاظ اللغة وقواعدها، لأنهم فى غنى عن ذلك لاشتغال كل منهم بعمل يعمل به لأود حياته، ولا حاجة به إلى دخائل اللغة. أما من أراد منهم درس قواعد اللغة ومفرداتها فهناك كتب خاصة بذلك فليعتمد عليها.

وخلاصة القول إن الموضوعات العلمية العالية لا غنى لكاتب فيها عن الأركان إلى ما وضع لكل علم من الأوضاع والاصطلاحات، ولا مندوحة له عن استعمالها، فهمها العامى أو لم يفهمها، على أن العامى فى غنى تام عن هذه الموضوعات لبعدها عن مداركه واحتياجاته.

أما الموضوعات التاريخية والأدبية العمومية وما جرى مجراها، فالكاتب فيها مطالب بتجنب كل ما يحول دون فهمها لدى الخاص والعام. فيجب أن تكون عبارته فيها سهلة واضحة سلسة خالية من كل تعقيد، حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء، لا يحتاج فى فهمها إلى التوقف لحظة أو مراجعة معجمات اللغة وإلا فإن عجز الكاتب عن ذلك يعد نقصا فى واجبات صناعته.

ونحن فى موقف نلتمس فيه لحضرة المستر ولكوكس عذرا على ما ارتآه، لأنه على ما نظن إنما حكم بأفضلية استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية لما رأى فى بعض الكتب من التعقيد من مثل ما تقدمت الإشارة إليه.

على أننا لو سرنا فى كتابتنا على الخطة التى أشرنا إليها بحيث نجعلها سهلة واضحة مع مراعاة جانب اللغة والإعراب ما تركنا لحضرته أو لسواه بابا للاعتراض أو وجها لإبداء مثل ذلك الرأى والله سبحانه وتعالى أعلم.

اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها*

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ... وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى ... رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ... ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فإننى ... أخاف عليكم أن تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عِزًا ومنعة ... وكم عِزَّ أقوام بعزِّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله فى بطن الجزيرة أعظُمًا ... يعز عليها أن تلين قناتى
حفظن ودادى فى البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم بالجرائد مَزْلَقًا ... من القبر يدنينى بغير أناة
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتى
أيهجرنى قومى- عفا الله عنهم - ... إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مُشكَّلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكُتّاب والجمع حافل ... بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فإما حياة تبعث الميت فى البلى ... وتنبت فى تلك الرُّمُوس رفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده وناديت ... ممات لعمرى لم يقس بممات

* الشاعر: حافظ إبراهيم، الديوان، جزء ١، قصور الثقافة، القاهرة، يناير ٢٠٠٢م.

وثيقة اختيار أعضاء مجمع اللغة العربية عام ١٩٢٩م ★

المرشحون المصريون

شخصى:
١) **محمد توفيق رفعت** باشا
٢) سعادة **حاييم ناحوم** أفندى الحاخام الأكبر — قد يحل محل مستشرق ولا يحسب من المصريين

الأزهر يختار منهم ١ أو ٢:
٣) الشيخ **عبد المجيد اللبان** من هيئة كبار العلماء وشيخ كلية أصول الدين.
٤) الشيخ **إبراهيم حمروش** شيخ كلية اللغة العربية
٥) الشيخ **حسن والى** من هيئة كباء العلماء
٦) الشيخ **مصطفى عنانى** مفتش اللغة العربية بالأزهر الشريف

(ليس من بينهم أخصائى فى اللغة إنما يفيدوا المجمع من حيث الاصطلاحات وعلوم اللغة العربية، أحسنهم الشيخ عبد المجيد اللبان وهو أكبر عالم من علماء الأزهر ويليه الشيخ حمروش)

الجامعة:
٧) الدكتور **على إبراهيم** باشا عميد كلية الطب
٨) الدكتور **منصور فهمى** مدرس الفلسفة بكلية الآداب
٩) الشيخ **مصطفى عبد الرازق** مدرس الفلسفة بكلية الآداب

دار العلوم:
١٠) الشيخ **أحمد إبراهيم** وكيل كلية الحقوق
١١) الشيخ **أحمد الإسكندرى** مدرس الأدب بدار العلوم

(٨ – ١٠: درجة واحدة)

١٢) الأستاذ **أحمد يوسف نجاتى**

(١١ – ١٢: هما الوحيدان المتخصصان بفقه اللغة ويمثلان أساتذة اللغة العربية بالوزارة. الإسكندرى ثم نجاتى)

★ دار الوثائق القومية: محافظ مجلس الوزراء، مشروع إنشاء مجمع اللغة العربية ١٩٢٩م.

صحافة:

١٣) الدكتور **فارس نمر** العضو بمجلس الشيوخ فلسفة وأدب

١٤) الأستاذ **داود بركات** رئيس تحرير الأهرام

١٥) الأستاذ **أنطون الجميل** بك المحرر بالأهرام

١٦) الأستاذ **خليل مطران**

١٧) الأستاذ **محمد فريد وجدى** صاحب دائرة معارف الإسلام

١٨) الأستاذ **محمد حسنين الغمراوى** بك مفتش اللغة العربية بالمعارف سابقا

موظفى وزارة المعارف:

١٩) الأستاذ **أحمد فهمى العمروسى** بك ناظر معهد التربية سابقا

٢٠) الأستاذ **أحمد العوامرى** بك كبير مفتش اللغة العربية بالمعارف

٢١) الأستاذ **على الجارم** المفتش بالمعارف أفضلهما من حيث اللغة

٢٢) السيد **محمد الببلاوى** اتصاله بالكتبخانة ومركزه الخاص- قليل الفائدة

٢٣) الدكتور **أحمد عيسى** بك

مهندس:

٢٤) الدكتور **محمد شرف**

(٢٣ و٢٤) كل منهما أصدر قاموسا فى المصطلحات العلمية والطبية والنباتات

٢٥) **إسماعيل سرى** باشا

البلاد العربية

الشام

١) الأستاذ **كرد على** بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق ووزير المعارف سابقا (أديب خطط دمشق ومتصل بالمستشرقين وصديقهم)

٢) الأمير **مصطفى الشهابى** مدير أملاك الدولة السورية وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق (مؤلف المصطلحات النباتية وله عدة كتب اختياره يلقى ارتياحا)

٣) الشيخ **عبد القادر المغربى** عضو المجمع العلمى العربى بدمشق

العـراق

١) الدكتور **أمين معلوف** باشا. مؤلف وواضع قاموس معلوف (مصاب بالشلل وصاحب قاموس معلوف الذى طبعه المقتطف)

٢) الأب **أنستاس الكرملى** باحث أديب ومنقب فى فقه اللغة (إما أن يعين كعضو عامل أو يحضر كمراسل)

٣) الأستاذ **جميل صدقى الزهاوى**.

تـونس

١) السيد **حسن عبد الوهاب** حاكم المهدية ومؤلف كبير وأديب مطلع يجيد اللغة الفرنسية وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق («عضو أصلى» ممثل البعثة الجامعية فى اللغة العربية فى شمالى إفريقيا وتونس)

لبنان

١) الشيخ **مصطفى الغلايينى** عالم دينى ولغوى ومؤلف كبير وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق (أزهرى ومن تلاميذ محمد عبده ومشتغل فعلا فى التأليف)

٢) الأستاذ **بشارة الخورى** صاحب جريدة البرق وأديب وشاعر (مراسل)

البـلاد الأجنبيـة

الإنجليز

١) البروفسور **جب** أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بلندن Professor H.A.R. Gibbs, Professor of Arabic at the London School of Oriental Studies. يرى السير دنسن روس (Sir Denson Ross) أنه قادر فى اللغة العربية ولكن أعماله كثيرة.

٢) مستر **أربرى** وهو الآن مدرس بالجامعة المصرية Mr. A.J. Arberry, Pembroke College, Cambridge يقول عنه السير دنسن روس Denson Ross إنه يجيد اللغة العربية وقد ترجم رواية «مجنون ليلى» للمرحوم شوقى بك إلى اللغة الإنجليزية.

٣) البروفسور **غليوم** يعرف اللغتين العربية والعبرية وكان أستاذا للغات الشرقية بجامعة درهام وقد ألقى عدة محاضرات عن كتابى (الأغانى) و(الفخرى) وألف هو والأستاذ أرنولد كتابا فى (وصايا الإسلام) وهو يعمل الآن فى كتاب (نهاية الإقدام فى علم الكلام).
erihskreB ,egelloC nodqnibA fo lapicnirP ,emualliuG .A .veR ehT

٤) الأستاذ **نيكلسون** بجامعة كمبردج، متقدم فى السن ويعرف اللغة العربية جيدا ولا يتكلمها Prof. R.A. Nicholson, Cambridge University

٥) الأستاذ **بيفان** بجامعة كمبردج، متقدم فى السن ويعرف اللغة العربية ولا يتكلمها.

٦) الأستاذ **مرجوليوس** بجامعة أكسفورد Prof. Margolioth of the University of Oxford

ويقول السير **دنسون** إن مجال الاختيار من المستشرقين الألمان أوسع بكثير من الإنجليز – ويفضل الأستاذ نيكلسون

الألمان

١) الأستاذ دكتور ج **برجستراسر**، من جامعة ميونيخ Prof. Dr. G. Berstrasser, Universite de Munich

٢) المستشار الخاص الأستاذ الدكتور أ. **لتمن** من جامعة توبنجن Le Conseiller Intime Prof. Dr. E. Littman, Universite de Tubingen

٣) المستشار الخاص أ. **فيشر** من جامعة ليبزج Le Conseiller Intime Prof. A. Fischer, Universite de Leipzig

٤) الأستاذ دكتور **فخرى بيكر** وزير المعارف سابقا من جامعة برلين، Prof. Dr. HC. Becker, (Ancient Ministre de l'nstruction Publique, Universite de Berlin) نشأت باشا يعرفه جيدا ووعد معالى الوزير بمذكرة عنه

الفرنسيون

١) **ماسينيون** الأستاذ بجامعة باريس M. Massignon: Professor au College (Louis) de France

٢) **جاستون فيت** الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ومدير دار الآثار العربية بالقاهرة M. Weit (Gaston): Professeure a I'Ecole des Langues Orientales, Directeur du Musee de I' Art Arabe.

٣) **ليفى بروفنسال** الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر ومدير معهد الدراسات العليا برباط بالجزائر M. Levy-Professeur a la Faculte des Lettres d' Alqer; Directeur de I' Institute des Hautes Etudes de Rabat.

٤) **هنرى ماس** الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس M. Masse (Henri): Professur a I'Ecole des Lanques Orientales (Tranisan).

٥) **وليم مارسيه** الأستاذ بالسربون M. William Marcais أقام فى الجزائر نحو ٣٠ سنة وتخصص فى الحديث، وهو حجة فى مختلف اللهجات العربية وإرجاعها إلى أصولها العربية

٦) **جود فرى ديمونين** الأستاذ بالسربون M. Godefrey Demunbyne لا يتكلم اللغة العربية ولكنه مطلع على أصولها وخصوصا تاريخها M.M. Willam Marcais et Godefrey Demonbye qui avaient ete presente se sont recuses en raison le premier de son age et le second de son etat e sante.

الأمريكيون

١) الأستاذ **مرتن سبرنجلنج** من جامعة شيكاجو Prof. Martin Sprengling, Ph. D., the University of Chicago, I11., U.S.A.

٢) الأستاذ **شارل تورى** من جامعة يل Prof. Charles C. Torrey, Ph.D., Yale University, New Haven, Conn.,

٣) الأستاذ **ريتشارد جوتل** من جامعة كولومبيا Prof. R. Richard J. Gotheil, Ph.D., Litt. D., Columbia UniVersity, New York city, U.S.A.

٤) الأستاذ **هرى فولفسون** من جامعة هارفارد Prof. D. H. C. Backer, (Ancien Ministre de I' Instruction Publique, Universite de Berlin

٥) الأستاذ **وليم بوبر** من جامعة كاليفورنيا Prof. William Popper, Ph. D., The University of California, Berkeley, California, U.S.A.

٦) الأستاذ **دنكان مكدونلد** Prof. Duncan B. Mac Donald, D.D., 143 Cigourney Street, Hartford, Conn., U.S.A.

Al these gentlemen are distinguished students of Semitics in the United States. The first five being heads of the Departments of Semitics in the Universities named. The last is a very distinguished student and author in these subjects, particularly in the Arabic Language.

الايطاليون

١) الأستاذ **نللينو** Prof. Nallino

٢) الأستاذ **جويدى** Prof. Guidi

مرسوم بإنشاء
مجمع ملكى للغة العربية

نحن فؤاد الأول ملك مصر

– بعد الاطلاع على الأمر العالى الصادر فى ٢٠ من ديسمبر ١٨٧٨م بتحديد اختصاصات الوزارات المختلفة؛

– وبناء على ما عرضه علينا وزير المعارف العمومية، وموافقة رأى مجلس الوزراء؛

رسمنا بما هو آت:

مادة ١ : ينشأ معهد باسم «مجمع اللغة العربية الملكى» يكون تابعا لوزارة المعارف العمومية. ويكون مركزه مدينة القاهرة.

مادة ٢ : أغراض المجمع هى:

أ) أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر، وذلك بأن يحدد فى معاجم، أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق، ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب.

ب) أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية، وأن ينشر أبحاثا دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات، وغير مدلولاتها.

ج) أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

د) أن يبحث كل ما له شأن فى تقدم اللغة العربية، مما يعهد إليه فيه، بقرار من وزير المعارف العمومية.

مادة ٣ : يصدر المجمع مجلة، تنشر فيما تنشر، أبحاثه التاريخية، وقوائم الألفاظ والتراكيب، التى يرى استعمالها أو تجنبها، وتتقبل مناقشات الجمهور واقتراحاته.

وينشر على الطريقة العلمية من النصوص القديمة ما يراه لازما لأعمال المعجم، ودراسات فقه اللغة.

مادة ٤ : يؤلف المجمع من عشرين عضوا عاملا، يختارون، من غير تقيد بالجنسية، من بين العلماء المعروفين بتبحرهم فى اللغة العربية، أو بأبحاثهم فى فقه هذه اللغة أو لهجاتها. ويعين الأعضاء العاملون لأول مرة بمرسوم، بناء على عرض وزير المعارف العمومية. وإذا خلا محل من أحد الأعضاء، اقترح المجمع اسم العضو الجديد بأغلبية ثلثى أعضائه العاملين. ويجب أن يصحب الاقتراح بتقرير مفصل لمؤهلاته العلمية، ويعين العضو الجديد بمرسوم، بناء على عرض وزير المعارف العمومية.

مادة ٥ : يختار رئيس المجمع من بين ثلاثة أعضاء عاملين، ينتخبون بأغلبية أصوات الأعضاء الحاضرين، ويكون تعيينه بمرسوم لمدة ثلاث سنوات، بناء على عرض وزير المعارف العمومية، ويجوز عند انقضاء مدته إعادة تعيينه بالطريقة نفسها.

مادة ٦ : تسقط العضوية عن العضو:

أ) إذا صدر عليه حكم مزر بالشرف.

ب) إذا صدر قرار مسبب بفصله من المجمع، بأغلبية ثلثى الأعضاء.

ج) إذا عجز عن مباشرة أعماله، لمرض أو لظروف أخرى.

ويحذف الاسم فى هذه الأحوال بمرسوم.

وإذا سقطت العضوية عن عضو عامل للسبب الثالث، جاز تعيينه عضوا فخريا، طبقا لنص المادة التالية، بشرط أن يكون قد استحق تقدير المجمع.

مادة ٧: يجوز، من غير تقيد بالجنسية، أن يمنح لقب «عضو فخرى»، للأشخاص الذين يكونون قد قاموا بخدمات جليلة الشأن فى دراسة اللغة العربية أو لهجاتها، ولا يجوز أن يزيد عدد الأعضاء الفخريين على العشرين، ويمنح اللقب بمرسوم، بناء على اقتراح المجمع وعرض وزير المعارف العمومية.

مادة ٨: للمجمع أن يمنح لقب «عضو مراسل» لكل شخص مصرى أو أجنبى يرى فى استمرار معونته فائدة كبرى. ويكون تعيين الأعضاء المراسلين من وزير المعارف العمومية، وليس لهم عدد محدود.

مادة ٩: يدعى المجمع كل سنة للانعقاد مدة شهر على الأقل، فى الشتاء، أو فى الربيع، للنظر فى المسائل المنوطة بالمجمع كله، ومنها إصدار القرارات، واختيار رئيس المجمع وأعضائه.

يحدد الرئيس موعد دور الانعقاد ومدته، ويشعر الأعضاء بهما قبل الانعقاد بستين يوما على الأقل، حتى يتسنى لمن يقيمون خارج القطر منهم الاشتراك فى جلسات المجمع.

يعقد المجمع فى دور انعقاده عشرين جلسة على الأقل، ويتداول الرأى فى الأعمال التى أعدت منذ دورته الأخيرة، وتجب المبادرة بإبلاغ هذه الأعمال إلى الأعضاء العاملين، ليتسنى لكل منهم درسها قبل دور الانعقاد.

ولا تعقد اجتماعات عامة فى غير دور الانعقاد السنوى، ومع ذلك يجوز فى السنتين الأوليين أن يدعى المجمع للانعقاد دورتين فى كل سنة.

ولا تكون قرارات المجمع صحيحة إلا إذا حضره اثنا عشر عضوا على الأقل، وتصدر القرارات بأغلبية آراء الأعضاء الحاضرين، فإذا تساوت الأصوات رجح رأى الجانب الذى فيه الرئيس.

مادة ١٠: للمجمع أن يعهد فى إعداد كل فرع من فروع الأعمال الموكولة إليه إلى لجنة ينتخبها من بين أعضائه العاملين. ولهذه اللجان أن تعقد اجتماعاتها فى غير المدة المحددة للاجتماعات العامة.

مادة ١١: يجوز أن يدعى لحضور اجتماعات اللجان والجلسات العامة أشخاص من غير الأعضاء، ممن يرى ضرورة مراجعتهم ومعاونتهم فى أعمال المجمع وهؤلاء يكون رأيهم استشاريا.

مادة ١٢: الرئيس هو الذى يتولى الإدارة العامة للمجمع، وهو الذى يرأس جلساته، ويراقب تنفيذ قراراته. فإذا غاب أو حدث له مانع، ناب عنه من بين الأعضاء العاملين الموجودين بالقاهرة أكبرهم سنا. وإن خشى أن يطول غيابه، أو أن يستمر المانع الذى حدث له، عين وزير المعارف العمومية من يقوم مقامه من بين الأعضاء العاملين.

مادة ١٣: يحدد مجلس الوزراء ما يعطى للأعضاء المقيمين خارج القاهرة فى مقابل الانتقال والإقامة، كما يحدد مكافأة الأعضاء العاملين، الذين توكل إليهم أعمال دائمة، بخلاف أعمال جلسات المجمع، والمكافآت التى تمنح لحضور الجلسات، ويحدد المجمع نفسه، فى كل حالة، مقدار المكافأة التى تمنح لأعضائه المراسلين، فى مقابل الأعمال الخاصة، التى يرى وجها لتكليفهم القيام بها.

مادة ١٤: للمجمع أن يقبل التبرعات التى ترد إليه من طريق الوقف والوصايا والهبات وغيرها، على أن قبوله لا يكون نهائيا إلا بعد تصديق وزير المعارف العمومية. وتتولى وزارة المعارف العمومية إدارة أموال المجمع.

مادة ١٥: تلحق ميزانية المجمع بميزانية وزارة المعارف العمومية، ويضع المجمع مشروعها فى كل عام، ويرفعه إلى وزير المعارف العمومية: لإقراره بالطريقة المعتادة. وتتكون إيرادات المجمع من غلة أمواله، ومن الاعتماد المخصص له بميزانية الدولة.

مادة ١٦: تتولى وزارة المعارف العمومية طبع ما يطلب المجمع طبعه بلا أجر، وفى هذه الحالة يضاف ما يتحصل من البيع إلى حساب وزارة المعارف العمومية.

مادة ١٧: تتخذ وزارة المعارف العمومية كل الوسائل التى تكفل اتباع قرارات المجمع فى أمر اللغة العربية وألفاظها وتراكيبها، وذلك بإذاعتها إذاعة واسعة، وباستعمالها بوجه خاص فى مصالح الحكومة، وفى التعليم والكتب الدراسية المقررة.

مادة ١٨: يضع المجمع لائحته الداخلية، وتعرض لتصديق وزير المعارف العمومية.

مادة ١٩: يلحق بالمجمع الموظفون اللازمون لأعماله، وتحدد شروط خدمته بقرار من مجلس الوزراء، ويكون لرئيس المجمع بالنسبة لهم ما لرؤساء المصالح من السلطة والاختصاصات.

مادة ٢٠: على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم، ويعمل به من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية.

صدر بسراى عابدين فى ١٤ من شعبان سنة ١٣٥١هـ (١٣ من ديسمبر سنة ١٩٣٢م).

فــؤاد
بأمر حضرة صاحب الجلالة
رئيس مجلس الوزراء
إسماعيل صدقى

وزير المعارف العمومية
محمد حلمى عيسى

أول مرسوم
بتعيين الأعضاء العاملين لمجمع اللغة العربية الملكى

نحن فؤاد الأول ملك مصر

- بعد الاطلاع على المرسوم الصادر بتاريخ ١٤ من شعبان سنة ١٣٥١هـ (١٣يسمبر سنة ١٩٣٢م) بإنشاء مجمع اللغة العربية الملكى؛
- وبناء على ما عرضه علينا وزير المعارف العمومية، وموافقة رأى مجلس الوزراء؛

رسمنا بما هو آت:

مادة ١ - يعين أعضاء عاملين بمجمع اللغة العربية الملكى كل من:

محمد توفيق رفعت باشا

حاييم نحوم أفندى

الشيخ حسين والى

الدكتور فارس نمر

الدكتور منصور فهمي، عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

الشيخ إبراهيم حمروش، شيخ كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر

الشيخ محمد الخضر حسين، الأستاذ بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر

أحمد العوامرى بك، المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية

على الجارم أفندى، مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف العمومية

الشيخ أحمد على الإسكندرى، أستاذ اللغة العربية بمدرسة دارة العلوم

الأستاذ هـ.أ.ر. جب، أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بلندن.

الأستاذ الدكتور أ. فيشر، بجامعة ليبزج

الأستاذ أ. نلينو، بجامعة روما

الأستاذ م. ماسينيون، بجامعة فرنسا

الأستاذ أ.ج. فنسنك، بجامعة ليدن

محمد كرد بك

الشيخ عبد القادر المغربى

الأب أنستاس مارى الكرملى

عيسى إسكندر المعلوف أفندى

السيد حسن عبد الوهاب أفندى

مادة ٢- على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم،

صدر بسراى عابدين فى ١٤ من شعبان سنة ١٣٥١ هـ (١٣ من ديسمبر سنة ١٩٣٢ م).

فـؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

إسماعيل صدقى

وزير المعارف العمومية

محمد حلمى عيسى

شيخ العروبة - جوانب مجهولة*

بكت العروبة فى الجزيرة كلها — حزنا على شيخ العروبة أحمد
ما كنت قبل الموت إلا سيدا — فى الدار أو فى الحزب أو فى المعهد
المرء بالآثار تحمد بعده — يحيا ولا يحيا إذا لم تحمد

هذه بعض أبيات من قصيدة طويلة، بعث بها من بغداد الشاعر العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى، نشرها الأهرام فى عددها الصادر يوم ٣٠ من يوليو عام ١٩٣٤م، المناسبة: كانت رحيل أحمد زكى باشا، شيخ العروبة قبل ذلك بأيام قليلة، وعلى وجه التحديد يوم الجمعة السادس من ذلك الشهر، وكان يوما حزينا على حد تعبير صحيفتنا.

وقبل أن نتحدث عن مفاتيح هذه الشخصية البارزة، نرى تقديم سيرة ذاتية قصيرة لها، مصدر السيرة العمل العلمى المتميز الذى وضعه الباحث الأمريكى المستر آرثر جولد شميت الصغير تحت عنوان قاموس السير الذاتية لمصر الحديثة، والذى اختار له أهم خمسمائة شخصية من المصريين بدءا من النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى أواخر القرن العشرين، كان شيخ العروبة إحداها. وجاء فى هذه السيرة، أن أحمد زكى باشا من مواليد ١٨٦٧م من علماء اللغة العربية، ولد بالإسكندرية وتلقى تعليمه فى كل من المدرسة القريبة والتجهيزية بالقاهرة، حتى دخل مدرسة الإدارة العليا (الحقوق فيما بعد)، فاز بوظيفة مترجم فى محافظة الإسماعيلية عام ١٨٨٨م، وأهلته إجادته الفرنسية للانتقال للعمل فى مكتب الصحافة بنظارة الداخلية، والترجمة لجريدة الوقائع المصرية، ثم مدرسا للترجمة بالمدرسة الخديوية، ومعلما للعربية فى معهد الآثار الفرنسى فى القاهرة، وفاز فى العام التالى بوظيفة مترجم فى رياسة النظار، أصبح بعدها سكرتيرا مساعدا، ثم سكرتيرا عاما حتى عام ١٩٢١م حين أحيل على المعاش. ويضيف المستر جولد شميت أن اهتمامات أحمد زكى باشا المتنوعة، أهلته لأن يستمتع بعضوية المجمع العلمى بالقاهرة، والجمعية الجغرافية الملكية، والجمعية الملكية الآسيوية فى لندن، وأصبح عضوا فى مجلس إدارة كل من الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية، هذا فضلا عن عمله أستاذا للحضارة الإسلامية فى الأخيرة، ولعب دورا أساسيا فى نحت ألفاظ عربية لبعض الكلمات الأوربية، كأن أطلق

* د. يونان لبيب رزق، جريدة الأهرام، الحلقة ٥٥٢، ١ من يوليو ٢٠٠٤م.

على «الأوتوموبيل» اسم السيارة، كما أنه عاد للجذور العربية لبعض الكلمات المتداولة فى اللغتين البرتغالية والأسبانية. فضلا عن ذلك فقد شارك فى عدد من مؤتمرات المستشرقين وكانت مداخلاته محل احترام من هؤلاء، وكان أحد مؤسسى الرابطة الشرقية، وأصبح منزله فى الجيزة والذى أطلق عليه اسم «دار العروبة» مقصد القادمين من البلاد العربية.

ونعود مرة أخرى للمؤرخ الأمريكى الذى ذكر أن أحمد زكى باشا قد حرص على أن يضفى على داره الطابع العربى الأصيل، فى الأثاثات والنفائس والكتب والمخطوطات، وكان عاكفا على إنجاز عمله الأخير فى وضع قاموس على غرار القاموس الفرنسى المعروف، غير أن أجله لم يمهله لإتمامه. بيد أننا نلاحظ أن المؤرخ الأمريكى لم يعر عناية كافية ما قام به الباشا الراحل عام ١٩١٣م حين أقدم على وقف مكتبته على الأمة، ووقف لبناء دار لها أرضا فسيحة، الأمر الذى يعتبره البعض العمل الأكبر لأحمد زكى باشا، وعزوا قدرته على إنجازه إلى ثلاثة أسباب، المركز والنفوذ الحكومى والرحلات المتوالية للخارج، من حيث أمكنه الحصول على عدد وفير من المخطوطات النادرة، استرخاصه المال فى سبيل الحصول على محتويات الخزانة الفريدة.

ويقول الأستاذ الجندى إن شيخ العروبة قد بدأ فى تكوين تلك الخزانة عام ١٨٨٣م، وهو قد جمعها فى تلك الفترة المبكرة من عدة مظان، بائعى الكتب المعروفين فى مصر، ما تنازل له عنه شقيقه محمود رشاد، وكان من المثقفين المصريين المعدودين، الجوائز المدرسية التى حصل على عديد منها على هيئة كتب، فضلا عن كل ذلك فقد طرق الرجل بابا غريبا، حيث اعتاد أن يتابع أخبار الوفيات والبحث عن الأعلام من أصحاب المكتبات الذين تصفى تركاتهم فيتدخل ليشترى ما خلفوه من كتب ومخطوطات.

كما أدلى الأستاذ جميل خانكى فى عدد الأهرام الصادر يوم ٨ من يوليو عام ١٩٣٤م، بتصريح جاء فيه: «عرفت شيخ العروبة منذ سنين فحبانى من أول لحظة، بحنانه الأبوى ومودته الخالصة، انخرطت فى سلك أبنائه المعجبين به، الملتفين حول عرشه العلمى وتاجه الأدبى، والله يعلم أنهم فى مشارق الأرض ومغاربها لا يحصى لهم عد، وإذ كنت برمل الإسكندرية ودار العروبة على مقربة من دارى، كنت استمع لأحاديثه ومقالاته فى تصحيح كلمة أندلسية أو تعريب كلمة أعجمية، أو رد على مقالة أدبية أو تاريخية، فكنت أتذوقها بشغف وشوق مثنى وثلاث قبيل نشرها، وبعد نشرها فى الأهرام الغراء، ويضيف الأستاذ خانكى أن أحمد زكى باشا «جاهد فى سبيل العروبة بنخوة عربية، ونفس أبية، قل أن يوجد لها نظير بين الناطقين بالضاد، كنا نراه فى المجالس محدثا مؤرخا أديبا عالما، يتناول

حديثه شتى الموضوعات. يطرب سامعيه بصوته الرخيم، ويشوقهم إلى أحاديثه الممتعة ورحلاته النائية، متنقلا بهم من جزيرة العرب والشام إلى بلاد الأندلس، إلى تونس الخضراء وغيرها من البلاد». نشرت جريدة الأهرام قصيدة لمفتى يافا السابق حسان فلسطين أبي الإقبال اليعقوبى، جاء فى مستهلها:

ضرب الشرق فى مقتله ... يوم دك الصرح من ذاك البناء
ضربة ألقت به من حالق ... بينما المشرق فى دور العلاء
قدر الموت قضاء مبرم ... أه ما أصعب ضربات القضاء

كما نشرت قصيدة ثالثة للأستاذ على أحمد باكثير الذى وصف نفسه بأنه شاعر حضرموت نزيل القاهرة جاء فى مطلعها:

أسمع الآن هاتفا فى فؤادى ... مثل رجع الصدى ببطن الوادى
اسمعوه معى لعل بشيرا ... بنهوض ليعرب فى البلاد!
إنه صوت «أحمد» إى وربى ... صوت (شيخ العروبة) المحبوب
كلمات من قلبه ألقاها ... فتلقوا آياتها بالقلوب

يبدو أن الدكتور رمسيس جرجس (عضو مجمع اللغة العربية فيما بعد) كان من عشاق شيخ العروبة وحوارييه، الأمر الذى نتبينه بسهولة من الترجمة المطولة التى قدمها لأحمد زكى باشا فى الأهرام، والتى جاء فيها ما ينم عن معرفة وثيقة به، قال الدكتور ابن طنطا فى موقع من المواقع: إن الراحل كان لشدة ثقته بنفسه قاسيا على مناظريه، لا يترك لهم صغيرة ولا كبيرة، وكان شديد الملاحظة، لا يجد خطأ فى جريدة يمس مصطلحا أو اسما عربيا إلا قومه بصرامة، كانت فى بعض الأحيان مأخذ لوم عليه، ولكن هذه الشدة الظاهرة ما كانت تترك فى نفسه أية مرارة، فهو المنتقد الحاد الآن، والصديق الصدوق فى الغد، كما كان، شأنه فى ذلك شأن كبار العلماء الذين لا ينظرون إلى العلم كسلعة تشترى وتباع، بل ملك للجميع مشاع. وقال فى موقع آخر إنه كان كثير التدقيق، لا يهدأ له بال حتى يرجع فى بحثه للمظان الأصيلة، يطوى الأيام والليالى منقبا عن أمر صغير حتى يقف على جليته، وقد لازمته هذه الصفة طول حياته، تراها واضحة فى كل مقال بخطه، أو رسالة يضعها، بل قد يهجر رسالة مطولة أجهده موضوعها إذا تراءى له أن نقطة منه لم تتحقق بما يرضى ضميره، حتى يحين له الوقت الذى ينجلى فيه غامضها، فينشرها على الناس، وقد استوفت حقها تمحيصا.

غير أن الأهم من الدكتور رمسيس، كان الدكتور أحمد عيسى بك عضو المجمع العلمى، والذى أسفر فى محاضرة ألقاها فى افتتاح الموسم الثقافى للمجمع عن جوانب مجهولة فى حياة شيخ العروبة. بدأ عيسى بك محاضرته بشكل عاطفى عندما وصف أحمد زكى باشا بأنه «أوحد عصره فى فضله وذهنه، السابق فى حلبة المعارف، الحائز قصب السباق فى علوم التاريخ الإسلامى، المتفوق فى تقويم البلدان الإسلامية، العالم الخفاق فى الأدب العربى والعجمى». وبدأ الدكتور عيسى بك بعد ذلك فى استعراض بعض ما هو معلوم خاصة فيما يتصل بإحياء العلوم والآداب العربية، ودروه فى البدء بنشر الموسوعتين الكبيرتين المعروفتين باسم (نهاية الأرب فى فنون الأدب) لشهاب الدين النويرى، و(مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار) لابن فضل الله العمرى، وتبعهما بقائمة أعدها أحمد زكى تضمنت عددا من مصادر «جوامع العلوم فى الموسوعات»، وكانت أربعة أعمال «كلها فى الأدب والبلاغة والإنشاء»، ثم عددا آخر من «فنون العجائب وإكرام الضيف فى الحديث»، ثم بعد ذلك «التاج» للجاحظ ومحاسن الملوك، ورسائل الملوك لابن الفراء، وأخيرا كتاب المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام، وذيل تجارب الهمم فى وقائع العرب والعجم لابن مسكويه وغيرها.

ولا يعلم الكثيرون الدور الذى أداه شيخ العروبة فى إصلاح طريقة الطباعة فى مطبعة بولاق التى كانت قد تجمدت، وأنه زار عام ١٩٠٢م أشهر المطابع فى العالم، فى كل من فيينا وليبزج وبرلين وزيورخ ولندن وأكسفورد وباريس، وأنه تمكن مع محمد بك جعفر الخطاط المعروف فى إعادة تصميم خطوط المطبعة، الأمر الذى أصبحت معه المطبعة الأميرية تفوق كل مطبعة عربية فى العالم فى جمال حروفها وحسن تنسيقها وكمال استعدادها، كما لا يعلم الكثيرون، ربما ولا القليلون، الدور الذى أداه الرجل فى إدخال الترقيم على الكتابة العربية على النسق المستعمل فى كتابة اللغات الأوربية، فمن قبل كان على قارئ العربية الاعتماد على القريحة إذ لم يكن أمامه إشارات أو علامات تقوده إلى ذلك، وعندئذ فكر زكى باشا فى اقتباس طريقة الترقيم الإفرنجية واستخدامها فى الكتابة العربية، وصنف فى ذلك رسالة قيمة عام ١٩١٢م. ثم إنه لا يعلم أحد شيئا عن المحاولة التى بذلها شيخ العروبة لإدخال الاختزال فى اللغة العربية، وذلك على غرار اللغات الأوربية لنقل الخطب وغيرها بالسرعة والدقة لصيانة الأقوال من الضياع، صحيح أنها قد آلت إلى فشل، وعزى ذلك إلى أن الكتابة العربية هى نفسها مختزلة، ولكن يكفى الرجل شرف المحاولة.

أقدم اللغات
قدم الكتابة بالعربية★

جزيرة أقريطش (كريت) مركز من أهم مراكز الحفريات التى ينتفع بها طلاب التحقيق فى تاريخ علم الإنسان، أو «الأنثروبولوجية».

لأنها جزيرة تتوسط بين القارات الثلاث: إفريقية وآسيا وأوربة. ووردت عليها حضارة بعد حضارة من هذه القارات، ثم اختلفت الحضارات فى برها الأصيل، كما اختلفت فى داخل الجزيرة، باختلاف عوامل التطور العالمية، واختلاف عوامل التطور المحلية، فكل ما يهتدى إليه علماء الحفريات من بقايا الجزيرة القديمة، فهو مادة صالحة لاستقراء الأصول والفروع من هذه الحضارات، ولاستقراء عوامل التطور مع حوادث التاريخ الإنسانى الشامل وعوامل التطور المنحصرة فى جزيرة محدودة تنعزل حينا، وتتصل حينا آخر بما يحيط بها من أقطار القارات الثلاث.

ويأتى فى المرتبة الأولى بين مباحث هذه الحفريات، مبحث اللغة التى تكلم بها أبناء الجزيرة، قبل الميلاد ببضعة عشر قرنا، قد ترتقى إلى ألفى سنة.

فإذا ترجمنا الأساطير اليونانية القديمة بلغة التاريخ، فالمفهوم من أشهر هذه الأساطير التى وردت فى شعر (هوميروس) أن الكريتيين كانوا من سلالة فينيقية، لأن ملك الجزيرة «مينوسس» كان ابن الحسناء «أوربة» كما ذكروا شيئا عن تواريخها فى تلك الأزمنة الحالية.

أما الذى نؤثره ونستند فى إيثاره إلى الأصول المعقولة، فهو تغليب كلمة «العربية» على كلمة الفينيقية أو كلمة السامية على اختلاف مدلولاتها، حيث يرجع الأمر إلى أربعة آلاف سنة من تاريخ هذه اللغات القديم، أو على الأصح من تاريخ تلك اللهجات، كما ينبغى أن تسمى فى ذلك الحين، لأنها كانت قبل أربعين أو خمسين قرنا لهجات تتفرع على أصل واحد قديم.

فقد كان الفينيقيون يقيمون بين النهرين، على مقربة من خليج العرب، قبل انتقالهم إلى صور وغيرها من المدن على شواطئ فلسطين.

★ أ. عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات فى اللغة - الطبعة السادسة - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٨م.

وقد كانت الحروف المنسوبة إليهم عربية على التحقيق، ولم تكن مقصورة على القبائل الفينيقية فى العراق أو فلسطين، ولو لم تكن عربية عامة لما وجدت بصورها الباقية إلى اليوم فى الخط المسند الذى لاشك فى قدمه، وقدم الحضارة اليمانية بل العروبة اليمانية – من قبله – فإن الأبجدية المشهورة باسم الفينيقية، والأبجدية التى كانت تكتب فى بلاد اليمن. متشابهتان فى أكثر الحروف، وما اختلف منها قليلا فهو اختلاف فى الأداء دون الأصول، ومثله هذا الاختلاف نشاهده بين كتابة المشارقة وكتابة المغاربة بعض الحروف العربية إلى اليوم.

وإذا جاز الشك فى العلاقة القديمة بين الحضارة العربية وجزيرة كريت، فليس هناك محل للشك فى علاقة هذه الحضارة باليونان، منذ عصر الملك «قدموس»، وهو مقارب فى حساب التاريخ وحساب الأساطير لعصر الأميرة «أوربة» والملك مينوس على رواية الشاعر هوميروس.

نعم لاشك فى هذا، لأن الأبجدية اليونانية باقية إلى اليوم، تدل على تاريخ العلاقة القديمة.

فهذه الأبجدية التى يكتبها اليونانيون فى عصرنا هذا موافقة بترتيبها حرفا حرفا لترتيب الأبجدية العربية، ولا يختلف هذا الترتيب مرة إلا إذا تقابل حرف من حروف الحلق بحرف من الحروف التى تقاربه فى نطق الأوربيين، لأن الأوربيين لا ينطقون حروف الحلق كما هو معلوم.

فالأبجدية اليونانية تبتدئ بحروف (ألفا وبيتا وجما ودلتا) وهى حروف الألف والباء، والجيم والدال فى «أبجد» على هذا الترتيب. ثم تتقابل حروف «هوز» بما يقاربها مع اختلاف نطق الهاء، ونطق الواو حين تكون حركة مد عندهم، وحرفا منطوقا عندنا فى بعض الأحيان، ثم تأتى «كلمن» متتابعة كما هى عندنا بغير اختلاف لحلولها من حروف الحلق والمد، وهم ينطقونها «كافا ولا متا ومى ونى» ويتبعونها ببقية حروفنا على النحو الذى أشرنا إليه.

ومن المؤرخين الأوربيين من يتعصبون فى نسبة كل ثقافة أوربية إلى أصل من أصولها العربية أو الشرقية، فهم يدركون هذا الشبه بين الأبجدية عندنا والأبجدية عند اليونان فيعتبرون به، ولكنهم يسألون: ولماذا لا يكون الساميون هم الذين اقتبسوا هذه الحروف من مصدر أوربى قديم؟

وقد ظل هذا السؤال زمنا معلق الجواب أو محتملا للإجابة، بنسبة الأصول الأبجدية إلى المصادر الأوربية، لولا أن أسماء الحروف العربية عرفت بمعانيها وأشكالها ولم يعرف لها معنى ولا شكل يعود بها إلى لغة من لغات الأوربيين، ومن معانى هذه الحروف ما نفهمه فى أحاديثنا اليومية إلى هذه الأيام، كالباء من البيت والجيم من الجمل والعين من العين، والكاف من الكف، والنون من النون أو الحوت.

وكلما كشف الحفريون حرفا مكتوبا وعرفوا معناه وعمله فى الجملة عاد بهم هذا الكشف الجديد إلى أصل قديم، يقدر تاريخه بآلاف السنين، فقد كشف الحفريون من آثار بلاد النبط بعض حروف الجر التى كانت تستعمل فى مثل موقعها من الجملة عندنا نبل ثلاثة آلاف سنة. فإذا قدرنا أن حرف الجر عادة هو اسم أو فعل مختزل لا تتعود الألسنة اختزاله قبل انقضاء مئات السنين فلابد من تقدير زمان سابق لتاريخ تلك الكتابة النبطية بعدة قرون، كانت فيها اللغة لغة تركيب وإعراب بقواعدها التى تطورت مع الزمن حتى وصلت إلى ما هى عليه، وبلغت فيها قواعدها غاية مداها من الضبط والاستقرار.

وهانحن أولاء هنا ننتهى إلى بيت القصيد من تحقيق القول بقدم اللغة العربية، فإن قدم اللغة، على أية حال، عراقة تحسب لها كما تحسب لكل كائن حى عريق، ولكن الذى يعنينا منه فى هذا المقام هو جانب التمام والنضج بعد طول التطور والتقويم.

فما من قاعدة من قاعدة اللغات السامية تابعت نموها ونضجت فى تطورها كما نضجت فى لغتنا العربية، بعد ذلك التقدم المتطاول من أقدم العصور:

فى اللغات السامية إعراب، ولكنه قاصر غير مطرد ولا متناسق فى مواضعه، ولم يبلغ قط مبلغ «القانون» الذى نعرف فيه حدود الاطراد وحدود الاستثناء.

وفى اللغات السامية اشتقاق ولكن قوالب المشتقات فيها لم تتميز بأوزانها ومعانيها كما تميزت مع تطور اللغة العربية.

وفى اللغات السامية حروف لم تعرف فى غيرها من العائلات اللغوية كما يسميها المحدثون، وأن لغة من اللغات – سامية كانت أو آرية أو طورانية – لم تتحرر فيها المخارج بحروفها ولا الحروف بمخارجها كما تحررت فى لغة الضاد، فليس فى لغة الضاد حرف ملتبس بين مخرجين ولا مخرج ملتبس بين حرفين.

وفى اللغات السامية نحو وصرف ولكنهما واقفان - فوق المنبت جذورا كالخشب الذى لا يقبل النمو بعد ما وصل إليه، وما من جذر من جذور نحونا أو صرفنا لم يتفرع ولم يحتفظ بقوة الحياة فيه كما تحتفظ البنية الحية بقوة حياتها، فى كل عضو من أعضائها.

ومن الواجب أن تتمثل هذه الظواهر العربية الحاصلة فى أذهان أولئك «المصلحين» الذين يحسبون أنهم يتناولون هذه اللغة بالإصلاح كلما احتاج الأمر إلى توفيق بينها وبين مطالب العصر الحديث...فلا محل فى البنية الحية النامية لإصلاح التركيب أو تقويم البنية من جديد، وإنما هو «الغذاء» الذى يوافق تلك البنية وتأخذ منه بقدرتها الحية ما يأخذه لإحياء الأصحاء من كل غذاء طيب وكل طعام مفيد.

الحروف العربية أصلح الحروف لكتابة اللغات ★

إن الأمم التى تعتمد على الحروف العربية فى كتابتها أكثر عددا من كل مجموعة عالمية تعتمد فى الكتابة على الحروف الأبجدية، ماعدا مجموعة واحدة، وهى مجموعة الأمم التى تعتمد فى كتابتها على الحروف اللاتينية.

لأن الحروف العربية تستخدم لكتابة اللغة العربية، واللغة الفارسية، واللغة الأوردية، واللغة التركية، واللغة الملاوية، وبعض اللغات التى تتصل بها فى الجزر المتفرقة بين القارات الثلاث: إفريقية وآسيا وأستراليا.

ونسبة الكاتبين بين هذه الأمم أقل فى هذا العصر من نسبة الكاتبين بين أبناء الأمم التى تعتمد على الحروف اللاتينية.

ولكن الأمر فى صلاح الحروف للكتابة لا يعود إلى كثرة الأفراد الذين يكتبونها، بل إلى أنواع اللغات التى تؤدى ألفاظها وأصواتها.

وعلى هذا الاعتبار تكون الحروف العربية أصلح من الحروف اللاتينية أضعافا مضاعفة لكتابة الألفاظ والأصوات؛ لأنها تؤدى من أنواع الكتابة ما لم يعهد من قبل فى لغة من لغات الحضارة.

فالحروف اللاتينية تستخدم للكتابة فى عائلة واحدة من العائلات اللغوية الكبرى، وهى العائلة «الهندية الجرمانية».

وهذه العائلة الجرمانية هى العائلة التى يقوم فيها تصريف الكلمات على «النحت» أو على إضافة المقاطع إلى أول الكلمة أو آخرها، وتسمى من أجل ذلك باللغات «الغروية» من الغراء اللاصق فى أدوات البناء والنجارة.

أما الحروف العربية فهى تقوم بأداء الكتابة بهذه اللغات وبكثير غيرها فهى تستخدم لكتابة الفارسية والأوردية وهما من لغات النحت، أو من عائلة اللغات الغروية.

تستخدم لكتابة التركية وهى من العائلة الطورانية ويرجعون فى تصريف ألفاظها إلى النحت تارة وإلى الاشتقاق تارة أخرى، فهى وسط بين اللغة الفارسية واللغة العربية.

★ أ. عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م

وتستخدم الحروف العربية بطبيعة الحال لكتابة لغة الضاد المميزة بمخارجها الواضحة، الدقيقة، بين جميع اللغات، وهى أعظم لغات الاشتقاق التى اشتهرت باسم العائلة السامية.

وتكتب بالحروف العربية لهجات ملاوية تتفرع على لغات المقاطع القصيرة والنبرات الصوتية المنغومة، ويختلفون فى نسبها إلى إحدى العائلات الثلاث حتى اليوم، لأنها مستقلة بكثير من الخصائص وقواعد التصريف، ولعلها عائلة مستقلة من العائلات اللغوية الكبرى تشعبت فروعها لتفرق الناطقين بها بين الجزر المنعزلة.

وقد استطاعت هذه الأمم جميعا أن تؤدى كتابتها بالحروف العربية دون أن تدخل عليها تعديلا فى تركيبها ولا أشكالها المنفردة، ولم تتصرف فيها بغير زيادة العلامات والنقط على بعض الحروف، وهى زيادة موافقة لبنية الحروف العربية وليست بالغريبة عنها؛ لأن العرب أنفسهم أضافوا النقط والشكل عند الحاجة إليها، وليست زيادة شرطة على الكاف بأغرب من زيادة النقط على الحروف، مفردة أو مثناه وفوق الحرف أو تحته، للتمييز بين الأشكال المتشابهة أو المتقاربة.

وعلى كثرة اللغات، والعائلات اللغوية، التى تؤديها حروف العربية لم يزل ضبطها الألفاظ أدق وأسهل من ضبط الحروف اللاتينية التى تستخدم لكتابة عائلة لغوية واحدة، وهى العائلة الهندية الجرمانية.

فالإسبانى يقرأ الإنجليزية على حسب قواعد لغته، فيحرفها كثيرا ويبلغ من تحريفها مبلغا لا نعهده فى نطق الفارسى الذى يقرأ الأوردية أو التركية أو العربية، ولا نعهده فى نطق العربى الذى يقرأ الفارسية بحروفها ولو لم يكن على علم بمعانيها، ولكنه إذا عرف معناها لم يقع فى خطأ من أخطاء اللفظ، ولم يكن هناك خلاف بينه وبين أبناء الفارسية فى كتابها وقراءتها.

هذه حقيقة لا جدال فيها، ينبغى أن نحضرها أمامنا لنعرف مدى التهويل المفرط فى شكوى الشاكين من صعوبات الكتابة العربية المزعومة: فإن حروفنا إذا قيست بغيرها لم نجد لها نظيرا بين حروف الأبجديات على تعددها وكثرة التحسينات التى أدخلت عليها.

وينبغى أن نحصر هذه الحقيقة فى أيامنا هذه بصفة خاصة؛ لأنها غابت عن أذهان بعض الباحثين فى مشكلة الكتابة عند طوائف من الأمم الشرقية الإسلامية، يميل بعضها إلى اختيار الحروف اللاتينية، لكتابة، ألفاظه ومترجماته المنقولة إليها.

فقد أخذت طائفة من قبائل الصحراء الإفريقية فى كتابة سجلاتها التجارية ومراسلاتها المتداولة بينها وبين سكان الشواطئ بالحروف الفرنسية وأخذت فئة من الملاويين فى كتابة أمثال هذه السجلات والمراسلات بالحروف الهولندية أو الحروف الإنجليزية، وظهر بين كتابها من يستخدم هذه الحروف فى الموضوعات الأدبية والفكرية.

فمن الواجب أن نذكر هنا أن عوامل السياسة والاقتصاد، هى التى جنحت بتلك الطوائف إلى اختيار الحروف اللاتينية، ولم يكن سبب هذا الاختيار نقصا عسير العلاج فى أصول الكتابة العربية، ولولا عوامل السياسة أو الاقتصاد لما اختار فريق من الملاويين حروف الإنجليزية واختار فريق آخر حروف الهولندية، على حسب العلاقات بين البلد الملاوى وبين إحدى هاتين الدولتين.

ومن المعلوم أن صعوبات النطق بين الألفاظ الإنجليزية والألفاظ الهولندية تتجسم فى بعض الحروف كالجيم والياء، كما تتجسم فى حروف العلة عند مواضع الإمالة والإشمام على نحو يسهل تداركه فيما يكتب بالحروف العربية.

فلا ذنب لحروفنا العربية ولا للأبجدية العربية بجملتها فى هذا التحول من هذه الحروف إلى ما عداها، ولا يحسب على الكتابة العربية عيب واحد يصعب استداركه على الكاتب العربى ويتيسر استدراكه على الكاتبين بالحروف اللاتينية، حتى حركات الإمالة التى يبالغون فيها وهى عندنا أهون خطبا من نظائرها عند الأوربيين..! فإن حرف الألف (A) وحرف الياء (I) يمالان على غير قاعدة مطردة بين الإنجليزية والفرنسية والهولندية، وقد استطاع حفاظ القرآن الكريم أن يضبطوا مواضع الإمالة والإشمام فى القراءات المختلفة ضبطا لا يعسر تعميمه بعلاماته عند الحاجة إليه فى سائر الموضوعات.

وعلينا أن نسقط من حسابنا تهويل المهولين باختلاف نطق الحروف على حسب اللهجات الفصحى أو العامية: فإن الملايين من أبناء العربية يكتبون الجيم بشكلها الأبجدى المعروف وينطقها ابن القاهرة وابن الصعيد وابن دمشق كل منهم على حسب منطقه الذى نشأ عليه. وليس فى شىء من ذلك ما يدعو إلى تغيير شكل الحرف ولا إلى تغيير قواعد الكتابة، وإنما هى عادات تعرف ويحسب حسابها بغير مشقة ولا كلفة، كما نرى ونسمع كل يوم منذ أجيال، وكما هو معهود ومتواتر فى كل لغة من لغات الحضارة، بين المكتوب والملفوظ وبين الملفوظ فى إقليم والملفوظ فى إقليم آخر، ولو كان كل من الإقليمين منسوبا إلى وطن واحد ودولة واحدة، ومن راقب ذلك فى اختلاف النطق الأمريكى والنطق الإنجليزى، أو فى اختلاف

نطق العاصمة ونطق الريف أو استخدام الصحافة واستخدام الإذاعة لم يكترث لذلك التهويل، الذى لج فيه الشاكون من صعوبات اللغة العربية، وهى عند القياس أهون الصعوبات، وعند البحث الرصين المنصف، تشهد للأبجدية العربية بأنها أصلح من سواها لكتابة جميع اللغات.

المؤامرة على الفصحى لغة القرآن *

التغريب والغزو الثقافى مدفعيته الثقيلة إلى اللغة العربية الفصحى، بهدف إصابة القرآن الكريم أساسا. وكل ما يثار حول اللغة العربية، من إحياء العامية أو اللغة الوسطى، أو مشروع العربية الأساسية كله، يخفى وراءه هدفا واحدا واضحا، هو عزل المسلمين فى هذا العصر عن بيان القرآن وعن أسلوبه، وشق وحدة اللسان والكلمة بإعلاء العاميات فى مختلف أنحاء البلاد الإسلامية، حتى تنمو تلك العاميات، وتصبح لغات مستقلة، وتحقق أمل التغريب الذى أعلنه دوفرين وويلكوكس منذ أكثر من مائة عام، وعندئذ يصبح القرآن تراثا يترجم ويقرأ عن طريق القواميس.

فقد دعا دوفرين إلى تحرير المصريين من اللغة الفصيحة. وقال ويلكوكس: إن قوة الاختراع لا توجد عند المصريين ماداموا يربطون أنفسهم باللغة الفصحى.

وهم يضعون تجربة اللغة اللاتينية بالنسبة للإنجيل فى أوربا كصورة نموذجية للمحاولة، ويجهلون مدى الفارق البعيد بين اللغتين، وينسون أن الإنجيل لم ينزل باللغة اللاتينية أصلا وإنما ترجم إليها.

ولما عجزت خطة العامية، قدمت خطة الكتابة بالحروف اللاتينية فى إطار المجمع اللغوى، ثم كانت هناك خطة ثالثة هى «اللغة الوسطى» وهى محاولة ماكرة لفصل اللغة العربية الفصحى عن لغة الكلام ولغة الكتابة، بإعلاء اللهجات واعتماد اللغة الصحفية لغة أساسية، فلا هى عامية ولا هى فصحى، ولكنها تنزل درجة عن الفصحى لتفصلها عن بيان القرآن، ولتكون مقدمة لمرحلة أخرى تصل بها إلى العامية.

ثم جاءت محاولة تبديل الخط العربى وقواعد النحو باسم (تطوير اللغة) تحت اسم تهذيب أو تيسير أو إصلاح أو تجديد، وهى أسماء لبقة مرنة تخفى وراءها هدفا خطيرا، هو التحلل من القوانين والأصول التى صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنا أو زيادة، وهى القوانين التى ضمنت لنا القدرة على مطالعة آثار المسلمين والعرب منذ نزول القرآن وقبله.

---

* أ. أنور الجندى: أهداف التغريب فى العالم الإسلامى، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة ١٩٨٧م.

فإذا ما تحققت هذه الخطة التى تسمى بالتطوير أو التهذيب، وتحللنا من هذه الأصول والقوانين والقواعد التى صانت اللغة هذه القرون، كانت النتيجة تحقيق الهدف فى تبلبل الألسنة بين المصرى والشامى والمغربى، كما بين الإيطالى والأسبانى، وتصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربى والإسلامى متعذرة على غير المتخصصين من دارسى الآثار ومفسرى الطلاسم - على حد قول الدكتور محمد محمد حسين - وعندئذ تصبح وحدة العرب كمقدمة لوحدة المسلمين عملا باطلا.

إن الخطر فى هذه الدعوة هو قبول مبدأ التطوير نفسه، لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهى عند حد معين، أو مدى معروف يقف عنده المتطورون، ولا ريب أن التزحزح عن الحق كالتفريط فى العرض.

فالدعوة إلى إصلاح اللغة هدف من أهداف التغريب الكبرى، يرمى إلى نسخ العقلية العربية وما فيها من ثقافة نظرية وعلمية، ذلك أن الإصلاح هو التغيير - كما يقول الدكتور على العنانى - والتغيير يعنى الإزالة والوضع، وتغيير قواعد اللغة العربية صرفا ونحوا بالوضع فقط أو بالوضع والإزالة معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة، وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المعروفة اتصال اللهجة بالأم فإنها تبعد عنها شيئا فشيئا حتى تختفى معالم الصلات بينهما أو تكاد، وعندئذ تصبح اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة.

وهذا ما يحلم به خصوم الفصحى فى القديم والحديث، ومعنى هذا أن يصبح تراث العربية البالغ عشرات الآلاف من الكتب فى مختلف مجالات الشريعة الإسلامية والأدب والحضارة والفكر والفن، عبارة عن توابيت فى دار الآثار والمتاحف.

إن قواعد اللغة العربية وضعت طبقا لنصوص القرآن والحديث والمسموع من العرب، فالتغيير فى هذه القواعد هجر للقرآن والحديث، كذلك فإن الإسلام - وهو عقيدة وشريعة - قد استنبطت أحكامه فيما يختص بالعقيدة والشريعة فى العبادات والمعاملات من الكتاب والسنة وعمل الرسول والقياس والاجتهاد، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلا بواسطة مبادئ خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول، وأساس هذه المبادئ والقوانين الراسخة، أو دعائم هذه الأصول إنما هو فهم لغة العرب: لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد الصرفية والنحوية، وضوابط علوم البلاغة. فإذا (أصلحت) هذه الضوابط وتلك القواعد بالإزالة والوضع، انهدم أساس علم الأصول، وتداعت دعائمه، وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضا ما يرتكز عليها وهو هذا العلم، وإذا وصل هذا

العلم الأساسى فى استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة إلى التداعى، تداعت معه أيضا طريقة الاستنباط، وفهم ما استنبط ودون بالفعل، وضاعت العقيدة واحتجبت الشريعة وعدنا إلى الجاهلية الأولى.

هذه هى خلفية الصورة البراقة التى نراها اليوم، يحدوها مجموعة من أعداء الإسلام واللغة العربية، ويدافعون عنها، وينقلونها من ثوب إلى ثوب، ومن أسلوب إلى أسلوب، كلما انكشف لهم جانب أعادوا تشكيلها فى صورة أخرى.

نعم: إن محاولة تطوير اللغة العربية أو إصلاحها إنما هو هدف خبيث من أهداف التغريب، من شأنه فى النهاية أن يقطع صلة المسلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الفقهى، وما إلى ذلك مما لا يتحقق فى لغة أساسها العامية، بل إنه يقطع صلة المسلم بالتراث العلمى الإسلامى بصفة شاملة.

وهناك مؤامرة تطبيق علم اللغات الحديث على اللغة العربية، وهو علم قامت نظرياته ومستخلصاته على أساس دراسة واسعة للغات الأوربية، وهذه اللغات لها تاريخ وتحديات وطريق، أما تاريخها فإنها مشتقة من اللغة اللاتينية ولغات أخرى، وقد كانت فى أول أمرها لهجات عامية ثم استقلت بنفسها تحت تأثير عوامل كثيرة.

أما اللغة العربية فإنها ارتبطت بكتاب منزل أعطاها وحماها وجعلها ليست لغة العرب وحدهم، وإنما لغة الثقافة الإسلامية العامة.

ومن هنا فإن هذه العبارات المضللة التى تقول إن اللغة العربية لغتنا ونحن أصحابها، ولنا حق التصرف فيها، هو قول باطل وغير صحيح ومردود، ويرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمى، وربما كان قولا صحيحا بالنسبة للغات الأوربية أما بالنسبة للغة العربية فإن الأمر جد مختلف، ذلك أن اللغة العربية منذ أن نزل بها القرآن فقد أعطاها واقعا وأبعادا مختلفة، إذ لم تصبح لغة أمة هى العرب فحسب، بل هى لغة فكر وعقيدة ودين وثقافة لألف مليون مسلم الآن، ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى اليوم بل ويزيدون وإن ارتباطها بالقرآن هو وحده الذى حماها من أن تتحول لهجاتها إلى لغات مستقلة، وأن يقرأ تراثها بقاموس، وسيظل الترابط بين المسلمين ولغة الضاد الفصحى، - لغة القرآن - قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كذلك وقف الغزو الفكرى والتغريب فى وجه امتداد اللغة العربية إلى كل مكان ذهب إليه الإسلام، فقد جرت المحاولات الضخمة فى إفريقيا وجنوب شرقى آسيا إلى عدة أمور:

١) تحويل أبجدية اللغات إلى اللاتينية، وكانت عربية أساسا.

٢) إعلاء شأن اللهجات العامية لحجب العربية الفصحى.

٣) التوسع فى فرض اللغات الأجنبية لغة المحتلين الفرنسيين والإنجليز.

وكل هذا قد حال دون تمكن الفصحى لغة القرآن من أن تنتشر مع الإسلام نفسه حيثما ذهب، هذا بالرغم من أن اللغة العربية اقتحمت قواميس اللغات فى الغرب، سواء فى اللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو الأسبانية، وأن عشرات من أسماء المصطلحات العلمية فى اللغات الغربية مازالت عربية وكذلك أغلب أسماء النجوم والكواكب.

ومن حق اللغة العربية أن تأخذ حقها الوافر فى أن تصبح لغة المسلمين فى كل بلد إسلامى بعد لغته الأصلية، بعد أن حجبها التغريب والنفوذ الأجنبى أكثر من ثلاثمائة عام عن النماء والامتداد.

كذلك فقد عمد التغريب والنفوذ الغربى إلى تعزيز تعلم اللغات الغربية فى البلاد الإسلامية الواقعة تحت نفوذه السياسى أو الحضارى أو الاقتصادى، وذلك بهدف أن تنتقل مع اللغات الغربية أفكارها إلى الأمة الإسلامية، وتزاحم مفاهيم الإسلام وقيمه.

ولذلك فنحن فى حاجة شديدة إلى التحفظ على منهج تعلم اللغات من أجل اللغة ذاتها، ويجب أن يكون تعلم اللغات الأجنبية مقصودا به خدمة الإسلام، وأن تكون اللغة العربية وفكرها هو الأساس فى تكوين ثقافة المتعلمين المسلمين، فالأمم تفكر باللغة قبل أن تفكر بالفكر نفسه.

واللغات الأجنبية ليست مجرد لغات حين تفرض نفسها على الأمم، ولكنها مواقع لأفكار هذه الأمم الأجنبية، واللغة العربية ليست لغة أمة فحسب، ولكنها لغة أمة وفكر، ومن هناك ينكشف خطأ الذين يظنون أنه فى الإمكان إخضاعها للتطور على النحو الذى يبعدها عن مصدرها الأصيل وهو القرآن الكريم.

وليأس التغريب من تجربة اللغة اللاتينية فى أوروبا التى اختفت وأحلت محلها اللهجات المختلفة، فقد يئس من أن هذه التجربة يمكن أن تتكرر أو تحدث فى أفق اللغة العربية والقرآن والإسلام.

كذلك فقد أطلق التغريب دعواه الباطلة والزائفة فى مجال حرب اللغة العربية بالادعاء بأنها لغة صعبة، ولأنها لا تستعمل فى التكلم إلا قليلا، ولذلك يجب استعمال العامية للكتابة، والواقع أن مشكلة اللغة العربية تبدأ من المناهج اللغوية التى وضعها المستشرقون لتحقيق هدفهم الأساسى، وهو استبعاد الطالب من استيعاب اللغة العربية، وبعبارة أخرى فقد قسمت اللغة العربية إلى أربعة أقسام متصلة (القراءة - القواعد - التطبيق - الإنشاء) والهدف هو فصل كل قسم عن الآخر، وإذا كانت المشكلة فى المنهج فما الحل؟

يقول الدكتور محمود ذهنى «لابد من تغيير هذا المنهج تماما، ولابد أن تكون الدراسة موحدة متكاملة بالنسبة لجميع جوانب اللغة، ومرتبطة أيضا بعيون الأدب العربى»، وبالنظر إلى تدريس اللغة الإنجليزية فى مصر نرى أنها تقوم على أساس ملخصات للأعمال الأوروبية الكبرى، التى تمثل روائع الأدب الإنجليزى، ولكن بطريقة تتناسب وقدرات الطالب اللغوية والعقلية.

وهكذا نرى أن المؤامرة التى أقامها التغريب لم تتوقف عند حد التنظير، ولكنها دخلت إلى التطبيق، وفرضت على بلادنا ومدارسنا.

وكذلك هناك محاولة فرض العامية عن طريق الأفلام السينمائية، ومحاولة فرض عامية الصحافة.

الإسلام واللغة العربية والعلم*

إنى أزعم أنه يوجد ترابط عضوى وثيق بين عناصر هذا الثالوث الذى جعلته عنوانا لحديثى: الإسلام، واللغة العربية، والعلم. والعطف هنا مقصود أن يكون مع الترتيب، فسوف أحاول أن أقيم الدليل على أن العلم الحديث فى الحضارة الغربية المعاصرة، يستمد أصوله من الإسلام واللغة العربية معا، وأنه صنيعتهما.

ولعل الجديد، أو الغريب، هو وضعى اللغة العربية فى هذا المضمار، أى فى تأصيل العلم الغربى الحديث، ولكن هذا هو ما سوف أحاول أن أجلوه بعد قليل. وهو طبعا، غير الحديث عما سجله التاريخ من كفاءة اللغة العربية كفاءة تامة للوفاء بمتطلبات العلم والحضارة، واكتفى الآن بشاهدين، غاية ما يرتجى منهما الحياد، ولا ينتظر منهما الانحياز للغة العربية، فهما إذن شاهدا عدل. أولهما الدكتور G.A. Russell (1981)، الأستاذ بمعهد ولكوم لتاريخ الطب فى لندن، فى معجم حديث لتاريخ العلوم باللغة الإنجليزية. فبعد أن استعرض الأستاذ المعالم الجوهرية للعلم الإسلامى، قال ما ترجمته: «... وكانت العربية هى أداة هذا النشاط العلمى كله. فلما كانت اللغة العربية لغة القرآن، أصبح لها أهمية خاصة فى الإسلام، بيد أن طبيعة اللغة العربية نفسها هى التى قامت بالدور الحاسم، فمرونتها الرائعة قد مكنت المترجمين من دمغ مفردات محكمة دقيقة للمصطلحات العلمية والتكنولوجية أو ابتكارها، وهكذا اتخذت لغة الشعر اللغة العالمية للعلم والحضارة» (p. 215).

أما الشهادة الثانية فجاءتنى منذ بضعة أسابيع، حين حمل إلى البريد آخر عدد من دورية «Metascince»، وفيه يعرض Stephen Gaukroger، الأستاذ بكلية الفلسفة بجامعة سيدنى، موسوعة عن العلم العربى صدرت فى لندن عام ١٩٩٦م، ويصدر الأستاذ عرضه بما ترجمته: «كانت اللغة العربية لغة العلم من القرن التاسع حتى نهاية القرن الحادى عشر، بمعنى أنها كانت اللغة العالمية لعلماء المسلمين من سمرقند إلى غرناطة، أيا كانت لغاتهم الأصلية: وبمعنى أن الحضارة العربية كانت مستودع العلم الكلاسيكى والمبتكرات العلمية المعاصرة فى ذلك الزمان». ولى تحفظ على مدى الزمن الذى أشار إليه الأستاذ، فكثير من مؤرخى العلم يبدءونه من القرن الثامن، ويمدونه حتى نهاية القرن الخامس عشر، الذى ظهر فيه ابن خلدون.

---

* د. عبد الحافظ حلمى محمد، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة الثالثة والستون، ٢٢ من مارس ١٩٩٧م.

وأعود لموضوعى الذى أعتقد أن العلاقة الوثيقة بين أركانه الثلاثة، تُرد إلى أربعة عناصر:

١) نظرة الإسلام للعلم، وتقديره العلم والعلماء.

٢) سماحة الإسلام، ونظرته إلى القيمة الإنسانية العامة، ومساواته بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأعراقهم.

٣) دور اللغة العربية، لغة للقرآن الكريم، وللدولة الآخذة فى الاتساع، دون تعسف أو إجبار.

٤) نظرة الإسلام المتكاملة إلى الحياة.

وسأعرض لهذه العناصر الأربعة المتداخلة، بشىء يسير من التفصيل الذى يسمح به الوقت المتاح.

أما عن العنصر الأول، فاحتفال القرآن الكريم بالعلم والعلماء معروف مشهور: ويكفى للدلالة عليه التكريم العظيم للعلماء فى قوله تعالى: «**شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط**»(آل عمران: ١٨).فقد شُرف العلماء بالاعتداد بشهادتهم مع شهادة الله، عز وجل، وملائكته الأبرار، والمؤمنون كلهم يشهدون أنه لا إله إلا الله، ولكن هذا التشريف للعلماء يدلنا على أن شهادتهم لها وزن خاص لأنها تقوم على أساس مختلف، وهو إدراكهم معنى العدل والقسط فى أفعال الله. فكل شىء عنده - سبحانه وتعالى - لحكمة، وبمقدار، وهم أقدر الناس على فهم ذلك. «**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**» (الزمر: ٩).

ويتجاوب هذا المعنى فى نفسى مع ذكر خشية العلماء لله فى موضع آخر: «**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك؛ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ؛ إن الله عزيز غفور**» (فاطر ٢٧، ٢٨).

فخشية الله الحقة قد وقرت فى نفوس العلماء بعد تنبههم إلى هذا التنوع الرائع فى مخلوقات الله. والتنوّع مع الوحدة إعجاز فى الخلق ما بعده إعجاز، وفى هذا إشارة إلى أن معرفة أولئك العلماء بأصول هذا التنوع وبعض أسراره المذهلة فى صميم جينات الأحياء وتاريخ تكوين الصخور، والتى مازال العلماء يكشفون منها كل يوم جديدا، هى التى تبعث فى نفوسهم الخشية اللائقة بجلال بديع السماوات والأرض وعظيم قدرته، والعلم الذى يشير إليه

القرآن الكريم، هو كل العلم على إطلاقه واتساعه، والعلماء هم كل العلماء، وليسوا علماء الدين وحدهم كما زعم بعض المتزمتين.

وشيء يسير من استقراء لفظ العلم فى القرآن الكريم يزيد لنا الأمر بيانا وتأكيدا. فعندما يخاطب الحق، جل شأنه، رسوله صلوات الله عليه قائلا: «... **قل إن هدى الله هو الهدى. ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولىٍّ ولا نصير**» (البقرة:١٢٠).

وفى سورة طه: «**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدنى علما**» (طه: ١١٤)، يكون العلم هنا هو ولا شك العلم الإلهى اللدنى بمعناه الشامل. أما فى موضع آخر من سورة البقرة: «**وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم**» (البقرة: ٣١– ٣٢)، فكتب التفسير تقول – من بين ما تقول– إن الله علم آدم «أسماء الأجناس وعرفه منافعها».. وهذه هى علوم الدنيا اللازمة لخليفة الله فى أرضه.

وكذلك عندما يلفت الخالق المبدع أنظارنا إلى بعض أوجه حكمته فى خلق القمر: «**وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**» (يونس: ٥)، فالعلم هنا بمعنى ما يحصله الإنسان فى حياته، أى بمعنى كل ما يدركه عن طريق حواسه وفكره. وإننا لو تتبعنا الفعل «علم» فى القرآن الكريم لوجدناه منسوبا إلى الله تعالى وإلى الناس فرادى وجماعات وبالتعميم والتخصيص وفى أزمنة مختلفة، وإلى الجنة وإلى النفس... الخ. وليس هذا على سبيل الحصر، وإنما للدلالة على اتساع معنى اللفظ، فى اللغة وفى الاستعمال القرآنى حتى يشمل العلم المنسوب إلى كل هؤلاء الفاعلين المختلفين والمتفاوتين فى نوع علمهم ومقداره وقدره.

والقرآن الكريم حافل بذكر آيات الله فى خلقه، متخذا من التفكر فيها مدخلا رحيبا إلى الإيمان بالله، عن طريق استشعار وحدانيته سبحانه، وإدراك قدرته وبديع صنعه.

ويتخذ القرآن الكريم أساليب بلاغية متنوعة فى الدعوة إلى النظر فى هذه الآيات، فهى تأتى تارة أمرا صريحا: «**قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض...**» (يونس:١٠١) وتارة فى أسلوب حض جميل: «**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت**» (الغاشية: ١٧ –٢٠) ، فى حين تأتى فى مواضع أخرى بصيغة تقرير قاطع: «**أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض**

وما خلق الله من شيء..» (الأعراف: ١٨٥) بل إن الأمر بالنظر يقترن فى مواضع أخرى بضرورة السعى والحركة وديناميةالبحث: **«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...»** (العنكبوت:٢٠)، وجاءت السنة النبوية الشريفة مؤازرة ومفسرة لهذه التوجيهات القرآنية الربانية، ومرشدة إلى كيفية اتباعها، فيبشرنا الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، بأن مجلسنا هذا للحديث عن العلم، مجلس مبارك إن شاء الله، تحفه الملائكة، وتنزل عليه السكينة، وتغشاه الرحمة، ويذكره الله فى الملأ الأعلى، بل إنه، صلى الله عليه وسلم، يزيدنا سعادة بقوله: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض، حتى الحيتان فى الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب... ومثل هذا فى السنة الشريفة كثير.

وتعلم المسلمون هذا الدرس وفقهوه، فيقول الإمام الشافعى، رضى الله عنه: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة». ويقول أبو الدرداء: «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام الليل». ويقول الحسن البصرى: «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء». وليس بالمستغرب بعد هذا أن يكون ثانى كتاب فى صحيح البخارى، بعد كتاب «الإيمان مباشرة، هو «كتاب العلم» أما أبو حامد الغزالى فجعل «كتاب العلم» أول الكتب الأربعين التى قسم إليها «إحياء علوم الدين». ونشط المؤلفون إلى تصنيف كتب كثيرة فى العلم وآدابه، لعل من أوفاها «جامع بيان العلم وفضله»، لابن عبد البر القرطبى فى القرن الخامس الهجرى، ولا مراء فى أن معظم هؤلاء المؤلفين ينصرف لفظ «العلم» عندهم إلى علم الحديث بالذات فى المحل الأول، ولكننى أسارع بالتنويه بأمرين: أولهما ما قدمته من عموم لفظ «العلم» فى اللغة والاستعمال القرآنى، وثانيهما أن منهاجية توثيق العلم – أى علم – قد أسسها وأقامها على أحكم وجه علماء رواية الحديث الشريف.

وأول ما يفتح الباب أمام العلم الصحيح هو إزالة حجب الأوهام والخرافات. كُسفت الشمس يوم مات إبراهيم، الابن الحبيب للنبى عليه الصلاة والسلام، فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم، وهنا ينبرى النبى، المعلم الهادى، فيقول للناس: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته». فيتأكد للمسلمين أن الشمس والقمر يجريان على سنن أقامهما الله عليها، وفى ضوء هذا الإرشاد وأمثاله من القرآن الكريم والسنة المشرفة، والتفتح العقلى على علوم الأسبقين، برع المسلمون فى دراسة الفلك واكتشاف نواميسه.

ولكن هناك خط فاصل بين علم الفلك وخرافات التنجيم، يحدده الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيقول: «من أتى عرافا فسأله عن شئ فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوما».

ثم ينبغى أن يكون هناك منهاج علمى، وأول أسسه تلمس البرهان الصحيح والدليل المقنع. وفى هذا يعلمنا القرآن الكريم: «**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**» (النمل: ٦٤)، ويحذرنا معلمنا الهادى، صلى الله عليه وسلم، فى ضوء الأحكام القرآنية القاطعة: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وتتآزر آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحاح فى حث المسلمين على تحكيم العقل والتحذير من اتباع الهوى والانقياد الأعمى لأقوال السابقين. ومن منهاج العلم أيضا، الدقة والأمانة، وهما، فيما أرى، شعبتان من القاعدة العامة التى يسميها الإسلام «التقوى»، أى مراقبة الله فى كل ما نفعل أو نقول.

وفى هذا يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «تناصحوا فى العلم، فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة».

من الأمانة أن يقول الإنسان: «لا أعلم» إذا سئل عما لا يعرفه. سئل الرسول، صلى الله عليه وسلم، أمام الملأ من الناس عن الساعة (أى يوم القيامة) فقال بقطع ووضوح: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل». وهكذا نجد ابن عبد البر يقول إن حد العلم – أى تعريفه – هو «ما تيقنته وتبينته»، وعلى هذا فمن لم يستيقن الشىء وقال به تقليدا فلم يعلمه». وكل هذا نجده فى المناهج العلمية الرائعة التى كتبها النظام وابن الهيثم والبيرونى والرازى وابن سينا، وغيرهم من أعلام علماء المسلمين. وقد كانت قضية المنهج عند علماء المسلمين موضع عناية خاصة من الباحثين المحدثين (انظر، مثلا، فرانتز روزنتال، ١٩٨٠).

ثم كان على المسلمين أن يفقهوا فى تبين ووضوح الحد الفاصل بين ما هو من الدين والوحى، وما هو من علوم الدنيا التى يجب عليهم أن يكتسبوها بالدراسة والملاحظة والتجربة العملية. وكان أسلوب النبى، صلوات الله وسلامه عليه، فى تعليم صحابته، رضوان الله عليهم، هو الأسلوب العملى والأسوة الحسنة. ففى مناسبة تأبير النخل فى المدينة المنورة، أرسى النبى صلى الله عليه وسلم، القاعدة العظيمة التى أراد أن يسير عليها المسلمون فى جميع عهودهم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». وقال لهم: «إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى، فإنما أنا بشر». ما أعظمك يا رسول الله، ففى هذا توجيه للناس إلى ضرورة اعتمادهم على تجاربهم الشخصية والاستنباط الصحيح من نتائجها.

ومن أبلغ ما قاله الرسول، صلى الله عليه وسلم، لحث الناس على التفكير وإطلاق عقولهم من كل قيد، أنه أخبرهم أن للمجتهد أجرا إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب. فلماذا إذن يحجم المسلمون عن التفكير ومحاولة الإبداع، وهم مأجورون على كل حال، ماداموا يجتهدون بعد أن تتوافر لهم شروط الاجتهاد وأدواته؟ ليت أقواما من مسلمى هذا الزمان يفقهون هذا القول.

عند الاستعداد لمعركة بدر الكبرى، اختار النبى منزلا، أى موقعا، قريبا من الماء كى يرابط عنده المسلمون استعدادا للقاء المشركين، وهنا تقدم إليه الحباب بن المنذر الأنصارى، يسأل: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلك الله إياه ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فأشار الحباب بمنزل استراتيجى آخر أفضل وأحصن من سابقه، فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال له: «لقد أشرت بالرأى». والدروس هنا كثيرة وعظيمة: الاجتهاد المفتوح فى أمور الدنيا، حتى فى حضرة النبى نفسه وعلى خلاف رأيه، وهناك الشورى، وهناك سعة صدر القائد. وتواضعه وسعيه إلى الحقيقة والمصلحة العليا، وهناك أيضا الشجاعة الأدبية عند الجندى، ووضوح فلسفته بين التزام الطاعة وحرية الرأى، ودقته فى أن يستبين الحد الفاصل بين ما هو من أمر الوحى الإلهى، وما هو من واجبات الاجتهاد البشرى. ومرة أخرى، ليت قومى يفقهون.

وهكذا نطمئن إلى انتفاء أية وصاية على طلب العلم والاجتهاد بالرأى، وإلى أن المسلمين أمروا أمرا بطلب العلم والتوصل إليه بمداخله الطبيعية بالملاحظة والتجربة والتفكير السليم.

وأما عن العنصر الثانى، وهو سماحة الإسلام، فأدلته معروفة مشهورة أيضا. **«لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى..»** (البقرة: ٢٥٦)، ويحترم المسلمون الأديان السماوية السابقة ولا يفرقون بين أحد من رسل الله، وهذا جزء أساسى من إيمانهم وعقيدتهم، ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم فهو دين الناس جميعا، يُدعون إلى الدخول فيه اختيارا واقتناعا، بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أن النبى، عليه الصلاة والسلام، هو خاتم النبيين والمرسلين، الذى أرسل إلى جميع الناس: **«وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا»** (سبأ: ٢٨)

وأعلن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. ولذلك كان من صحابته الأجلاء سلمان الفارسى، وصهيب الرومى، وبلال الحبشى. وكان يستشيرهم ويأخذ برأيهم. فمن ذلك ما حدث فى غزوة الأحزاب، حين أشار سلمان الفارسى، رضى الله

عنه، على الرسول، صلى الله عليه وسلم، بحفر خندق يعترض طريق الجيش الزاحف إلى المدينة، وهى فكرة غير عربية أربكت جيش المشركين، ثم إن الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، علم المسلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، وأن العلم يؤخذ (فى غير أمور الدين) ولو من عند المشركين. فأمر النبى سعد بن أبى وقاص بالتداوى عند الحارث ابن كلدة، غير المسلم الذى تعلم الطب فى فارس، واستعان النبى صلى الله عليه وسلم، بدليل خريت – أى حاذق –، غير مسلم، وهو عبد الله بن أريقط، فى رحلة هجرته الخطيرة إلى يثرب.

وهذان العنصران معا، أى تقدير الإسلام للعلم وسماحته، جعلا من العقلية الإسلامية عقلية متفتحة متعطشة للعلم، تسعى لكل علم نافع، ولو فى الصين، وتتقبله دون عائق من جنس أو لون أو دين. وهكذا لما انتشر الإسلام، واختلط العرب بغيرهم من الأمم، هبوا ليقوموا بأكبر عملية نقل وحفظ للتراث العلمى للإنسانية جمعاء فى التاريخ، فقد ترجمت العلوم من الإغريقية والسريانية، وبدرجة أقل من السنسكريتية والبهلوية، إلى اللغة العربية، كما هو معروف.

والجو المرحب بالعلم والحانى على العلماء فى دولة الإسلام الفتية حفظ تراث الإنسانية العلمى من الاندثار، وجعل جداول العلم التى كادت تنضب ينابيعها فى مصر القديمة وبابل وبلاد اليونان والإسكندرية وفارس وجنديسابور والهند والصين، جعلها تصب فى بحر صاف جديد، ومضت حركة النقل العظيمة قدما، واستمرت نحو ١٥٠ عاما، انتقلت بعدها كنوز الحضارات السابقة وعلومها إلى اللغة العربية، وأصبحت ميسورة للمتعلمين والباحثين فى كل علم، يتناولونه بالفهم والتمحيص والتحليل الدقيق والنقد الثاقب، فى أمانة بالغة وأدب جم، ثم يبتكرون علومهم ويضيفون آراءهم ونتائج بحوثهم، ويصوغون العلم صياغة لها أهداف وقيم جديدة، فيخرج علم جديد قوى عمليا عالميا. وهذا هو الشىء العظيم الذى قد لا ينتبه إليه الدارسون، وهو تحويل العلوم – لأول مرة فى التاريخ – إلى مسألة عالمية وإلى تراث إنسانى يثور على القوميات والتعصبات الضيقة.

وهكذا انصهرت الحضارات السابقة فى بوتقة الحضارة الإسلامية المتفتحة السمحة الفتية. ولعل هذا هو أعظم أفضال الإسلام على العلم، الذى تلقفته أوروبا – على تردد وصد – علما موحدا ناضجا، هُضم ومثل وأعيد صوغه فى صورة جديدة. فكان هذا من أقوى دعائم ازدهار العلم منذ عصور النهضة الأوربية فيما بعد، والذى نعيشه الآن، ونسميه العلم الغربى. وهكذا يتضح لنا أن عالمية العلم هى ثمرة وانعكاس لعالمية الإسلام، التى حدثنا عنها أستاذى الدكتور شوقى ضيف العام الماضى، من هذا المنبر، ثم نشر عنها كتابا قيما منذ بضعة أشهر.

وأما العنصر الثالث، وهو العربية لغة للعلم، فيتصل بهذه النقطة التى انتهينا إليها ويكملها. فقد أصبح لهذا العلم الذى جاء من أقطار الأرض لغة واحدة، هى لغة القرآن الكريم التى يعتز بها كل مسلم، بل إنها قد أصبحت - طواعية واختيارا - لغة الحياة فى معظم أرجاء العالم الإسلامى، فحلت تماما محل القبطية المصرية، والآرامية، واليونانية، واللاتينية، وأصبح معظم العالم المتحضر وقتذاك يتحدث اللغة العربية، وألف أبو بكر الرازى، المولود فى فارس، كتبه العظيمة فى الكيمياء والطب باللغة العربية، وكذلك فعل البيرونى، الذى عشق العربية وقال إنه لأحب إليه أن يهجى بها من أن يمدح بالفارسية! وغيرهما كثير. وسرعان ما أصبحت العربية لغة العلم العالمى عدة قرون، كما قدمت، حتى إن إتقانها كان شرطا للتعلم والاشتغال بالعلم خارج نطاق الدولة الإسلامية. وقد كتب روجر بيكون، فى القرن الثالث عشر الميلادى، يقول: إنى لأعجب لمن يريد أن يتضلع فى الفلسفة والعلم وهو لا يعرف العربية!

وتوحيد لغة العلم والحضارة والحياة، كان له أثر آخر بعيد المدى، فإنه قد أزال الحواجز بين لغة العلماء ولغة الشعب، فجعل مفاهيم العلم ونتائجه ومبتكراته متاحة لجماهير الشعب، للثقافة والتطبيق. (وهذا هو أحد أسباب دعوتنا لتعريب لغة العلم فى بلادنا الآن). وهكذا لم يصبح العلم عالميا فحسب، وإنما أصبح جماهيريا شعبيا أيضا. وهذه نقلة حضارية بعيدة المدى، ولم يسبق لها مثيل.

فلنتأمل، ولنوازن بين هذا الموقف وقيام العلم فى أوربا فى عصر النهضة، فقد كان تداوله والاشتغال به هناك - إلى عهد غير بعيد - مقصورا على الذين يتقنون اللاتينية الميتة البعيدة عن الحياة والناس.

وأبلغ مثال عندى على شعبية الثقافة العلمية فى دولة الإسلام، هو قيام جماعة «إخوان الصفا» فى البصرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (أو العاشر الميلادى). فإننا إذا نحينا الجوانب السياسية والمذهبية، اتضح لنا أن هذه الجماعة هى جمعية علمية تعليمية تثقيفية فى المحل الأول.

ويقول مؤرخ العلم الحجة هولميار E. J. Holmyard فى افتتاحية عدد إبريل من الدورية اللندنية العالمية Endeavor إنها واحدة من أقدم الجمعيات العلمية التى تحققنا من وجودها، وإن اهتمامات أعضائها لتتفق كثيرا واهتمامات الذين أقاموا الجمعية الملكية فى

لندن بعد قرون. وقد ألف الإخوان رسائلهم الاثنتين والخمسين فى مختلف أبواب الفلسفة والعلم، لتذيع بين طلاب الثقافة العلمية فى عصرهم.

وتوحيد لغة الحياة ولغة العلم له أثر آخر بعيد المدى، وهو تيسير التعلم والتعليم، والرسول صلى الله عليه وسلم، جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأعلى منزلة التعليم. خرج ذات يوم فرأى مجلسين، أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه، والثانى يعلمون الناس، فقال: «أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما»، ثم عدل - أى اتجه - إليهم وجلس معهم.

وقد رسم الرسول، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، تفاصيل آداب التعليم والتعلم، من توقير وإجلال للمعلم، وعطف على المتعلم، وتشجيع للمصيب، ورفق بالمخطئ، وتكرار للشرح، وضرب للأمثال، واستعمال وسائل الإيضاح، وأسلوب الحوار؛ وفى هذا كله حديث يطول (انظر، مثلا، يوسف القرضاوى، ١٩٨٥م). واكتفى بقوله، عليه الصلاة والسلام: «علموا، ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا..»، وقوله: «العالم والمتعلم شريكان فى الأجر، ولا خير فى الناس بعد». وقد أوصى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالترحيب بالمتعلم والبشاشة له، وإكرامه. ولذلك كان العلماء من التابعين يرحبون بمن يقصدهم للعلم قائلين: مرحبا بوصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم!

ثم نأتى، أيها الجمع الكريم، إلى العنصر الرابع، وهو نظرة الإسلام المتكاملة للحياة، وما نسميه الآن: «العلم والقيم» و« سوشيولوجية العلم». فالعلم الغربى عندما بدأ فى أوربا فى عصر نهضتها على أكتاف العلم الإسلامى، تجرد من كثير من مُثله الإسلامية الأصلية وقيمة الرفيعة. فقد بُهر الناس بالكشوف العلمية، بعد طول جهل فى عصورهم المظلمة، وافتتنوا بها غاية الافتتان، وتصور بعضهم أن العلم وحده هو الحقيقة وأن الدين حديث خرافة، وقالوا إن العلم يقيس ويحسب ويضع القوانين الصادقة ويعالج موضوعات تدركها حواسنا وفيها أسباب معاشنا ورفاهتنا، فمالنا حاجة بعد بما وراء ذلك. واتخذ العلم عموما موقفا صلفا متعاليا مغرورا، متجردا من أى قيمة دينية أو أخلاقية أو إنسانية، أو يكاد. بل إن القوم قالوا إن العلم الجيد الحق هو الذى يبرأ من هذه الأمور جميعا. وقوى من هذا الموقف أن رجال الدين فى أوروبا ناصبوا العلم منذ ظلام العصور الوسطى عداء سافرا، واضطهدوا العلماء اضطهادا مرا. وكان لذلك أسبابه السياسية والتاريخية.

وهذه المشكلة لم تكن قائمة أبدا فى العلم الإسلامى؛ ويرجع الفضل فى هذا بوضوح إلى

صميم مبادئ الإسلام الأساسية، كما قدمنا. فالإسلام دستور متكامل للحياة كلها، بجميع مناشطها، ومشبع للنفس فى كل نزعاتها، والعلم والإسلام متعانقان، ويكفى للتدليل على هذا تأملنا فى قوله تعالى، من سورة آل عمران: «**إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك، فقنا عذاب النار**» (آل عمران: ١٩٠-١٩١)، فهنا الإيمان، متمثلا فى ذكر الله فى جميع أحوال الذاكر، محصور بين الالتفات إلى آيات الله الكبرى فى خلق الكون ونظامه، والتفكير فى روائع ذلك وأسراره - وهذا هو العلم كله - ثم ينتهى الأمر بالمؤمن الباحث المتفكر إلى الإيمان بالحساب واليوم الآخر وإلى دعاء الله؛ والدعاء مخ العبادة. ولهذا كان معظم علماء المسلمين الأوائل فقهاء متمكنين أيضا من علوم الدين.

وفى العقدين الأخيرين من هذا القرن اتجه فلاسفة العلم فى الغرب اتجاها قويا نحو أمرين: أولهما «العلم والقيم» Science and Value و «سوشيولوجية العلم» Sociology of Science، وأصبحت تؤلف فيهما مجلدات وتُعقد ندوات ومؤتمرات دولية، وتنشأ لهما جمعيات علمية جديدة ودوريات متخصصة. وكان من أبرز الذين رفعوا صوتهم، فى عقد الثمانينيات، بالنذير والتحذير من آثار العلم الغربى المدمر نيكولاس ماكسويل الذى تتلخص دعوته فى عنوان كتابه المثير: «زمن المعرفة إلى الحكمة - ثورة فى أهداف العلم وطرائقه» (Maxwell 1988)، ومن هنا أخذ فلاسفة العلم المحدثون يطامنون من استعلاء العلم ويكفكفون من استعلاء العلماء) عبد الحافظ حلمى، ١٩٧٩، وأصبحوا ينادون باجتماعية العلم، وأن العلم نشاط إنسانى يرتبط بقيم المجتمع، فيتأثر بها كما يؤثر فيها. (OHea 1989).

وهذه المصالحة التى يحاول الغرب أن يصل إليها، بعد طول فرقة وعداء، كانت عنصرا أساسيا فى العلم الإسلامى منذ فجر بزوغه، كما قدمنا، فقد أقام الإسلام العلم وثيق الوشائج بالمجتمع الإسلامى وقيمه: فالعلم يُطلب ويُعطى فى ضوء ما قدمنا من قيم رفيعة وضوابط رشيدة، ثم إنه يجب أن يكون موجها إلى الخير. فمن ذلك ما تعلمه المسلمون من نبيهم، صلى الله عليه وسلم، من أن يستعيذوا بالله من علم لا ينفع، والمنفعة هنا كلمة شاملة لكل ما يحقق أسباب الخير المادية والمعنوية للبشرية جمعاء، بل لبيئة الأرض التى استخلف الإنسان لعمارتها ورعايتها.

لا يستطيع أحد إنكار دور الإغريق فى تقدم العلوم، ولكن من الخطأ الفادح أو الجهل الفاضح

اعتباره الدور الوحيد – كما يفعل بعض مؤلفى الغرب وأتباعهم من أنصاف العلماء، وقد تميز العلم الإسلامى على العلم الإغريقى الفلسفى النظرى فى أساسه، باهتمامه بالنواحى التطبيقية، ومن ثم كانت مع النهضة العلمية نهضة ثقافية أو تكنولوجية واسعة: فى أجهزة الرصد الدقيقة والساعات، وأجهزة البحث الكيميائى، وأدوات الجراحة، ومعدات الزراعة والرى ورفع الماء، ومختلف أنواع الصناعات، والأساطيل وعدة الدفاع، وفنون البناء والنسيج، بل والتزيين ووسائل الترف والرفاهية.

انظر، على الأخص .(Al-Hassan and Hill, 1989) ولا ينتهى إعجابى بابن عبد البر الذى كان، فى القرن الخامس الهجرى، يُعد السباحة و«الفروسية والزى (أى صناعة «الموضات» «والتزويق» أو «الديكور») علوما! وينتقد الجزرى (فى القرن الثانى عشر الميلادى) أولئك الذين لا يتحققون من الجدوى العلمية للأجهزة التى يصممونها، ويقول إن كل «علم صناعة» لم يُختبر عمليا مشكوك فيه (المصدر السابق وتأمل تعبيره: «علم صناعة»).

وعن القيم فى العلم، احكى لحضراتكم الواقعة الآتية: دعيت سنة ١٩٨١م، للاشتراك فى حلقة بحث مغلقة عقدت فى ستوكهولم، تحت عنوان «المعرفة والقيم فى العلم والتكنولوجيا، فى الإسلام والغرب». وقد دعى إلى تلك الحلقة، التى نظمتها مؤسسة «الإسلام والغرب» مع «الاتحاد الدولى لمعاهد الدراسات المتقدمة»، نحو من عشرين عالما من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وإنجلترا وفرنسا والسويد وإيطاليا من جانب، ومن مصر وباكستان والسعودية والأردن من جانب آخر، وكان علماء الغرب يسألوننا: هل عندكم فى الإسلام ما ينقذ الحضارة الغربية التى كاد يدمرها العلم. وفى إحدى الجلسات ذكرت للمجتمعين معنى الحديث الشريف: «هلاك أمتى عابد جاهل وعالم فاجر»، وعلقت قائلا: كلا الجانبين فى عصرنا الحاضر ناقص، فلو أننا ضممنا ما عندنا من إيمان وهدى الأنبياء والرسل والقيم الدينية السامية إلى ما عندكم من علم وقوة لا نصلح حال الدنيا ونجت من الهلاك. وقال منظم الحلقة السويدى: لو أننا سمعنا بهذا الحديث النبوى من أول الأمر لجعلناه شعارا لحلقتنا هذه!

ويدعو ضياء الدين سردار فى كتابه المنشور عام ١٩٨٩م عن «استكشاف العلم الإسلامى» إلى الاهتمام بقضية القيم فى العلم.

ويقول: إنه جاب العالم الإسلامى، من شواطئ السنغال والمغرب إلى المحيط الهادى وجزر إندونيسيا، بتكليف من المجلة العلمية العالمية الذائعة Nature، فوجد المسلمين المشتغلين بالعلوم الحديثة شديدى الاهتمام بعلاقة أعمالهم بمعتقداتهم الدينية وقيمهم الأخلاقية، وأن

بعضهم شديدو القلق أيضا من ارتباط دراساتهم وأعمالهم بقيم المجتمع العلمى الغربى الذى لا ينتمون إليه) (Sardar, 1989)، وأرى كما قدمت، أن تراثنا العلمى قائم على دعائم من القيم والمثل الإسلامية القويمة التى ينبغى علينا تعرفها وتحديدها ونشرها بين علماء المسلمين المعاصرين، حتى يتبعوها قدر استطاعتهم لترتاح نفوسهم وضمائرهم (و «سردار» كان أحد المسلمين الذين دعوا إلى حلقة استوكهولم التى أشرت إليها).

هأنذا قد انتهيت من رسم الخطوط العريضة للعناصر الأربعة التى أحكمت الرباط بين ثالوث الإسلام واللغة العربية والعلم، وأقامت دعائم العلم الإسلامى، أما ثمرته وعطاؤه فكانا شيئا عجيبا حقا، أذهل كل المنصفين من الباحثين الذين عُنوا بدراسة التراث الإسلامى العلمى دراسة موضوعية دقيقة.

فقد قفزت الحضارة الإنسانية قفزة هائلة لا أستطيع الآن حتى مجرد الإشارة إلى بعض ملامحها.

ويقرر بعض الباحثين أن عدد مخطوطات التراث العلمى الإسلامى المسجلة فى مكتبات العالم، والتى بقيت بعد الفقد أو البلى وعدوان المغول وغيرهما، بنحو ربع مليون مخطوطة. وأما المخطوطات غير المسجلة فلا يعلم عددها إلا الله، وكل هذا الذى نقوله عن العلم الإسلامى لا يعدو جزءا من الحقيقة الكاملة، التى مازالت فى حاجة ماسة إلى جهود عالمية مكثفة تستغرق الأعوام الطوال، هذا على الرغم من الدراسات الكثيرة التى قام بها المستشرقون والعلماء العرب فى القرنين الماضيين على الأخص، والحق يقال: يرجع معظم الفضل فى توجيه الأنظار إلى التراث العلمى العربى وجلاء بعض نواحيه إلى جهود المستشرقين الذين قاموا بترجمة عيونه، فى تبتل وعشق، إلى لغات الغرب وتناولوها بكثير من الدراسة والتحليل.

أما عن تأثير حضارة الإسلام فى حضارة الغرب المعاصرة، فالشواهد عليه، والشهادات له كثيرة، ولكن لعلى أكتفى بما قاله «وكنز»، الأستاذ فى جامعة تورونتو فى كتاب له بعنوان «مقدمة فى الحضارة الإسلامية»، فهو خلاصة بليغة معبرة، حيث يقول ما ترجمته: «على وجه العموم، استعار الغرب من الشرق الأوسط عمليا كل النسيج الأساسى للحضارة» (Wickens 1976).

ولكن هذا كله أساسه جوهر العلم الذى قدمته الحضارة الإسلامية إلى الغرب، إذ قدمته علما عالميا، عمليا تطبيقيا، جماهيريا، يتضمن فى صميم بنيانه أسس منهاجه المتحرر من كل وصاية وقيد إلا من معايير قيمه الأخلاقية الرفيعة.

وأعود فأذكر بالدور الذى قامت به اللغة العربية فى هذا الإنجاز العظيم، ولكننى أقول إنها إنما قامت بهذا الدور بفضل تفتح عقلية قادة المسلمين وعلمائهم، الذين سادوا زمانهم، وفقهوا دينهم، وملكوا ناصية لغتهم، فتصرفوا تصرف السادة الأحرار، لم تملكهم اللغة التى عشقوها وأجلوها، ولو أن ذلك قد حدث لجمدوا وجمدوها، ولكنهم أحسنوا توظيفها فى الحضارة الجديدة المتفتحة أمامهم، فطوعوها وأغنوها، وجعلوها - كما رأينا - عنصرا أساسيا فى قيام هذه الحضارة، بل فى صياغة علم عالمى مازالت الإنسانية تجنى ثماره المتجددة، وهذا هو الدرس الذى يجب علينا أن نعيه ونترسمه فى هذا الزمان.

اللهم أنر بصائرنا، وسدد خطانا، وهيئ لنا من أمرنا رشدا،

وأنت - سبحانك - ولى التوفيق،

قضية التعريب فى ضوء سنن التفاعل الحضارى ★

قضية

التعريب هو إحدى القضايا المتصلة بتفاعل الحضارات، وقد ظهرت بوضوح فى حياتنا العربية منذ أكثر من قرن، حين قوى احتكاك الحضارة الغربية بحضارتنا العربية الإسلامية، فى أعقاب تمكن الغزو الاستعمارى الأوربى من احتلال عدد من أقطار وطننا العربى الكبير.

لا تزال هذه القضية مطروحة بقوة فى حياتنا العربية، تشغل أذهان أهل الفكر وأهل الحكم على السواء، وتختلف بشأنها الآراء والمواقف والسياسات، ويحتدم حولها الجدل فتثور مشاعر وتحدث انفعالات، ويتصل الحوار.

يتداعى إلى خاطرى كلما تابعت هذا الحوار فى المحافل العلمية، حول هذه القضية موضوع تفاعل الحضارات، وأجدنى استحضر ما قرره المختصون بعلم الحضارة من سنن هذا التفاعل، فأستشعر الحاجة إلى مقاربة قضية التعريب فى ضوء سنن التفاعل الحضارى: بغية تحقيق فهم عميق لما يحدث فى إطارها، يجعل المعنيين أقدر على التعامل معها ومعالجتها.

سأحاول فى هذا الحديث القيام بهذه المقاربة، بتحديد القضية أولا بإيجاز، ثم استحضار بعض سنن التفاعل الحضارى المتصلة بها ثانيا، ثم النظر فى ضوء ذلك فى نشوئها وتطورها، والوقوف أمام أمور فيها، ثالثا مستجيبا للدعوة الكريمة التى وجهها مجمع اللغة العربية لبحث هذه القضية وقد جعلها الموضوع الرئيسى لمؤتمره لعام ١٩٩٧م.

حين نحاول تحديد قضية التعريب بإيجاز، نعود إلى معنى التعريب فى اللسان العربى، ثم نتوقف أمام المعنى الاصطلاحى الذى نما واتسع، مع بروز قضية التعريب وتطورها، وقد رغبت إلى أحد شيوخ خبراء المصطلح العربى، زميلنا المجمعى الأستاذ أحمد شفيق الخطيب أن يتفضل ويعلمنى برأيه فى تحديد مفهوم مصطلح التعريب، فكتب «التعريب: عرّب، يعرّب، تعريبا.

– عرب النص: جعله عربيا، إما بالنقل من لغة غير العربية إلى العربية، أو بجعله عربيا. مقبولا من حيث المتطلبات اللغوية (القواعدية) والاجتماعية.

★ د. أحمد صدقى الدجانى، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة الثالثة والستون، ٢٤ من مارس ١٩٩٧م.

– وعرّب اللفظة: ترجمها إلى العربية من لغة أخرى، أو صاغها من أصلها الأجنبى بصيغة تتلاءم والسليقة العربية.

– عرّب التعليم: جعله باللغة العربية، والمقصود به التحول عن تعليم المواد التى تدرس حاليا باللغات الأجنبية (عدا اللغة الأجنبية ذاتها) إلى تدريسها باللغة العربية –وعرّب الإنسان: ربّاه التربية العربية وعرّفه تقاليدها وقيمها ومفاهيمها، بحيث تستحوذ العربية على فكره وقلبه، وحصنه ضد «التغريب» الفكرى والثقافى والاجتماعى– وعرّب العلم: وطنه ورسّخ جذوره فى البيئة العربية باستخدام كافة الوسائل التى تنقل العلم إلى مختلف القطاعات، لا الجامعية والأكاديمية فقط بل الصناعية والتجارية والزراعية والحياتية عامة، بحيث تغدو اللغة العلمية العربية جزءا من حياتنا اليومية فى المدرسة والبيت والمصنع، وتغدو الثقافة العلمية العربية جزءا من ثقافة الصانع والطالب والمعلم والصحافى والأديب كصاحب الاختصاص الفنى.

إذا كان لفظ التعريب فى اللسان العربى يدل على الكلام المهذب ومعانٍ أخرى كثيرة، وإذا كان مصطلح التعريب فى القديم كان يعنى جعل صيغة اللفظة الأجنبية ذات جرس عربى، كما يقول الدكتور جميل عيسى الملائكة فى بحثه «التعريب واختلاق المعوقات»، فإن المعنى الاصطلاحى الحديث الذى ذكره الأستاذ أحمد شفيق الخطيب يبين أن قضية التعريب متصلة بتفاعل الحضارات، ولها طبيعتها الحضارية، وهى تتضمن فى داخلها العلاقة بين الذات والآخر، فتعريب النص واللفظة والتعليم، يتعلق باللسان الذى هو أحد أركان هوية الإنسان، ومعه ركن العقيدة وركن التراث تاريخا وثقافة. وتعريب الإنسان والعلم، يتعلق بالبناء الحضارى والعمران من خلال الاستجابة لتحدى حضارة الآخر وعمرانه فى نطاق التفاعل الحضارى معه.

نستحضر ما توصل إليه المختصون بعلم الحضارة فيما يتعلق بظاهرة تفاعل الحضارات وسنن التفاعل الحضارى، فيتداعى إلى الخاطر حديث أسلافنا عن العمران فى الاجتماع الإنسانى، وما قام به ابن خلدون من بلورة «علم العمران البشرى والاجتماع الإنسانى» فى مقدمته الشهيرة لكتابه «العبر .....»، وسبقه فى استخدام مصطلح «الحضارة» كما يتداعى إلى الخاطر استخدام مصطلح «الحضارة» فى الغرب الأوربى منذ القرن الثامن عشر الميلادى مع مصطلح «الثقافة»، والعناية بظاهرة نشوء الحضارات وازدهارها وانحطاطها وأفولها، فى نطاق دراسة علم التاريخ، وظهور عدد من المختصين بدراسة هذه الظاهرة فى دائرة

الحضارة الغربية فى القرن العشرين، من أبرزهم أوزوالد شبنجلر صاحب الكتاب الشهير «انحطاط الغرب» وأرنولد توينبى صاحب الكتاب الشهير «دراسة فى التاريخ» والبرت شفايتزر الذى ألف «فلسفة الحضارة» وبيترم سوروكين الذى ألف «المجتمع والثقافة والشخصية». ويتداعى إلى الخاطر أيضا اهتمام الفكر العربى بدراسة ظاهرة الحضارة، وإسهامات عدد من المفكرين العرب، من بينهم ساطع الحصرى فى تآليفه عن الثقافة والاجتماع وابن خلدون، ومالك بن نبى فى تآليفه فى سلسلة «مشكلة الحضارة»، وزكى نجيب محمود، فى عدد من كتبه، وقسطنطين زريق، فى كتابه الجامع «فى معركة الحضارة»، وجيل تال من المفكرين العرب تابع الاشتغال بعلم الحضارة.

حدد علماء الحضارة مفهوم مصطلح الحضارة ودلالاته التى بلغت سبعا فى معجم وبستر الموسوعى غير المختصر. وأبرز هذه الدلالات ما جاء فى المعجم الوسيط من أنها «مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى ومظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر».

كما نظر هؤلاء العلماء فى شروط الحضارة وتعددها فى إطار وحدة الاجتماع الإنسانى، وفى مظاهرها المادية والمعنوية والشخوص، وفى قوامها من «النظم» «والقيم» «والمفاهيم»، وفى التغيرات التى تطرأ عليها، وعوامل التغير الحضارى، وفى مقاييس التحضر التى فيها إبداع خلقى، وآخر جمالى، وحرية فكرية، وعدل ونظم وأشخاص قدوة. تعبيرا عن الإبداع والتحرر والكرامة. وبحث علماء الحضارة أيضا فى تفاعل الحضارات وسبل هذا التفاعل ووسائله وسننه.

الحضارات تتواصل وتتفاعل وتتبادل وتتلاقى، فيؤدى ذلك كله إلى مظاهر ونتائج، ومن سبل التفاعل الحضارى ووسائله الغزوات والفتوح والحروب فى زمن الحرب وانتقال الأشخاص فى زمن السلم، ومن خلال هذه السبل تنتقل منجزات الحضارة المادية والأفكار والمعتقدات. وقد عرف التاريخ الإنسانى فى القرون الخمسة الأخيرة الاستعمار الحديث سبيلا لاحتكاك الحضارة الغربية التى اعتمدته بالحضارات الأخرى، فكان أن حدث «تسلط» حضارى يعتمد القوة الغاشمة والقهر، جعل «التفاعل الحضارى» فى ظله مفتقدا جو الرضا. الذى يزدهر فيه التواصل والتبادل والتلاقى، وسبب بروز ردود أفعال عليه.

إن من ظواهر التفاعل الحضارى أن التأثير يسرى عادة من الحضارة الأرقى إلى الحضارة

الأخرى، وأن الحضارتين تتبادلان التأثير مهما كان الفارق كبيرا بينهما، وأن بعض عناصر الحضارة المتصلة بمنجزاتها المادية والتقنية هى أسرع انتقالا للأفكار والمعتقدات. ويضيف قسطنطين زريق ظاهرة رابعة مؤداها أن نفاذ العناصر والمقومات من حضارة إلى أخرى لا يعتمد على قدرة الأولى فحسب بل على تهيؤ الأخرى لقبولها واقتباسها. وظاهرة خامسة هى أن التواصل الحضارى يؤتى خير ثماره، حين يجرى فى جو من السلم والرضا والحرية والتفاهم. ولعل أهم ما ينجم عن التفاعل الحضارى فى إطار هذه الظواهر مجتمعة، هو التفاعل بين الحضارة وتراثها فى تواصل زمانى، يقترن بتفاعلها مع الحضارة الأخرى فى تواصل مكانى.

هذه واحدة من سنن التفاعل الحضارى تستحق الوقوف أمامها لإحسان التعامل معها. هناك سنن أخرى تتعلق بملابسات هذا التفاعل والمواقف التى تبرز فى الحضارة المتأثرة.

موقف أول يقفه البعض فى الحضارة المتأثرة من الحضارة الأخرى، هو موقف الرفض المطلق المقترن بالتشبث بالتراث، وقد أسمى توينبى متخذيه «المتعصبين». وشاعت فى دائرتنا العربية تسمية «الانكماشيين» التى استخدمها وليد قمحاوى فى كتابه «النكبة و البناء».

وموقف ثانٍ هو موقف القبول المطلق المقترن بالعداء الشديد للتراث. وقد أسمى توينبى متخذيه «الهيروديين»، نسبة إلى الملك هيرود الذى عاش فى زمن عيسى عليه السلام وتشبه بالرومان الذين احتلوا منطقتنا آنذاك. وشاعت تسمية «الانغماسيين» للدلالة عليهم. هؤلاء من وصفهم مالك بن نبى «بأن لديهم القابلية لأن يستعمروا». وقد أشار زريق إلى أن بين هذين الموقفين مواقف مختلفة تتباين فى مدى الرفض والقبول، وهى الغالبة عند تواصل الحضارات وتفاعلها. والحق أننا نستطيع أن نتحدث عن موقف ثالث عنى كاتب هذا البحث بدراسته فى بحوثه، وأسماه موقف «الاستجابة الفاعلة». وقد توصل من خلال هذه الدراسة إلى أمرين بشأنه.

الأمر الأول: إنه يتميز عن الموقفين السابقين «بأنهما فعلان ينتميان إلى رد الفعل». فالاستجابة الفاعلة هى مواجهة تحدى الحضارة الأخرى ببناء موقف حضارى قائم على إدراك كنه الحضارة وجوهرها، أساسه إعمال الفكر وإنعام النظر. وواضح أن موقفى الانكماش والانغماس، وكل منهما رد فعل، يفتقران إلى عنصر الفكر الذى هو ما يميز الاستجابة الفاعلة.

الأمر الآخر: الدائرة الحضارية تشهد انتقال شخوصها البارزة وأعلامها خلال مسيرة حياتهم، بين المواقف الثلاثة فى غالب الأحيان. فيمرون بموقف انكماشى، وآخر انغماسى ليستقروا على موقف الاستجابة الفاعلة.

هل لنا بعد هذا الاستحضار لسنن التفاعل الحضارى أن نرى قضية التعريب فى ضوئها؟

يستطيع دارس التاريخ أن يلاحظ بسهولة حين يستذكر التاريخ العربى، أن أمتنا العربية خبرت الاحتكاك الحضارى منذ فجر الحضارة، وذلك بحكم موقع وطنها العربى من القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا، الذى جعل بعض طرق التجارة بين الأقطار والدول تمر من الجزيرة العربية والهلال الخصيب ووادى النيل وواحات إفريقيا وساحلها فى الشمال منها.

تتداعى إلى الخاطر هذه الحقيقة، حقيقة خبرة العرب بالاحتكاك الحضارى، حين نقارب قضية التعريب التى تعيش الأمة العربية فى ضوء سنن التفاعل الحضارى. وقد استقرت هذه الخبرة فى فكر الأمة وضميرها عبر تاريخ طويل حافل بتواصل الحضارات. وتبرز أمامنا فى هذا التاريخ ثلاث مرات من هذا التواصل حدثت قبلا.

المرة الأولى فى تاريخ منطقتنا العربية القديم إبان ازدهار حضارات الرافدين والنيل والهلال الخصيب، سومرية وبابلية وآشورية ومصرية وكنعانية، وتواصلها مع حضارات آسيا وإفريقيا ثم أوربا حين ازدهرت حضارة الإغريق.

والمرة الثانية: إبان الحلم بالحضارة العربية الإسلامية قبيل بعثة محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – وفى أعقابها حين بلغت هذه الحضارة أوجها، حيث تفاعل العرب مع حضارات فارس والهند والروم والصين وإفريقيا.

والمرة الثالثة: حين تفاعلت مع هذه الحضارة العربية الإسلامية حضارة أخرى ناشئة فى أوربا منذ حرب الفرنجة التى بدأت فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى.

أقبلت أمتنا فى المرات الثلاث على التواصل الحضارى الذى تم فى جو السلم والرضا فى أغلب الأحيان. وأتقنت فن التفاعل بما فيه من تبادل تأثير وعطاء وأخذ. وكثيرة هى الأمثلة التى تستوقفنا فى المرة الأولى، وقد حفظتها الملاحم والمتون والكتابة على الطين وعلى أوراق البردى، بالحرف المسمارى والرسم الهيروغليفى والأبجدية الكنعانية، ولا يتسع المجال هنا لأكثر من هذه الإشارة إليها. وما أكثر الأمثلة على التفاعل فى المرة الثانية التى

شهدت بلورة أجدادنا العرب صيغة «إيلاف» قريش فى العلاقات التجارية الدولية المذكورة فى القرآن الكريم مقترنة بالإشارة إلى رحلتى الشتاء والصيف؛ وشهدت ازدهار مراكز الترجمة فى بغداد ونصيبين والرها ودمشق، وحواضر الإسلام الآخرى، من لغات حضارات ذلك العصر من هندية وفارسية ويونانية إلى اللسان العربى: كما شهدت انتشار محافل الحوار والعناية بالترحال وكتابة أدب الرحلات وكتب المسالك والممالك والتأليف فى مختلف العلوم.

فى المرة الثالثة أقبلت شعوب أوربا على النهل من معين الحضارة العربية الإسلامية المزدهرة بعد أن تعرفوا عليها فى أثناء حروب الفرنجة، التى استقطبت جماعات منهم، فى الأندلس وصقلية. وكانت أمتنا تعطى بسخاء العلوم المزدهرة فى منائر العلم فيها. وإذا كانت دراسة سبل انتقال المعرفة من دائرتنا الحضارية إلى دائرة الغرب الحضارية قد رسمت صورة واضحة عن بعض فترات هذه المرحلة من التفاعل الحضارى، فإنه لا يزال أمامها مساحات واسعة لم يتم ارتيادها بعد، وبخاصة وأن دراسات حديثة ظهرت فى أوربا تبين أن المرحلة امتدت حتى النصف الثانى من القرن التاسع. ومن أمثلة هذه الدراسات ما كتبه فان كونينكسفلد الهولندى عن «دور الأسرى المسلمين فى أوربا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة»، وقد قدم هذا البحث للمؤتمر العام السابع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر، صيف عام ١٩٩٥م، وتابع فيه ما حققه الباحث البلجيكى فيرلندن. ويقوم سالفاتورى بون الإيطالى ببحوث تعنى بالتفاعل الحضارى بين حضارتنا العربية الإسلامية والحضارة الأوربية على صعيد حوض البحر الأبيض المتوسط من خلال مؤسسته SIHMED. وبقدر ما يسجل لهؤلاء العلماء المستشرقين وأمثالهم فضل الأمانة العلمية فى رسم صورة كاملة لهذا التفاعل، بقدر ما يلاحظ المشتغل بعلم تاريخ الأفكار مع أرسكين تشايلدر كيف عمد كثير من مؤرخى الأفكار الغربيين إلى ما أسماه «فقدان الذاكرة» فى تعاملهم مع هذا التفاعل. ويمكننا أن نرى بوضوح فى المرات الثلاث تجلى سنن التفاعل الحضارى التى استحضرناها.

اختلفت طبيعة احتكاك أمتنا بالحضارة الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، حين بدأت تواجه الغزو الاستعمارى الأوربى بدءا من غزوة بونابرت الفرنسية الاستعمارية لمصر وفلسطين عام ١٧٩٨م، وقد تتالت موجات هذا الغزو، ونجحت الأولى منها فى فرض الاحتلال الفرنسى على الجزائر عام ١٨٣٠م، والاحتلال البريطانى على عدن عام ١٨٣٩م، ثم على ساحل الخليج، ثم نجحت الموجة الثانية فى فرض الاحتلال الفرنسى على تونس عام ١٨٨١م، والاحتلال البريطانى على مصر عام ١٨٨٢م، فالسودان عام ١٨٩٦م، والاحتلال

الإيطالى على ليبيا عام ١٩١١م، والاحتلال الفرنسى على المغرب الأقصى عام ١٩١٢م، ثم جاءت الموجة الثالثة فى أثناء الحرب العالمية الأولى - كما يسميها الأوربيون - بالاحتلال الفرنسى البريطانى للعراق والشام وتجزئة هذه الديار أواخر عام ١٩١٧م.

أصبح الاحتكاك الحضارى بالغرب هذه المرة مطبوعا بطابع الاستعمار الحديث، بما فيه من «تسلط» حضارى يعتمد على القوة الغاشمة والقهر. فكان أن برزت قضية التعريب، ولا تزال مستمرة حتى اليوم، يكتنفها ما يسببه التسلط من مناخ غير صحى للتفاعل الحضارى.

حين نستحضر مسار هذه القضية على مدى قرنين من السنين، ونتأمل هذا المسار فى ضوء سنن تفاعل الحضارات محللين، نخرج بمجموعة أفكار نجملها فى نقاط:

أولا: الخط البيانى لمسار قضية التعريب هو محصلة قوة التسلط الحضارى الغربى وقوة المواقف الثلاثة منه، الانكماشى والانغماسى، والاستجابة الفاعلة. ويلاحظ على هذا الخط أنه كان يشهد صعودا ونزولا فى تذبذب، ولكنه فى اتجاه الصعود معبرا عن تفوق قوة الاستجابة الفاعلة وعن انبعاث حضارى، ويمكننا أن نميز فى مسار القضية، مرحلة استمرت منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى بداية الموجة الأولى الاستعمارية، شهدت صورا من الاستجابة الفاعلة بعد أن نجح صمود الأمة فى صد الغزوة الفرنسية وإلحاق الهزيمة بها، كما نميز مرحلة أخرى تلتها، استمرت حتى مطلع العشرينيات من القرن العشرين بعد الحرب الأولى. وهذه اشتد فيها التسلط الاستعمارى الحضارى مستهدفا إخضاع الأمة باستلاب هويتها وتكريس تبعيتها. ونميز مرحلة ثالثة استمرت منذ مطلع العشرينيات حتى السبعينيات من هذا القرن. وقد شهدت صراعا حادا بين موقفى الانكماش والانغماس فى أوساطنا من جهة وبين التسلط الحضارى الاستعمارى وتيار الاستجابة الفاعلة النامى من جهة أخرى. ونميز مرحلة رابعة منذ السبعينيات واجهت فيها أمتنا وأمم أخرى فى عالمنا سعى قوى الهيمنة الدولية فرض «عولمة كوكبية» مستخدمة أساليب متطورة من التسلط الحضارى وموظفة «ثورة الاتصال» بوسائلها الإعلامية الفعالة. وهى تشهد احتدام المعركة بين التسلط الحضارى الغربى وتيار الاستجابة الفاعلة. ويمكننا أن نستحضر أمثلة كثيرة على الصراع الدائر فى قضية التعريب فى كل من هذه الحضارة.

ثانيا: وضع التسلط الحضارى الغربى نصب عينه استهداف اللسان العربى أولا، بغية هز الهوية العربية، بإضعاف أحد أركانها، ومن ثم الركنين الآخرين: العقيدة والتراث.

فألصق بهذا اللسان نقائص كثيرة واتهمه بالعجز عن استيعاب مصطلحات العلوم، بل واتهم حرف كتابته وقواعده ونحوه، كما استهدف المستعمر الغربى بتسلطه التربية والتعليم بغية فرض منهج يعتمد التلقين دون التفكير الإبداعى، ليكون متلقيه تبعا له إمعة، يسلم له بالقيادة بدعوى أن الغرب هو الحضارة والغربى هو المتحضر المتقدم، دون إعمال مقياس التقدم المعتمد حضاريا فى قياس أفعال هذا الغربى، واستهدف المستعمر الغربى بتسلطه أيضا القرار السياسى فى قمة هرم المجتمعات العربية، من خلال دعم «التغريب الانغماسى» وتمكين أسراه من التحكم فى المجموع.

لقد كان لتيار الانكماش رد فعله على هذا التسلط فى المجالات الثلاثة، ولا يزال كما كان لتيار الانغماس الذى ذهب بعيدا تغريبه إلى حد تبنى الفرنكفونية والإنجلوفونية على صعيد اللسان، وإلى حد المناداة جهرا بأن نصبح غربيين «نأكل ما يأكلون ونشرب ما يشربون ونلبس ما يلبسون ونتعلم ما يتعلمون» كى نتقدم ونلحق بالركب على صعيد التربية والتعليم وإلى حد الدعوة للرضا بالتبعية لهم على صعيد الحكم كى نتجنب غضبتهم ويكفوا عن أن يعتبرونا أعداءهم، ومن ثم يقبلونا فى معسكرهم. وقد تميز رد الفعل الانكماشى بعنفه وقصر نفسه وعزلته.

كان لتيار الاستجابة الفاعلة استجابته الفاعلة لتحدى هذا التسلط، التى تميزت باعتمادها الفكر وطول النفس، وببروز قادة تيارها أعلاما للأمة يلتحمون بأبنائها، ويستلهمون إرادتها، ويحسنون التعبير عنها، وقد اكتسب هذا التيار خبرة متزايدة فى التعامل مع قوى الهيمنة الدولية، كما حرص على العلم المؤسسى، فقامت فى أوساط الأمة مؤسسات رسمية وأهلية تعبر عن الاستجابة الفاعلة فى مختلف الميادين.

ثالثا: تستنفر «عولمة الكوكبية» طاقات خاصة الأمة العربية ليستجيبوا لتحدياتها، وتقدح زناد الفكر فى تيار الاستجابة الفاعلة للإجابة عن سؤال «ما الذى ينبغى عمله؟» ويوضح هذا الفكر بين يدى الإجابة أن معالجة قضية التعريب تبدأ من النفس. ذلك «لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» كما ردد الإمام محمد عبده قبل قرن، وأكد مالك بن نبى وهو يطرح شروط النهضة مستذكرا، كما يوضح أن جهود النهضة فى الأمة حققت انبعاثا صاعدا فى محصلته متطلعا أن يبلغ غايته بتحقيق المشروع الحضارى الغربى.

البدء من النفس يقتضى العناية بالحوار بين التيارات الثلاثة فى الأمة، ويتحمل تيار

الاستجابة الفاعلة بحكم طبيعة الفعل فيه وخبرته بتيارى الانكماش والانغماس مسئولية المبادرة إلى هذا الحوار والصبر عليه، وتوظيف طاقات قيادات التيارين حين يتجهون إلى الالتحاق به، وفق إحدى سنن التفاعل الحضارى، وتتداعى إلى الخاطر أمثلة عن العطاء السخى الذى قدمه أعلام غرب على صعيد الفكر حين انتقلوا من «الانغماس» إلى الاستجابة الفاعلة. وقد حرص واحد منهم على أن يعلن تحوله بكتابة مقال «توبة قلم» أشار فيه إلى ما كان يردده فى مرحلة التغريب الانغماسى التى مكث فيها سنين، ثم شرع فى العطاء للفكر العربى.

هذا الحوار فى دائرة الذات الحضارية يضع نصب عينه بلورة سبل الحفاظ على الهوية، والحسم فى مسألة اعتماد لسان الأمة للتعليم، مع ضرب الأمثلة العملية على ما يتصف به هذا اللسان، من قدرة على تلبية جميع متطلبات النهوض الفكرى والعلمى والتقنى، فضلا عن حفاظه على نموذجه سليما بفضل القرآن الكريم، ومما يساعد على الانتصار فى مسألة اعتماد اللسان العربى ما نشهده من صحوة تتعلق بالعقيدة، وما أثمره تفاعل الأمة مع تراثها وفقا لسنة حضارية من إغناء للحياة الفكرية فيها.

يضع هذا الحوار نصب عينه أيضا اعتماد حرية الفكر والإبداع والخروج من أسر التقليد، وتوفير المناخ اللازم للإبداع من حرية تعبير وسيادة وديمقراطية شورية، وتوخ للعدل الاجتماعى، وسعى للتجدد الحضارى، وحفاظ على حقوق الإنسان الذى كرمه ربه، وسيؤدى النجاح فى تحقيق تقدم على هذه الصُعد إلى دعم القرار السياسى النابع من «الذات» المعبر عنها، وتحريره من ضغوط قوى الهيمنة الدائبة على محاولة التحكم فيه.

إن معالجة قضية التعريب تتضمن أيضا، بعد الوفاء بمتطلبات تغيير النفس، المبادرة للتفاعل مع الأخر بثقة بالقدرة على هذا التفاعل الحضارى على أساس من الندية، وبرغبة فى الانفتاح على هذا الاخر، وتبادل العطاء الحضارى، له والأخذ الحضارى منه، انطلاقا من معرفة جوانب قوته وضعفه، ومن الإدراك بأن عصر عولمة الكوكبة يفتح آفاقا رحبة للتفاعل على مختلف الصُعد، ومن وعى المرحلة التى تعيشها اليوم حضارة الغرب بخاصة، ويضع هذا التفاعل مع الآخر نصب العين تعاون حضارات عالمنا على أساس من الندية، وفى جو من السلم والرضا لبناء عمران حضارى إنسانى، يحمى أمن الأرض من خطر طغيان قوى الهيمنة عليها، وإفساد بيئة الحياة

فيها، ويحمى بنى الإنسان من خطر هذا الطغيان عليهم، ويحمى الإنسان من معاناة الغربة فى داخله.

نعم، إن قضية التعريب لها جميع هذه الأبعاد، حين نقاربها فى ضوء سنن تفاعل الحضارات. ولا بديل لنا عن كسبها والانتصار فيها، ليستمر التعمير ويزدهر العمران، وإن للقدوة فيها والأسوة الحسنة دورا خاصا، يقوم به أعلام الأمة، شخوص حضارتها، وفقا لإحدى سنن التفاعل الحضارى.

مصرية المصرى لا تلغى عروبته★

جاء فى العدد ٥٥٢ بتاريخ ٨ من فبراير ٢٠٠٤م من أخبار الأدب، مقال بعنوان «المصريون ليسوا عربًا» ولما كان الكاتب قد وصف نفسه بأنه أنثروبولوجى مصرى، فقد حرصت أن أقرأ المقال قراءة متمعن، لأننى توقعت أن يفيد الكاتب من العلم الذى تخصص فيه، فيعطينا شيئًا جديدًا، قد يكون حاسمًا فى القضية، ولكن ما إن بدأت فى القراءة حتى عجبت، وعندما استمررت هالنى الفزع.

تبين لى أن قضية الهوية المصرية كانت مثارة فى الفترة، وأن المنطلق كان السؤال هل نحن عرب؟ وكنت أظن أن هذه القضية قد حسمت بعد ما كتبناه أنا والدكتورة نعمات فؤاد والدكتور زكى نجيب محمود وآخرون منذ سنوات.

ولما كان السؤال عن الهوية فقد استنتجت أنه عن المصريين المحدثين ولكن المقال معظمه عن المصريين القدماء. ومن ثم أبيح لنفسى الحديث عنهما.

وأبدأ بقول حاسم لا لجلجة فيه: نحن – أبناء هذا الوادى – مصريون، سواء تحدثنا عن العصور القديمة أو الوسيطة أو الحديثة، ثم انطلق فأتساءل: من أين أتى هؤلاء المصريون إلى وادى النيل، ليس فى تخصصى العلمى ما يمكننى من الجواب القاطع، وإنما ما لدى قراءات فى كتب متعددة يقول أحدها إنها هجرة من الحبشة، ويقول ثانيها إن هؤلاء المصريين كانوا يعيشون فيما نطلق عليه (الصحراء الكبرى) إذ كانت حينذاك غزيرة الأمطار، وافرة النباتات والحيوانات التى عاش فيها إنسان المنطقة، فلما انقطع المطر، وتحولت الأرض إلى صحراء، اضطر أهلها إلى الانتقال بحثًا عن الماء، فهبط فريق منهم ضفاف النيل، وفريق آخر ضفاف النيجر، وفرق ضفاف ما صادفت من أنهار فى رحلتها.

واستقر النازلون على ضفاف النيل، وبدءوا فى ابتداع واحدة من أروع الحضارات البشرية القديمة إن لم تكن أروعها قاطبة.

وإذن فأصل المصريين – إن صح هذا – حامى ولكن هل استمر هؤلاء المصريون فى عزلة تامة فى واديهم؟

★ د. حسين نصار، أخبار الأدب، ١٥ من فبراير ٢٠٠٤م.

إن التاريخ المصرى القديم يحدثنا عن غزو الهكسوس، واحتلالهم الجزء الأكبر من مصر مدة طويلة، ويحدثنا عن غزو النوبيين وتكوينهم إحدى الأسر المالكة، ويحدثنا عن الإفريقيين الذين جاءوا إلى مصر بعد الرحلة التى أرسلتها حتشبسوت إلى بونت، ويحدثنا عن المحاولات المتعددة التى قام بها الليبيون لغزو مصر.

ويحدثنا التاريخ عن غزو الفرس ثم الإغريق ثم الرومان مصر، وإقامة كثيرين منهم فيها وتحدثنا القصص الشعبية القديمة عن الرحلات التى قام بها المصريون فى البحر الأحمر، والجزر التى صادفوها، ونزلوا فيها.

ويحدثنا التاريخ الرسمى والقصصى الدينى عن الصلات الوثيقة التى كانت بين المصريين وأبناء الشام، بل يحدثنا عن اتخاذ بعض الفراعنة زوجات بنات الشام وبنات أسيا الصغرى.

إذن لا يمكن الادعاء بعزلة المصريين، فهل أفقد هذا الاختلاط المصريين مصريتهم؟ أظن أن الإجابة واضحة، وإنما الذى فقدوه نقاء دمائهم فقط، وأين الشعب نقى الدم فى العالم القديم؟!

وكان العرب ممن اتصل بهم المصريون فى العصور القديمة واختلطوا بهم.

أظن أن الكاتب يشك فى رحلات بنى إسرائيل التى ذكرتها الأديان فلن أعتمد عليها، وأعتمد على أقوال الرحالة الإغريق الذين صرحوا باستيطان العرب الصحراء المصرية الشرقية، واعتمد على ما قاله التاريخ عن قبيلتى لخم وجذام اللتين انتشرتا على الساحل من العريش إلى الإسكندرية وقاومتا الفتح الإسلامى فى أول الأمر وأعتمد على الكلمات والصيغ الأساسية المشتركة بين اللغتين المصرية والعربية.

ولكن هذا لا يعطينى الحق بأن أقول إن المصريين القدماء عرب، وإنما يعطينى الحق فى القول بأن العرب كانت لهم هجرات إلى مصر، ومن ثم اختلاط بالمصريين.

أما المصريون المحدثون فأنا أثق بقول رجل الشارع غير المتعلم، غير الملوث الذى يقول: «احنا أولاد العرب» وذلك على الرغم من الاختلاط الذى وقع بين المصريين والفرس والترك وغيرهم من الشعوب الإسلامية، ودليل ذلك الهجرات المستمرة من الجزيرة العربية إلى مصر، والانتماءات التى يعلنها المسلمون من المصريين إلى القبائل العربية حقاً وباطلا.

ولا يعنى ذلك إنكار مصريتنا، ولا غمط حضارة مصر القديمة، ولست أدرى ما الصلة بالقول بالعروبة وفتح الباب للإسرائيليين بأنهم أصحاب الحضارة المصرية القديمة وبناة الأهرام، كما ادعى مناحم بيجن ولو كان العرب هم الذين ادعوا ذلك، لكان الأمر أقرب إلى الفهم.

ولا أدرى الصلة بين الإيمان بالأديان وما ذكرته من وفود بنى إسرائيل إلى مصر وما ادعى بيجن، فالأهرامات جميعًا بدأ بناؤها منذ الأسرة الفرعونية الثالثة، واستمر إلى السادسة فيما أظن، أى أن ذلك قبل أن يعرف الوجود كائنات تدعى بالإسرائيليين، بل قبل أن يوجد النبى إبراهيم جد الإسرائيليين والعرب الشماليين.

ويخلط الكاتب بين أشياء متباينة للحط من العرب، فيخلط بين الحضارة المصرية وسياسة فرعون نحو بنى إسرائيل، وهما أمران مختلفان. وآية ذلك أننا ننتقد أعمالا كثيرة تصدر من قادة أقطار فى قمة الحضارة، مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ولا ننكر عليها تقدمها الحضارى.

ويخلط بين الحضارة المصرية والديانة المصرية فالقرآن.. وهو الذى أستطيع أن أتحدث عنه.. لم يتعرض للحضارة المصرية بالتحقير فى آية من آياته، بل يمكن استنباط مظاهر لعظمتها من مدلول بعض الآيات، وإنما عاب القرآن على المصريين وثنيتهم، وأعتقد أنها أمر لا يمكن أن يمارى فيه، وإن كانوا ارتفعوا فى أيام اخناتون إلى التوحيد.

ويرى الكاتب أن الإغريق وصلوا إلى حضارة معجزة، وتمثل بإقليدس وعلماء الرياضيات وذلك حق لا جدال فيه، ولكن عندما أراد أن يقارن اختار رجلا من عامة العرب، وذلك هو الباطل، فقد كان لدى الإغريق عامة لا يرتفعون عن عامة العرب فى شىء، وكان الجدير به أن يذكر أوجد عند العرب علماء يمكن أن يقارنوا بعلماء الإغريق، أو لم يوجدوا فى كل المجالات العلمية؟

ويسخر من العرب الذين وصف القرآن المسلمين منهم بأنهم كانوا خير أمة، لأنهم كانوا ينتحلون الشعر، أولا لم يدرك قضية الانتحال على وجهها الصحيح، وثانيًا: جهل أن الإغريق الذين يعتز بهم مروا بمرحلة انتحال الشعر، بل إن كثيرًا من الباحثين الأوربيين يشكون فى وجود شاعرهم الشهير هومير.

ويمعن فى تحقير العرب الذين (لا يوجد لهم تراث معمارى ضخم فى موطنهم) ويعلن أن أهم فارق بين المصريين والعرب ما بين الاستقرار والارتحال، فيكشف عن جهل بالجزيرة العربية، التى تضم الصحراء التى تفرض الارتحال على أهلها، ولكنها فى الوقت نفسه تضم اليمن ذات المزارع والسدود المشهورة والأمطار الغزيرة، وتضم واحات تيماء وتبوك وخيبر وغيرها، من المناطق المستقرة كل الاستقرار.. ويكشف عن جهل بالحضارات المتنوعة التى شهدتها الجزيرة، وأنتجت أ ،وع العمار، وآية ذلك ما زالت باقية فى مدائن صالح، لا أقول إنها تقف إلى جانب ما فى مصر، ولكن أقول لها روعتها التى لا يمكن إنكارها.

وفى صدد إنكاره عروبة المصريين المحدثين يقول: «أما فى الأوساط الرسمية» فلم تضع اللغة نفسها فى التعليم إلا مع قرار وزير المعارف سعد باشا زغلول، وفى الحياة العامة إلا مع قرار وزير الشئون الاجتماعية عبد الحميد عبد الحق، وفى المحاكم وأمور التقاضى إلا مع المستشار عبد السلام ذهنى».

إذن ماذا كانت لغة التعليم الرسمية، والحياة العامة، والمحاكم قبل هؤلاء الرجال، وإن شئت الدقة قلت من الفتح العربى إلى الاحتلال البريطانى؟ وبأى لغة كان يعلم الأزهر والكتاتيب التلاميذ؟

ويقول عن الشعراء الذين عددهم من مظاهر العروبة، «أما منذ مجيء العرب وحتى الثورة العرابية، فهناك ندرة شديدة فى هذا المجال، منهم عمر بن الفارض، ابن سناء الملك، ابن قزمان، والبهاء زهير. ولم يتعد زمان آخرهما عام سقوط بغداد وأسماؤهم تدل على جذورهم العرقية من خارج مصر.. ولا يذكر أحد شاعراً طوال الـ ٧٠٠ عام التالية».

فيكشف هذا القول عن عدم معرفة، فأولا: ابن قزمان زجال الأندلس الأعظم، ولا شأن له بمصر على الإطلاق.

وثانيا: الحديث عن الجذور العرقية غريب كل الغرابة، وإلا اضطررنا إلى إخراج أحمد شوقى وأحمد تيمور وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد والإمام محمد عبده وكثيرين ممن نعتز بهم، إخراجهم من مصريتهم لأنهم لهم جذور عرقية غير مصرية.

وثالثا: لم يذكر الكاتب جماعة من كبار الشعراء المصريين مثل ابن وكيع التنيسى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن النبيه، وابن مطروح، وابن نباتة والبوصيرى صاحب البردة، وغيرهم، وأنصح له أن يطلع على كتب أستاذينا أ.د محمد كامل حسين، وشوقى ضيف، وصديقنا أ.د محمد زغلول سلام الذى أرخ ويؤرخ للأدب المصرى منذ الفتح العربى فى عدة كتب إلى جوار ما كتب الآخرون، وما أخرج علماء كرسى الأدب المصرى فى العهد الإسلامى فى كلية آداب جامعة القاهرة.

مصرية المصرى لا تقتضى إنكار عروبته، ولا عروبته تستلزم إنكار مصريته، ولا الانتماء إلى أحدهما يؤدى إلى تحقير العظيم من الحضارتين اللتين تستحقان كل الإعزاز من البشر وخاصة من كانت فى عروقه دماء فرعونية أو عربية.

مصر التى تفرنجت*

بعد جولة قصيرة فى لندن، رأيت فيها كيف يتشبث الشعب البريطانى بأى مظهر من مظاهر قوميته وسيادته، ويقيم الدنيا ويقعدها رافضا استبدال عملته الاسترلينية بالعملة الأوروبية الصاعدة، رغم كل وجاهة الأسباب الاقتصادية والمصرفية التى تدفع إلى اختيار اليورو الأوروبى، وبعد رحلة عابرة أعقبت تلك الجولة إلى باريس، التى تزهو بكل ما يحفل به تاريخها من عظمة وروعة، تطالعه فى كل ركن وفى كل شارع وفى كل ميدان، رأيت فيها كيف يحتفى الفرنسيون بفكرهم وتراثهم، وكيف يقدسون لغتهم بحسبانها عنوان ثقافتهم ورمز قوميتهم، والتعبير عن هويتهم، وكيف يواجهون الأجنبى بصلف واعتداد إن خاطبهم بغير لغتهم متظاهرين بعدم الفهم، بعد تلك الجولة، وتلك الرحلة نزلت عاصمة مصر، منارة العرب والعروبة، فصعقت، ودهشت، وحزنت أن أرى عاصمة العروبة تتحلل تدريجيا من ثيابها، ترتدى أزياء مبهرجة لم تنسج لها، وتتحدث بلغة غير لغتها، وتغنى بأنغام هجين لا تنبع ولا تتولد فى داخلها، وتستبدل أغنى تراث حضارى عرفته البشرية ببضع بهلوانيات شهوانية من شعوب لا تراث لها ولا تاريخ، وتستعيض عن فنها الرفيع ببضع حركات ملفقة لا تليق بسمتها ووقارها، فالمسرح غير الذى وقف على خشبته نجيب الريحانى وجورج أبيض ويوسف وهبى، والأدب غير الأدب الذى أنتجته قريحه أحمد شوقى والعقاد وطه حسين، والغناء غير الذى صدحت به أم كلثوم وعبد الوهاب والسنباطى، أصبح الغناء معلبا فى فيديو كليب لكل فتاة جميلة الوجه والقوام متعطلة الموهبة، بكل شاب صاحب خليط عجيب من الفتيات، بعضهن مضطجعات فى استرخاء مريب، والموسيقى أصوات إلكترونية تنبعث من آلات شيطانية تورث الصمم والعياذ بالله، وأسوأ من كل ذلك هذه النزعة المهينة التى خرجت عن كل ذوق، دع عنك كل شعور بالاعتزاز القومى، وهى تلك المتمثلة فى تسمية الأماكن والمتاجر بأسماء أفرنجية تكتب بحروف عربية فلا يفهمها الأجنبى، الذى لا يقرأ الحروف العربية، ولا المواطن الذى يجهل المعنى الأجنبى، والسائر فى شوارع القاهرة، وبعض المدن التى بدأت تقلدها، يجد لافتات تحمل اسم «انفنيتى» و«ديناميك» و«فيكس آند ماتش» أى قس على مقاسك، و«ايشارب» و«اكسسوار» و«النيل استوك» أى أسهم النيل وجارانتى أى الضمان، و«فلاش» و«فساتين سواريه» يعنى فساتين

---

* أ. أحمد إبراهيم الشوش: كاتب سودانى، جريدة الأهرام، القاهرة، ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠٣م.

سهرة و«هوت وير» يعنى ملابس مثيرة وغير ذلك من آلاف اللافتات التى يجلس خلفها أصحابها قانعين أنهم بذلك قد بلغوا قمة الحضارة والتمدن، ونفوا عن بضاعتهم أى شبهة محلية أو عربية.

حتى المحجبات صارت لهن لافتة تحمل عنوان «لامور للمحجبات» وتحولت سوق السمك إلى «فيش ماركت»، والبيت السعيد إلى «سويت هوم»، والمسرحية الكوميدية إلى «بودى جارد»، بدلا من الاسم المتخلف الحارس الشخصى.

وهذه الظاهرة فى تزايد مستمر، وأخشى بعد أعوام قليلة أن يتحول ميدان التحرير إلى «بوليفارد الشانزليزيه» ويصبح كل مقهى بما فى ذلك الفيشاوى إلى «كافيه» وكل بقالة إلى سوبر ماركت، وكل حلاق فى الأحياء الشعبية إلى كوافير، وكل خياط إلى «سوبر استايل» وتصبح صحيفة الأهرام «بيراميدز جورنال» وأخبار اليوم «الديلى نيوز القاهرية».

هذه ليست ظاهرة للتندر والسخرية، بل هى مسألة خطيرة تدخل فى عمق أعماق التربية الوطنية، التى تعزز الشعور القومى فى نفوس أبناء الشعب، وتبث الثقة بتراث الأمة ولغتها، ولمصر أعظم الحضارات وأسمى اللغات، وقدرها أن تكون رائدة لأبناء العروبة فى كل مكان، والأمر يحتاج إلى إصدار قانون صارم، يضع حدا لهذه الفوضى المهينة، وفى مقاطعة كويبك الفرنسية بكندا قانون للافتات، يحرم كتابة لافتات بغير اللغة الفرنسية.

أولئك أقوام يحفظون للغتهم كرامتها، ولثقافتهم عزتها ومنعتها.

انتبهوا أيها العرب ★

ثمة حديثا زاعقا يتردد الآن مفاده قصور اللغة العربية عن استيعاب علوم وتقنيات العصر، وهو أمر مشبوه بلا ريب، فمثل هذا الحديث ليس إلا البداية الحقيقية للفقدان النهائى للهوية العربية، وهو قول مغلوط تفنده وتدحضه تلك الإنجازات الرائعة التى تحققت – وباللغة العربية – فى شتى مناحى العلوم إبان العصر الذهبى للدولة العربية.

مكمن الخطر فى هذا القول يتمثل فى أن بعض الجامعات العربية قد انساقت وراء هذه المغالطة الفجة، فرأينا بعضا من هذه الجامعات يعلن عن الملأ، وفى الصحف السيارة، عن حاجتها إلى أساتذة مؤهلين للتدريس باللغة الإنجليزية فى جميع التخصصات، بما فى ذلك المقررات القومية كالتاريخ والجغرافيا والاجتماع، بل والفلسفة الإسلامية. (!!)

نزعم أنه ليس ترديدا لفكرة (المؤامرة) إذا ما تساءلنا: هل توجد ثمة علاقة بين مغالطة قصور اللغة العربية عن استيعاب علوم العصر – والتى يروجها البعض – وتلك الكتابات المتكررة لصقور حركة المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة الأمريكية، الذين يعلنون على الملأ، وبلا مواربة، أن المقصود بالتغيير الذى تتطلع إليه أمريكا فى الشرق الأوسط، ليس فقط تغيير أنظمة، وإنما هو بالدرجة الأولى تغيير مفاهيم، ومناهج تفكير، وتعليم وثقافة، وعمل وأنماط للعلاقات والأنشطة سياسية واقتصادية وثقافية وإعلامية وأمنية، ضمن مشروع إعادة رسم خريطة الأوضاع الإقليمية للمنطقة كلها، لمرحلة ما بعد احتلال العراق.

إن المطلوب من العرب إذن وفى ظل (الأزمة) التى تعيشها اللغة العربية أن ينصاعوا ويهجروا لغتهم، ويتبنوا اللغة الإنجليزية للتعلم بما فيها المناهج القومية الصرفة.

أليست هذه الدعوة تصب رأسا فى خطط أمركة الفكر العربى؟ انتبهوا أيها العرب ولا تقعوا فى الشرك المنصوب، فكفانا ما وقعنا فيه من شراك، فالأزمة ليست أبدا أزمة اللغة العربية ولكنها باليقين أزمتنا نحن، لأننا قصرنا وتراخينا.

★ د. محمد محمود يوسف: جريدة الأهرام، القاهرة، ١٧ من ديسمبر ٢٠٠٣

لغتنا وثقافتنا خارج حدودنا*

أقام المجمع الثقافى العربى فى لبنان ندوة عالمية فى مدينة بيروت فى الفترة من ٢٥-٢٦ من سبتمبر الماضى عن «اللغة العربية وثقافتها خارج الوطن العربى». وقام المجمع بدعوة مجموعة من كبار المتخصصين من غير العرب فى الثقافة العربية من أقطار العالم المختلفة، فضلا عن مجموعة متميزة من الأساتذة العرب، وبقدر ما كان اختيار موضوع الندوة موفقا، فى سياق التحديات التى تواجهها الأمة العربية، فإن البحوث التى نوقشت فى المؤتمر، والمداخلات التى دارت حول محاور الموضوع الرئيسى، كانت مفيدة ومثمرة، خصوصا فى مدى تسليطها الضوء على موضوع حيوى، يتصل بحضورنا الثقافى عبر الكوكب الأرضى الذى تحوّل إلى قرية كونية لا حواجز بينها.

وإدراكا من الأمين العام لجامعة الدول العربية ـ الأستاذ عمرو موسى - أهمية الموضوع، قرر الاستجابة إلى دعوة المجمع الثقافى العربى لحضور حفل افتتاح الندوة الدولية برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية، وإلقاء كلمة جامعة الدول العربية حول الموضوع، ولكن ضرورة سفر سيادته إلى اجتماعات الأمم المتحدة فى نيويورك اضطرته إلى تشريفى بإلقاء كلمة الجامعة العربية نيابة عنه، فقبلت المهمة سعيدا، وذلك بسبب انشغالى بمستقبل الثقافة العربية فى ظل العولمة المتوحشة التى تفرض علينا شروطها المناهضة للتنوع الثقافى الإنسانى، والمعادية للخصوصيات الحضارية فى إطار نزوعها القمعى لتوحيد العالم، وإخضاع الكوكب الأرضى لنمط واحد: اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، وذلك خطر يناوش مستقبل اللغة العربية نفسها، خصوصا مع طغيان اللغة الحاملة أفكار العولمة، والمجسدة حضورها المتعدد الأبعاد.

وذهبت إلى الندوة بعد أن أنجزت الكلمة المطلوبة، مقدرا الاهتمام الذى يبديه الأمين العام للجامعة العربية لتعميق دورها الثقافى، وتطويره فى مجالات عديدة، منها الحرص على مساندة اللقاءات الفكرية المهمة التى تدعو إليها الهيئات والتجمعات الثقافية، الحكومية وغير الحكومية، على امتداد الوطن العربى، حول المشكلات الثقافية التى لابد من مواجهتها قوميا، فذلك هو بعض الدور الثقافى للجامعة العربية فى تأكيد وحدة التنوع التى يثريها

---

* د. جابر عصفور، جريدة الأهرام، ١٣ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

المثقفون العرب على اختلاف أقطارهم وتوجهاتهم وأجيالهم، وهو - من ناحية موازية - تشجيع للدور الذى يقوم به المثقفون العرب ـ تحت مظلة جامعة الدول العربية - فى صياغة مستقبل ثقافى واعد، والتصدى للتحديات التى يفرضها علينا الإيقاع المتسارع لمتغيرات العالم العاصفة التى لاتزال تصدمنا بنتائجها الخطيرة.

وإذا كانت التحولات المتدافعة سمة أساسية لإيقاع عصرنا الذى تداعت فيه الحواجز المكانية والزمانية، نتيجة الثورة المذهلة فى تقنيات الاتصال التى جعلت من الكوكب الأرضى قرية كونية صغيرة، فإن هذه التحولات تفرض علينا إعادة النظر فى الكثير من أفكارنا التى درجنا عليها، والمشكلات التى لم نولها ما تستحق من الاهتمام والتأمل، خصوصا بعد أن تضافرت العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية مع آليات التحولات التقنية، على نحو غير مسبوق فى تاريخ البشرية كلها بوجه عام، وتاريخ وطننا العربى بوجه خاص. وهو وضع يحتم علينا معرفة الشروط الجديدة المفروضة على كوكبنا الأرضى، وطبيعة العلاقات والصراعات التى أصبحنا طرفا فيها، وحقيقة القوى التى علينا مواجهتها، مزودين بوعى جذرى مغاير، نابع من عمق إدراكنا متغيرات الكوكب الأرضى وشروط أوضاعه الجديدة التى لم تتكشف كاملة بعد.

ولا يظن ظان أن الاهتمام بموضوع «اللغة والثقافة العربية خارج الوطن العربى» هو اهتمام بموضوع لا يتناسب وتحديات الحاضر أو كوارثه، التى تداعت منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر الشهيرة، فى سياق الشروط الملازمة لأحداث خطيرة، لاتزال تحدث تغييرات غير مسبوقة فى أوضاعنا العربية. إن الأمر على النقيض من ذلك، فالاهتمام باللغة اهتمام بالوجود الذى تجسده وتتجسد فيه، وهو اهتمام بالفكر الذى يواجه شروط هذا الوجود كى يستجيب إليها استجابة التحدى أو التمرد. وأخيرا، هو اهتمام بالخطاب الذى يصوغه هذا الفكر، تعبيرا عن همومه ومطامحه، وتبريرا لمواقفه، وتحديدا لقضاياه، وما أكثر حديثنا - فى العقود الأخيرة - عن «الخطاب العربى» وحاجته إلى التغيير، وذلك على نحو متكرر فى مؤتمرات كثيرة، وكتابات عديدة، جعلت عنوانا لها «تجديد الخطاب الثقافى» أو «نقد الخطاب الدينى» أو حتى «نقض الخطاب السياسى».

ويكتسب موضوع «اللغة العربية» أهمية خاصة فى سياقات التحولات المعاصرة، خصوصا فى علاقة «اللغة العربية» بالتحديات المفروضة عليها، وعلى الناطقين بها من العلوم الحديثة التى تتزايد مخترعاتها يوما بعد يوم، منتجة وفرة هائلة من الاصطلاحات المنتسبة إلى لغة الأقطار المتقدمة، التى تسهم أكثر من غيرها فى تطوير العلوم، والإضافة الكمية

والكيفية التى تؤدى إلى تسريع عجلة المخترعات أكثر وأكثر، وهو تحد تبدو اللغة العربية كما لو كانت تستجيب إليه استجابة السلب، نتيجة عدم تطور علاقات إنتاج المعرفة وأدواتها فى الأقطار الناطقة بها، ولا تزال اللغة العربية أسيرة هذا الوضع الذى تأخذ فيه أكثر مما تعطى، وتنقل أكثر مما تضيف، وتتبع أكثر مما تبتدع، نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وثقافية لابد من مواجهتها، والتصدى لها بالتحليل والنقد. ويؤكد وجود هذه العوامل حقيقة أن أوضاع اللغة العربية لا يمكن مناقشتها إلا بمناقشة العوامل المؤثرة فيها والتى تبقيها رهينة الشروط التى تجعلها على ما هى عليه.

ولا يقتصر المشكل فى ذلك على متغيرات التقدم المتزايد للعلوم الحديثة ومخترعاتها فحسب، فهناك ظاهرة «العولمة» التى تتراكم نتائجها فى إيقاع متسارع على كل المستويات وفى كل المجالات، فتترك آثارها على اللغات الوطنية والقومية، خصوصا تلك التى تقع فى دوائر التأثير المباشر للعولمة، فتغزوها التراكيب والمفردات القادمة من اللغة السائدة التى تتجسد بها مقولات العولمة وثقافاتها التى تعادى ثقافة التنوع، وتسعى إلى فرض نموذج ثقافى مهيمن، خلال عملية تنميط تستبدل بالتنوع الوحدة المفروضة ثقافيا، والنتيجة هى اتساع مدى الغزو اللغوى من اللغة الصاعدة عولميا. إلى اللغات المحلية، التى لا تكف لغة العولمة عن اقتحامها، والاستيطان المتزايد لتراكيبها ومفرداتها، أقصد إلى الاستيطان الذى يقوى مع ضعف المقاومة الداخلية، وانطباق مقولة ابن خلدون عن ولع المغلوب بتقليد الغالب.

ويضيف هذا الوضع إلى رواسب ما ترتب على الأوضاع الاستعمارية التى تركت آثارها اللغوية فى العالم الثالث، سواء فى ظاهرة استبدال لغة المحتل باللغة الوطنية، أو ظاهرة الازدواج اللغوى التى تظهر عند ذوى اللسانين من الكتاب والكاتبات الذين يكتبون بالعربية والإنجليزية، أو العربية والفرنسية، أو العربية والإسبانية أو الألمانية.. إلى آخر اللغات التى اقترنت بالحضور الاستعمارى فى الوطن العربى. وما الكتابات التى تمتد من قوت القلوب الدمرداشية إلى أهداف سويف فى مصر، أو من جبران خليل جبران إلى أمين معلوف فى لبنان، سوى نماذج فى السياق الذى أنتج كتابات محمد ديب وآسيا جبار والطاهر بن جلون فى اللغة الفرنسية، وكتابات إدوار سعيد وعشرات من أشباهه فى اللغة الإنجليزية التى تتزايد الفضاءات التى تحتلها عاما بعد عام. ولا تزال ظاهرة الاستبداد اللغوى المقرونة بظاهرة الازدواج اللغوى حقيقة ملموسة، لم تنقض بانتهاء الاستعمار القديم، وإنما استمرت مقترنة بأوضاع جديدة، أحدثها - بالقطع - الصعود المعاصر للعولمة التى استبدلت بالاستعمار القديم أشكالا أكثر مراوغة وعصرية.

ولحسن الحظ لم تكن ظاهرة الاستبدال اللغوى ظاهرة تبعية ثقافية على طول الخط، فقد خلقت الأوضاع الاستعمارية نقيضها، وتولدت من علاقاتها أشكال مقاومتها. ومن هذه الأشكال ما اتخذ لغة الاستعمار لغة لمقاومة الاستعمار، كما حدث فى حالة كتاب الجزائر على سبيل المثال، أو كتاب الأقطار الإفريقية والآسيوية الذين اغتربوا عن لغاتهم القومية، واضطروا إلى الدفاع عن هوياتهم الحضارية ومطامحهم السياسية والاجتماعية بلغة الاستعمار التى لم يعرفوا غيرها، وذلك فى سياق مرحلة التحرر الوطنى التى أنتجت ظواهر مشابهة على امتداد اللغات التى خضعت أقطارها لأشكال الاستعمار الاستيطانى المتعددة. ويشبه ذلك إلى حد ما، ومع بعض الاحتراس، ما حدث بعد انتهاء مرحلة الاستعمار القديم، وما اقترن بمقاومة أشكاله الجديدة، خصوصا فى «خطاب ما بعد الاستعمار» (أو خطاب ما بعد الكولونيالية) الذى صاغه أبناء العالم الثالث الذين استخدموا لغة العالم الأول لنقض دعاواه الاستعمارية المبطنة، والكشف عن آليات سيطرته المعاصرة على مصائر دول العالم الفقير. والنموذج الأشهر لخطاب ما بعد الاستعمار هو كتابات إدوار سعيد التى لفتت إليها أنظار العالم كله، منذ أن أصدر كتابه «الاستشراق» سنة ١٩٧٨م.

لغتنا العربية فى خطر*

يقول العقاد: «اللغة هى مرآة الشعب ومستودع تراثه، وديوان أدبه، وسجل مطامحه وأحلامه، ومفتاح أفكاره وعواطفه، ومركز كيانه الروحى وعنوان وحدته وتقدمه، وخزانة عاداته وتقاليده».

وبالنسبة إلى لغتنا العربية فهى أداة لأسمى رسالة عرفتها الإنسانية.. رسالة الإسلام وهى اللغة التى قهرت لغات عاشت قرونا، وصمدت طويلا أمام الدسائس والمكائد، كما أنها فى طليعة اللغات المعبرة، لوفرة مفرداتها، واشتقاقاتها، فهى ليست مجرد أداة للثرثرة، وإنما هى مستودع فكر وثقافة. لذلك من واجبنا أن نفاخر بها الأمم، ونسعى إلى نشرها كما يفاخر الآخرون من الإنجليز والألمان والفرنسيون بلغاتهم، ويسعون إلى نشرها فى كل مكان.. لا أن نضطهدها ونطمس معالمها ونلوثها بمفردات غريبة عنها، كما يجب أن نعلم أولادنا كيف يتمسكون بها، وكيف يحمونها ويذودون عنها، لأن فى بقائها بقاءهم، وفى ازدهارها انتعاشهم، وقد دفعنى إلى كتابة هذا المقال اليوم ما وصل إليه حال اللغة العربية فى مصر وفى مدارسنا هذه الأيام، فبعد أن كانت مادة اللغة العربية فى المرحلة الأولى من التعليم هى مادة القراءة والمطالعة والكتابة، وهى مادة تكوين اللغة والتعرف على جمالها، ومن خلال تعلم الأطفال الحروف البسيطة للغة أحب الأطفال لغتهم وتعرفوا عليها، وحصلوا على أعلى الدرجات.. أصبحت اللغة العربية فى أيامنا الحالية هى مادة الدراسات والعلوم، فيدرس الطفل فى السنوات الأولى من التعليم الأساسى فى كتاب القراءة الحواس الخمس، وأهميتها وعليه حفظها، وهو دور مادة العلوم، كما يدرس جو مصر والحضارات التى قامت بها، والبحار التى تطل عليها، وكيفية تنشيط السياحة، وهذا بطبيعة الحال دور مادة الدراسات، وبهذا كره الأطفال القراءة والكتابة، وابتعد الطفل عن لغته العربية، ولم يتبق من اللغة فى المدارس إلا حروف وصل بعضها ببعض بلا أية قواعد، بعد أن جعلنا من لغتنا العربية لغة عشوائية همجية، وساءت حالها، وتفككت أوصالها، والدليل على ذلك ما يراه المدرسون فى كراسات إجابة التلاميذ، فهو شىء يدعو إلى الحسرة، وينذر بكارثة مروعة، فالتلاميذ فى المدارس يكتبون وفق ما ينطقون فيكتبون مثلا «النون» فى نهاية الكلمات

---

* أ. عصام جميل، جريدة الوفد، ١٦ من أغسطس ٢٠٠٤م.

المنونة ولا يميزون بين الضاد والدال، ولا بين الذال والزاى، ويحصرون الهمزة بين الألفين، ولا يعرفون المد بالألف من المد بالياء، حتى وصل الحال بتلاميذ فى نهاية المرحلة الإعدادية أنهم لا يستطيعون كتابة الإملاء ويأخذون فيها أصفارا، وهذا بسبب إهمالنا اللغة العربية، وبالتالى خرج علينا جيل يكره اللغة العربية، ولا يعرف قواعدها، ويجهل جمال لغته، ويفتقر بشدة إلى القدرة على الكتابة السليمة.

ومن المضحكات المبكيات فى هذا الزمان، أننا فى الوقت الذى نجد فيه من يعتز بلغته من الإنجليز والفرنسيين والألمان، ويرفضون التحدث بغير لغتهم.. نجد عندنا من يتباهى بأنه يتحدث الإنجليزية والفرنسية، وغير ملم بقواعد اللغة العربية، وكأنها عنوان للتأخر، وهؤلاء فى الحقيقة يعيشون على فتات من اللغة العربية، وعلى وصلات من اللغة الأجنبية لا ممسكين بناصية الأولى، ولا يحسنون إجادة الآخريات.

وبدأت اللغة الإنجليزية فى مصر هذه الأيام تأخذ نصيبها الأوفى بلا أى فارق زمنى بينها وبين اللغة العربية، ففى مراحل التعليم المختلفة، لم نكتف بما لدينا من مدارس تتخذ من اللغات الأجنبية وسيلة لتدريس المناهج، ولم نكتف بأن كثيرا من كلياتنا العملية يجرى فيها التدريس باللغة الإنجليزية بل وصل الحد إلى أن السباق يجرى على أرضنا بين الدول الناطقة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها لإنشاء جامعات ومؤسسات تعليمية ناطقة بتلك اللغات.

إننا لسنا ضد تعليم اللغات، ولكن ليس قبل أن نتعلم لغتنا العربية، التى تقاسى مرارة الغربة على أرضها، ومن عدم الاهتمام، بها والإعراض عنها، وتركها عرضة للتلوث.

اللغة العربية وعلوم العصر*

تشكل اللغة أداة للتعبير والتواصل بين أفراد المجتمع، وترجمانا ينقل الأفكار إلى الغير ليتم التفاهم والإقناع، أو التأثير، فهى رمز التعايش المشترك، وبها يتم توثيق روابط الوحدة الجماعية، وتدوين سجل الأمة، وحماية تاريخها، وحفظ ذاكرتها مما يضمن التفاعل الحضارى بين الخلف والسلف.

تتبنى اللغة تجسيد أنماط الفكر الإنسانى، وما ينتجه من تطلعات وأفكار ورؤى وعلوم ومعارف أصلت وتوصل لفعل حركة يختزل كمون الإبداع المتجدد مع سيرورة الزمان، لأنها تمنح عملية التطوير شكلانية التراكيب، وتضمر روحية المعرفة وجوهرها الأصيل القابل للتفاعل والتوليد.

لما كان العقل يتمظهر باللغة، واللغة تتلبس وتعكس قيمة العقل، فإن العلاقة بينهما تدخل فى جدلية الفعل وردة الفعل، آللغة هى أحد مظاهر الحركة العقلية التى تصطدم بجوهر معرفى فتشكل ردة الفعل لغة تردد صدى الاصطدام وجوهرة، أم أن اللغة تحرّض العقل فينتج الأفكار والآراء؟

إن الخوض فى هذه الإشكالية يحتاج إلى دراسة علمية بيولوجية ونفسية وألسنية، ولكن هذا النوع من الدراسة له أصحابه من أهل العلوم البيولوجية التى ستبقى تنظر، فى رأيى، إلى هذه الظاهرة الإنسانية بالنظرة عينها إلى تشكل البيضة. ولذلك يعنينى من الطرح قضيتين: الأولى، تؤكد أن العقل السليم يرسل أفكاره بتسلسل ترتيبى منطقى غير قابل للتناقض، والثانية تؤكد وجود علاقة حتمية بين العقل واللغة، سواء كان ذلك بين العقل وإنتاج اللغة، أم بين اللغة وفاعلية العقل، وفى الحالين معا، فاللغة تخضع فى أدائها إلى منطق الترتيب الرياضى، فليس من المعقول أن تنتج اللغة تراكيب تحتمل التناقض، وهذا ما عبر عنه سيبويه فى تحديد الكلمة المفردة، باعتبارها أول شكل من أشكال البناء النسقى «الكلمة هى لفظ بالقوة، وبالفعل شكل دال بجملته على معنى بالوضع».

---

* د. مها خير بك ناصر، مجلة العربى، العدد ٥٥٤، يناير ٢٠٠٥م.

إن كلام سيبويه وغيره من علماء اللغة العربية يشير إلى عظمة التراكيب اللغوية العربية، ويحدد ماهية العلاقات اللغوية المنطقية التى تخضع فى عملية تشكلها إلى قوانين المنطق الرياضى، مما أكسبها خاصة التوليد والاكتساب والتطويع، فاختزلت بقدراتها ثقافات الحضارات العالمية التى تفاعلت فى مختبراتها، وأعطت فكرا جديدا مغايرا، ومن ثم احتضنت الإنتاج العلمى والأدبى والدينى والفلسفى الذى تمخضت عنه حركة الفكر الإبداعى الحر المتفاعل مع ثقافات الأمم الأخرى، فكان نتاجا علميا مازال فاعلا بالحضارة العالمية المعاصرة.

واقع اللغة العربية

تعيش اللغة العربية، حالة تغريب عن أبنائها، فهى فى نظر البعض لغة عاجزة عن مواكبة الحضارة العلمية المعاصرة، لأنها، فى رأيهم، تفتقر إلى الخصوبة العلمية، وغير قادرة على اكتساب المصطلحات، والمفاهيم العلمية والحضارية الجديدة، فشهدت مؤسساتنا التربوية سباقات مفزعة من الهدف، وسارعت إلى تبنى برامج تعليمية غريبة عن موروثنا الثقافى، وغير قابلة للتفاعل معه لسبب رئيسى يكمن فى عجز القيمين على البرامج عن إيجاد المناخ العلمى القادر على خلق مختبرات الانصهار والإنتاج، وفرضت على أبنائها أشكالا علمية مسبقة الصنع، يتعرفون إليها جاهزة، مع الاكتفاء بالشكل الخارجى الذى يجهلون تكوين مادته، فربطوا جهلهم بمعرفة الجوهر بعجز اللغة عن تبليغ الرسالة العلمية بعمق ووضوح، ورميت لغتنا بالنعوت السلبية.

لقد ترسخ الشعور عند معظم أبنائنا، بعجز اللغة العربية عن مواكبة حركة العلم والتكنولوجيا، وتأكدت أمامهم عظمة اللغات الأجنبية التى تحتضن الفكر العلمى المعاصر وتنقله، فتنتج عن ذلك الشعور بالدونية أمام اللغات الأخرى، وصار النطق باللغات الأجنبية دليل تفوق فكرى وحضارى، ولو كان النطق لا يتجاوز حدود الشكل الصوتى.

إن إتقان اللغات الأجنبية أمر ضرورى إذا كان ذلك ناتجا عن رغبة فى الحصول على المعرفة من أصولها اللغوية، وتفعيل الناتج مع الفكر العربى، فى حقول معرفية عربية. ولكن قلما يكون الهدف ثقافيا إنتاجيا، غايته تفعيل الموروث الثقافى بأدوات من التراث وبمواد مستوردة لا تتعارض وطبيعة مختبراتنا الاجتماعية والثقافية والمعرفية، ولذلك لا تتحقق خصوصية تسجيل الفعل وردة الفعل بلغة عربية سليمة، وبانعدام الرغبة فى تحفيز قدرات اللغة فقدت لغتنا الكثير من خصائصها، وأصيبت بالوهن والضعف.

لماذا لا يطرح المثقف العربى سؤالا محددا على ذاته وعلى الآخر الذى يجهله: هل تغيرت اللغة العربية من حيث الفاعلية التواصلية؟ ولماذا استطاعت هذه اللغة أن تحتضن ثقافات متنوعة ومتعددة، وتختزنها وتخمرها ومن ثم تبعثها بلسان عربى مبين ناطق بمعرفة لا تعرف الفناء؟

إن المشكلة ليست فى قدرة اللغة العربية، بل فى إنساننا العربى الذى يعيش مرحلة انسحاق وانبهار وشعور بالدونية والضعة من انتمائه، فيمارس دونيته هروبا من أصالته وهويته، والهوية القومية ترتبط باللغة القومية، لذلك كان الاعتزاز باللغة اعتزازا بالانتماء القومى، ومن يتخل عن انتمائه القومي، فلا وجود له، إنه أشبه بالشجرة التى تقتلع من دون جذورها، فتكتب نهايتها.

عاشت بلاد الاتحاد السوفيتى السابق حصارا لغويا، وصارت اللغة الروسية لغة العلم والفكر والحضارة، ولكن شعوب هذه البلاد ظلت مرتبطة ارتباطا وجدانيا ومصيريا بلغتها، فرسخت، بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، هويتها القومية باعتماد اللغة الأم لغة رسمية فى المؤسسات التربوية لأنها لغة التفكير والتوثيق الحضارى والثقافى. والشعب اليهودى، على الرغم من توزعه فى العالم، فهو يحرص على إتقان اللغة العبرية وإحيائها كلغة علم وأدب وفكر وفلسفة، ويعمل المثقفون منهم على إغنائها بالمفردات، بينما إنساننا العربى يحاول تحنيط اللغة فى قوالب جاهزة تمنعها من التخصيب والتوليد، ويخجل من إتقانها حتى صار البعض يسمع الخطأ ويسكُت كى يحمى نفسه من وصمة التخلف، التى يقرنها بعضهم بالأصولية، أو يكون انعكاسا عن جهله بلغته أو لعدم ثقته بنفسه وانتمائه، حتى صار الخطأ واللحن سمة عامة، يبررها البعض بالأخطاء الشائعة، ويرسخها أساتذة الجامعات جوازات مقبولة، ويلقنها المتخرجون حقائق لغوية ثابتة تتناقلها الأجيال، وتفقد اللغة قوانينها وخصائصها.

يتسلح البعض بضرورة تطور اللغة، وهذا أمر طبيعى أثبتته الدراسات اللغوية والألسنية، واللغة الحية لا تتوقف عند الشىء الجاهز، بل تتجاوزه إلى أشكال تتلاءم ومعطيات العصر، ولكن التغيير فى عرف الطبيعة يرتبط بالظاهر الشكلى، ولا يؤثر فى قوانين الطبيعة، فالتغيير فى اللغة يجب ألا يؤثر فى قوانين تشكيلها الداخلية، لأن أى مس فى الترتيب الجينى يؤدى إلى التشويه، وهذا ما يرتكبه أساتذة اللغة العربية، ويشاركهم فى هذه الجريمة بعض القيمين على مجامع اللغة العربية بإقرار الأخطاء الشائعة.

تتمتع اللغة العربية ببنية تميزها عن غيرها من اللغات، وتشكل بنيتها النحوية والصرفية الثوابت التى تضمن سلامة وتطور بقية البنيات، غير أن الشائع المقبول فى معظم مؤسساتنا التربوية ومنتدياتنا الثقافية، السكوت على الأخطاء اللغوية والنحوية، وترسيخها عرفا آمن به البعض، واعتبر ميزة أوجدتها الحضارة العلمية المعاصرة، فى وقت يبحث فيه عن ترجمة المصطلحات الغربية، ولا يقبل استخدامها معربة، فأى تناقض هذا؟ وأى تعارض مع سنة التطور اللغوى الحقيقية؟ والواقع اللغوى يثبت أن لغتنا اكتسبت، يوم كنا أقوياء وواثقين بأنفسنا، مفردات ومصطلحات طوعتها وأخضعتها لقوانينها، وساهمت فى تدوين علومنا وثقافتنا وحضارتنا، فأغنت علومنا، وكانت لنا لا علينا، فما أحوجنا، اليوم، إلى جيل عربى يؤمن بقدرة لغتنا على الاكتساب والتطويع، مع المحافظة على خصائصها وقوانينها!

إن الواقع العربى المشحون بالصراعات النفسية، والقلق والضياع يعانى التشرذم والتفكك والضياع وفقدان المركزية، ويعيش إنسانه مرحلة صعبة ومعقدة، وهو يستقبل حضارة عالمية تتميز بالدقة العلمية والاختصاص المفعل بالشمولية، وينقلها الإعلام العالمى الاستهلاكى بكل إغراءاته، فيكتفى الفرد العربى بالجاهز المعد له مسبقا، وتتحول مجتمعاتنا بسرعة غريبة إلى مجتمعات استهلاكية، ويتناسى الفرد أصالته، ويهمل قدراته، فيتمثل عجزه ببعده عن لغته، وعدم الوثوق بها، وبفاعليتها وطاقتها الأدائية.

حلول ليست جاهزة

من خلال مراقبتنا العمليات الرياضية، نلاحظ أن علم إدراك العلاقات من أهم خصائص الرياضيات، وتتجسد العلاقة برسم بيانى بين مجموعة الأساس وهى المنطلق، ومجموعة الهدف وهى المستقر، وما نعثر عليه من علاقات فى الرياضيات نجدها فى اللغة فتكون الفكرة كامنة فى العقل، وصورتها فى المستقر وهو التعبير، ولكى تؤدى التعابير غايتها، يجب أن تكون مرتبة ومنظمة بطريقة يقبلها المنطق، والمنطق فى تعريف ابن سينا «هو المعقولات الثابتة المستندة إلى المعقولات الأولى بحيث يتوصل بها من معلوم إلى مجهول» وعلاقتنا بالمنطق والرياضيات، اليوم تفتقر إلى وجود أهم الخصائص المنطقية والرياضية، فتأتى الدراسات العربية سطحية فى أدائها وأهدافها وأغراضها، وينعكس التسطح فى استخدام اللغة، أثبتت الدراسات الرياضية أنه لا قيمة للعنصر الرياضى إلا ضمن العلاقات التى يدخل فى نطاق تركيبها، وكذلك الحال بالنسبة إلى العنصر اللغوى الذى يستمد قيمته من خلال وظيفته الأدائية ضمن التراكيب اللغوية، ومن خلال علاقته بغيره من العناصر، والعلاقات خاضعة لمجموعة من القوانين الصرفية والنحوية التى تؤمن سلامة

البنية اللغوية للجسد النصى. فإذا أصيبت القوانين بالتزوير والتحريف اختل الأداء وفقد مع الأيام فاعلية التوليد. نحن بحاجة، أكثر من أى وقت مضى، إلى تحصين اللغة العربية وحماية قوانينها، لأن الاستعمار الأكثر خطورة على المستقبل العربى، هو الاستعمار الفكرى الثقافى، ولكى نؤسس ثقافة عربية، لها قيمتها فى التفاعل الحضارى، والقادرة على مواجهة الغزو الفكرى، ينبغى إحياء اللغة العربية وحماية قوانينها، وإغنائها بمفردات جديدة، ومن ثم تخصيب الفكر العربى بفكر الآخر المغاير والمتخلف، وذلك بالإطلاع على جوهر ثقافته. والسعى إلى مواكبة التطور العلمى وتطويع منجزاته وإعادة إنتاجها بلغة عربية سليمة، قدوتنا فى ذلك علماؤنا الأوائل، وما تسلحوا به من قيم وعلوم ومعارف وأساليب ارتبطت بأساليب المنطق الرياضى، التى كانت الخطوات الأساس فى عملية الإبداع العربى.

إن ما نحتاج إليه هو تعزيز الهوية القومية، والاعتزاز بالانتماء إلى تراث حضارى غنى، شريطة ألا يتوقف الأمر بغية التوليد والخلق، متجاوزين الشعور بالنقض أو التفوق، وهذا يفرض وجود مؤسسات - علمية عربية - تعنى بترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية ليستقبلها الإنسان بلغة تفكيره وإبداعه، ويعيد خلقها من جديد بلغة عربية، فتبعث جدتها، فى نفس الآخر، رغبة فى نقلها إلى لغته، وتستمر عمليتا الأخذ والعطاء إلى ما لانهاية، ونؤسس لأنفسنا وجودا على مسار حركتى العلم والعولمة، ونتحرر من عقدة التحدى، لأن التحدى لا يكون بالشعارات المفرغة من العمل، بل بحركة تعكس فعل العقل، وتجسد إبداعاته.

إن تشجيع حركتى الترجمة والتأليف مرتبط باحترام اللغة العربية وحماية قوانينها، وطرح قضاياها بمنطق العلم الرياضى، فنحررها من جمودية التعقيد والتلقين والتحنيط فى قوالب جاهزة، ومن ثم نكشف عن دقة خصائصها، وقدرة قوانينها على استيعاب علوم العصر وتطويع مصطلحاته، وإعادة صياغتها بلغة عربية تواكب علوم العصر، وتتقمص روحها.

صمام الأمان*

بعيدا عن الجدل المحتدم حول ما أصاب اللغة العربية من هوان، والدعوة إلى تطويرها بما يواكب مقتضيات العصر وإخراجها من قوالب الجمود والتحجر، التى سادت نحو خمسة عشر قرنا، أود الإشارة إلى أن جميع اللغات الحية فى العالم لها قواعدها الثابتة التى لم تتغير منذ نشأتها، وأن المتحدثين بتلك اللغات يتحاورون «بالعامية» التى لا تحترم قواعد النحو والصرف الفصحى فى كتاباتهم الأدبية والعلمية والإخبارية.. إلخ، دون أن يقال إنهم مصابون «بالشيزوفرانيا» أو الفصام العقلى.

وربما يكون التطور الأوحد الذى طرأ على مختلف اللغات الحية فى العالم هو إضافة مفردات جديدة لم تكن موجودة فى العصور السابقة.

وفى تصورى أن العيب فينا وليس فى اللغة العربية، ولعل الأمر الذى يحتاج إلى تطوير حقيقى هو أسلوب تدريسنا لغتنا الجميلة – لغة القرآن، حتى يعتدل لساننا العربى القويم، وحتى نتقن اللغة الأم قراءة وكتابة، فمن المعروف أن «اللغة وعاء الفكر» وأن المرء يتعذر عليه أن يفكر بغير لغة الأم، وبالتالى فإننا أحوج ما نكون إلى تقويم لسان أبنائنا إذا كنا راغبين بصدق فى احتفاظهم بهويتهم، ولنعلم أن إتقان لغة أجنبية أو أكثر لا يمكن أن يكون بديلا للغة الأم.

وبالطبع فإننى لا أطالب بالتقعر فى اللغة واستخدام مفردات عفا عليها الزمن، لكنى أدعو شبابنا وشيوخنا وأجهزة الإعلام عندنا إلى الالتزام باللغة العربية الميسرة المستخدمة فى الكتابة الصحفية ونشرات الأخبار، وهى لغة ملتزمة بقواعد النحو والصرف دون إغراق فى التعقيدات اللغوية، يفهمها الخاصة والعامة دون الحاجة إلى الرجوع للمعاجم.

أما العمليات الجراحية التى يقترحها الأستاذ شريف الشوباشى فى كتابه لتجميل اللغة العربية كرأيه فى استخدام علامات الضبط (كالفتحة والضمة..) وإعراب الفاعل والمفعول به، وجمع المؤنث وتصريف الفعل تبعا له وقضية المثنى، وقواعد استخدام الأعداد فى حالتى المذكر والمؤنث، ففى رأينا أنها لا تسهم فى تجميل اللغة العربية، ولكنها تعمل على تشويهها وإبعادها عن لغة القرآن التى استقرت فى وجداننا.

---

* أ.د. عبد اللطيف عثمان، جريدة الأهرام، القاهرة، ٢ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

ولعل «القرآن الكريم» هو صمام الأمان الذى يحفظ لغتنا الجميلة، ويضمن استمرار اللغة العربية الصحيحة، واللسان العربى القويم إلى يوم الدين.

فهل نرفع أيدينا عن اللغة العربية، ونتوقف عن الهجوم عليها والعبث بقواعدها، حتى لا تتحول إلى «مسخ» لا معنى له، وتفقد جمالها وبلاغتها؟!

اللغة العربية تنفذ لمصادر المعرفة ثم تستوعبها *

يقول تقرير «التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٣م» ص ١٢٣، وتحت عنوان «اللغة والنفاذ إلى مصادر المعرفة» ما نصه: «تمثل ظاهرة الانفجار المعرفى والإفراط المعلوماتى أى حمل المعلوماتى Information Overload الزائد، مشكلة للفكر العربى وهو وضع يخشى معه من أن يشعر هذا الفكر بالانسحاق والتضاؤل أمام إعصار المعلومات المتدفقة على نحو خارق، وهذا يتطلب استحداث وسائل برمجية جديدة مبتكرة لمعالجة النصوص، ولزيادة فاعلية «النفاذ» إلى المعرفة، سواء كانت هذه المعرفة مصوغة باللغة العربية أم بلغات أخرى. وفى مقدمة هذه الوسائل: آلية للفهرسة والاستخلاص والتلخيص، ووسائل ذكية للبحث المتعمق فى متن النصوص من أجل الكشف عن بناها العميقة واستخراج مضامينها الحقيقية.

وفيما يخص اللغة العربية يتطلب تطوير مثل هذه الوسائل استخدام الذكاء الاصطناعى فى تحليل النصوص العربية وفهمها آليا، وصنع آلة استنتاج مصممة على وجه الخصوص للغة العربية، وهذا يعنى أنه يتوجب على الباحث اللغوى العربى أن يخص بالاهتمام المتعاظم مطالب إنتاج الوثيقة الإلكترونية العربية وإكسابها جدارة «السريان» عبر شبكة الإنترنت.

أما «النفاذ» إلى مصادر المعرفة غير العربية، فيرتبط أساسا بقضية الترجمة، ومن المعروف أن الترجمة إلى العربية مازالت شحيحة للغاية، وعاجزة عن مواكبة ظاهرة الانفجار المعلوماتى، وهو ما يؤكد ضرورة دفع الجهود فى مجال الترجمة الآلية. وفى هذا الصدد يجب الإقرار بأن هناك عدة مستويات للترجمة تتراوح ما بين الترجمة «الخشنة» التى تكفى للإلمام السريع بموضوع النص، كما يجرى حاليا على الإنترنت بطريقة متواضعة للغاية، والترجمة «الدقيقة» للنصوص الأدبية، وسيمضى وقت طويل قبل أن ترقى الترجمة الآلية إلى هذا المستوى.

وتحت عنوان «اللغة واستيعاب المعرفة» يسجل التقرير النص الآتى: «تنطوى علاقة اللغة العربية بنقل المعرفة واستيعابها على قضايا عدة، تتقدمها قضيتان محوريتان هما: تعريب التعليم الجامعى، وتعليم اللغة العربية.

* د. ميلاد حنا، جريدة الأهرام، ٢ من ديسمبر ٢٠٠٣ م.

إن قضية «تعريب التعليم الجامعي» لم تعد قضية قومية فقط، وإنما باتت شرطا أساسيا لتنمية أدوات التفكير وتنمية القدرات الذهنية والملكات الإبداعية، فضلا عن استيعاب المعرفة المتسارعة المتجددة، لذا فإن عدم التسارع فى تعريب العلوم يمثل عقبة أساسية فى طريق إقامة جسور «التواصل» بين التخصصات العلمية المختلفة، ذلك أن اللغة هى «رابطة العقد» فى منظومة المعرفة الإنسانية، وعلى الرغم من هذه الأهمية البينة لقضية التعريب، فإن جهود «تعريب» العربية لا تزال متعثرة نتيجة للمعارضة التى تلقاها من قبل كثير من أساتذة الجامعات الذين يحتجون بأن تعريب تدريس العلوم سيكون بمثابة حاجز يفصل بين الطالب العربى والمصادر الأصلية للمعرفة العلمية، ومعظمها باللغات الأجنبية، وهو موقف يتعارض – فى جوهره – مع تضخم مصادر المعرفة وتعددها، مما لن يجد معه الطالب مفرا من اللجوء إلى هذه المصادر، وهو الأمر الذى يتطلب بالضرورة أن تتوازى جهود التعريب مع زيادة الجهد المبذول فى تدريس اللغات الأجنبية لجميع التخصصات العلمية.

ويستلزم دفع جهود التعريب تجديد النظرة إلى آليات تكوين الكلمات، وتشجيع التأليف باللغة العربية فى المجالات العلمية المختلفة، ومساندة الجهود المبذولة حاليا فى مجال الترجمة الآلية، واستغلال ما تتيحه ثقافة المعلومات حاليا من وسائل فى بناء «بنوك المصطلحات»، كما أن من الواجب تحليل البنية المفهومية للكلمات العربية – Con-ceptual decompositlon إن عملية نقل المصطلح الأجنبى إلى اللغة العربية يتوخى المحافظة على مفهوم المصطلح بقدر الإمكان.

أما تعليم اللغة العربية – حسبما جاء فى التقرير الذى أثار جدلا بهدف تحقيق نهضة فكرية تؤدى إلى إرهاصات مجتمع المعرفة – فهو يشكو أيضا من أزمة حادة فى محتوى المادة التعليمية وفى مناهج التدريس على حد سواء، ومن أبرز أعراض الأزمة، التركيز على الجوانب «الصورية» فى تعليم الصرف والنحو، أى عدم النفاذ إلى مضامين النصوص العميقة بالكشف عن بناها الكلية، ثم عدم الاهتمام بوجه الدلالة اللغوية والمعنى، وإهمال الجانب «الوظيفى» فى استخدام اللغة وعدم تنمية المهارات اللغوية فى الحياة العلمية، والاقتصار على جانب الكتابة دون جانب القراءة فى تنمية القدرات الإبداعية وعزوف الصغار والكبار معا عن استخدام معاجم اللغة لصعوبة مقاربتها أو لخلطها بين القديم والجديد.

واللغة العربية الفصحى ليست «لغة الكلام» وإنما هى لغة القراءة والكتابة، أو ما قد يقوم مقامهما فى الخطب الدينية أو السياسية أو الإدارية أو الاجتماعية، وهذا يعنى أن الفصحى ليست لغة التعبير الحار العفوى، والانفعالات والمشاعر، أو التخاطب اليومى واكتشاف الذات،

ذلك كله هو حصيلة المدرسة التقليدية، التى تقوم على مبدأ القراءة والترديد والرواية والحفظ، وهذا كله يؤدى إلى تجنب الابتداع والاختلاف.. ويمكن أن تسهم ثقافة المعلومات وشبكة الإنترنت فى تحديث تعليم اللغة العربية وتعلمها: محتوى ومنهجا.

ويتطلب كل ذلك إنشاء مراكز بحث لغوية تضع المعاجم لرصد المفردات والصياغات المشتركة بين المحكيات والفصحى.. وتعريب ونحت المصطلحات العلمية وتيسير قواعد اللغة العربية وتوضيح مصطلحاتها، وعقلنتها ووضع كتب عامة للقواعد التى تعلم اللغة السليمة على نحو متدرج، دون غلو فى التفصيل والتدقيق، وعلى نحو يفضى إلى لغة «وسطى» تنأى عن السقوط فى «اللغة العامية».

لقد عاودت قراءة هذا الجزء من التقرير الذى يمثل أزمة اللغة العربية لتكون طيعة لمجتمع المعرفة – فوجدته صعب الفهم ومملوءا بكلمات جديدة منحوتة فى اللغة العربية لتناسب دخولنا عصر تكنولوجيا المعرفة IT ، وكان أن اتصل بى الصديق د. نبيل على، وهو العقلية المصرية العربية وراء هذا التوجه الجديد، فأرسل لى كمية من الدراسات المتخصصة التى أحسب أنها جديدة على العديد من خبراء اللغة العربية أنفسهم، وفى مقدمة هذه الكتب والأوراق مؤلفه «تحديات عصر المعلومات» الذى أصدره له د. سمير سرحان ضمن مشروع مكتبة الأسرة فى يوليو عام ٢٠٠٣م.

وأشك فى أن د. عاطف عبيد لديه الوقت لكى يضيف إلى أعبائه عبئا جديدا وهو عقد مؤتمر للمتخصصين فى اللغة العربية ليضعوا برنامجا مناسبا لتطوير اللغة العربية حتى نستطيع أن نواجه عصر المعلومات، لأنه دون ذلك ستظل اللغة العربية حبيسة الأطر التراثية القديمة دون القدرة على اقتحام عصر الإنترنت، والسباق فى مجال عصر المعرفة الذى فرض نفسه علينا دون أن نعد أنفسنا لذلك.

لقد قامت الجمعية الخيرية الإسلامية فى ١٧من مارس ٢٠٠١م بعقد ندوة بعنوان «اللغة العربية بين الواقع والمأمول» دعت إليها العديد من جهابذة اللغة، وسوف ألخص فى مقال مقبل ما جاء فى عبارات للخبراء والمهتمين بأمور اللغة العربية، لتحقيق «المأمول» من براثن «الواقع»، لكن يبدو لى أن الفجوة كانت كبيرة بين جيل لا ينتمى إلى عصر المعلومات والمعرفة، وبين احتياجات ومتطلبات سوق متدفقة تقودها اللغة الإنجليزية لآليات ومعطيات جديدة تماما، وهو أمر أدركته «مجموعة الفرانكوفونية» للتحدى الثقافى المتأزم للفرنسية فى مواجهة الإنجليزية الملائمة للعصر.

الأمر إذن ليس فتح حوار فى اللغة العربية بين جيل يودع الحياة، ولم يعاصر مشكلاتها ومعطياتها الجديدة، وإنما الحالة فى حاجة لأن يتخلى جيل «قديم» ليأخذ قيادة وتطوير اللغة العربية جيل آخر صاعد، وأرى أن د. نبيل على هو خير من يمثل هذا الجيل الصاعد فقد أتقن علوم «الحاسوب» وعصر المعلومات، و «هندسة اللغة»، ومن حقه أن يتطلع لأن يسهم فى إنشاء «مجتمع معرفة فى العالم العربى» وللحديث بقية عندما تجىء الفرصة.

علماء اللغة وحماتها يدعون لمشروع عربى موحد للمستقبل اللغوى ★

دعا المشاركون فى المائدة المستديرة التى احتضنتها جامعة القاهرة، الأسبوع الماضى حول «نظرية الثقافة العربية ومشكلة اللغة».. إلى وقفة حاسمة تجاه الهجمة الشرسة، التى تتعرض لها لغة القرآن الكريم، خاصة تلك الهجمة التى يقودها نفر من بنى جلدتها.. مؤكدين قدرة العربية على تحقيق النهضة كما حققتها من قبل: حيث كانت لغة العلم فى العالم على مدى قرون عديدة.

ولفت اللقاء الذى شارك فيه كوكبة من أساطين اللغة وسدنة العربية وحماتها وعلمائها الأجلاء، إلى أن الهجوم على العربية له جذور صهيونية، تسعى إلى تقويض ركائز الأمة، وفصلها عن ماضيها التليد، وجعلها تابعة تدور فى فلك المستعمر الغربى.

وترأس الدائرة د. عبد الله التطاوى نائب رئيس جامعة القاهرة.. وأدارها د. أحمد كشك عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

بدأت الندوة بكلمة **للدكتور: نجيب الهلالى جوهر**، رئيس جامعة القاهرة ألقاها نيابة عنه د. عبد الله التطاوى.. وحدد فيها عدة اعتبارات للانطلاق إزاء نظرية الثقافة العربية ومشكلة اللغة. ومنها حساسية المرحلة التى نعيشها الآن، وأن منظومة الإصلاح الشاملة مطلوبة فى حياتنا بالقياس الطبيعى للأشياء، وأن حركة التاريخ قد شهدت التعددية والتنوع فى سياق المشهد الثقافى الكبير، وأن نظرية الثقافة وطبيعة العقل العربى تظل بمثابة حالة يجب دراستها جيدا من منظور أدواتها فى سياق الفكر والوجدان.. وأن محاولات الهجوم على اللغة العربية للنيل منها قد تعددت، فامتلأت الدنيا عداءً فى الستينيات من القرن الماضى، على طريق سعيد عقل وغيره من دعاة العامية أو اللاتينية، وماتت الدعوات ورحل أصحابها وبقيت اللغة، لأنها متجددة بذاتها وقادرة على تطوير معاجمها.

★ أ. حازم عبده: جريدة اللواء الإسلامى، ٢٩ من فبراير ٢٠٠٤م.

وأكد د. جوهر على أن لغتنا العربية فى حاجة إلى جهود أبنائها وعلمائها، لأن يجددوا مناهجها وآليات تطويرها وتحديث برامجها من خلال استغلال ثورة المعرفة والمعلوماتية ومصادرها.

القواعد والدلالات

وتحدث **د. أحمد كشك** عميد كلية دار العلوم ومدير اللقاء محاولا طرح بعض النقاط للانطلاق بالحوار والنقاش، الذى تحول لما يشبه الانتفاضة أو الثورة دفاعا عن لغة القرآن الكريم.. ومن بين ما طرحه د. كشك أن الحديث عن الخلاف بين لغة وأخرى يعد نوعا من الجهل، لأن لكل لغة مذاقا خاصا، وأيضا فإن اللغة تنشأ أولا، وبعد ذلك يأتى النظام النحوى والصرفى، الذى هو أقرب إلى الديمومة والثبات فى كل اللغات، ولكن التطور يكون فى الدلالات بحسب تطور حاجات صاحب اللغة، وكذلك فإن العامية والفصحى نمطان لكل منهما سبيل.. مشيرا إلى أن أحدا لا يستطيع أن يضع نظاما للعامية فى العالم.

ومن جانبه أوضح **د. أحمد فؤاد باشا** مستشار رئيس الجامعة وأستاذ الفيزياء بكلية العلوم أن اللغة هى وسيلة التفاهم ووعاء الفكر، وترتبط بعطاء الأمة ورصيدها الحضارى.. وقال: إن اللغة العربية من ثوابت الأمة، وهى هدف للطعن والعدوان، لأنها توحد بين الأمة التى يريد أعداؤها تفتيت هذا الرابط وتوجيه الطعنات لها، بمحاولة عزل اللغة عن عصر العلم، بدعاوى عجز اللغة عن الاستيعاب لما يفرزه العلم.. مشيرا إلى وجود أكثر من ٣٦٠ ألف كلمة فى المعجم العلمى من أصول عربية.

وأكد د. باشا أن اللغة ترقى برقى أهلها وتتراجع بتراجع وتقهقر أبنائها.. مشيرا إلى أنه يستطيع أن يفهم أن يأتى العداء للغة من خارج الحدود، ولكن ما يحز فى النفس أن تأتى الطعنات من أبنائها.. وقال إن محاولات الطعن فى اللغة العربية مرتبطة بعصور الاستعمار والاحتلال وربما تكون هذه الدعوات ذات أصول صهيونية.

افتعال أزمة

وأوضح **د. باشا** أن من يهاجم العربية ويطالب بإلغاء المثنى ونون النسوة - وكأن فى ذلك النهضة المرجوة - ليس لديه رؤية أو برنامج، وإنما يهدف إلى افتعال أزمة أو قضية يتحدث عنها الإعلام، لكن تتضح خطورة الموقف لارتباط مثل هذه الدعوات العدائية بالصهيونية.

احترام الرموز

ومن جانبه تحدث **د. محمود فهمى حجازى** أستاذ فقه اللغة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورئيس جامعة «نور مبارك» بكازاخستان.. مؤكدا عدة نقاط مهمة، منها أن سيبويه عالم له مكانته فى تاريخ اللغة على المستوى العالمى، وأن كتابه «الكتاب» ليس كتابا لتعليم اللغة للأطفال ولكنه كتاب علمى بالدرجة الأولى.

ودعا **د. حجازى** إلى احترام الرموز.. وقال: إن ذلك أمر واجب فلا يعقل أن نهدم هذا تارة ونهدم هذا تارة أخرى، مما يؤدى إلى فقدان المواطن الثقة بالرموز كلها.. مشيرا إلى أن أمر اللغة العربية لا يمكن أن يناقش برؤية محلية، ولكن برؤية كل من يتحدثون العربية ويتعلمون بها سواء فى العالم العربى والإسلامى أو خارجهما.

وأوضح **د. حجازى** أن المشكلة الكبرى بالنسبة للعربية تكمن فى أن المؤلفات والترجمات فى العربية دون المستوى كما وكيفا.. وقال إننا بحاجة إلى إعادة النظر فى انتاجنا الفكرى والمعرفى من حيث الكم ومن حيث الكيف.

ولفت رئيس جامعة نور مبارك إلى ما شهدته العربية من تطورات وتغيرات.. من أكبرها ما تم منذ القرن التاسع عشر، حيث حدث تطور هائل شارك فيه الكتاب والصحفيون والعلميون، مؤكدا أن كل بلد له لغته العظيمة، وأن كل أبنائه مسئولون عنها، خاصة فى ظل زمن الكيانات الكبرى وانقراض الكيانات الصغيرة، وأن كل دول العالم الراقى تفكر بطريقة الكيان الكبير، وليس هكذا خلقت ولكن هكذا أصبحت.

التخطيط اللغوى

ودعا **د. حجازى** إلى وضع سياسة لغوية موحدة بالعالم العربى، تعنى بشئون التخطيط اللغوى للمستقبل من خلال الوعى بتكامل المؤسسات وتكامل جهود المجامع، وإنشاء مراكز بحوث لغوية وتكامل ذلك مع التعريب والتخلص من الأمية، ودعم النشر والترجمة حتى نصبح أمة ذات قيمة، كذلك فقد آن الآوان للإفادة القصوى من التقنيات فى البحث اللغوى وفى صناعة المعاجم.

أما **د. أمين فاخر** عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.. فقال كيف تحيا اللغة العربية بموت قواعدها؟.. فليس المقصود بسقوط سيبويه فى حدا ذاته، وإنما المقصود العلماء الذين اشتغلوا بالعربية، وكأنه يقول تسقط كل علوم العربية، مشيرا إلى أنه كان على مؤلف الكتاب أن يقرأ شيئا عن النحو ونشأته.

أعظم اللغات

ومن جانبه قال **د. محمد حمدى إبراهيم** نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق أن الحديث عن إلغاء المثنى ونون النسوة هو من قبيل إطلاق الكلام على عواهنه.. مشيرا إلى أن المثنى بقى مستخدما فى العديد من اللغات ومنها اليونانية القديمة.

ثم طرح **د. إبراهيم** عدة تساؤلات للنقاش والبحث حولها.. ومنها:

ما العمل إذا أردنا التطوير فى اللغة؟.. هل نعلى من شأن العاميات؟.. وهل نسقط الفصحى؟.. ومن المسئولون عن تدهور اللغة العربية؟.. وما معايير الحكم على حيوية اللغة العربية؟

واختتم **د. إبراهيم** حديثه بالقول إن اللغة العربية هى أعظم لغات العالم بلا جدال، وكل من راهنوا على اندثارها باءوا بالفشل.

ثم تحدث بعد ذلك **د. محمد حماسة عبد اللطيف** وكيل كلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية، وقال: الدعوة للثورة على قواعد اللغة لا تمثل حقيقة التخصص الدقيق، والدعوة لهدم العربية تعبير عن الذلة التى يعيشها أبناء العربية. واللغة تعز بعزة أصحابها وتذل عندما يذلون.

وأعرب **د. حماسة** عن دهشته لمثل هذه الدعوات لهدم لغة حية هى اللغة العربية، فى الوقت الذى أحيا فيه اليهود لغة ميتة.. وقال: لقد ظلت العربية على مدى ١٧ قرنا من الزمان لغة التواصل والإبداع ولم يشك المبدعون منها أو من عجزها.

لغة شريفة

وقال **د. عبد الستار الحلوجى**: عميد كلية الآداب السابق ببنى سويف: اللغة العربية لغة شريفة وعليها مدار فهم القرآن والسنة.. مشيرا إلى أنه عند الكتابة بالعامية تصبح اللغة لغة تفريق وليس تجميع.. وتساءل: هل هناك كتاب بالعامية الإنجليزية؟!

وأوضح **د. الحلوجى** أن القول بعجز الفصحى عن التعبير عما فى نفوسنا خطأ فادح، فنحن الذين عجزنا عن إنتاج شىء له قيمة، وخلص إلى القول.. ويجب ألا نعطى الكتاب الذى يهاجم «سيبويه» واللغة العربية أكثر مما يستحق، فهناك كثيرون ممن هاجموا العربية، وهناك مؤسسات ودور نشر تخصصت فى الهجوم على اللغة والدين وكلها باءت بالفشل!!

اللغة والهوية وحوار الحضارات★

علاقة غامضة بين اللغة والهوية وتشكيل حوار الحضارات، بعض الشعوب تجاوزت الأزمة، معتمدة على كيان حضارى وأصالة لغوية، والبعض الآخر اندمج فى العولمة منتظرا مصيره، أما شعوبنا العربية فالثابت أنها تراجعت حضاريا وتراجعت لغتنا العربية وثقافاتنا وأدبنا.

فى ندوة مركز الدراسات والبحوث السياسية بجامعة القاهرة، نوقشت الظاهرة بعنوان «اللغة والهوية وحوار الحضارات» وخلال ست جلسات توصل الباحثون والمفكرون وأساتذة التاريخ إلى نتائج وتوصيات.

وكانت أهم النتائج هى ضرورة الاهتمام باللغة العربية ومناهج وطرق التدريس، كذلك رأى المجتمعون أن تعميم العامية أمر خطير، وحصر للغة الفصحى، أو تهميش التعامل بها أمر أخطر.

وطالبت الندوة بوضع استراتيجية لغوية تهتم بشأن اللغة العربية يسهم فى وضعها والحوار حولها كل من يهمه الأمر. وهذا يتوافق مع الدعوة إلى ضرورة تأسيس مجلس قومى أعلى للاستراتيجيات والسياسات اللغوية، يجعل من اللغة الفصحى الهم الأكبر، كما طالبت بضرورة وجود مقررات جامعية للغة العربية فى الجامعات التى تدرس اللغة العربية. أو أن يدرس طلاب الدراسات العليا مقررات موازية «للتويفل» الذى يمتحن باللغة الإنجليزية، مع وجود مراجعة شاملة لمناهج دار العلوم، وأقسام اللغة بالآداب والأزهر، الندوة عقدت تحت رعاية الدكتور كمال المنوفى عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وبرئاسة د. نادية مصطفى، وبدأت بمحاضرة للدكتور هيثم الخياط، عضو مجامع اللغة العربية بدمشق وبغداد وعمان والقاهرة وأكاديمية نيويورك للعلوم تحت عنوان «لسان العرب بين التذكير والتأنيث» تناول فيها قضية المرأة فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

أما الجلسة التى رأسها الدكتور سيف الدين عبد الفتاح فقد ناقش فيها قضية تراجع اللغة العربية وأسبابها، وتحدث فيها أيضا د. محمد الزغبى أستاذ اللغويات بآداب عين شمس،

★ ندوة «اللغة والهويةوحوار الحضارات»، مركز الدراسات والبحوث السياسية، جامعة القاهرة، متابعة نادر ناشد، جريدة الوفد، ٣ من نوفمبر ٢٠٠٤م.

أشار إلى شيوع اختراق اللغة العربية المستعملة نتيجة للتلوث السمعى وسوء الوضع الثقافى العام لمعظم فئات الشعب، وانتشار ألفاظ فى وسائل الإعلام يراها المجمعيون وحماة العربية سوقية مبتذلة تنحط درجات عن الفصحى. وتحدث د. محمد يونس الحملاوى أستاذ هندسة الحاسبات بجامعة الأزهر عن فشل نظامنا التعليمى فى تخريج متطلبات سوق العمل بالكفاءة المرغوبة، وفى دفع الأمة إلى الأمام؛ وخير شاهد على ذلك تدنى معدلات التنمية الاقتصادية وتدنى المردود الابتكارى للأفراد، حيث أشارت التقارير الدولية إلى أن عدد البراءات التى منحت للمصريين عام ٢٠٠٠م، براءة واحدة لكل مليون مواطن، ولا يمكن لأحد أن يدعى أن انعدام الجو العلمى فى الوطن هو السبب الوحيد لهذا التدنى فى ابتكارية المواطنين.

الحروف اللاتينية بديلا عن العربية ★

يُعَد «الفرقان الأمريكى» بديلا للقرآن، انتهت الإدارة الأمريكية مؤخرا من إعداد مشروع خطير، هدفه «تغيير شكل حروف اللغة العربية، واستبدال اللغة اللاتينية بها» تحت مسمى تحديث الثقافة العربية، واعتبار هذا المشروع جزءا من خطة الإصلاح فى المنطقة، والتى تدخل ضمن إطار مشروع «الشرق الأوسط الكبير»، الذى سيجرى اعتماده فى نهاية شهر «يونيو» المقبل.

مقدمو المشروع – وهم عدد من الخبراء المختصين – يقولون: إن الهدف من هذا المشروع هو تحقيق تفاهم أفضل، ولغة مشتركة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى، وإن الأمريكيين والأوربيين متعطشون للوقوف على أسرار تلك اللغة والعديد من الكتابات المهمة القديمة والحديثة التى نسجت العقل الثقافى العربى والإسلامى.

ويرى المشروع أن ما تمت ترجمته من العربية إلى اللغات الأخرى يبدو ضئيلا وقليلا للغاية، ولم يتح التعرف على النواحى الدقيقة لهذه اللغة وما تحمله من ثقافات متباينة.

ويرى المشروع الأمريكى أنه كطبيعة أى لغة فإنها لابد أن تخضع اللغة العربية للتطوير والتحرر من تلك الأشكال القديمة التى ظلت عليها منذ قرون، خاصة أن ذلك أدى فعليا إلى صعوبة كبرى فى استيعاب أهل الحضارات والأديان الأخرى هذه اللغة أو تعلمها أو الاقتراب فكريا ممن يتحدث بها.

ويضيف المشروع: «لقد واجهتنا مشكلة حقيقية فى العالم بعد أحداث ١١ من سبتمبر، وهى أن الإرهابيين الذين يتحدثون باللغة العربية، وتتم ترجمة كلماتهم إلى الإنجليزية أو الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقى، أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم هذه الأحداث، لأن الترجمة العربية إلى اللغات الأخرى يبدو أنها تواجه مشكلات حقيقة نحن غير قادرين على تصنيفها وتبيان أسبابها الحقيقية».

ويقول المشروع: «إن العلوم الدولية لا تستطيع أن تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رموزها وصعوبة أشكالها، هذا فى الوقت الذى يستطيع فيه أهل اللغة العربية ومتحدثوها إتقان اللغة

★ أ. مصطفى بكرى، جريدة الأسبوع، العدد ٣٧٤، ٢٠ من ربيع الأول ١٤٢٥هـ – ١٠ من مايو ٢٠٠٤م.

المشتقة من اللاتينية كالإنجليزية والفرنسية، بل وإن العرب يتحدثون هذه اللغات مثل أهلها تماما، مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت أى ظروف، وفى ظل أى مسميات للغات المختلفة».

ويضيف المشروع الأمريكى القول: «إن إدراكنا الحقيقى هو أن هناك لغة مشتركة يمكن أن تجمع بين كل سكان الكرة الأرضية، فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية، وهو ما يجعل من الصعب بناء تواصل فكرى معهم أو معرفة دوافعهم النفسية».

ويقول المشروع: «على مدى أكثر من ٦٠٠ دراسة وبحث متخصص، تم إجراؤها بمعرفة الجهات العلمية المرموقة منذ عام ٢٠٠٢م وحتى أوائل عام ٢٠٠٤م، فإن النتيجة الأساسية التى خلصت إليها هذه الدراسات، هى أن صعوبة التقاء اللغة العربية مع اللغة الإنجليزية كانت الدافع الرئيسى وراء موجة «الكره العربى» لأمريكا وإسرائيل، والشعور بالبغض والانتقام من الذين يتحدثون الإنجليزية والفرنسية.

ويرى المشروع الأمريكى أن «المشكلة ليست فى أن يقرأ غير العربى النصوص والأفكار والكتابات العربية باللغة اللاتينية، ولكن الأساس فى هذا المشروع هو أن يتحدث العرب هذه اللغة الجديدة، ويطبقوها عمليا فى كل كتاباتهم، حيث إن الهدف الرئيسى من هذا المشروع هو أن يتم تطوير دراسة مادة اللغة العربية فى كل المدارس العربية والإسلامية، وأن يتم إلغاء المناهج القائمة حاليا فى هذه المدارس، التى تعتمد على دراسة قواعد اللغة والصور والجماليات وإبداعاتها، والكلمات والنصوص المتشابهة، مثل الشعر القديم الذى ينتهى بحروف واحدة، وأحيانا فإن مناهج التعليم لهذه اللغة تتضمن توجيهات ومبادئ دينية قد لا تتفق على بناء التواصل مع الآخرين من غير العرب، أو كما يطلق عليهم فى البلاد العربية «الأجانب».

ويقول المشروع: «إن المنهج الجديد لتطوير هذه اللغة هو أن يتم إلغاء كل الصور السابقة فى إطار حركات الإصلاح، والسعى إلى تطبيق الحرية والديمقراطية فى أوسع معانيها، وأن أحد الأسس المهمة لذلك هو أن يتعلم التلاميذ والطلاب فى الجامعات، وكذلك المثقفون طريقة جديدة لكتابة اللغة العربية، والتعبير عن المعنى الذى يريدون توصيله إلى الآخرين».

ويرى المشروع الأمريكى أن «الذى سيساعد على إقناع الدول العربية والإسلامية التى تعتمد أشكال هذه اللغة كمكون رئيسى لثقافاتها، هو أن الكتابة على الورق بدأت تفقد الكثير من

أهميتها التى كانت قائمة قبل ذلك، وأن الكتابة الإلكترونية فى ذاكرة الحاسب ستصبح هى الأساس فى بناء التفاهم المشترك والتواصل مع الآخرين».

ويقول المشروع: «إن العرب يصرون الآن على أن يكون حوار الحضارات والثقافات برنامجا حقيقيا من أجل التقريب بين الشعوب العربية والغربية، وعليهم أن يدركوا أن تحقيق ذلك لن يكون إلا من خلال الاتفاق على تغيير أشكال اللغة العربية، والتأثير على المحتوى الثقافى الذى يمكن أن تعتقد فيه الأجيال القادمة».

ويضيف المشروع الأمريكى: «أن الهدف من هذا المشروع ليس تحرير اللغة العربية فقط من أشكالها التقليدية التى ظلت قائمة كما هى منذ آلاف السنين، ولكن تحرير العقول العربية والإسلامية يستهدف القضاء أساسا على الموروثات السلبية فى الانتقام والعنف والإرهاب».

ويرى المشروع الأمريكى أن «هذا التطوير الجديد ما هو إلا مرحلة جديدة من مراحل تطور اللغة العربية، التى هى بذاتها تطورت فى الكتابة لما كانت عليه قبل الدين الإسلامى، وأنه مع «محمد» يقصد «الرسول صلى الله عليه وسلم» كان هناك شكل آخر للكتابة، وبعد محمد صلى الله عليه وسلم ظهرت العديد من الأشكال الأخرى، ولكن الأساس أنه حتى فى إطار الأشكال التى تطورت سواء قبل «محمد» يقصد «الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم» أو بعده فإنه غالبا اتخذت هذه الأشكال تصميمات متقاربة، مما جعل العرب أنفسهم يشعرون بأن تطور لغتهم لم يكن كبيرا، وإنما كان فى حدود ضعيفة، أما اليوم فإن العرب والمسلمين مطالبون بأن يقبلوا بهذه الثورة الكبرى فى تطوير هذه اللغة وأشكالها، خاصة مع انتشار الحواسب الآلية».

ويقول المشروع: «إن هذا التطور سيعتمد قبل الانتقال إلى اللاتينية على عدد من الاعتبارات الأساسية أبرزها:

- إلغاء التنقيط.

- التأكد من استقامة الحرف، فما هو قائم فى اللغة العربية أصلا يعتمد على نوع من التعقيد المبالغ فيه، كأن يأخذ الحرف شكل الارتفاع مثل «ع» أو الانخفاض مثل «ح» وهذا يزيد من صعوبة تعلمها، كذلك إلغاء ما يطلق عليه الحلقات المقفلة مثل «ه» أو «ة» الهاء أو التاء المربوطتين مما يصيب بالارتباك، حتى أن العرب أنفسهم اشتكوا من هذه الحلقات المقفلة!!

- كذلك تتميز هذه اللغة القائمة حاليا بنوع من التعقيد فيما يتعلق بمواقع نقاط الاتصال بالحرف أو الانفصال مع ما قبله أو بعده».

ويستند المشروع الأمريكى إلى دراسة أجراها «ماثيورث ماشار» فى مركز «الحضارة» التابع للخارجية الأمريكية والذى يرى أن التلاميذ العرب والمسلمين يشكون من صعوبة هذه اللغة فى تشابهات حروفها التى لا تعكس تميزا بين الحروف وبعضها إلا من خلال التنقيط، ويضرب بذلك أمثلة مثل: «ب، ت، ث»، «ج، ح، خ»، «د، ذ»، «ر، ز»، «س، ش»، «ص، ض»، «ط، ظ»، «ع، غ»، «ف، ق»، حيث يرى أن هذا التشابه يعقد القدرة على التعلم لفترة طويلة، وأن استيعاب التلاميذ لها لا يكون إلا بعد مرور سنوات طويلة فى التعليم، بالإضافة إلى أن انتشار الكتابة الإلكترونية لابد أن يؤثر فى إضعاف روابط التشابه بين هذه الحروف وبعضها، وهذا هو الذى يؤدى عمليا إلى كثرة الأخطاء فى الكتابة باللغة العربية، هذا بالإضافة إلى أن قدرة الحرف على التطويع المرن تزيد من فهم واستيعاب هذه اللغة مما يعنى أن الأشكال القديمة حاليا للغة تعد غير قادرة على التواؤم مع الأوضاع الدولية الجديدة».

ويقصد بالتطويع المرن هنا «اختلاف الخطوط فى اللغة العربية ما بين خط يطلق عليه نسخ وآخر رقعة، كما أن العرب أنفسهم لا يكتبون بطريقة واحدة، هذا فى الوقت الذى تبدو فيه حروف اللغة الإنجليزية واضحة وسهلة، وكذلك كل مشتقات اللغة اللاتينية، كما أن تداخل الحروف فى هذه اللغة يؤدى إلى تداخلها فى مواطن كثيرة».

وقدرت الدراسة أن تغيير أشكال الحروف العربية لا يؤثر فقط على البلدان العربية ولكنه سيمتد أيضا إلى أفغانستان وإيران ومالطا والهند وباكستان وكازاخستان وماليزيا وإندونيسيا وغيرها، وكذلك فإن اللغة البربرية «الهوسا» والسواحلية تستخدم الحروف العربية، وهذه هى الأهمية الكبرى لهذا المشروع الذى يجب أن يشمل دراسة تغيير الأشكال إلى اللاتينية فى إطار معالجة الحروف العربية الـ ٢٨، بأشكال كتابتها المختلفة ويقصد بذلك دراسة أول الكلمة ووسطها، وكذلك ما انتهت إليه من حروف، بالإضافة إلى دراسة الحروف المتصلة والمنفصلة.

وتطالب الدراسة بضرورة أن يكون هناك تركيز خاص لعلاج مسألة الهمزة الواردة بأشكال متعددة فى هذه اللغة، فأحيانا تكتب على السطر أو تكون فوق أول حرف « أ » أو تكون على حرف مثل «ؤ» .

وتقول الدراسة «إن هذه التجربة لن تحقق نجاحها إلا إذا تم الانتباه إلى ما يعرف بأدوات التشكيل فى هذه اللغة مثل ز ز (فتحة)، ز ز (ضمة)، و ز ز (كسرة)، ويجب إيجاد بدائل لها فى تطوير اللغة مشيرا إلى أن العرب ارتبطوا بهذه الحركات الثلاثة فى كتاباتهم وأحيانا فى أحاديثهم، بل إن اللغة العربية بلغت فى تعقيدها أحيانا بدرجة تشكيل الأرقام الحسابية ووضع هذه الحركات عليها، وأن هذا يبدو واضحا بشكل كبير فى كتابهم المقدس يقصد «القرآن الكريم» حيث إنه ذكر كل الأرقام فى أشكال كتابية مشكلة مما يزيد من التعقيد القائم.

وترى الدراسة الأمريكية «أن تغيير الأشكال فى اللغة يجب أن يمتد إلى تغيير كتابة الأرقام لتكون الكتابة الأمريكية والأوروبية هى الوحيدة السائدة فى البلدان العربية خاصة فى الكتابات الرسمية أو من خلال أوراق تحقيق الشخصية التى يحملها العرب، وأن إحدى المشكلات المهمة للغة الأرقام العربية هى أنهم يستخدمون ما يطلق عليه علامة الصفر (٠) والذى يمثل نقطة صغيرة، وهذه النقطة الصغيرة تكون باستمرار عرضة للتزوير والتبديل خاصة فى المعلومات المالية مما يمثل فى كثير من الأحيان تكاليف باهظة أو تحقيق خسائر كبيرة».

ويقول المشروع: «إن قطاعا مهما من الدول العربية خاصة فى بلاد المغرب العربى أدركوا بالفعل أن الأرقام العربية ليست صائبة فى إبراز الترقيم ولذلك تخلوا عنها واتجهوا إلى كتابة الأرقام باللغة الأجنبية، كما أن العديد من المثقفين العرب والطلاب فى الجامعات لا يستخدمون الترقيم العربى إلا نادرا ويلجئون إلى كتابة الأرقام الأجنبية لسهولتها والقدرة على تمييزها».

ويقول المشروع «إننا يجب أن نقنع العرب والمسلمين أن ترجمة هذا الكتاب المقدس(القرآن) إلى اللغة اللاتينية وتغيير أشكال الحروف العربية سوف يؤديان إلى انتشار أوسع له وبالتالى سيزيدان من قوتهم، وقد أشار أحد الذين أعدوا هذا المشروع وهو «تيودور هارتزول» إلى «أن واحدا من الأغراض الرئيسة لهذا المشروع الأمريكى هو نشر نسخة منقحة ومعدلة من القرآن الكريم بتلك اللغة الجديدة وبأشكالها المبتكرة، حيث يقول إن الجديد الذى سنقدمه فى هذه النسخة المعدلة أنها ستكون معتمدة أيضا فى داخل البلدان العربية والإسلامية، وأن مسئولى هذه البلدان سيوافقون عليها، كما أن هذه الأشكال المبتكرة ستتيح لأول مرة إدخال العديد من التعديلات الإيجابية على هذا الكتاب الذى يتضمن العديد من المبادئ والأفكار التى تحض على عدم التعاون مع الآخرين ونشر العنف والكراهية».

ويقول المشروع: «إنه فى إطار المطالبة بتعديل النص العربى الحالى الكتاب المقدس للمسلمين «القرآن» فإن هناك صعوبة بالغة تصل إلى حد الاستحالة، وأن واحدا من الخبراء العرب المرموقين أكد مرارا أنه من المستحيل أن تجد شخصا فى العالم العربى والإسلامى يوافق على تعديل الكتاب المقدس «القرآن» باللغة العربية القائمة حاليا، وأن أى جهد دولى فى هذا الشأن سيكون لا قيمة له، ولكن الخطوة الأساسية فى هذا التعديل تكمن فى أن يوافق العرب على تغيير شكل الكتابة، ثم تبدأ الأشكال الحالية للغة العربية فى الاندثار شيئا فشيئا، لتحل محلها الأشكال الجديدة للغة اللاتينية».

ويرى المشروع أن «نقل الكتاب المقدس «القرآن» باللغة والأشكال الجديدة فى البداية يجب أن يكون أمينا ودقيقا، لأن هذا الكتاب المقدس «القرآن» سيكون مراقبا بدقة من العديد من الهيئات الدينية ورجال الدين فى الدول العربية والإسلامية وأنه من الأساسيات المهمة أن يتم تبديل وتغيير هذا الكتاب فى مراحل لاحقة».

ويرى المشروع أن «تغيير الكتاب المقدس «القرآن» يجب أن يتم بشكل تدريجى وبطىء على الوجه التالى:

- الخطوة الأولى: أن يتم التعبير عن الآية القرآنية فى البداية بفكرة جديدة ولكنها تؤدى ذات المعنى.
- الخطوة الثانية: التعبير عن الآية بفكرة قريبة منها.
- الخطوة الثالثة: تغيير فكرة الآية دون اصطدام مع الفكرة الأصلية.
- الخطوة الرابعة: تغيير الفكرة بما يؤدى إلى التشكيك فى الفكرة الأصلية.
- الخطوة الخامسة: زيادة الألفاظ والعبارات فى ذات الفكرة لزيادة مساحة التشكيك فى الفكرة الأصلية.
- الخطوة السادسة: القبول والإقناع بتفسيرات جديدة لهذه الفكرة الأصلية بما يؤدى إلى محو معناها الذى كان قائما لفترات طويلة فى أذهان الناس.
- الخطوة السابعة: دراسة ردود الفعل حيال كل الخطوات السابقة من الآخرين ومجابهة المعترضين على التغيير البطىء.
- الخطوة الثامنة: تغيير الفكرة الأصلية وإحلال الجديدة محلها بشكل نهائى.

- الخطوة التاسعة: دراسة المحتوى العام للآيات السابقة واللاحقة ومدى توافقها مع الفكرة الجديدة من حيث تعديل الألفاظ والعبارات التى تم تعديل الآية تبعا لها.
- الخطوة العاشرة: اتساق محتوى الآيات السابقة واللاحقة مع الآية التى تم تغييرها وذلك من خلال العودة من جديد إلى الخطوة الأولى».

ويقول المشروع: «إن الحروف اللاتينية الجديدة التى يعتمد عليها المشروع الأمريكى تعتمد على عدد من الأشكال الهندسية المحاسبية الجديدة والتى ستقتصر على ٧ أشكال فقط حسبما أكد المشروع ووفق المعلومات فإن هذه الطريقة ستعنى فعليا تغيير فهم الثقافة العربية، كما أنها ستعمل حتى فى إطار العرض الأمين للقرآن الكريم على أن يكون هذا العرض مشوها كما أنه يخالف تماما ويتناقض مع المبدأ السماوى المستقر والثابت «**إنا أنزلناه قرآنا عربيا**» (يوسف: ٢)، وتشير التقديرات إلى أن المشروع وعلى الرغم من أنه فى طور الدراسة إلا أنه يتوجب أن يواجه بمعارضة قوية وأن هذه المعارضة يجب ألا تقتصر على رجال الدين والهيئات الدينية فقط بل يجب أن تمتد إلى كافة الجهات المعنية خاصة أن الأمريكيين والأوربيين يتعاونون معهم فى تنفيذ البرامج العملية من أجل وضع هذه الأفكار موضع التطبيق العملى، ولذلك فإن الدعوات التى أطلقت قبل ذلك حول تغيير ألفاظ القرآن الكريم أو إلغاء بعض الآيات التى تحض على الجهاد وكراهية اليهود كانت تمهيدا لهذا المشروع وجس نبض العرب وعما إذا كانوا مستعدين لتغيير أشكال كتاباتهم والقبول بالقضاء على لغتهم العربية أم لا؟

ويقول المشروع: «إنه عندما وجد المخططون أن العرب المسلمين يرفضون بشدة المساس بالقرآن أو تبديله أو تغيير محتوياته، قرروا أن يعتمدوا على الأسلوب البطىء جدا فى التغيير، وأن يكون هذا التغيير من خلال تغيير أشكال اللغة العربية، خاصة أنه يوجد كتاب جديد أعد باسم «الفرقان الأمريكى» حاليا.

ووفقا لما تسرب عن المشروع الأمريكى السرى فإنه تم إعداد حوالى(١٢٠) جدول مرفق يبين حروف اللغة العربية مقارنة بالأوضاع الجديدة التى ستكون عليها، وأن هذه الجداول لا تقوم فقط على فكرة المقابلة بين الحرف العربى وما يناظره لاتينيا بشكل حديث، بل أيضا من خلال إعداد قاموس جديد لتبيان معانى الألفاظ والكلمات التى يراد استبدالها أو القضاء عليها فى العربية لتحل محلها ألفاظ جديدة لا تعتمد فقط على الحروف المقابلة.

وهناك مقترح يتضمنه المشروع ويقضى بإلغاء لفظة «اليهود» على سبيل المثال من اللغة

العربية لتحل محلها فى الأشكال الجديدة لفظة «الساميون» والتبرير المطروح فى ذلك أن لفظة «اليهود» ارتبطت دائما لدى العرب بأشياء بغيضة، والزعم بأنهم أناس خانوا رسول المسلمين، وقاموا بارتكاب الكثير من الأخطاء في حق العرب، وأن لفظة «اليهودى» فى حد ذاتها لدى العرب تعنى القضاء على أى تعايش مستقبلى بين الشعب اليهودى وشعوب الشرق الأوسط، بل إن العديد من المثقفين والمسئولين العرب عندما يريد أن يقدح «إسرائيل» بأقوى الشتائم والإدانات فإنهم يؤكدون على أنهم «يهود»، أى لهم تراث غير جيد ومنفر لكل العرب».

ويقول المشروع: «إنه إذا كان هذا اللفظ يثير مثل هذه التأويلات فإن اللغة الجديدة يجب أن تتخلى عنه ليحل محله لفظ «الساميون»، وهو لفظ مقبول جدا لدى العرب، وهو يدل على السمو والارتفاع بالأخلاق»!!

ويعترف المشروع بأنه «فى حال نجاح هذه الخطة الجديدة فإن الكثير من الأفكار الأوروبية الجديدة ستدخل الحضارة الإسلامية التى يجب أن تنقى من الشوائب والاختلافات، التى كانت سببا فى تشجيع الأفكار الإرهابية وضرب المدن الغربية».

ويقول المشروع فى هذا الإطار: «إن الحضارة الإسلامية على صورتها الراهنة تتناقض مع مبادئ الماديات الحديثة، أو اللغة الدولية فى بناء التواصل الفكرى، كما أن هذه الحضارة بطبيعتها متعصبة، وأن هذا التعصب يقود إلى الاصطدام المباشر مع الحضارات الأخرى، وأنه قد حان الوقت للقضاء على هذا التعصب، وذلك بعد أن فشلت البرامج الحوارية أو برامج تبادل الطلبة».

المهم أن المشروع الأمريكى عبر عن تفاؤله وطموحه زاعما أن «الشباب والتلاميذ فى المنطقة العربية سيرحبون بهذا المشروع الجديد، لأن الدراسات الحديثة أثبتت أنهم أكثر انفتاحا على العالم الغربى والحياة، وأنهم لا يتمسكون باستمرار الصراعات مع إسرائيل والغرب، وأن لديهم طموحا فى ترسيخ العلاقات مع الغرب».

تلك إذن هى ملامح المشروع التآمرى الجديد، وهو يتسق تماما مع خطة استبدال «الفرقان الأمريكى» بالقرآن الكريم التى نشرت «الأسبوع» تفاصيلها فى العدد الماضى.

ويبقى السؤال: ماذا نحن فاعلون ؟

أسنصمت انتظارا للكارثة التى يبدو أنها ماضية بكافة السبل؟ أم أننا سنتحرك ونقول: «لا» لمحاولة طمس هويتنا والقضاء على عقيدتنا بل ووجودنا من الأساس؟!

اللغة العربية والسياسة*

مما لا جدال فيه أن حرص الإنسان على استخدام اللغة الأم، بوصفها وسيلة أساسية للاتصال والتعبير، يمثل بكل المقاييس عملا سياسيا، يوضح مدى اعتزازه بهويته وثقافته بوصفها آلية سياسية.

اللغة هى التى تكفل نمو وتراكم الثقافة، وتوحيد الأمة، وشحذ همتها فى مواجهة الأخطار الخارجية، وهى بوصفها نسقا اجتماعيا تشكل مع الفكر الجماعى وحدة ثابتة تقدر على الالتحام بين التصورات أو التخيلات الذهنية أى المدلول، وبين الكلام الدال، ويجرى من خلال هاتين العمليتين تمثيل وتناول المعلومات. يقوم الطفل بتكوين مخزون التصورات للأشياء التى يراها أو الأحداث، والذى يتم على أساسه نمو اللغة، ويحدث التشابك بينهما، وبالتالى تتم معرفته بالعالم. كما تتولى اللغة عملية بناء المفاهيم التى تعتمد على الإدراك التحليلى لخصائص الجوانب المختلفة للموضوعات والمواقف. التى تزودها اللغة بالألقاب اللازمة، أى أن اللغة تمثل التحليل الذاتى للعالم من قبل الأمة الناطقة بها.

إن نجاح أى لغة فى صراعها من أجل البقاء، يتوقف على درجة الوعى الثقافى واللغوى الذى يعتبر جزءا من الوعى السياسى، بينما يتوقف انتشار اللغة خارج حدود وطنها الأصلى على مدى تقدم الأمة فى المجالات العسكرية والاقتصادية والثقافية، بل وقدرتها على ممارسة الأنشطة الإمبريالية.

إن هجر اللغة الأم واستبدالها بلغة أجنبية يعنى التمرد على واحد من أهم النظم الاجتماعية، واحتقار الثقافة القومية فى محاولة يائسة للتعليق بأذيال ثقافة أخرى، واكتساب هوية جديدة على حساب المعاناة من الانفصام بين التفكير الذى يضطر لمواصلته باللغة الأم والتعبير باللغة الأجنبية، الأمر الذى يتطلب الإتقان التام للغتين، لممارسة عمليات الترجمة، وهو ما يفتقر إليه من كفروا بأهمية اللغة الأم.

إن الإمبريالية الثقافية واللغوية سواء القائمة على الغزو العسكرى، أم الثقافى فقط، هى أمَّ المخاطر بالنسبة للغات القومية، خصوصا إذا نجحت القوى الإمبريالية فى استقطاب الطبقة

* د. السيد المحجوب، جريدة الأخبار، ٢٢ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

الاجتماعية العليا، وبالتالى غرس بذور الانشطار الثقافى والازدواج اللغوى فى المجتمع كخطوة نحو إحلال لغة الغزاة محل اللغة الوطنية. قد تجنح الطبقة العليا للتوحد مع الغزاة، وتحرص على استخدام لغتهم ولبس ملابسهم، والعيش على طريقتهم التى تتسم عادة بالبذخ والترف، وتنفصل عن بقية الشعب المحروم والمعوز. وكلما زادت نسبة الأثرياء الجدد من الطبقة العليا زادت قابليتها للارتباط بالقوى الإمبريالية لحماية مصالحها واكتساب مسحة من الهيبة الاجتماعية، إذ يعانى الأثرياء الجدد عادة من فرط الوعى والانشغال بالوضع الاجتماعى ومدى احترام الآخرين لهم. ففى أوائل القرن التاسع عشر أصبحت الطبقة العليا المصرية تركية، ثم أصبحت إنجليزية بعد خضوع مصر للاحتلال البريطانى، ثم أمست عربية بعد قيام ثورة يوليو، وبدأت إرهاصات «التأمرك» تظهر عليها بعد تكثيف أمريكا أنشطتها الإمبريالية لفرض أفكارها وأنماطها السياسية ولغتها على منطقة الشرق الأوسط.

انتشرت فى مصر ظاهرة إطلاق الأسماء الإنجليزية على المؤسسات والشركات والمحال التجارية، بل واستخدام اللغة الإنجليزية فى الإدارة وإقحامها فى الإعلانات. كما أدى تعميق الفوارق بين الطبقات وجنوح الفئة المسيطرة على الإنتاج الفنى لإغراق الأسواق بالأعمال التافهة والهابطة، لتحقيق مكاسب سريعة، إلى ظهور اللهجات الطبقية المتباينة واستحداث اللهجات السوقية المنحطة والاصطلاحات والتعبيرات الوضيعة.

وبدأ الشعور بأن اللغة العربية ليست على ما يرام، ويجب عمل أى شىء لها باعتبارها مكمن الداء، وأفضى هذا الخلط بين المرض والعرض إلى ظهور العديد من وصفات العلاج لإنقاذ اللغة المحتضرة، احتوت فى مجملها على توليفة من السموم تكفى للإجهاز عليها تماما. كما طالب بعض ممن تطوعوا لتطبيب اللغة العليلة بضرورة إعادة النظر فى النحو العربى بوصفه أس البلاء والشقاء، على الرغم من أنه لا يفوق نظيره الإنجليزى أو الفرنسى صعوبة أو تعقيدا. وطالب آخرون بترك الفصحى تواجه مصيرها المحتوم وتتويج العامية لغة رسمية مصرية.

إن تناول المشكلة يا سادة ينم عن غياب الوعى السياسى، لأن العيب ليس فى اللغة العربية بشقيها الدلالى والنحوى، وإنما فى تخلف الإنسان العربى المعاصر عن اللحاق بركب التقدم، وعجزه عن الخلاص من براثن الإمبريالية، واعتماده على استيراد كل شىء من الخارج. إن هذا التخلف وعدم المشاركة فى إنتاج العلم والتكنولوجيا هو الذى أفضى لجمود اللغة التى لم تكن السبب فى هذا التخلف، كما يدعى من يخلطون بين العلة والمعلول.

إن الإدعاء بأن اللغة العربية لا يمكنها استيعاب المصطلحات التكنولوجية الحديثة هو فرية عظيمة، فما من مصطلح يستحْيل ترجمته.

أما ضعف خريجى الجامعات فى اللغة العربية فهو جزء من ضعف هؤلاء العام فى جميع المواد، مثله مثل الضعف فى الرياضيات الذى لا يمكن علاجه بتغيير قواعدها.

إن علاج المشكلة يا سادة لابد وأن يتم من منظور سياسى، لأن معاول الهدم التى تعمل على تقويض اللغة كلها ذات طبيعة وأبعاد سياسية.

اللغة العربية: بيت الكينونة*

فجأة وبعد مقدمات عديدة فرضها النظام الدولى ما بعد ١١ من سبتمبر، أصبح ملف اللغة العربية مفتوحا، ولم يعد الأمر مقصورا على التلميح بمسئولية اللغة العربية عن التخلف الحضارى الذى يعيشه العالم العربى، بل تعداه إلى التصريح بقصور تلك اللغة عن مواكبة عصر المعلومات بسبب الأزمة التى تعيشها تنظيرا وتعليما ونحوا ومعجما واستخداما وتوثيقا وإبداعا ونقدا.

هل يحتاج الأمر هنا إلى تأكيد واضح، وهو أنه حينما تجمع لغة كل تلك السلبيات فإنها تفقد مقومات وجودها؟

وفى فترة لا تتجاوز الأسبوعين قرأت إعلانا لإحدى الجامعات العربية عن حاجتها إلى أساتذة مؤهلين للتدريس باللغة الإنجليزية فى جميع التخصصات، بما فى ذلك المقررات القومية الصرفة مثل التاريخ والجغرافيا والاجتماع والفلسفة الإسلامية، ثم قرأت مقتطفات من تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٣م، وأخيرا تصريح «بريمر» ممثل الإدارة الأمريكية فى العراق، عن إعداد دستور عراقى جديد «يجسد القيم الأمريكية». ورغم ما قد تراه العين غير الخبيرة فى افتقار تلك الأخبار المتناثرة إلى علاقة واضحة باستثناء المصادفة المحضة، إلا أن العلاقة علاقة عضوية صريحة يحكمها قانون السلبية القوى، وهو قانون يقول: حيث إن اللغة العربية «تعيش أزمة حقيقية»، كما جاء فى تقرير التنمية الإنسانية، فإن من الضرورى أن نهجرها ونتبنى اللغة الإنجليزية كأداة تعليم المناهج القومية الصرفة وليس فقط المناهج العلمية الحديثة.

واسمحوا لى بداية أن أسجل أن هذا المنحنى لا يمثل فقط تجنيا على اللغة العربية أو مغالطة تاريخية واضحة، بل يمثل أيضا مغالطة علمية تهدف إلى إلقاء تبعة تخلفنا - وهو واقع واضح لا مراء فيه - على اللغة العربية تمهيدا للأمركة النهائية. وأذكر القارئ هنا بأن كاتب هذه السطور أستاذ للأدب الإنجليزى (الأمريكى) يدعى دون كثير مبالغة إجادة اللغة الإنجليزية.

---

* د. عبد العزيز حمودة، جريدة الأهرام، القاهرة، ١٦ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

المغالطة التاريخية تتمثل فى أن نفس هذه اللغة العربية التى نرميها بالعجز والقصور اليوم، كانت، فى العصر الذهبى للدولة العربية، لغة السبق العلمى، ليس فقط فى «علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية»، كما ذكر التقرير نقلا عن الكواكبى، بل فى العلوم الطبيعية والتطبيقية مثل الكيمياء والطبيعة والرياضيات والهندسة والطب والفلك. الفارق الوحيد يتمثل فى المتغير وهو الظرف التاريخى الذى وفر للمفكر العربى فى العصر العباسى مثلا حرية التفكير والابتكار والإبداع والاجتهاد.

الازدهار والتخلف إذن يرجعان إلى المتغير وليس إلى الثابت وهو اللغة، كما يريد لنا البعض أن نعتقد على غير الحقيقة.

أما المغالطة العلمية التى تصل إلى درجة التسطيح غير المقبول فتتمثل فى الحديث عن أزمة العربية باعتبارها سببا للتخلف وليست نتيجة له. ونحن لا نختلف من ناحية المبدأ مع تقرير التنمية الإنسانية حينما يورد فى استفاضة مظاهر أزمة العربية ويلخصها فى «عدم توافر سياسة لغوية على المستوى القومى، وضمور سلطة المجامع اللغوية وضعف التنسيق بينها وتعثر عملية التعريب، وجمود التنظير اللغوى والاستنكاف عن العناية بالمذاهب والمناهج الفلسفية الحديثة، وقصور الوعى بدور اللغة فى تنمية المجتمع الحديث.

المشكلة التى نراها هنا أن التقرير يتحدث عن مظاهر أزمة اللغة باعتبار تلك المظاهر علة للتخلف، وليست أحد مظاهر ذلك التخلف أو نتيجة له.

والواقع أن المغالطة العلمية السابقة تتسق مع تلك النظرة المشوشة التى تبناها التقرير إلى اللغة، وهى نظرة تعجز عن إدراك الحدود الفاصلة بين مفهوم كلاسيكى يرى أن اللغة ليست سوى مرآة «تعكس» الواقع وتعبر عنه، وبين مفهوم حديث بدأ مع فلسفتى الظاهراتية الألمانيتين القائلتين بأننا لا ندرك وجود الأشياء إلا فى أثناء وبعد وعينا اللغوى بها، وكأن الأشياء لا وجود لها إلا داخل اللغة، وهو ما دفع «مارتن هايدجر» إلى القول بأن «اللغة هى بيت الكينونة وهو الوصف الذى اخترناه عنوانا لمقالنا. ومن ثم تذهب التأويلية إلى القول بأن النشأة الأولى للكينونة تبدأ داخل اللغة.

يخلط التقرير بشكل واضح بين نظرية «الانعكاس» الكلاسيكية التى ترى اللغة مجرد مرآة تعكس الكينونة والواقع وبين الفكرة الفلسفية الجديدة التى تضع الكينونة فى قلب وعينا

اللغوى بها، ثم يصل إلى نتيجة لا تتفق مع أى منهما. يقول التقرير إن اللغة هى المنظار الذى من خلاله يدرك الإنسان عالمه، وهى العامل الحاسم الذى يشكل هوية هذا الإنسان ويضفى على المجتمع طابعه الخاص، فالهوية نتاج المعانى التى يشيدها الأفراد عبر اللغة، ثم تنتهى تلك الفقرة إلى أن «اللغة أو الخطابات اللغوية هى التى تعكس كل ما تزخر به المنظومة المجتمعية من أوجه الوفاق والصراع. وحينما يتحول التقرير إلى اللغة العربية لا يتردد فى تحميلها مسئولية كل شىء: فهى مناطق الأمل فى تجاوز المجتمعات العربية تخلفها الراهن، فمنظومة اللغة.. هى من أهم مداخل الحيوية فى جميع أرجاء منظومة المعرفة هذه، اللغة هى الآلة التى ندرك بها العالم من حولنا، وهى الأداة التى نعبر بها عن هويتنا الفردية والاجتماعية، وبهذا المعنى تشخص اللغة - بما هى فاعل جوهرى - فى بعث الحيوية وتجسيد مناحى الإبداع فى شتى وجوه المنظومة الثقافية فى مجتمع المعرفة.

إن تحميل اللغة مسئولية إحداث الحيوية أو إعاقتها يعنى صراحة تحميلها مسئولية «صنع» النهضة أو إعاقتها. لكن السطور السابقة من التقرير تزخر فى الواقع بكل التوصيفات المعروفة حتى الآن لوظيفة اللغة، وتتأرجح فى تناقض غريب بين القول بأن اللغة «تعكس» الكينونة والوجود والهوية، وبين القول بأن تلك أمور تدرك فقط داخل اللغة أو عند وعينا اللغوى بها، وبين القول بأن اللغة تشكل «الهوية» وتضفى على المجتمع طابعه الخاص. وقد كان حريا بمن أعدوا التقرير أن يتفقوا حول ما إذا كانت اللغة تعكس الواقع المتخلف أم تصنعه، قبل التوصل إلى النتيجة القائلة بحاجة اللغة العربية إلى التطوير للتغلب على قصورها فى عصر ثورة المعلومات.

إن الحديث عن قصور اللغة العربية وعجزها عن مواكبة عصر المعلومات وتقنياتها هو التمهيد الحقيقى لما يحدث اليوم، ولما هو قادم غدا من «أمركة» القيم وأدوات التعبير عنها.

ونعود إلى مقولتنا الافتتاحية عن اللغة العربية باعتبارها بيت الكينونة دون أن نتبنى بالضرورة مقولات «هايدجر» المترتبة على ذلك الوصف من أن الأشياء كلها «تنشأ» داخل اللغة، مكتفين بالقول بأن وعينا بالكينونة أو الهوية يتم داخل اللغة، مع ما يعنيه ذلك من ربط عضوى صريح بين الهوية - أية هوية - واللغة، من ناحية، وأن اللغة لا يعزى إليها التقدم أو التخلف، ومن ناحية ثانية، ففى عصور الازدهار الثقافى والحضارى لم تكن اللغة العربية أبدا أداة إعاقة. وفى عصور التراجع الثقافى والحضارى اليوم - وهو المتغير الجديد - يتحدثون عن نفس اللغة العربية - وهى العنصر الثابت فى المعادلة.

وفى اليوم الذى يتم فيه ترسيخ مفهوم قصور اللغة العربية وتبنى لغة أخرى يرى البعض أنها لغة التقدم والعصرنة، كما فعلت إحدى الجامعات العربية، سوف يتم التخلى عن كينونتنا وهويتنا.

لماذا ننفرد نحن من بين شعوب الأرض بعدم القدرة على رؤية الأشياء فى أبعادها الصحيحة؟ وهى أن القصور ليس قصور لغة المعرفة بل التخلف فى إنتاج المعرفة؟ وحينما يذكر التقرير حالة الهند كنموذج رائد لإنتاج البرمجيات فإنه يتناسى أن التفوق الهندى لم يكن نتيجة لنهضة لغوية بل نهضة علمية مكنت الهند من إنتاج معرفة متقدمة بالبرمجيات، مع التذكير بما هو واضح وهو أن البرمجيات التى تصدرها الهند إلى دول العالم لا تستخدم اللغة الهندية، وهل اللغات الصينية والكورية والماليزية هى سبب النهضة التقنية فى تلك البلدان؟ وماذا عن حالة اللغة الكورية التى تستخدم فى جنوبى متقدم وشمالى متخلف؟ الثابت فى الحالتين هو اللغة والمتغير هو الواقع الحضارى والثقافى فى الكوريتين.

إن الحديث عن قصور اللغة العربية ليس مجرد تمهيد لـ «أمركة» جميع أوجه الحياة فى العالم العربى، بل البداية الحقيقية للفقدان النهائى للهوية العربية.

الكعكة فى يد اليتيم *

كان العرب دوما شديدى الاعتزاز بلغتهم، يرونها أجمل لغات الدنيا طرا، وأحفلها بعنصر السحر.. « إن من البيان لسحرا»، ولا أدل على ذلك من المكانة التى تتمتع بها عندهم مقامات الحريرى، فقد اعتبروها منذ ظهورها، وبسبب مؤهلاتها اللغوية، عملا لا يجارى، وقال عنها ياقوت الحموى فى كتابه «معجم الأدباء»: «حتى لو أنه – أى الحريرى ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره، أو يرد قوله». وقد نالت المقامات لمدة تزيد على سبعة قرون تقديرا يلى القرآن الكريم مباشرة، وهو الكنز الرئيسى للسان العربى.. تبارى معاصرو الحريرى وأخلافهم فى الإشادة بها، وتكالب علماء اللغة العربية من الأندلس إلى ضفاف نهر جيحون على شرحها وتقويم بلاغتها المذهلة، وأصبح سبر أغوارها وفهم تورياتها المتنوعة الغرض الأسمى للمشتغلين بالآداب، ليس فقط بين الشعوب الناطقة بالعربية، بل أيضا حينما درست اللغة العربية دراسة علمية.

نزع العرب منذ بداية دولتهم – وربما قبل ذلك – إلى الاعتقاد أنهم خير الأمم، لا بفضل جمال لغتهم فحسب، وإنما لخصال أخرى عديدة كالشجاعة والإقدام والصبر والكرم والنجدة، إلى آخره، ثم لأن الإسلام نشأ بينهم، ورسول الله عليه الصلاة والسلام من أنفسهم. وهم الناشرون لهذا الدين بين الأمم، والداعون إليه، فكل من أسلم من العجم فى عنقه منة من العرب لا تقدر، هم الذين أنقذوه من الضلالة وأخرجوه من الشرك إلى التوحيد، وهم الذين اصطلوا نار الحروب لهدايته وقتلوا أنفسهم لحمايته.

غير أنه ما مضى زمن طويل حتى تصدى لهم الشعوبيون من أبناء الأقطار المفتوحة ينكرون معظم هذه المزاعم، ويجنحون إلى الحط من شأن العرب، وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم. وكانت حجة هؤلاء الشعوبيين أن العرب ليست لهم أية ميزة غير لغتهم، بينما يفخر الرومان بعظم سلطانهم وبقوانينهم، والهنود بحكمتهم وطبهم، والصينيون بصناعاتهم وفنونهم، وما إلى ذلك، ثم إنه ليس من حق أية أمة أن تدعى أنها خير الأمم. فالناس كلهم من طينة واحدة، وسلالة رجل واحد، وإنما يكون التفاضل بين الأفراد بالأفعال والأخلاق لا بالآباء والأحساب. وفى الحديث الشريف: «ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى» فإن فخر العرب بالملك أجبناهم: أين ملك العرب من ملك الفراعنة والأكاسرة والقياصرة أو من ملك

---

* أ. حسين أحمد أمين، جريدة الأهرام – ٣٠ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

الإسكندر وسليمان؟ وإن فخروا بالصناعة والعلم، فالعرب أضعف الأمم فى ذلك شأنا، وأعقمهم يدا، وأجدبهم عقلا.. وإن فخروا بالنبوة فجميع الأنبياء من غير العرب ما خلا أربعة هودا وصالحا وإسماعيل ومحمدا، أما إن فخروا بالإسلام، فإنا نجيبهم: ليس الأسلام دين العرب وحدهم بل هو دين الناس كافة، والإسلام نفسه حارب نزعتكم فهدم العصبية الجاهلية، وجعل مقياس الشرف التقوى، فالدين إذن بيننا وبينكم، والدنيا نحن نحظى بها، وأعرف بمزاياها، وأكثر تفننا فى شئونها. ثم لا ميزة لكم بعد كل هذا غير اللغة.

وباعتراف غير العرب للعرب بالتفوق فى مجال اللغة بات تركيز العرب فى المقام الأول عليها. فاللغة العربية أرقى اللغات السامية، كما يقرر دارسو تلك اللغات، لا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية ولا غيرهما، وهى كذلك أرقى لغات العالم، تمتاز حتى عن اللغات الآرية بمرونتها وسعة اشتقاقها. فإذا قيس ما يشتق من كلمة عربية من صيغ متعددة، لكل صيغة دلالة على معنى خاص، بما يقابلها من كلمة أفرنجية وما يشتق منها، كانت اللغة العربية فى ذلك أوفر وأغنى. فمثلا اشتقوا من الضرب: ضرب ويضرب، واضرب، وضارب ومضروب، وسموا آلة الضرب مضربا، وقالوا ضاربه أى جالده.

واضطرب الشيء: تحرك وماج. وحديث مضطرب، وأمر مضطرب، والضريب ما فرضته بالقوة. وهناك المضاربة فى سوق المال، وضرب الدراهم والدنانير (أى سكها)، وضرب فى الأرض إذا سار فيها مسافرا.

وضرب فى سبيل الله: نهض وضرب على يده، كفه عن الشيء ومنعه، وأضرب عن العمل: كف. والضرباء: الأمثال والنظراء. وضرب الأمثال ذكرها.. إلى آخره مما يدل على غنى العربية فى الاشتقاق والمجاز، وهو غنى قل أن تجاريها فيه لغة أخرى.

قارن بين هذه الكلمات العربية وما يقابلها فى اللغة الإنجليزية مثلا:

يكتب: Write. كتاب: Book. مكتوب: Letter. مكتبة Library. مكتب -Office مكاتبات Correspondence. اكتتاب.Subscription : مكاتب: Reporter مكتوب -Destiny : fated كاتب Secretary : كتيبة .Squadron كتابى .Scriptural استكتابى Dictaphone.. إلخ.

ثم هناك ما هو أغرب من ذلك، وهو امتداد جذور الكلمات العربية إلى الأصوات الطبيعية، والعلاقة الوثيقة بين الصوت والمعنى. فصوت الغين يوحى بالغيبوبة والغياب، كما فى غاص، وغاض، وغرب، وغرز وغمر، وغشاوة، وغفلة، وتغرير.. بل إن الحرفين إذا سبق

أحدهما الآخر أوحى بمعنى، وإن تبعه أوحى بمعنى آخر. فإن سبقت العين القاف أوحت الكلمة بالشلل عن الحركة أو عن أداء الوظيفة كما فى عقر البعير، والمرأة العقيم، والعقاب الرادع، والعقل الذى يكبح الشهوات، والعقدة فى الموضوع، والعقلة فى اللسان، إلى آخره وإن سبقت القاف العين أوحت الكلمة بحركة إلى أسفل، كما فى تقاعس عن العمل، وتقاعد، وقعد، وقاع البئر، وقعره، إلى آخره. كل هذا وغيره كثير، دفع رجلا كابن جنى، وهو يونانى الأصل، إلى القول فى كتابه الرائع عن اللغة العربية « الخصائص».

إننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة، ما يملك على جانب الفكر، حتى يكاد يدنو به من غاية السحر، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه أو أنها وحى».

لهذا كان لفخر العرب بلغتهم ما يبرره. وقد حفلت كتبهم وما أثر عنهم من أقوال بما يشهد بهذا الاعتزاز، ويورد دواعيه. من ذلك:

«من أحب أن يزدرى الناس كلهم فليتعلم العربية» – «علم العربية هو الدين بعينه» (أبو عمرو ابن العلاء) – «اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه» (عبد الملك بن مروان) – سأل رجل حسن الهيئة المبرد عن مسألة «فلحن»، فقال له المبرد: «يا هذا! إما أن تلبس على قدر كلامك وإما أن تتكلم على قدر لباسك !» – «دخل أعرابى السوق فسمعهم يلحنون فقال: «العجب! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح» . تكلم الخليفة أبو جعفر المنصور فى مجلس فيه أعرابى فلحن، فصر الأعرابى أذنيه، فلما لحن مرة أخرى أعظم من الأولى قال الأعرابى: أف لهذا! ما هذا؟ ثم تكلم المنصور فلحن الثالثة، فقال الأعرابى: أشهد لقد وليت الخلافة بقضاء وقدر! – «والله ما استوى رجلان دينهما واحد، ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن، إن أفضلهما فى الدنيا والآخرة الذى لا يلحن».(عمر بن هبيرة) – «ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه؟ أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته؟» (هارون الرشيد).

هذه المرونة التامة فى اللغة العربية، وهذه القدرة على الاشتقاق والمجاز والقلب والإبدال والنحت، هما اللتان مكنتا اللغة العربية من أن تكون لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، وما فيهما من معان رفيعة سامية، وتعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية، ولم يكن للعرب بها عهد فى جاهليتهم، كما استطاعت بعد ذلك أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان وغيرهم.. ففى نحو ثمانين عاما من بدء العصر العباسى، كانت خلاصة كل هذه الثقافات مدونة باللغة العربية، على الرغم من أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئا من

مصطلحات الحساب والهندسة والطب، ولا شيئا من منطق أرسطو وفلسفة أفلاطون، فإذا هم وقد أصبحوا يعبرون بالعربية عن أدق نظريات إقليدس، وحساب الجيب الهندى، وما وراء المادة لأرسطو، ونظريات الهيئة لبطليموس، وطب جالينوس، وحكم برزجمهر، وسياسة كسرى، وما كانت تستطيع ذلك كله لولا ما بلسانهم من حياة ومرونة ورقى. وبذا خرجت العربية من هذا المأزق سليمة قوية واسعة، هى لغة الدين، ولغة العلم والفلسفة، ولغة الأدب، واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة. فاللغة السريانية التى ترجمت إليها الكتب اليونانية، أخذت تتدهور بعد أن نقل ما فيها إلى اللغة العربية. والفرس فى ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هى اللغة العربية، إن ألفوا وشعروا أو كتبوا فبالعربية أما اللغة الفارسية فإنما كانت تستخدم فى الحديث بين عامة الناس، أو فى طقوس الديانة المجوسية. وكذلك اللغات الأخرى، من يونانية فى الشام، أو قبطية فى مصر. وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت فى تأليفها وأدبها وعلومها نتاج كل هذه الأمم، تعبر عن كل أفكارهم، ويكسبون هم منها ما أفرزته من ثقافة دينية وأدبية.

كان ذلك إبان العصر الذهبى للغة العربية فما الذى عساه أن يكون قد حدث بعد ذلك فتسبب فى تباطؤ نموها وتطورها، ثم فى انحسارها وتدهورها، حتى باتت اليوم مهددة بالاندثار على نحو اندثار نحو ثلاثمائة لغة ولهجة من لغات ولهجات العالم خلال القرن العشرين.

بدأت محنة هذه اللغة العظيمة مع العصر العباسى الثانى حين كتب النصر للمعسكر الداعى إلى التشبث بالقديم وعدم الحيدة عنه، على المعسكر الداعى إلى التجديد والتطوير والمرونة، بفضل قوة اتصال الأول بالخلفاء وكثرة الأتباع والأشياع، ولجوئه إلى المكر إذ صبغ دعوته صبغة دينية وقد أثرت هذه الدعوة تأثيرا ضارا لا فى اللغة العربية فحسب، بل وفى الأدب العربى كله، وفى تكييف العقلية العربية. والغريب الشائق أن الغالبية العظمى من أصحاب الاتجاه المحافظ الرافض للتطوير والمرونة كانت من الأعاجم المستعربين، فالأعجمى إذا استعرب كان قصارى همه وغايته أن يصل فى فنه إلى العربى الأصيل، ولا تحدثه نفسه أن يبتكر فى القديم، أو يجدد فى الشيء الأصلى. فكان أن قضى على المرونة باعتبارها مستنكرة، وأغلق باب الاجتهاد فى اللغة باعتباره بدعة.

ثم توالت المحن بتدهور حال الأمة، وحال الثقافة عند أبنائها، ثم بالغزو العسكرى فالغزو الفكرى الأجنبيين، مما تسبب فى انحسار ثقة العرب – خاصة من الشباب – بأنفسهم، وبتراثهم ولغتهم ونظمهم، فضعفت حصيلة الشباب من اللغة العربية، وكذا قدرتهم على التعبير بها عما يدور بنفوسهم من مشاعر، وبأذهانهم من أفكار. وقد حرمهم فساد منهج

تعليم اللغة العربية فى مدارسنا من القدرة على النظر فى كتب التراث العربى القديم لعجزهم عن فهم لغتها، فإن نظروا فيها كان ذلك من قبيل الرغبة فى التندر على سخافة نظرة الأسلاف، خاصة من جانب المتفرنجين المبالغين فى النظرة إلى الغربيين وكأنهم أنصاف آلهة، والمبالغين فى التحقير من شأن تراث أمتهم الذى حسبوه المسئول عن التخلف الذى صرنا إليه. وبانقطاع صلتهم بتراثهم وماضيهم، تلاشت القدرة على الاستعانة بالجانب الحى الإيجابى من التراث فى مواجهة تحديات المستقبل.

إنى لأذكر كيف أن مدرس اللغة العربية فى السنة الأولى من مدرستنا الثانوية (وكنت فى الثانية عشرة من العمر) كان يأتينا من حين لآخر بمجلد من «كتاب الأغانى» ليقرأ على تلاميذ الفصل مختارات منه عن امرئ القيس أو عمر بن أبى ربيعة، دون أن يجد حاجة إلا إلى شرح عدد قليل من المفردات.. فإن كان الوضع كذلك فى صباى، فما الذى عساه أن يكون قد حدث خلال السنوات الستين الماضية؟ هذا مع اعترافى بأنى أنا أيضاً كثيرا ما أجد صعوبة فى فهم تعابير يستخدمها شباب اليوم، مثل: إحنا اللى بهيظنا الفهايص... روش – صباح الهرتلة فنش– شنبرة – كامننا – كاتش كادر فى الألولو، إلى آخره، ناهيك عن صعوبة فهمى للغة الممثل محمد هنيدى، أو المغنى شعبان عبد الرحيم وأمثالهما، وهى التى تفوق ما يصادفه شبابنا اليوم من صعوبة فى فهم أشعار البحترى أو أبى تمام.

أضف أن الكثير من الإعلانات التجارية فى الصحف والمجلات، وفى الإذاعة والتليفزيون وكفيهاتها تقريبا فى الشوارع، (فى مصر على الأقل)، باتت العامية لغتها.

وقع بصرى الآن على إعلانين فى الصحيفة اليومية، الأول «دلوقت موبنييل معايا، هاجيبك من تحت الأرض» والثانى: «الانترنيت عندنا ببلاش. اطلب ٧٠٧. وما تستناش Balooshy.Com، وأبو بلاش كتر منه!»، أما المتاجر والمطاعم والفنادق فلافتاتها بلغة أجنبية، بحروف لاتينية أو عربية (سويت سيكستين «هو الاسم الذى اختاره لدكانه، لسبب ما، نجار فى المنطقة التى أسكنها) ثم أسوق فى النهاية عنوان خبر (إى والله خبر) فى نفس العدد الذى أشرت إليه فى الصحيفة اليومية، هو: «أبر كرومبى أند كنت إيجيبت تكرم ناشيونال جيوجرافيك» (لاحظ أن كلمة «تكرم» كلمة عربية).

أعود إلى القصد من مقالى هذا: وهو أن العرب – بعد أن انتزعت من يدهم السيادة على إدارة الدولة الإسلامية منذ بداية العصر العباسى، صارت اللغة العربية وحدها هى ما بوسعهم – ومن حقهم – أن يعتزوا ويفخروا بها.. أضحت كالكعكة فى يد اليتيم، تثير عجب الحقود

اللئيم الذى يستكثر على اليتيم أن يكون فى حوزته شىء، فيعقد العزم على انتزاعه منه حتى يصبح خالى الوفاض. وقد نجح بالفعل فى تحقيق ذلك، (من عنده سيعطى، ومن ليس عنده سيؤخذ منه).. دمر ثقة العرب بأنفسهم تمهيدا لانهيار ثقتهم بعد ذلك بما فى أيديهم من أدوات بما فى ذلك اللغة.. كان أبى الذى اعتاد فى شبابه الاستماع إلى خطب سعد زغلول ثم أحمد ماهر فإبراهيم عبد الهادى فنجيب الهلالى (وكلهم من أساطين السياسة واللغة معا) لا يصبر على الاستماع إلى أكثر من دقيقتين من خطاب لجمال عبد الناصر بسبب توالى الأخطاء النحوية على لسانه، على الرغم من شدة رغبته فى معرفة ما سيقوله... وكان أن تعلم شبابنا أن اتقان اللغة ليس شرطا لبلوغ رفيع المراكز ولا للحظوة لدى صاحب السلطان، ولا فسادها وقبحها مانعين من أن يصبح هذا كبير الممثلين، ولا ذاك أشهر المطربين. كما تعلم أن نيل الترقى والنجاح لا يتوقف على ما تعرفه بقدر ما يتوقف على من تعرفه.

موجة تغريبية جديدة فى عصر الهزيمة*

لم يهدأ دعاة التغريب والانسلاخ من الهوية منذ بداية القرن العشرين وإلى اليوم، وقد اتخذت هذه الدعوات أشكالا مختلفة فى مجالات عدة، وقد حظيت اللغة العربية بنصيب الأسد، فقد طالب عبد العزيز باشا فهمى فى الثلاثينيات من القرن الماضى باستخدام الحروف اللاتينية فى اللغة العربية، واليوم يطالب البعض بإلغاء عدد من قواعد اللغة العربية بحجة أنها أصبحت غير قادرة على مسايرة الحياة اليومية، فإما أن تجدد اللغة نفسها وتطور قواعدها وأساليبها، وإما أنها ستنقرض كما انقرضت اللاتينية وغيرها من اللغات.

يقول د. كمال بشر الأمين العام لمجمع اللغة العربية «هذه القضية قد أثيرت من قبل وقضية التطوير ليست جديدة وكل ما يقال فيها مكرر ومتداخل بعضه مع البعض ويحتاج إلى وقفة قومية صادقة مخلصة للنظر فى الأمر، وقد ناقشت ذلك كله فى كتاب لى بعنوان «اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم»، وأضاف: إن قضية كبيرة كهذه لا يكتفى بمناقشتها فى الصحف لأن لها جوانب وأسرارا كثيرة تتعلق باللغة وأصحاب اللغة، ولذا فإن الأمر يحتاج إلى مناقشات ومحاورات عامة فى شبه مؤتمرات أو ندوات تعالج القضية من أصولها بالكشف عن الحقيقة وأسباب مشكلات اللغة. مع محاولة التفكير فى طرائق علاجها، مع أن كل الدعاوى السابقة لا تنم عن ضعف اللغة ولكن ضعف مستخدميها».

وأوضح د. عبد العزيز حمودة أستاذ الأدب الإنجليزى أن الاتجاه العام الأخير هو التشكيك فى قدرة العربية على مسايرة روح العصر وخاصة فى عصر المعلوماتية، بل إن ذلك قيل صراحة فى تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة. والذى اتهم اللغة العربية ومؤسساتها متمثلة فى مجامع اللغة العربية بالجمود، وهذا الاتهام صريح وهو جزء من حملة التشكيك التى تمارس ضدنا لإقناعنا بدونيتنا ودونية العقل والثقافة العربية، وهى ليست مؤامرة جديدة بل قام بها الاستعمار على مر عصوره لتشكيك الشعوب المستعمرة فى ثقافتها وإحلال الثقافة الواردة محلها، وهو ما يحدث اليوم.

وإذا كان هناك قصور فليس قصور اللغة العربية حيث تؤكد شواهد التاريخ أن هذه اللغة لم تكن عائقا على الإطلاق، ففى العصر العباسى حينما كان العقل العربى متفتحا كان منتجا للعلوم الطبيعية والتجريبية، ولكن ماذا حدث اليوم؟ اللغة هى الثابت عند العباسيين وعندنا

---

* أ. مسعد الحوفى، جريدة آفاق عربية، تحقيق، ٢٤ من يونيو ٢٠٠٤م.

ولكن المتغير هو التفكير فقد أصبحنا مستهلكين وليس منتجين، فأى لغة ليست قاصرة، وإنما العجز فى أهلها، فاللغة الهندية رغم صعوبتها إلا أنها تغزو العالم اليوم فى الميكروسوفت وهكذا الصينية، ولم تمنع صعوبة اللغة من الانتشار لأن أهلها تقدموا، فلماذا العربية هى الوحيدة التى نطالبها بالتطوير؟ نحن محتاجون إلى التمسك بلغتنا فى هذه الفترة أكثر من أى فترة مضت، ويجب أن نعرف أن الفكر سابق اللغة واللغة تابعة له، فإذا حدث انحطاط فى الفكر تبعه انحطاط فى اللغة، وهو ما يحدث عندنا فلا نلقى تبعية التخلف على اللغة وإنما نحن الذين تخلفنا، فما ذنب اللغة؟

أما قضية صعوبة اللغة وإمكانية حذف بعض القواعد فيشير د. أحمد كشك عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، إلى أن الفصحى أصبحت صعبة بسبب قلة استعمالها فى الحياة اليومية وهذا شأن كل لغة فى العالم، لكن إلغاء قواعد من اللغة يعد هراء وليس حلا للمشكلة، ولا ضرر من وجود العامية بجوار الفصحى بشرط أن تكون الفصحى هى الأساس، وهذا موجود فى كل لغات العالم دون حدوث مشكلة، لكن المشكلة تظهر عندما تتسع الفجوة بينهما فإنجليزية شكسبير تختلف كثيرا عن إنجليزية رجل الشارع اليوم، ولكن المهم هو أن تظل اللغة الأصلية موجودة للحفاظ على الهوية والتراث والتفاهم مع الآخرين، والذى أوصلنا إلى ما نحن به اليوم هو النظام التعليمى الفاشل الذى يتعلم فيه الطفل فى المرحلة الابتدائية الإنجليزية فى حين أنه لا يعرف شيئا عن العربية، فقد تقلص الشعر والأدب والقرآن (أفضل ما يساعد على تعليم اللغة العربية الصحيحة)، وبذلك أصبح الطالب يتخرج فى مراحل التعليم قبل الجامعى لا يعرف شيئا عن اللغة، لأنه لم يحفظ قرآنا أو شعرا ولم يتذوق الأدب، فأنّى له أن يتعلم لغة صحيحة؟ فلا يستطيع أن يدرك ذلك فى الجامعة، وإذا ما طالبنا فى الجامعة بتحفيظ القرآن يقولون هذه رجعية وعمل مشايخ، فأصبح الأمر غوغائية، فالمسألة معروفة أبعادها وسهلة لو وجدت الإرادة لحلها، فبداية من المدرسة والجامعة ووسائل الإعلام والأئمة كل هؤلاء مسئولون عن تدهور اللغة لدى الناس.

أما د. سامى نجيب رئيس جمعية لسان العرب، فيؤكد أن هذا الكلام منذ عهد سلامة موسى ولطفى السيد، وهو فكر علمانى مستمر، يقصد الطعن فى القرآن، لأن اللغة العربية هى لغة القرآن، فالمرحلة الأولى التشكيك فى اللغة وحذف بعض قواعدها وجعل العامية هى اللغة الأصل، ثم يندرج ذلك على القرآن مستقبلا، لكن ذلك لن يكون، فهذه أساليب فاشلة فكون أن لغة تستطيع المحافظة على نفسها على مر ١٥٠٠ عام فإن هذا يعنى أنها أكبر من أى محاولة لطمسها أو تشويهها، لكن ذلك يدعونا إلى الاهتمام بالفصحى الميسرة بحيث تكون

سهلة للتداول، وأن تكون لغة المحادثات الطبعية فى المدارس وفى كل الأوقات من خلالها، وهذا جهد يجب على النحاة أن يقوموا به سريعا، حتى لا نجد أنفسنا أمام مخططات الآخرين.

كما أضاف د. محمد يونس الحملاوى الأمين العام للجمعية المصرية لتعريب العلوم، يجب الانتباه لخطر هذه المحاولات والوقوف أمامها، لأنها تستهدف الأجيال القادمة رويدا رويدا، فإلغاء بعض التراكيب من أجل أن إنسانا يجهلها أو لضعف البعض هو اتجاه لتكسير اللغة، ولا يصب إلا فى مصلحة المستعمر، الذى يهدف إلى طمس الهوية، وقطع علاقتنا بتراثنا وبقرآننا، ثم جعلنا أتباعا فى كل شىء.

وتبقى هذه المحاولة المفضوحة شاهدة على مدى الاختراق الثقافى الذى وصلنا إليه وخاصة فى المؤسسات القومية، ولكن هل يقف الوطنيون من المثقفين بنفس القوة التى وقف بها أسلافهم ضد هذه الحملات الخسيسة؟ ذلك ما نطمح إليه وما ستكشف عنه الأحداث القادمة.

اللغة العربية وعصر العولمة *

تستهدف هذه الدراسة تأكيد حاجتنا الماسة لنهضة لغوية شاملة تلبية لمطالب العصر الذى نعيشه، لقد باتت إشكالية اللغة من الشمولية بحيث لا يمكن تناولها انطلاقا من منظور التخصص الضيق، ومن الخطورة بحيث لا يمكن إرجاؤها دون استراتيجية واضحة للإصلاح اللغوى الشامل، وذلك فى إطار خطط قومية أكثر شمولية لإعداد مجتمعاتنا لدخول عصر المعلومات، وهو العصر الذى للغة فيه دور محورى وأساسى على جميع المستويات: المعرفية منها والتربوية والثقافية، بل والسياسية والاقتصادية أيضا.

ولسنا بحاجة هنا كى نؤكد على أهمية اللغة من حيث دورها فى ربط أواصر الكيان المجتمعى، وتشكيل وعى الجماعة الناطقة بها، وكذلك بصفتها مرآة لمعرفة ذاتنا، وأهم ما يميز طبيعتنا البشرية، وأكثر الوسائل حسما فى فهم هذه الطبيعة وسبر أغوارها.

يتعاظم باطراد دور اللغة فى صياغة شكل المجتمع الحديث، سواء من داخله أو من خارجه، ويقصد بـ «الداخل» هنا: أنماط وحصاد نتاجه المعرفى والثقافى والفنى، وكذلك الإنتاجية الشاملة لأفراده ومؤسساته، والعلاقات التى تربط بينهم، أو تربط فيما بينها وبينهم، أما ما نقصده بـ «الخارج» فهو العلاقات التى تربط المجتمع بغيره، والعوامل التى تحدد ثقله على الخريطة العالمية، ودعنا نؤكد فى البداية أن نجاحنا فى اللحاق بركب الحضارة المعاصرة رهن بنجاحنا فى أن نؤمن للغتنا العظيمة شروط عضويتها فى «نادى تعدد اللغات العالمى» الذى أخرجته إلى حيز الوجود النزعة المتنامية نحو «العولمة» التى نشهدها حاليا.

من منظور هذه الدراسة، تعنى حركة العولمة إسقاط الحواجز اللغوية كشرط أساسى، لدمج بلدان العالم وثقافاته المختلفة فى كيان عولمى، يتسم بالشفافية اللغوية، لتنساب من خلالها المعلومات، ويتفاعل من خلالها الأفراد والجماعات والمؤسسات، ولا يمكن للغتنا العربية أنْ تلحق بهذا الركب إلا بتوافر البنية الأساسية اللغوية التى تؤهلها للتفاعل اللغوى الدينامى مع لغات العالم الأخرى.

---

* د. نبيل على، ندوة قضايا اللغة العربية فى عصر الحوسبة والعولمة، اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الأردنى، ١٦-١٩ من سبتمبر ٢٠٠٢م.

مع نشأة الصناعة وتزايد حركة النزوح إلى المدن التى صاحبت تلك النشأة برزت اللغة كعامل اقتصادى، حيث ظهرت الحاجة إلى وضع الضوابط والقياسات لتقنين عمليات التواصل اللغوى داخل المجتمع، هذا بعض من شأنها فى اقتصاد الأمس.

أما اليوم فقد احتلت اللغة مركز القلب فى منظومة المجتمع الحديث، الذى أصبحت الثقافة هى محور تنميته، وأهم صناعاته، وأمضى أسلحته، وفى رأى كثيرين أن أداء المجتمع ككل هو ناتج التفاعل بين الخطابات المختلفة التى تسرى بداخله، تلك الخطابات التى يصوغها لتعيد هى صياغته فى دورة لا تنتهى، يصعب التكهن بقادمها استنادا إلى سابقها، فالمجتمع - شأنه فى ذلك شأن لغته - قادر دوما على إحداث المفاجأة، وكم هى كثيرة مفاجآت مجتمع المعلومات الذى حل بنا بالفعل، والذى لا يفوق قدرته على حل المشكلات إلا قدرته على استحداث مشكلات أخرى، وستظل اللغة كعهدنا بها مصدرا للمشكلات وأداة حلها فى الوقت نفسه.

رغم كثرة ما كتب عن العولمة وما أثير حولها من قضايا، تظل أبعد ما تكون عن التحديد، سواء من حيث ماهيتها أم مآلها، فما زال خطاب العولمة رهنا بالمبادرات الأكاديمية والمجازفات الفكرية، ولا زال نطاق الجدل يتسع حتى يكاد يشمل أمور الحياة: من السياسة إلى العقيدة، ومن الثقافة إلى التقانة، ومن البيئة إلى التنمية، ومن صناعة الإعلام إلى صناعة البرمجيات، ومن أمور السيادة الآلية إلى حقوق الأقليات والملكية الفكرية. لكل من هذه الأمور المركبة عنصره اللغوى الذى يغرى بالكشف عنه، وعن شبكة العلاقات الكثيفة التى تربط بين هذه العناصر التى يتعذر بدونها محاصرة إشكالية: «العولمة - اللغة»، وهى المحاولة - أو المغامرة إن شئت - التى يقوم الكاتب بها حاليا لاستشكاف منطقة التداخل بهدف بلورتها فى تقابل ثنائى يطرح العولمة من منظور اللغة تارة، واللغة من منظور العولمة تارة أخرى. سيقتصر حديثنا هنا على المقولة الأساسية التى يتمحور حولها خطاب العولمة حاليا، ونقصد بها تلك التى تتراوح فيها العولمة ما بين بشرى الوفاق ونذير الصراع، وأستعيد العولمة إنتاج رأسمالية أيامنا فى صياغة معلوماتية تؤدى إلى هيمنة القطب الأمريكى اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، هيمنة تفرض على العالم بأسره نمطا واحدا من التنمية الاجتماعية والثقافية فى ظل (لا بديل) الحتمية الأقتصادية، أم أنها - أى العولمة - ستفتح أمام البشرية آفاقا جديدة جاعلة من الثقافة محورا للتنمية، ومن الاقتصاد تابعا للعولمة، لا موجها لها، فى ظل «هيتروطوبيا» من تعدد بدائل التنمية، وتنوع الثقافات وامتزاجها؟

ما يهمنا هنا أن نشتق من أطروحة الوفاق والصراع تلك جانبها اللغوى، نستهله بما أورده «محمود أمين العالم» فى صدد دفاعه عن الخصوصية اللغوية، يقول العالم: «كما أخذت العولمة تفضى بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات هذه الدول المهيمنة فى العلاقات التجارية والاقتصادية، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة ... إن معنى ذلك هو تهميش اللغات والثقافات القومية واحتوائها واستتباعها كمدخل لاستتباعها سياسيا واقتصاديا وثقافيا».

يؤكد المشهد اللغوى العالمى صحة ما خلص إليه أمين العالم ولا سيما فى مجالى الإعلام والمعلومات، وجاءت الإنترنت لتفتح بوابات الفيضان مثيرة الفزع لجميع الأمم غير الناطقة بالإنجليزية وقد انتابها قلق شديد على مصير لغاتها القومية وهى تنجرف أمام تيار المعلومات الهادر ولغته الإنجليزية.

وكان من السهل أن أطلق على هذه الظاهرة مصطلح «الإمبريالية اللغوية» كتخصيص لمصطلح «الإمبريالية الثقافية» الذى شاع استخدامه هذه الأيام؛ ولكننى فضلت أن أصف هذه الظاهرة بـ «الداروينية اللغوية» وذلك لسببين: أولهما – أن الإمبريالية قد ارتبطت فى الأذهان على أنها أمر يخص الدول النامية والمستضعفة دون الدول المتقدمة، وهو الأمر الذى يتنافى مع كون هيمنة اللغة الإنجليزية أمر يشغل العالم أجمع متقدمه وناميه، فهو يهدد فرنسا كما يهدد الجزائر والمغرب، ويهدد الدول الاسكندنافية كما يهدد شعوب أمريكا اللاتينية، وكما يهدد اليابان، فهو يهدد بنجلاديش وقبائل إفريقيا واستراليا. وثانى السببين– هو أن مفهوم «الداروينية اللغوية» نوع من التجاوب مع إحصائيات اليونسكو التى تشير إلى أن نصف لغات العالم مهدد بالانقراض حاليا، ولاشك أن ثمة علاقة بين اقتراحنا هذا ذى الطابع البيولوجى والصلة الوثيقة، التى تربط حاليا بين علم اللغة الحديث ونظرية الوراثة التى اتخذت من اللغة نهجا أساسيا لها.

فى ظل «مبدأ البقاء للأقوى» تضيق الإنجليزية الخناق على ما عداها من اللغات وهى توشك أن تخرج منفردة كلغة عالمية أو «إسبرانتو الأمر الواقع» كما يقولون، ويمكن لنا اقتفاء أثر ذلك على المستوى الاقتصادى والسياسى والثقافى بل والعلمى أيضا.

على صعيد السياسة والاقتصاد، لا يخرج موقف الولايات المتحدة، القطب اللغوى الأوحد بلا منازع، عن كونه صدىً لمصالحها الاستراتيجية سواء أكانت داخليا أم خارجيا فعلى المستوى الداخلى وبينما تتزعم الولايات المتحدة حملة عالمية من أجل فرض صيغتها الخاصة – والقاصرة عن حقوق الإنسان، بصورة أقرب إلى الشكلية والدعائية منها إلى

الجوهر – على البشر، بينما تفعل ذلك هاهى ذه تنكر على أقليتها حقها فى استخدام لغاتهم الأم، وكأنهم قد نسوا تاريخهم وما فعله (فرانكلين) فى صراعه ضد أنصار اللاتينية من أجل فرض اللغة المحلية. ولا يخفى على أحد كيف تعمل اللغة الإنجليزية داخل المجتمع الأمريكى كمصفاة للترشيح الاجتماعى، وكيف أصبح مستوى إجادتها عائقا منيعا يحد من حركة الصعود الاجتماعى لهذه الفئات المضطهدة لغويا، كما يحد مجال الفرص المتاحة أمامها سواء أكانت للتنمية الفردية أم الجماعية. ولا يجد النظام الأمريكى وسيلة أفضل لتبرير سياسة القمع اللغوى تلك إلا نموذج الجار الكندى، وما أدت إليه الثنائية اللغوية من صراعات بين الناطقين بالإنجليزية والناطقين بالفرنسية، ويعتقد كثير من ساسة الولايات المتحدة ومنظريها فى صدق الفكرة القائلة بأن ليس هناك من تنوع لغوى إلا وله ضريبة اجتماعية باهظة! واللغة بلا شك براء من هذا الافتراء الظالم الذى لا يصمد أمام التحليل الدقيق والشامل لكوامن الصراع الاجتماعى والذى تتصدر قائمة الأسباب الاقتصادية والعنصرية.

وما إن أدركت القوى الاقتصادية الأمريكية الأهمية البالغة لموارد المعلومات فى اقتصاد ما بعد الصناعة، حتى أخذت تشحن أسلحتها اللغوية تهيئة لصراع دولى متوقع على ساحة الثقافة، وليس من قبيل الافتعال أن نربط بين هذا التوجه الاستراتيجى وما شاهدته الساحة الأمريكية من تقدم هائل فى علوم اللغويات وهندسة اللغة منذ منتصف الخمسينيات. لقد مكنت تكنولوجيا المعلومات، الكثيفة لغويا، الولايات المتحدة من أن تجعل من شيوع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة مزاياها التنافسية التى تقهر بها باقى الأمم، وبفضل الإنترنت، ذراعها الطولى، تلك الشبكة الكوكبية التى تطفو على طبقات من اللغة نافذة ومتراكمة، استعادت الولايات المتحدة حلمها الذى كادت تفقده بأن يصبح القرن القادم هو الآخر قرنا أمريكيا لكونه فى الحقيقة قرنا «رمزيا» حيث سيكون للرمز فيه سلطة تفوق جميع السلطات.

تمارس الولايات المتحدة حاليا عبر مؤسساتها الإعلامية والاقتصادية والتكنولوجية أساليب عديدة ومبتكرة من الضغط اللغوى لا ترحم أحدا، عدوا أو حليفا، كبيرا أو صغيرا. فعلى صعيد الثقافة هاهى ذه فرنسا، منارة العالم الثقافية، تترنح أمام الإعصار الثقافى الذى يهب عليها عبر الأطلنطى، وعلى صعيد التقانة تكاد اليابان، قطب صناعة الإلكترونيات عالميا، أن تعلن انسحابها من صناعات البرمجيات تحت وابل البرامج ونظم المعلومات الإنجليزية الذى يرد إليها عبر الأطلسى وهو الأمر الذى حدا باليابان أن تولى اهتماما شديدا بأمور الترجمة الآلية أملا فى كسر عزلتها اللغوية التى فرضتها عليها لغتها الفريدة، ولا يختلف موقف ألمانيا كثيرا عن فرنسا واليابان سواء على جبهة الثقافة أم التقانة. هذا عن

شأن الكبار إزاء ظاهرة داروينية لغوية. أما لغات صغار عصر المعلومات -ومنها العربية بالطبع فيكتفى بتهميشها فى شبه غيبة من أهلها، ويتم ذلك عادة بإلحاقها كتوابع فى إطار نظم إعلامية ومعلوماتية يزعمون بأنها متعددة اللغات، وما هى فى جوهرها إلا محول إنجليزى يدور حوله باقى اللغات كأعضاء من الدرجة الثانية أو الثالثة، فيما أطلقوا عليه نادى اللغات العالمى. وفى الحقيقة وبالنسبة لصغار عصر المعلومات هؤلاء فإن همهم اللغوى همان لا هم واحد، فعلى مستوى التواصل الدولى فى إطار المنظمات والاتفاقيات الدولية غالبا ما يقتصر التعامل على لغات الكبار. فعلى مستوى التواصل لم تدرج اللغة العربية ضمن اللغات المعتمدة فى الاتفاقيات الدولية، وغالبا ما يقتصر التعامل على لغات الكبار، فعلى سبيل المثال لم تدرج اللغة العربية ضمن اللغات المعتمدة فى اتفاقية الجات بكل ما يترتب على ذلك من أعباء إضافية على صعيد الأنشطة الاقتصادية والتجارية وتقليل فرص العمل أمام من هم خارج النخبة اللغوية العالمية.

أما على الصعيد الثقافى، فلندع صراحة الأرقام تكشف لنا عن مدى سطوة اللغة الإنجليزية فى مجال الإعلام:

- ٦٥٪ من برامج الإذاعة باللغة الإنجليزية.
- ٧٠ ٪ من الأفلام ناطقة بالإنجليزية.
- ٩٠ ٪ من الوثائق المخزنة فى الإنترنت بالإنجليزية.
- ٨٥٪ من المكالمات الهاتفية الدولية تتم بالإنجليزية.

ولسنا بحاجة إلى أن نضيف هنا تلك المؤسسات الخاصة بشركات الإعلام الدولية متعددة الجنسيات ووكالات الأنباء وتوزيع الصحف وخلافه.

وفى مجال التعليم، تتصدر اللغة الإنجليزية – وبفارق كبير – قائمة اللغات التى يتم تعلمها كلغة ثانية (٥٠ مليون صينى يتعلمون الإنجليزية حاليا)، حتى قيل إن «الإنجليزية المكسرة» هى ثانى لغات العالم بعد الإنجليزية بالطبع، ولا يمكننا الفصل بين الظاهرة والمقاومة الشديدة التى تلقاها جهود تعريب العلوم فى الكليات العملية والردة إلى التدريس بالإنجليزية فى كليات التجارة، وعما قريب كليات الحقوق خاصة بعد أن سقطت «اللغة العربية» من قائمة لغات اتفاقية الجات.

فى أجياله الأولى كانت إمكانيات الكمبيوتر ونظم المعلومات محدودة نسبيا، وكان

استخدامه بالتالى مقصورا على التطبيقات العلمية والتجارية التى تتعامل عادة مع الأرقام دون النصوص، خلال نصف قرن وعبر رحلة مثيرة من التطور العلمى التكنولوجى الذى لم يسبق له مثيل، حقق الحاسوب درجة عالية من النضج مكنته من اقتحام مجال العلوم الإنسانية وعلى رأسها اللغة، لقد أصبح الكمبيوتر هو قطرة الوصل لسد الفجوة بين ثقافة العلوم الطبيعية وثقافة علوم الإنسانيات.

وكدليل آخر على تعاظم الدور الذى تلعبه اللغة فى تكنولوجيا المعلومات، نشير هنا إلى العلوم الأساسية الأربعة التى قامت عليها تكنولوجيا الجيل السادس من الحواسيب الإلكترونية، الذى يمثل ذروة التقدم العلمى لتكنولوجيا المعلومات حاليا.

- علم وظائف الأعضاء.
- علم النفس.
- اللسانيات (اللغويات).
- المنطق.

ولكن أين تكمن العلاقة المحورية بين اللغة وتكنولوجيا المعلومات؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أن ننظر إلى تكنولوجيا المعلومات بصفتها وسيلة لاستيعاب العالم من حولنا؛ وذلك بعد أن عجزت الوسائل التقليدية فى التصدى لتعقد هذا العالم بتشابكاته العديدة وديناميانه الهادرة، فلم تعد المواجهة مع العالم وظواهره - سواء المادية أم الذهنية - مقصورة على الاحتكاك المباشر معها بل أصبحت هذه المواجهة فى أغلبها من خلال البيانات والأرقام والمؤشرات والإحصاءات والرسوم البيانية، ومن خلال التجريد والمحاكاة وبناء النماذج وإعادة الصياغة والتمثيل الرمزى، وكلها أمور تلعب فيها تكنولوجيا المعلومات دورا رئيسيا، فى الوقت نفسه إننا ندرك هذا العالم من خلال منظور لغتنا الأم، فنحن أسرى ما تتيحه لنا وسائل التعبير المختلفة، وتسرى تيارات المعرفة إلى أذهاننا من خلال ما توفره لنا لغتنا من معانٍ ومصطلحات ومفاهيم، ومدى تفاعل أذهاننا مع المعرفة الوافدة رهن بعدتنا المعرفية التى هى بدورها وليدة اللغة صانعة العقل وصنيعته، وصدق فيلسوف اللغة (لودفيج فيتجنشتين) عندما قال «لغتى هى عالمى، وحدود لغتى هى حدود عالمى»، وبشكل موجز فإن التحالف الوثيق بين اللغة وتكنولوجيا المعلومات هو الوسيلة التى يتعذر بدونها استيعاب العالم من حولنا، وهنا تقبع همزة الوصل بين قضية اللغة وقضية المعلومات، لقد تلاحمت اللغة مع تكنولوجيا المعلومات تلاحما شديدا يزداد يوما بعد يوم؛ ولذا فإن قدرة مجتمعاتنا العربية للحاق بركب هذه الثورة المعرفية - التكنولوجية - يتوقف بصورة

أساسية على نجاحنا فى تأهيل هذه اللغة العظيمة لهذه المواجهة الحضارية الحاسمة. فإن سلسلت لنا لغتنا أصبحت عاملا مؤزرا لفاعليتنا وإبداعنا، وتحصين دفاعاتنا ضد تيارات الغزو الثقافى الكاسحة، وإن جمدت أصبحت حاجزا معتما يفصل بيننا وبين العالم، وهو وضع – إن حدث – سيدفع بالعرب جميعا إلى موقع مترد على أرصفة الطرق السريعة للمعلومات Information highways، فى عصر الإنترنت، عصر التعليم عن بعد، وعقد الاجتماعات عن بعد، والتحاور والتسامر من خلال المقاهى الإلكترونية، عصر التلفاز التجاوبى Interactive TV، والترجمة الآلية، والمعاجم الإلكترونية، والوسائط المتعددة Multi-media، والكتب الدينامية Dynamic books، والمناهج المبرمجة Coarse ware، والمكتبات المؤتمتة Automated libraric وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

اللغة ذات شأن جليل فى حوار الثقافات: حيث من المتوقع أن يتخذ أنصار العولمة من علوم اللغة مرتكزا أساسيا لعولمة الثقافة. فهؤلاء العولميون لا يقرون بالخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب، ويقفون بشدة ضد النسبية الثقافية، والنسبية اللغوية بالتالى. وهم – بلا شك– سيجدون ضالتهم فى التنظير اللغوى الحديث؛ حيث تندرج جميع اللغات الإنسانية فى إطار النظرية العامة للغة. لقد استوعبت هذه النظرية القواسم المشتركة بين اللغات، وكذلك مواضع اختلافها وتباينها. علاوة على ذلك، فقد تبنت هذه النظرية النموذج الذهبى للغة الذى يفترض كونها غريزة إنسانية، يشترك فيها البشر كافة.

صاحب انتشار ظاهرة العولمة تنامى نزعة التكتل الإقليمى، ولم يكن ذلك لمجرد المحافظة على الهوية والخصوصية الثقافية، بل تحركه دوافع اقتصادية وسياسية وأمنية فى المقام الأول. وفى هذا الصدد، تشهد أوربا – حاليا – توجهين متناقضين. أحدهما – يقوم على أساس التنوع اللغوى. والآخر يميل إلى الانغلاق فى إطار التوحد اللغوى. فبينما تعتبر كتلة الوحدة الأوربية التنوع اللغوى لدولها ١٧ (لغة) مصدرا لقوتها الاستراتيجية فى مواجهة القطب الأمريكى المتشبث بأحاديته اللغوية، تسعى ألمانيا إلى إقامة حلف لغوى ألمانى يجمع بينها وبين النمسا وسويسرا.

ولمجموعة الدول الاسكندنافية مشروعات مشابهة للتكتل اللغوى، وعلى مستوى ما فوق الإقليمى، يسود الساحة السياسية العالمية – حاليا – نشاط متزايد لإحياء التحالفات اللغوية مثل «الأنجلوفونية» و «الفرانكفونية» و «الإسبانوفونية».

أما على مستوى الدولة الواحدة، فيعد موقف اليابان من لغتها اليابانية، نموذجا للنضال ضد هيمنة القطب اللغوى الأوحد، ونقصد به الولايات المتحدة الأمريكية. فعلى الرغم من كل

إنجازاتها فى مجال صناعة العتاد والاتصالات والإلكترونيات الميكروية، فقد أيقنت اليابان أن مصيرها فى عصر المعلومات عموما، والإنترنت بصفة خاصة، رهن بمصير اللغة اليابانية. وتوالت جهود اليابان لتأمين موقع حصين لها على الخريطة الجيو لغوية، وكانت البداية فى مشروع الجيل الخامس الذى أطلقته اليابان فى بداية الثمانينيات بمثابة رد فعل تكنولوجى؛ بهدف كسر هيمنة اللغة الإنجليزية. وتوقف مشروع الجيل الخامس لأسباب عديدة، على رأسها ما تعرضت له اليابان من ضغوط أمريكية تكنولوجية واقتصادية وسياسية. ولم تتوقف جهود أهل اليابان فى الذود عن اليابانية، فراحوا يركزون على تكنولوجيا الترجمة الآلية من جانب، ومن جانب آخر، نراهم – حاليا – يستغلون تفوقهم التكنولوجى فى مجال المعلوماتية؛ من أجل انتزاع الزعامة اللغوية لتكتل الدول غير الناطقة بالإنجليزية.

تشير جميع الدلائل إلى أن التواصل عن بعد، عبر الوسيط الإلكترونى، سيقلب، مفهوم التواصل اللغوى الذى اعتدنا عليه رأسا على عقب، سواء من حيث طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل أم من حيث تنوع أشكال التواصل، واتساع نطاقه، وتعدد مطالب فاعليته. ولنأخذ – كمثال – التواصل «كتابيا» عبر الإنترنت من خلال البريد الإلكترونى أو حلقات «النقاش». إن هذا التواصل عن بعد، يتم باستخدام ما يمكن أن يطلق عليه أسلوب «الكتابة المحضة» التى تختلف عن شفاهة التواصل وجها لوجه، وذلك لسبب واضح، مؤداه: أن شفاهة الحوار المباشر تزخر بالانفعالات، وتؤازرها – عادة – ألوان متعددة ومتضافرة من أفعال الكلام، مثل: حركات اليد والعينين، وخلجات الشفاه، وتغيير ملامح الوجه وأوضاع البدن. ولاشك أن أسلوب «الكتابة المحضة» هذا، سيكشف النقاب عن مناطق، بقيت مجهولة إلى يومنا هذا، فى علاقة الشفاهة بالكتابة، وهى العلاقة التى مازالت محصورة – فى أغلبها – فى جوانبها الإملائية، دون التعرض للجوانب الاتصالية الأخرى، سواء الذهنية أم النفسية أم المعلوماتية.

على صعيد آخر، يتفق الجميع على أن التواصل الحالى عبر الإنترنت، والذى يسوده الطور الكتابى، هو مرحلة بدائية وانتقالية تمهد لتواصل أوسع نطاقا، تواصل «ما بعد الكتابة» الذى يمتزج فيه المكتوب مع المسموع، بالإضافة إلى المرئى من الصور الثابتة والمتحركة، مكونا رسالة اتصالية كثيفة المعلومات. نحن – بلا شك – إزاء نقلة نوعية، أقل ما يقال عنها، إنها ثورة فى أسلوب التواصل الذى اعتاده البشر منذ الأزل. وليس لدينا تصور واضح عن طبيعته وتوجهاته وآثاره النفسية والاجتماعية، واستخداماته الشخصية وغير الشخصية، ولكنه – بالحتم – سيطرح عديدا من الأسئلة المحورية حول العلاقات بين أنساق

الرموز المختلفة: نصوصا وأصواتا وأشكالا. نذكر من هذه العلاقات على سبيل المثال: العلاقة بين نبر الكلام وتنغيمه، وبين إيقاع الموسيقى ونغمتها، أو تلك الخاصة بمساهمة الصور فى فهم النصوص، واستغلال تحليل النصوص لغويا فى فهم الصور ذاتها، حيث - عادة - ما تتضمن النصوص إيضاحات تساعد على فهم القارئ الصورة الواردة بها.

أحسب أن هذا يكفى تأكيدا لما للغة من أهمية فى عالم اليوم ولتسمه ما شئت: معلوماتيا أو إعلاميا إلكترونيا أو شبكيا، عولميا أو كوكبيا أو كونيا، وعلى الرغم من هذه الأهمية مازال شق اللغة فى خطابنا الراهن عن العولمة يتراوح ما بين الضحالة والميلودراما، ما بين ملاحظات عابرة أو مقومات مطاطة غامضة يوردها البعض عادة فى مقام سرد الإجراءات الوقائية والاتقائية ضد أعاصير الغزو الثقافى، وهكذا زاغت القضية فى متاهات التعميم، وذابت تحت لهيب الحديث المنفعل الذى ينذر بفقدان الهوية وضمور الفكر وانكماش الفعل وردوده.

يزخر العالم بآلاف اللغات، وكل لغة تحمل العالم فى جوفها. «واللغة هى الهواء الذى نتنفسه»، وهى حولنا تحيط بنا من كل حدب وصوب، فهى وسيلتنا لإدراك العالم، ووسيلتنا التى تحدد المسافة بيننا وبين واقعنا. وأداة تعاملنا مع هذا الواقع، التى نحيل بها المحسوس إلى المجرد، ونجسد بها المجرد فى هيئة المحسوس، إنها الجسر الواصل بين خصوصية الذات وعمومية الموضوع؛ فهى التى تترجم ما فى ضمائرنا من معان - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته - لتستحيل إلى أدوات تشكل الحياة، وتوجه أداء المجتمع وسلوك أفراده وجماعاته ومؤسساته. واللغة هى قدر الإنسان الاجتماعى، فكما تكشف عن طبقته وجذور نشأته، تكشف - أيضا - عن عقليته وقدراته وميوله الفكرية، وكما أن اللغة ظاهرة وشائعة، فهى - بنفس القدر - بينة ومستترة، غائرة فى ثنايا النسيج الاجتماعى ومتاهة العقل البشرى، تمارس سلطتها علينا من خلال أيديها الخفية، تعمل عملها فى طبقات اللاوعى على اختلاف مستوياته: من اللاوعى الفردى النفس إلى اللاوعى الجمعى التراثى والسياسى.

اللغة هى الذات وهى الهوية، وهى أداتنا لكى نصنع من المجتمع واقعا، كما يقول «بيتر برجر». وثقافة كل أمة كامنة فى لغتها، كامنة فى معجمها ونحوها ونصوصها. واللغة - بلا منازع - أبرز السمات الثقافية. وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشرى، إلا ويبطن فى جوفه صراع لغوى، حتى قيل إنه يمكن صياغة تاريخ

البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية. وتشهد حضارة اليوم حركة نشيطة لـ «لغونة» العديد من جوانبها: السياسية والمعرفية والاقتصادية والأخلاقية. وجاءت تكنولوجيا المعلومات، والهندسة الوراثية، لتضع اللغة على قمة الهرم المعرفى، وهكذا أصبحت اللغة رابطة العقد للخريطة المعرفية.

وعلى صعيد السياسة والاقتصاد، أصبحت اللغة من أشد الأسلحة الإيديولوجية ضراوة، وذلك بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والتجارة سيطرتها على أجهزة الإعلام الجماهيرى، التى أصبح وابل رسائلها وهوائياتها يفعل ما كانت تفعله فى الماضى منصات الصواريخ الموجهة. ولا يناظر ضراوة اللغة إلا صمودها، فهى القلعة الحصينة للذود عن الهوية والوحدة القومية، ولا يناظر جبروت اللغة إلا حنوها؛ وكيف لا ؟ واللغة الأم هى شريكة ثدى الأم فى إيضاح وعى الصغير، وهى راعية المتعلم، وملهمة المبدع وهادية المتلقى.

وخير ختام لحديثنا عن أهمية اللغة هو ما قاله فى حقها شاعر صقلية «إجنازيو بوتيتا»: إن الشعوب يمكن أن تكبل بالسلاسل، وتسد أفواهها، وتشرد من بيوتها، ويظلون عن ذلك أغنياء. فالشعب يفتقر ويستعبد ما إن يسلب اللسان الذى تركه له الأجداد، عندئذ يضيع إلى الأبد».

اللغة العربية – بلا شك – هى أبرز ملامح ثقافتنا العربية، وهى أكثر اللغات الإنسانية ارتباطا بالهوية، وهى اللغة الإنسانية الوحيدة التى صمدت سبعة عشر قرنا، سجلا أمينا لحضارة أمتها فى ازدهارها وانتكاسها، وشاهدا على إبداع أبنائها، وهم يقودون ركب الحضارة، ودليلا على تبعيتهم، وقد تخلفوا عن هذا الركب. والحرص على العربية، ليس من أجل الناطقين بها فقط، بل هو واجب إنسانى وروحى تجاه جميع المسلمين من غير العرب، خاصة فى ظل الحملة المسعورة لتفتيت التكتل الإسلامى فى ظل العولمة، وهى – أيضا – واجب قومى تجاه عرب المهجر؛ حيث أصبحوا يمثلون كتلة بشرية لا يستهان بها، يمكن أن تلعب دورا حاسما فى التنمية العربية، والدفاع عن الحضارة العربية والإسلامية من مواقع أقوى تأثيرا واتصالا.

يقر الجميع أننا نعيش أزمة لغوية طاحنة، تفشت حتى كادت تصبح عاهة ثقافية مستديمة، وكما يقول أمين الخولى: «إن آفات حياتنا فى جمهرتها تعود إلى علل لغوية، تصدع الوحدة

وتحرم الدقة، وتبدد الجهد، وتعوق تسامى الروح والجسم، والعقل والقلب». وبالرغم من وضوح أعراض أزمتنا اللغوية، وجسامة آثارها، وكثرة المؤتمرات والندوات واللجان والتوصيات التى عقدت بشأنها، تظل تلك الأزمة مستعصية على الحل.

ويعكس جهد الإصلاح اللغوى فى القرن الماضى، وخطابنا اللغوى الراهن، قصور معرفتنا بلغتنا، ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة، من أهمها فى رأى الكاتب: عدم إلمام الكثيرين لدينا بالجوانب العديدة لإشكالية اللغة، حيث يقتصر تناولنا هذه الإشكالية – فى أغلب الأحوال – على الجوانب التعليمية والمصطلحية.

بقول آخر: إننا نتصدى لمعضلة اللغة على مستوى الأطراف الهامشية، تجنبا للخوض فى المناطق الحساسة التى تتداخل فيها قضايا اللغة العربية مع قضايانا الاجتماعية وأمورنا الدينية، وسياساتنا الوطنية والقومية.

قصور العتاد المعرفى لمعظم منظرينا اللغويين، بعد أن أصبحت مسألة اللغة ساحة ساخنة للتداخل الفلسفى والعلمى والتربوى والإعلامى، بل التكنولوجى أيضا.

القطيعة المعرفية التى يقيمها البعض لدينا، على اختلاف ميولهم الفكرية مع التوجهات الفلسفية الحديثة، والتى تولى جميعها اهتماما شديدا بأمور اللغة تنظيرا واستخداما. خاصة مع غياب تنظير لغوى عربى حديث.

خطأ التشخيص لدائنا اللغوى، فتارة يوجه الاتهام إلى مدارسنا، وتارة إلى مجامعنا، وتارة أخرى إلى إعلامنا، بل وصل الأمر بالبعض إلى إدانة اللغة العربية نفسها؛ تحت زعم أنها تحمل بداخلها كوامن التخلف الفكرى والعجز عن تلبية مطالب العصر. لقد حان الوقت للتصدى لمثل هذه المفاهيم الخاطئة التى لا أساس لها من الصحة ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا من خلال التحليل الدقيق للعلاقة بين منظومة اللغة ومنظومة المجتمع من منظور ثقافى معلوماتى، لقد باتت إشكالية اللغة العربية، من المحورية والشمولية والتعقد، بحيث يستحيل تناولها إطلاقا من منظور التخصص الضيق أو النظرة الاجتماعية القاصرة، ومن الخطورة والأهمية، بحيث يصعب إرجاؤها أو تناولها، دون استراتيجية واضحة للإصلاح اللغوى الشامل، وذلك فى إطار خطة قومية أكثر شمولا، لإعداد مجتمعاتنا العربية لدخول عصر المعلومات.

لم نقصر – يوما – فى إظهار الحمية على لغتنا القومية، وضرورة الحرص عليها، ومداومة تطويرها؛ إلا أننا، فى الوقت ذاته، نعانى حالة مزمنة من غياب إرادة الإصلاح اللغوى. إننا نشكو أزمة لغوية حادة تلطخ جبيننا الحضارى، أزمة على جميع الأصعدة: تنظيرا وتعليما، نحوا ومعجما، استداما وتوثيقا، إبداعا ونقدا. وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى هذه الأزمة بعدا فنيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا بواسطة الكمبيوتر. ولا يخفى على أحد أن وضعنا اللغوى الراهن ينذر بفجوة لغوية تفصل بيننا وبين كثير من الأمم التى تولى لغاتها القومية أقصى درجات الاهتمام؛ بصفتها – أى اللغة – شرطا أساسيا للحصول على عضوية «نادى المعلومات العالمى». ومظاهر تقاعسنا اللغوى عديدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

سياسات لغوية حبيسة الأدراج لا ترى النور، ويكفينا من مشاهد الواقع المأساوى، المعارضة الشديدة التى تواجهها حركة التعريب فى الجزائر، وعجز الحكومة المصرية عن فرض الالتزام بما أصدرته من تشريعات، بخصوص عدم استخدام اللغات الأجنبية فى لافتات المحال العامة، ناهيك عن تكرار المحاولات دون جدوى للالتزام بتوحيد المصطلحات، ولنقارن ذلك بما تقوم به إسرائيل فى هذا الشأن، حيث تحرم استخدام المصطلح الأجنبى ما إن يتم إقرار مقابله العبرى. ومن يرد التعرف على مدى الهوة الفاصلة بين سياساتنا اللغوية وواقعنا اللغوى فما عليه إلا أن يقارن بين ما تضمنته الخطة الشاملة للثقافة العربية، التى أعدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من توجهات وتوصيات ومشروعات، وبين مدى جدية الدول العربية فى وضعها موضع التنفيذ.

مجامع لغوية ضامرة السلطات، محدودة الموارد، تنتقى من إشكالية اللغة العربية ما تقدر على تناوله، وتجاوب هذه المجامع مع المتغير المعلوماتى مازال دون مطالب الحد الأدنى. أما إقامة مجمع لغوى عربى موحد، تكون له سلطة التشريع اللغوى، فمازال حلما بعيد المنال.

تعليم غير متجاوب، لا تعكس استراتيجياته ومناهجه وسلوك مدرسيه وأداء طلبته، ما للغة الأم من الأهمية من أمور التعليم والتربية، وينحصر جهد الإصلاح التربوى– عادة – على مناهج تدريس اللغة العربية، دون مراعاة لعلاقاتها بتدريس المواد الأخرى. ويا ليت هذا الجهد قد حقق الحد الأدنى من النجاح؛ فهو لم يثمر – فى الواقع – إلا مزيدا من عزوف الطلاب عن مداومة تعلم لغتهم الأم، وتذوق مآثرها.

تعريب متعثر يواجه معارضة شديدة من قبل كثير من الأكاديميين، بل من الرواد الثقافيين أيضا.

وتحية منا نهديها – هنا – إلى رواد تعريب التعليم الجامعى السوريين، وإلى الأطباء السوريين الذين تلقوا تعليمهم الجامعى باللغة العربية، والذين تفوقوا على كثير من أقرانهم العرب، ممن تلقوا تعليمهم باللغات الأجنبية، وذلك من الاختبارات التى عليهم اجتيازها للالتحاق بالدراسات العليا فى الجامعات الأوربية والأمريكية.

ثقافة لغوية غائبة، وذلك على الرغم من تزايد أهميتها كأحد الروافد الأساسية للثقافة العلمية. ويا لشدة عجب الكاتب وهو يلحظ ضمور الثقافة اللغوية لدى كثير من أصحاب الأقلام وقادة الرأى لدينا.

وعى غير كاف على مستوى القيادات السياسية بخطورة المسألة اللغوية، ويكفى شاهدا على ذلك أننا أغفلنا تماما الاحتفال بعيد اللغة القومية، وفقا لقرار منظمة اليونسكو الذى جعل يوم ٢١ من فبراير عيدا سنويا لها.

وتتبوأ اللغة موقعا بارزا على خريطة المعرفة الإنسانية، يزداد أهمية يوما بعد يوم. نحن فى مسيس الحاجة إلى نظرة أشمل إلى اللغة العربية، وعلاقتها بفروع المعرفة المختلفة.

يتطلب توثيق علاقة اللغة العربية بفروع المعرفة المختلفة، إعداد فريق من الباحثين من ذوى القدرة على عبور حواجز التخصصات النوعية وتعددها.

يسهم علماء اللسانيات الحاسوبية – حاليا – فى الدفع بعجلة التنظير اللغوى إلى آفاق جديدة: وذلك انطلاقا من منظور هندسة المعرفة، وإقامة النماذج لتمثيل الأداء الكلى لمنظومة اللغة. يقوم النهج الحاسوبى على نظام رياضى لكتابة قواعد النحو وفقا للنموذج اللغوى المتبع، وتنظيم منهجى لكيفية تسجيل هذه القواعد، وكذلك مفردات المعجم التى تطبق عليها.

لقد ظهرت، ومازالت تظهر، عدة نماذج نحوية، وهى تمثل النتاج الوفير للتفاعل الشديد بين النحويين والدلاليين من جانب، وبين اللغويين وعلماء الكمبيوتر، من جانب آخر.

تشمل تربية اللغة الأمور المتعلقة بتعليمها وتعلمها، سواء كلغة أولى للناطقين بها، أم كلغة ثانية لغير الناطقين بها، وتغطى تنمية مهارات التواصل.

تحدث الكثيرون عن أزمة تعليم اللغة العربية، سواء من حيث محتوى المادة التعليمية، أم من حيث أساليب التعليم ومنهجياته ونتائجه، وأهم أوجه القصور:

- التركيز على الجوانب الصورية، سواء فى تعليم النحو أم الصرف أم تنمية مهارات الخطابة والحوار. لقد طغت سطحية قراءة النصوص وضبط أواخر الكلمات على حساب عمق استيعابها والربط بين جملها وفقراتها، وإدراك هيكلتها الشاملة.
- عدم الاهتمام بعنصر الدلالة، أى الجوانب المتعلقة بالمعنى؛ حيث طغت الوظائف النحوية على معنى التراكيب النحوية.
- إهمال الجانب الوظيفى لاستخدام اللغة، وعدم تنمية المهارات اللغوية المطلوبة فى الحياة العلمية؛ فنحن ننحاز لجانب الخطابة على حساب فاعلية التواصل.
- عدم تنمية حاسة التذوق لمآثر اللغة العربية، شعرا ونثرا وتراثا.
- عزوف الصغار والكبار عن استخدام معجم لغتهم الأم.

مازالت برمجيات تعليم اللغة العربية قاصرة كما وكيفا، ويميل معظمها إلى اتباع أنماط التعليم التقليدية، إننا بحاجة إلى برامج تعليم ذكية، تستخدم أساليب الذكاء الاصطناعى، القائمة على نظم معالجة اللغة العربية آليا: الصرف الآلى – الإعراب الآلى – التشكيل الآلى– نظم التلخيص والفهرسة الآلية، وما شابه.

لقد أثبتت العربية جدارتها على مر العصور، وحقها فى أن تصبح لغة عالمية، وشهد تاريخ الفتح الإسلامى سرعة انتشارها واندماجها فى بيئات لغوية متباينة. لقد نجحت العربية فى عصور الازدهار أن تكون أداة فعالة لنقل المعرفة، حتى قال القائل: «عجبت لمن يدعى العلم، ويجهل العربية».

ومن منظور معالجات اللغات– الإنسانية آليا بواسطة الكمبيوتر، أثبتت العربية – أيضا – جدارتها كلغة عالمية، فبفضل توسطها اللغوى، الذى أشرنا إليه سابقا، يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية لتلبية مطالب اللغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية بقول آخر، فإن العربية، لغويا وحاسوبيا، يمكن النظر إليها – بلغة الرياضيات الحديثة – على أنها فئة عليا superset، تندرج فى إطارها كثير من اللغات الأخرى، كحالة خاصة من هذه الفئة العليا.

فى ظل العولمة وثورة المعلومات، تتعرض العربية لحركة تهميش نشيطة، بفعل الضغوط

الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية على الصعيد السياسى والاقتصادى والتكنولوجى والمعلوماتى. وتشارك العربية – فى ذلك – معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التى تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالى ضد العربية، نظرا إلى شدة الارتباط بينهما.

تزداد أهمية تعريب العلوم مع تضخم المادة العلمية حيث تساعد اللغة الأم على زيادة معدل الاستيعاب ورسوخ المفاهيم فى ذهن المتعلم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن اكتساب المتخصصين معارفهم بلغات أجنبية دون رابط من اللغة الأم، يجعل من الصعوبة بمكان إقامة حوار بينهم، وهو الوضع الذى يتناقض فى جوهره مع ما نلحظه حاليا من تزايد النزعة نحو تداخل مجالات المعرفة، وتبادل المناهج العلمية وتلاقحها.

تحمل اللغة في جوفها على الرغم من الإبداع. فاللغة كما عرفها البعض «هى استخدام لا محدود لوسائل محدودة»، ولا يتوقف الناطقون باللغة عن ابتداع الصيغ المبتكرة وسك الألفاظ الجديدة وتوسيع معانى تلك القائمة بالفعل، إن عملية الإبداع اللغوى تلك هى بمثابة التدريب الذهنى المستمر الذى يجعل الذهن متأهبا للإبداع فى مجالات خارج نطاق اللغة، ما يهمنا هنا هو التأكيد على أن تنمية القدرات الإبداعية لدى أطفالنا. لابد أن ينطلق كذلك من استيعاب هؤلاء الأطفال المعارف والمفاهيم بلغتهم الأم. حتى ترسخ هذه المعارف والمفاهيم، فرسوخها شرط أساسى لتوظيفها من أجل توليد معارف جديدة، بناء على ذلك يمكن القول: إن تعريب العلوم وإشاعة الثقافة العلمية باللغة العربية مقومان أساسيان فى تنمية القدرة الإبداعية، وذلك علاوة على ضرورة إدخال أساليب التعليم الحديثة فى تعليم اللغة كالتعلم بالاكتشاف ومن خلال التجربة والخطأ، وإقامة المشروعات اللغوية والمناظرات والنماذج وما شابه، فلم يعد ملائما التعليم من خلال الأمثلة النمطية وسرد حالات الاطراد والشذوذ.

لمداومة عملية التعليم المستمر سوف يلجأ المتعلم إلى البرامج التعليمية باستخدام الكمبيوتر وما شابهه من وسائل، وفى غياب المدرس أو عنصر التواصل الشفهى المباشر يحتاج الإنسان إلى لغة أكثر نفاذا وإثارة، لغة تستطيع أن تمتزج مع أنساق الرموز الأخرى من أشكال وأصوات لكى تثير المتعلم فى خلوته مع آلة تعليمية وتعلمه الجديدة، ولابد كذلك أن تتوفر الوسائل اللغوية التى تتيح للمتعلم أن يتحاور مع هذه الآلة بلغة يسيرة ودقيقة، ولاشك أن عملية التواصل الآلى – الحيوى symbiotic تلك بين الإنسان والآلة ستفجر كثيرا من القضايا اللغوية على المستوى النفسى والفنى.

لاشك أن لغتنا العربية هى الدرع الواقية أمام جحافل الغزو الثقافى فى عصر المعلومات، فكيف لنا أن نواجه فيض المعلومات التى نتلقاها – أو تلقى علينا – دون مرشح من لغتنا القومية، يستخلص من هذا الكم الهائل جوهره ويكشف فيه مواضع الزيف والتضليل misinformation، ويجنب التافه والمضر؟ وجميعها أمور تتطلب درجة عالية من الإدراك والوعى لا يتولدان إلا من خلال اللغة.

علاوة على ذلك لابد من رصد آثار التغير الاجتماعى المتسارع الخطى على الاستخدام الفعلى للغة، لتحقيق هدفها، وكذلك لابد من الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات لبناء ما يعرف بقواعد ذخيرة النصوص textual corpus التى يخزن بها كم هائل من النصوص المكتوبة والمنطوقة يتم اختيارها على أسس إحصائية بحيث تمثل واقع الاستخدام اللغوى بصورة دقيقة.

البعد اللغوى للتصدى لفكر الإرهاب والثقافات المضادة: لابد من التصدى لظاهرة الإعلام الإرهابى وما يشيعه أنصاف العارفين وأشباه الموجهين، وقد أمدتهم تكنولوجيا المعلومات بأسلحة كثيرة من وسائل الإبهار والاستقطاب وأقنعة الجهل، ولا يتأتى لنا ذلك دون لغة دقيقة وفعالة نواجه بها حملات التضليل الإعلامى، لقد برع الإرهاب فى استغلال ألاعيب اللغة لطمس الحقائق وإكساب الزيف منطق الصواب، واستغلوا أسوأ استغلال الصلة الحميمة التى تربط بين الكتاب الشريف واللغة العربية، ولا بديل لمواجهة التضليل المعلوماتى إلا بتوفير أفضل المعلومات وأصدقها، وبثها من خلال لغة مستساغة ومؤثرة تستطيع أن تنفذ إلى عقول العامة وغيرهم.

وتحظى صناعة الثقافة بموقع متميز فى اقتصاد ما بعد الصناعة التى تسوده تكنولوجيا المعلومات، حتى أصبحت من أهم مصادر الدخل القومى فى الولايات المتحدة التى تسعى سعيا حقيقيا للسيطرة التامة على هذه الصناعة ذات الطابع غير المادى، يمثل ذلك تحديا اقتصاديا قاسيا للدول المتقدمة والنامية على حد سواء. لقد رأينا أن تفرع هذا التحدى الاقتصادى الشامل من منظور عالمنا العربى إلى مجموعات من التحديات أقل شمولا وهى:

أ) احتكار السلعة الثقافية وصناعة البرمجيات.

ب) تضخم ميزانية التعليم.

ج) المعلومات كمورد اقتصادى.

كان لابد أن يكتشف الساعة عاجلا أو آجلا ما للمعلومات من سطوة سواء فى أمور السياسة الداخلية أم الخارجية، فالمعرفة قد أصبحت قوة أكثر من أى وقت مضى، والمعلومات عامل فعال يضاعف من سلطان هذه القوة، وأصبح التفوق المعلوماتى قادرا على تحييد أو هزيمة القوة العسكرية بكلفة أقل، لقد تضامنت القوة العسكرية والقوة الاقتصادية والقوة المعلوماتية فى مزيج ثلاثى يتحدد على أساسه مدى الثقل السياسى لكل أمة على الخريطة الجيوبولوتيكية.

يمكن تفريع التحدى السياسى الشامل إلى تحديات أقل شمولا:

أ) تغير الأساليب السياسية.

ب) التحدى المعلوماتى الإسرائيلى.

ج) ربط العالم العربى بالعالم الإسلامى.

د) المدخل المعلوماتى للتكامل العربى.

إن تكنولوجيا المعلومات هى وليدة التقدم العلمى فى العديد من مجالات المعرفة الإنسانية، وفى الوقت نفسه فقد وفرت هذه التكنولوجيا للبحث العلمى وسائل عديدة، ودفعت بمعظم مجالات المعرفة إلى مشارف علمية متقدمة للغاية، بل واستحدثت فروعا جديدة من العلوم لتضيف تعديلات جوهرية على طوبوغرافية الخريطة العلمية.

ماذا يجب علينا فى مقابل حدة التأزم تلك؟ هناك فرصة نادرة لتعويض تخلفنا اللغوى إذا ما نجحنا فى استغلال الإمكانات الهائلة التى تتيحها تكنولوجيا المعلومات فى المجال اللغوى، سواء على المستوى النظرى أم العلمى، وقبل أن يتسرع أحد فى اتهامنا بأننا نتهم لغتنا العربية العظيمة بالتخلف والعجز عن تلبية مطالب العصر، دعنى أؤكد أن ما نعنيه هنا هو إخضاع تكنولوجيا المعلومات لخدمة اللغة العربية وليس المقابل، بأن نخضع هذه اللغة قسرا لضغوط هذه التكنولوجيا الساحقة.

المشروع الثقافى وحماية اللغة العربية ★

مما لا شك فيه أن كيان الأمة يتضح من خلال لغتها، والتى تعتبر سمة من سمات هويتها، التى تحدد مكانتها على الساحة الدولية، خاصة وأن اللغة تعتبر وسيلة التقدم والتطور.

ويرجع الاهتمام باللغة بصفة عامة إلى أنها وسيلة للتعبير عن المعانى والأفكار والتواصل بين الأجيال وأداة للتعلم ونقل الخبرات والثقافات المختلفة.

فقد أظهرت التجارب التاريخية لبعض الدول فى أوربا الاهتمام باللغة الألمانية والأسبانية والروسية، وذلك بغرض الحفاظ على الهوية الثقافية للأمة ومسايرة مسيرة التقدم، الأمر الذى يدعو إلى تعظيم الاهتمام باللغة العربية، والتى ظلت لقرون طويلة لغة العلم والثقافة من أواسط آسيا إلى غربى أوربا.

لذلك يضحى المشروع الثقافى بالاهتمام باللغة العربية وقواعدها الأداة المحورية، للمحافظة على تراثنا العربى والإسلامى، ومواصلة التواصل المعرفى للأجيال الحالية فى ظل المتغيرات الدولية التى أفرزتها العولمه من محاولة تذويب الثقافات فى بوتقة واحدة.

ويزيد من هذا التحدى أن اللغة العربية تحتل المرتبة الخامسة فى العالم، من حيث عدد الناطقين بها والبالغ عددهم ٤٪ من سكان العالم وأن عدد المسلمين فى العالم الذين يدركون اللغة العربية لا يزيدون على ١٨٪ من مسلمى العالم.

وفى إطار هذا المشروع الثقافى ينبغى النظر إلى أهمية تطوير الأساليب التعليمية المتعلقة بتدريس اللغة العربية، وتعريب المصطلحات العلمية، التى أفرزتها ثورة الاتصالات والمعلومات.

وتبرز أهمية تفعيل دور مجامع اللغة العربية، والمؤسسات والهيئات المعنية باللغة، وبصفة خاصة لجان المسميات بالوحدات المحلية، لتوسيع دائرة انتشار اللغة العربية وأعلامها البارزين.

كما تبرز أهمية دور وسائل الاتصال الجماهيرى كالإذاعة والتليفزيون والصحافة، فى نشر

★ أ. طه محمد عبد المطلب، جريدة الوفد، ١٨ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم باللغة العربية لتوسيع دائرة مشاركة المواطنين فى استخدام اللغة.

ويمكن أن نشير فى هذا الصدد إلى أهمية تطوير الرسالة الإعلامية بما يتفق مع المتغيرات العصرية، فى إطار الاهتمام بمفردات اللغة العربية وتوسيع دائرة انتشارها.

وبالإضافة إلى ذلك يظهر مدى أهمية دعم دور الجمعيات الثقافية المهتمة بنشر اللغة العربية وتنفيذ التوصيات الصادرة عن المؤتمرات والندوات التى تهتم باللغة العربية.

قصارى القول، إن الاهتمام باللغة العربية وقواعدها قد أصبح أحد التحديات الرئيسة، التى تواجه العالم العربى والإسلامى، فى ظل المتغيرات التى أفرزتها ظاهرة العولمة، من محاولة تذويب الثقافات والانتماءات القومية، وأن الأداة الرئيسة لذلك هى تطوير الأساليب التعليمية، لدراسة اللغة العربية، وتفعيل دور المؤسسات والهيئات المعنية باللغة.

الهدف عزلها عن القرآن الكريم*

اللغة العربية الفصحى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم الذى نزل بها، كما قال تعالى «**بلسان عربى مبين**» (الشعراء:١٩٥) والذين يحاولون هدم قواعد اللغة العربية الفصحى تحت دعوى التجديد والتطوير، هم فى حقيقة الأمر يعملون على عزل الناس عزلا كاملا، مع مرور الأيام عن القرآن الكريم، وعن كل تراثنا من الشعر والنثر ومن الدراسات الإسلامية، وبذلك يعملون على هدم ثوابت الدين.

ومن هنا نقول إن هذه المحاولات سوف تبوء بالفشل والإخفاق لأن الناس مرتبطون بدينهم وبقرآنهم ارتباطا وثيقا إيمانيا.

حيث يرون أن الوسيلة الوحيدة التى يتعرفون من خلالها على المصدر الأول والثانى للشريعة الإسلامية «القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة» عن طريق معرفة قواعد اللغة العربية كما وصلتنا منذ عشرات القرون، دون أن يشكو أحد من صعوباتها وتعقيداتها.

وإذا كان هناك عيب فإنما هو عند العاجزين والقاصرين، وليس عند القادرين الفاهمين، وعلى هؤلاء إن أرادوا حقا تيسير اللغة العربية الفصحى أن يعطوها جهدهم، وما يماثل المجهود الذى يبذلونه فى دراسة اللغات الأخرى، واعتقد أنهم سوف يجيدون لغتهم فى هذه الحالة أفضل من إجادتهم اللغات الأخرى، وأقول عليهم أن يقبلوا على لغتهم وقوميتهم بشىء من شعور العزة والكرامة بدلا من شعور الكراهية والتبعية للآخرين.

---

* د. طه أبو كريشة، جريدة الأهرام، ٢٤من سبتمبر ٢٠٠٤م.

ماذا يريدون لنا ★

على الرغم من أننى لا أحب كلمة اسمها «التعصب».. لأنه يتنافى مع رحابة الفكر وسماحة الحوار، فإننى أضع نفسى فى خندق «المتعصبين» للغة العربية الفصحى.. وليس ذلك رفضا لنهجات العامية أو إنكارا لقيمتها ودورها.. ولكن لأن اللغة الفصحى هى آخر ما بقى من أطلال هذه الأمة، ومن بقايا وجودها الثقافى.. وفى اليوم الذى يتكسر فيه هذا الحصن سوف نعلنها بأعلى أصواتنا «قل على العرب السلام».

إن اللغة العربية هى السياج الذى ما زال يجمعنا على مائدة كتاب جاد، وحوار مثمر، وقصيدة جميلة، ومقال ممتع .. وفى اليوم الذى نتنكر فيه لهذا التراث العظيم سيكون ذلك بداية مرحلة جديدة من مراحل التحلل الثقافى بل التلاشى على كل المستويات .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أهمية العامية المصرية التى اجتاحت العالم العربى، وجمعت بين شعوبه من خلال الغناء الجميل والمسرح الهادف والسينما الراقية .. لا يستطيع أحد أن يتجاهل أو يرفض النماذج الرفيعة فى اللهجة العامية .. فما زلنا نعيش على صدى أغنيات رامى التى شدت بها سيدة الغناء العربى، وهى صفحة من أروع صفحات التلاقى بين الكلمة الجميلة واللحن الساحر والصوت العبقرى.

لا أستطيع أن أنسى كلمات بيرم التونسى ومأمون الشناوى ومرسى جميل عزيز وحسين السيد وصلاح جاهين وعبد الوهاب محمد وفؤاد حداد والأبنودى .. كل هؤلاء وغيرهم صاغوا وجدان هذه الأمة بالكلمة الجميلة، كما صاغتها أشعار شوقى وحافظ ومحمود حسن إسماعيل وصلاح عبد الصبور ونزار قبانى وجبران وإيليا أبو ماضى وناجى وعلى محمود طه والشابى .. وغيرهم...

ولن ننسى أيضًا العامية الجميلة فى المسرحيات وأفلام السينما وحوارات الكتاب والمبدعين .. لا نستطيع أبدًا أن نسقط العامية كركن من أركان لغتنا حتى وإن دافعنا بقوة وإصرار عن اللغة العربية الفصحى.

والغريب أننا الآن نسمع قصصًا عجيبة عن اتجاه المؤسسات التعليمية فى مصر إلى تدريس اللهجة العامية للتلاميذ فى المدارس .. ولا أدرى ما الهدف من هذا التوجه المريب والغريب.

★ الشاعر فاروق جويدة، جريدة الأهرام، ١٧ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

وماذا يعنى ذلك؟ هل سيتم تدريس المناهج الدراسية بالعامية ..؟ بمعنى أن يكتب المؤلفون كتب التاريخ أو الجغرافيا أو الفلسفة وعلم النفس باللهجة العامية .. أم أن ذلك يعنى تدريس نماذج من اللهجة العامية فى الأغانى والأزجال .. وعلى أى أساس سيكون ذلك؟ والسؤال الأهم لماذا يحدث ذلك الآن؟ وهل يدخل فى نطاق سلسلة التطوير التى يتحدث عنها البعض مثل تطوير الخطاب الثقافى والخطاب الدينى .. واستبدال مادة الدين فى المدارس بمادة أخرى تسمى الأخلاق .. ولماذا كل هذه السلسلة من الإجراءات المتشابهة فى الهدف والغاية؟..

بداية .. أنا لا أتصور تدريس المناهج التعليمية باللهجة العامية .. وليس باللغة العامية كما يشيع البعض .. فليس هناك ما يسمى اللغة العامية .. لأن اللغة العربية لغة واحدة .. واللهجات العامية قضية أخرى .. فكيف يمكن للطالب أن يقرأ الدروس بالعامية .. ولماذا هذا الفصل التعسفى الجائر بين الطلبة ولغتهم الفصحى .. وإذا كان الطالب سيدرس بالعامية فمتى سيتعلم الفصحى؟

وإذا كان الهدف هو تدريس نماذج فى الغناء أو المسرح أو السينما .. فما هذه النماذج؟ وأيدرس الطالب أغنيات رامى .. أم أغنيات الفيديو كليب العارية جسدًا وكلامًا؟.. وهل يمكن أن يأتى يوم ونقرأ سؤالا فى الامتحان عن أغنية من أغانى المطربات العاريات اللاتى يعف القلم عن ذكر أسمائهن؟...!

أما أغرب الأشياء الآن فهو ذلك الانحطاط الرهيب فى مستوى اللهجة العامية فى الغناء والسينما والمسرح، حتى مستوى الحوار بين الناس فى الشارع وصل إلى حالة مخيفة من التدنى والإسفاف .. وفى كثير من الصحف الآن مقالات وتحقيقات باللهجة العامية .. وهناك قصص وروايات كاملة باللهجة العامية .. وهناك أيضًا المستوى الهابط فى الحوار فى السينما والمسرح .. فهل وصل بنا الحال إلى السعى لتدريس ذلك كله فى مدارسنا! على الرغم من أنهم يتعرضون كل يوم لعشرات الدروس من هذه اللغة الهابطة فى التليفزيون والشارع والمدرسة والصحيفة .. حتى أئمة المساجد يستخدمون الأساليب نفسها .. إن ذلك يعنى انقطاع كل وسائل التواصل بين الأجيال الجديدة ولغتها العربية الفصحى .. سوف يجىء يوم لا تجد فيه شخصًا واحدًا يستطيع أن يقيم جملة عربية سليمة..

إن ذلك يعنى أيضًا تشجيعًا صارخًا لحالة التردى التى وصلت إليها لغة الحوار فى الشارع والسينما والمسرح وأغانى الفيديو كليب .. وفى الأعوام الأخيرة ظهرت عشرات الأغانى التى انتشرت كالسموم بين أطفالنا .. وهناك مجموعة من المؤلفين المتربصين بأذواق هذه الأمة ينتظرون لحظة النهاية .. نهاية كل كلمة جميلة .. وكل حوار رفيع..

إن ذلك يعنى أن تقوم كل عاصمة عربية بتدريس مناهجها للتلاميذ باللهجة العامية.. وهنا سوف تظهر فى العالم العربى أجيال لا تعرف من اللغة شيئًا غير تلك اللهجات التى لا يفهمها أحد غير أصحابها .. وبذلك تنقطع كل الجسور .. وتنتهى كل الثوابت..

إن ذلك يعنى أن تدخل اللغة العربية الفصحى متاحف التاريخ مثل كل اللغات المنقرضة، وتتحول الدول العربية إلى جزر صغيرة، تتناثر فى الفضاء الفسيح بلا حوار أو فهم أو تواصل..

إن ذلك يعنى أن التلاميذ الذين سيتخرجون فى المدارس والجامعات بهذه الطريقة وهذه الأساليب سوف يكتبون كل شيء باللهجة التى تعلموا بها .. وهنا ستجد كل المبدعين الجدد لا يعرفون شيئًا من اللغة الفصحى .. فتنتهى فنون عريقة مثل الشعر .. وتجد كل أجهزة الإعلام وهى تتحدث لهجات لا يفهمها أحد..

وهنا سوف نجد أمامنا كيانًا ضخمًا ينهار فى كل شيء اسمه الثقافة العربية، فلا توجد ثقافة عربية دون اللغة .. وفى الوقت الذى تتحلل فيه عناصر اللغة وتفقد مقوماتها سوف تسقط معها ثقافتنا بكل ثوابتها وجذورها..

فهل سيأتى يوم يطلب فيه المدرس من التلميذ أن يستبدل موضوع الإنشاء من اللغة الفصحى ليكتبه باللهجة العامية؟ .. وهل سيدرس التلاميذ فى مدارسنا حصص النصوص والبلاغة والأدب باللهجة العامية وهل يأتى سؤال فى أغنية «إحنا اللى دهنا الهوا دوكو» بدلا من قصيدة حافظ إبراهيم «وقف الخلق ينظرون جميعًا... » .. وهل نستبدل «الأطلال» بـ «كمننا».. ونقرأ نشرة الأخبار بالعامية.. ونسمع خطاب الجمعة على منابرنا كما نسمع الحوار فى وكالة البلح؟

إذا حدث ذلك – كما يتردد الآن – فسوف يترك التلاميذ كل ما له علاقة باللغة الفصحى سواء فى كتب التاريخ أم المواد الدراسية الأخرى .. وهذا يعنى إفسادًا كاملا للعملية التعليمية ومستقبل الأجيال المقبلة..

إننا لا نريد طرح أفكار غريبة تحت دعاوى التطوير، ويجب أن يخضع كل شيء للدراسة قبل أن يجرفنا الطوفان.. ولهذا فإن الفرق كبير جدًا بين دعوات تسعى إلى تطوير اللغة العربية الفصحى ودعوات أخرى تسعى إلى هدمها .. إن تيسير اللغة الفصحى دعوة مشروعة ولكن تدريس المناهج بالعامية دعوة خبيثة وتنقصها الشفافية..

إن الأخطر من ذلك كله أن نجد أنفسنا أمام الأمر الواقع حيث يتركنا المسئولون نقول ما نريد.. ثم بعد ذلك يفعلون ما يريدون .. إن أى عبث باللغة تحت شعار التطوير يمكن أن يؤدى إلى كارثة، خاصة إذا كانت النيات غير مخلصة والأهداف غير أمينة.

إن السنوات الأولى فى مراحل التعليم هى التى تشكل العلاقة العميقة بين الأجيال الجديدة ولغتها العربية، وإذا ضاعت هذه المراحل فى عمليات تجريب غير واعية، فقد تصل بنا إلى أجيال لا علاقة لها باللغة العربية من قريب أو بعيد..

وإذا أردت أن تعرف مستوى اللغة العربية بين الأجيال الجديدة فحاول أن تسمع لغة الحوار بينهم، لأنهم يأكلون نصف الكلمات. ويتحدثون بسرعة غريبة فلا تفهم منهم شيئًا..

من وقت لآخر نشاهد بالونة كبيرة تنطلق فى السماء .. تحت شعارات التطوير والمعاصرة والحداثة وليس بيننا من يرفض ذلك كله، لأننا لا نريد أن نعيش خارج الزمن .. ولكن يجب أن نعيش هذا الزمن دون أن نفرط فى هويتنا .. وهل هناك كارثة أكبر من أن نفرط فى أهم ثوابتنا .. وهى اللغة..

وأنا على يقين من أن وزير التربية والتعليم د. أحمد جمال الدين، وهو صديق عزيز، لا يمكن أن يسمح بطرح مثل هذه المهاترات الغريبة فى عمليات التطوير، سواء كانت تحت شعار التعليم أم الثقافة أم اللغة العربية .. لا أحد منا يرفض السعى إلى تطوير مناهج اللغة العربية وأساليب تدريسها، .. ولكن أن تكون العامية بديلا لها فهذه جناية كبرى .. ولا أدرى ما سبب إطلاق كل هذه الزوابع..!

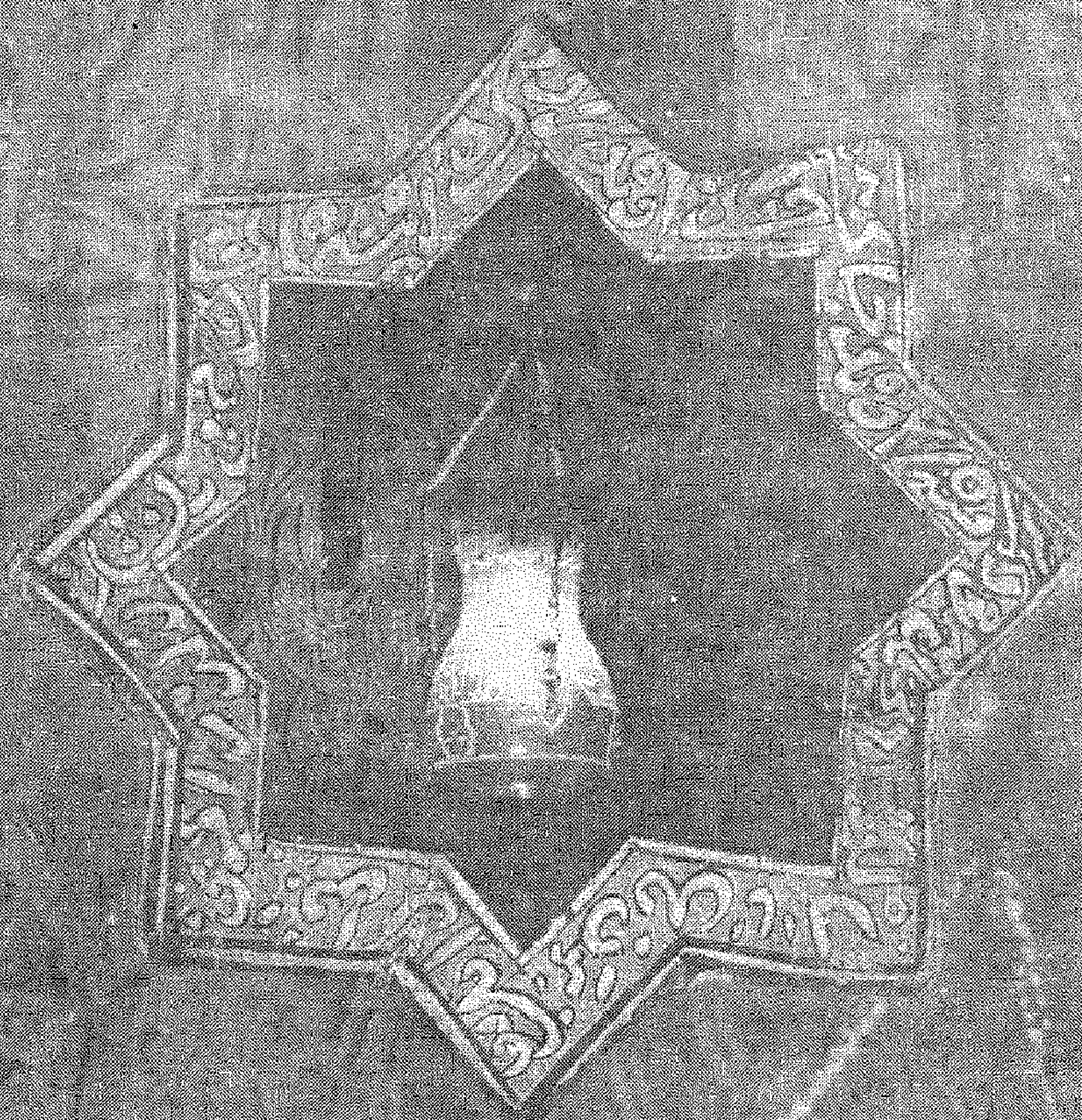
مادة الأخلاق بدلا من مادة الدين..

توحيد الآذان فى كل أرجاء المحروسة صوتا وتوقيتا..

الاتجاه إلى استخدام اللغة العامية فى المدارس..

هجمات ضارية على اللغة العربية الفصحى ..

ماذا تريدون لنا .. سؤال يبحث عن إجابة..!



خاتمة

خاتمة

نحن فى حاجة إلى مشروع وطنى شامل للتعريب من جانب، والتطوير والتحديث من الجانب الآخر، «للحفاظ على اللغة العربية والعناية بها» يأخذ فى الاعتبار كل مقومات ومصادر القوة فى المجتمع، ويتعامل بواقعية مع مكامن الضعف والقصور، فالأهداف لابد أن تكون محددة بمنهج علمى واضح، تتفق مع التطورات الكوكبية، ومع رغبات الناس وتطلعاتهم، مع تحديد أولويات التنفيذ وتحديد التوقيت لكل خطوة مستهدفة، ومع وضع مؤشرات المتابعة والتقييم. على أن يكون المشروع متحررا من التقليدية، ومتخطيا جميع الحواجز البيروقراطية.

إن مثل هذا المشروع القومى يهدف إلى رد الحياة للغة العربية واكتسابها أسباب النماء والتجدد. وهذا يحتاج إلى عزم صادق، وإرادة جادة، لا يقوى عليها إلا المجاهدون الصادقون فى سبيل الله والوطن والعلم.

كلنا ندعو إلى الإصلاح والتطوير والتجديد، ولكننا نصر على ضرورة الابتعاد عن المساس بقواعد اللغة العربية، فهى لغة القرآن الكريم، ولغة العقيدة والعبادة، ولغة المجتمع، ولغة كل باحث علم، وباحث دين، وهى حافظة تاريخنا وتراثنا وثقافتنا.

وأكتفى هنا بما جاء فى كلمة الرئيس مبارك فى الاحتفال بليلة القدر (٢٦ من رمضان ١٤٢٥هـ): «على علماء المسلمين توخى الحذر فى التعامل مع ما ينادى به البعض من تحديث وتطوير للديانة الإسلامية، بادعاء أن ذلك يجعلها أكثر تماشيا مع التيار الدولى المتصاعد نحو الإصلاح والتحديث، الذى اتخذ أحد مظاهره أخيرا مطالبة البعض بتغيير مفردات وقواعد اللغة العربية التى أنزل بها الله تعالى القرآن على نبينا الكريم، واتخذت فى بعضها الآخر مظهر التعرض بالتشكيك والتأويل لسيرة نبينا الكريم وصحابته الشرفاء ... وأؤكد هنا – بكل صراحة ووضوح – أن القيم والمبادئ السامية التى نزلت فى قرآننا الكريم باللغة العربية لا تحتاج إلى تغيير أو تطوير».

فياليت قومى يعلمون ... وياليت الغفاة يستيقظون ...

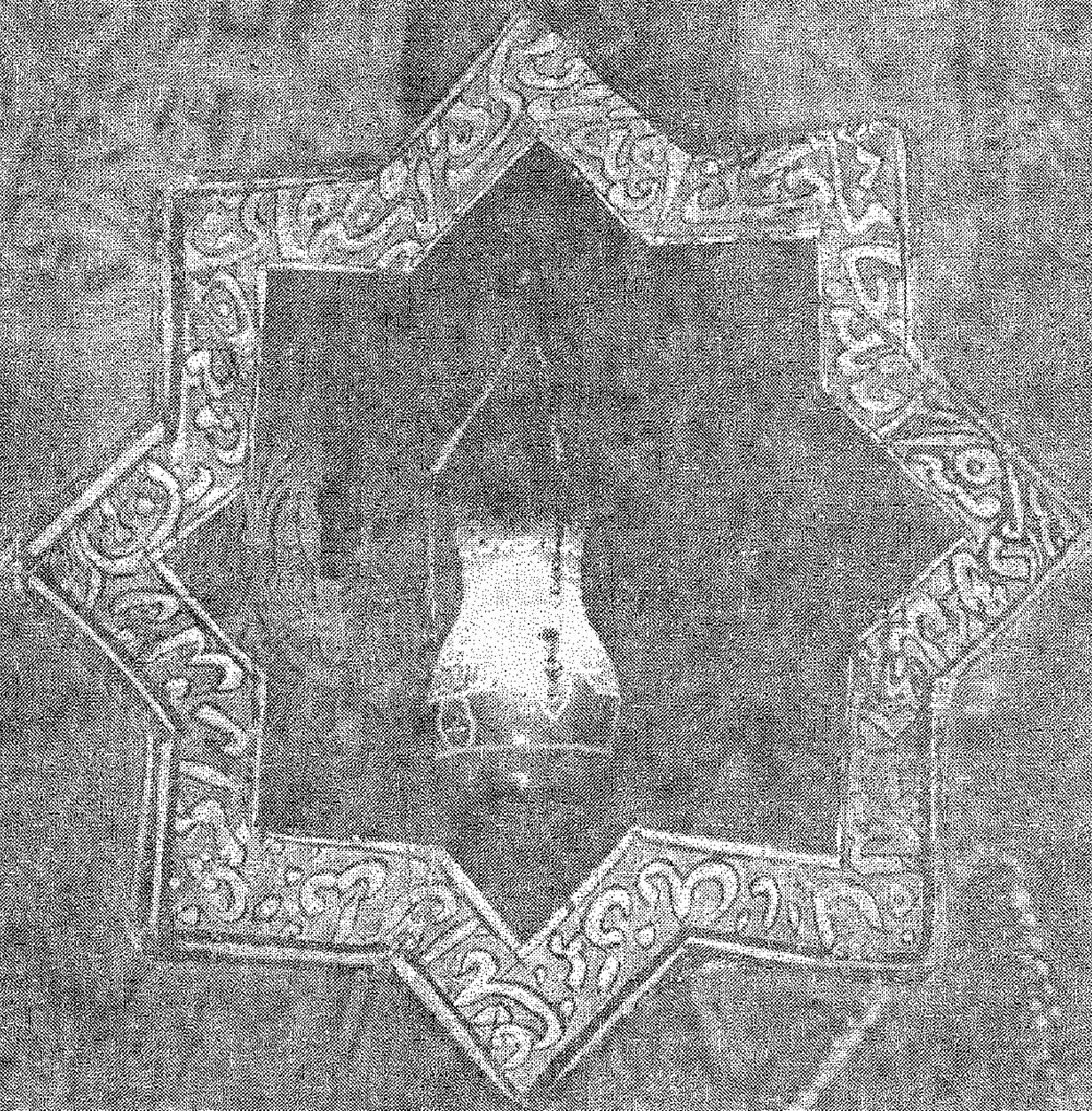
ارفعوا أيديكم عن العبث باللغة العربية ...

والله المستعان وهو سبحانه يهدى إلى سواء السبيل،

دكتــور

محمـود فــوزى المناوى

عضــو مجمع اللـغة العـربية



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أحمد صدقى الدجانى: قضية التعريب فى ضوء سنن التفاعل الحضارى، القاهرة، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة الثالثة والستون، ٢٤ من مارس ١٩٩٧م.

أحمد عبد العزيز: حوار أجراه مع د. شوقى ضيف، العامية المصرية تلوذ بالفصحى وتحاول اللحاق بها، القاهرة، جريدة العربى، العدد ٨٨٦، ٢٣ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

اعتماد عبد العزيز: أزمة عرب أم أزمة تعريب؟! القاهرة، مجلة أكتوبر الأحد ١٩ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

البابا شنودة: ضرورة التمسك باللغة العربية، القاهرة، جريدة الأهرام، ١٥ من أغسطس ٢٠٠٤م.

أمين سامى: تقويم النيل وعصر محمد على، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩١٦م-١٩٣٦م (ستة أجزاء).

أنور الجندى: أهداف التغريب فى العالم الإسلامى، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة، ١٩٨٧م.

أنيس منصور: مواقف، القاهرة، جريدة الأهرام ٧ من يناير ٢٠٠٤م.

أنيس منصور: مواقف، القاهرة، جريدة الأهرام، ١٥ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

تمام حسان: نحن وسيبويه، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

جابر عصفور: لغتنا وثقافتنا خارج حدودنا، القاهرة، جريدة الأهرام ١٣ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

جابر قميحة: هى لغة متطورة ولكن! القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

جمال بدوى: التجربة المناوية، القاهرة، جريدة الوفد، ٣٠ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

جمال بدوى: تعريب مصر، القاهرة، جريدة الوفد، ٦ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

جورجى زيدان، مجلة الهلال، الجزء السادس، السنة الأولى، الأول من فبراير ١٨٩٣م.

حازم عبده: مطلوب استراتيجية متكاملة للتعريب، القاهرة، جريدة اللواء الإسلامى، ١٨ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

حازم عبده: علماء اللغة وحماتها ... يدعون لمشروع عربى موحد للمستقبل اللغوى، ندوة نظرية الثقافة العربية ومشكلة اللغة، القاهرة، جريدة اللواء الإسلامى، ٢٩ من فبراير ٢٠٠٤م.

حافظ إبراهيم، اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها، الديوان، جزء ١، قصور الثقافة، القاهرة، يناير ٢٠٠٢م.

حامد طاهر: المناوى والتعريب، القاهرة، جريدة الأخبار ٢٤ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

حامد عبد الرحيم: التعريب وأزمته المستحكمة، القاهرة، جريدة الأهرام ١٧ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

حسين أحمد أمين: الكعكة فى يد اليتيم، القاهرة، جريدة الأهرام، ٣٠ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

حسين نصار: أزمة التعريب، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٣ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

حسين نصار: مصرية المصرى لا تلغى عروبته، القاهرة، مجلة أخبار الأدب، ١٥ من فبراير ٢٠٠٤م.

دار الوثائق القومية: محافظ مجلس الوزراء، مشروع إنشاء مجمع اللغة العربية، عام ١٩٢٩م.

دوبرشان، نيقولا: طرق تنمية وتحديث متن اللغة العربية فى العصر الحديث، القاهرة، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

سامح توفيق: اللغة العربية أساس الهوية، جريدة الوفد، ٨ من أغسطس ٢٠٠٤م.

سعد سعيد الديوجى: أهمية التعريب الجزئى، الكويت، مجلة العربى، أكتوبر ٢٠٠٤م.

سليمان العسكرى: أزمة العربية أم أزمة التعريب، القاهرة، مجلة العربى، العدد ٥١١ أبريل ٢٠٠٤م.

سناء صليحة: الأزمة ليست فى اللغة ولكن فى أسلوب التعليم، القاهرة، جريدة الأهرام، ١٥ من فبراير ٢٠٠٤م.

السيد المحجوب: اللغة العربية والسياسة، القاهرة، جريدة الأخبار، ٢٢ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

صابر رمضان: لكونها لغة القرآن .. هل العربية مقدسة؟! القاهرة، جريدة الوفد ٢٠ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

صلاح منتصر: لغتنا المعتدى عليها، القاهرة، جريدة الأهرام، ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠٣م.

طه أبو كريشة: الهدف عزلها عن القرآن الكريم، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

طه أبو كريشة: من يجدد قواعدها... وكيف؟! القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

طه محمد عبد المطلب: المشروع الثقافى وحماية اللغة العربية، القاهرة، جريدة الوفد، ١٨ من أكتوبر ٢٠٠٤م.

عباس محمود العقاد: أقدم اللغات، مقالة داخل كتاب: أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب، القاهرة، الطبعة السادسة، دارة المعارف، القاهرة ١٩٨٨م.

عباس محمود العقاد: الحروف العربية أصلح الحروف لكتابة اللغات، مقالة داخل كتاب، أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب، القاهرة، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨م.

عبد الحافظ حلمى محمد: الإسلام واللغة العربية والعلم، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة الثالثة والستون، ٢٢ من مارس ١٩٩٧م.

عبد الحسيب الخنانى: دعوة لتوظيف التكنولوجيا فى تطوير عطاءات اللغة العربية، القاهرة، جريدة الأهرام، ٧ من مارس ٢٠٠٤م.

عبد العزيز حمودة: اللغة العربية: بيت الكينونة، القاهرة، جريدة الأهرام، ١٩ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

عبد العزيز المقالح: اللغة العربية فى دور التعليم، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

عبد اللطيف عثمان: صمام الأمان، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

عبد الله التطاوى: لغتنا ... والموقف المطلوب، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٩ من أغسطس ٢٠٠٤م.

عبد الهادى التازى: حاجتنا إلى تنمية لغوية تستجيب لحياتنا اليومية، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

عصام أحمد عيسوى: معجم ألفاظ الحضارة (دراسة فى أركيولوجيا اللغة العربية من خلال الوثائق المصرية)، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية لدار الوثائق، ٢٠٠٤م.

عصام جميل: لغتنا العربية فى خطر، القاهرة، جريدة الوفد ١٦ من أغسطس ٢٠٠٤م.

على جمعة: اللغة المقدسة وقدسية اللغة، القاهرة، جريدة الأهرام، ١١ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

على فاضل حسن: الخلود ..... لسيبويه، القاهرة، جريدة الأهرام، ٣٠ من أغسطس ٢٠٠٤م.

على القاسمى: تنمية اللغة حاسوبيا فى عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصال، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة السبعون، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

عوضى بن حمد القوزى: التعريب والتغريب، مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢٢ من مارس ٢٠٠٤م.

ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريا) (٣٩٥هـ)، كتاب الصاحبى، شرح وتحقيق السيد صقر، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، يوليو ٢٠٠٣م.

فاروق جويدة: اللغة العربية والأمن القومى العربى، القاهرة، جريدة الأهرام، ٣٠ من يوليو ٢٠٠٤م.

فاروق جويدة: د. المناوى واللغة العربية، القاهرة، جريدة العالم اليوم العدد ٣٨٥٧، ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠٣م.

فاروق جويدة: ماذا يريدون لنا؟! القاهرة، جريدة الأهرام، ١١ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

فتحى سلامة: لغتنا العربية ... المظلومة، القاهرة، جريدة الأهرام

المجالس القومية المتخصصة: تعريب لغة التعليم العالى، القاهرة، يونيو ٢٠٠٤م.

مجمع اللغة العربية: اللغة العربية فى مواجهة المخاطر، توصيات المؤتمر الثانى لمجمع اللغة العربية بدمشق، ٢٣ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

محمد إبراهيم الشوش: مصر التى تفرنجت، القاهرة، جريدة الأهرام، ٣٠ من سبتمبر ٢٠٠٢م.

محمد حسنى مبارك: كلمة رئيس جمهورية مصر العربية فى احتفالية ليلة القدر، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٤ من نوفمبر ٢٠٠٤م.

محمد داود: تستوعب كل جديد والعيب فينا، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٤م.

محمد سكران: اللغة العربية ومجتمع المعرفة، القاهرة، جريدة الأهرام، ١٢ فبراير ٢٠٠٤م.

محمد السيد حافظ: اللغة العربية ... وخطر الدياجلوسيا، جريدة الأزهر، ١٢ من نوفمبر ٢٠٠٤م.

محمد عبد القدوس: لغتنا الجميلة أهلها أهملوها، القاهرة، جريدة الميدان، ١١ من نوفمبر ٢٠٠٤م.

محمد محمود يوسف: انتبهوا أيها العرب، القاهرة، جريدة الأهرام، ١٧ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

محمود فوزى المناوى: أزمة التعريب، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٣م.

محمود فوزى المناوى: تعريب التعليم الجامعى والعالى، ورقة مقدمة للجنة الأدب، المجالس القومية المتخصصة، القاهرة، مايو ٢٠٠٤م.

محيى الدين عبد الحليم: وسائل الإعلام أسهمت فى إيذاء اللغة العربية، القاهرة، جريدة الأحرار، ١٣ من فبراير ٢٠٠٤م.

مسعد الحوفى: موجة تغريبية جديدة فى عصر الهزيمة، القاهرة، جريدة آفاق عربية، ٢٤ من يونيو ٢٠٠٤م.

مصطفى بكرى: الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، القاهرة، جريدة الأسبوع، ١٠ من مايو ٢٠٠٤م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى (٦٣٠-٧١١) هـ ، «لسان العرب» بيروت. دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.

مها خيرى بك ناصر - (اللغة العربية وعلوم العصر)، مجلة العربى العدد: (٥٥٤)، يناير ٢٠٠٥م.

مها عبد الفتاح: التعريب .. قضية قومية، القاهرة، جريدة الأخبار، ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٣م.

مها عبد الفتاح: نعم للتعريب ونعم للغة أجنبية، القاهرة، جريدة الأخبار الأول من أكتوبر ٢٠٠٣م.

ميلاد حنا: اللغة العربية تنفذ لمصادر المعرفة ثم تستوعبها، القاهرة، الأهرام، ٢ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

نادر ناشد: اللغة والهوية وحوار الحضارات، القاهرة، جريدة الوفد، ندوة مركز الدراسات والبحوث السياسية بجامعة القاهرة، ٣ من نوفمبر ٢٠٠٤م.

نبيل على: اللغة العربية وعصر العولمة، القاهرة، ندوة اللغة العربية فى عصر الحوسبة والعولمة اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الأردنى، ١٦- ١٩ من سبتمبر ٢٠٠٢م.

وائل خورى: حول تعريب الطب، القاهرة، جريدة الأهرام الأول من يناير ٢٠٠٤م.

وزارة الإعلام التونسية، رئيس الجمهورية التونسية، التعريب تكريس لمبدأ الاستقلالية، جريدة العربى الناصرى ٢ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

وفاء كامل فايد: بين أزمة التعريب وهجمة التغريب، القاهرة، جريدة الأهرام ٢٧ من نوفمبر ٢٠٠٣م.

وليد الأصفر: حوار أجراه مع مراد بطرس، دور الكمبيوتر فى تطوير الخط العربى لجعل اللغة العربية أسهل انتشارا، جريدة الشرق الأوسط، ٢٣ من مارس ٢٠٠٤م.

يحيى الرخاوى: الإنسان العربى المعاصر ... ولغتنا العربية، القاهرة، جريدة الأهرام، ٩ من أغسطس ٢٠٠٤م.

يمنى طريف الخولى: فى قضية تعريب العلوم من زوايا متعددة، القاهرة، جريدة الأهرام ١٠ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

يوسف عز الدين: أرقامنا عربية أو جوبارية، مؤتمر مجمع اللغة العربية، القاهرة، الدورة التاسعة والستون ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م.

يونان لبيب رزق: شيخ العروبة - جوانب مجهولة، القاهرة، جريدة الأهرام، الأول من يوليو ٢٠٠٤م.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

أثار كتابى « أزمة التعريب» ردود فعل واسعة بين مؤيد ورافض و متردد، و يعتقد الكثيرون أن الكتاب كان بمثابة زلزال له توابع ممتدة، ليس فقط بالنسبة لأزمة التعريب ،بل امتدت وبشكل مثير إلى أزمة اللغة العربية ذاتها .

وبعد، فإننى أقدم هذا الكتاب ليكون بمنزلة وثيقة جديدة لنتاج فكرى قومى زاخر ، بأقلام صفوة من الغيورين على اللغة العربية، الذي يسعون جهدهم لصيانتها و رفعة شأنها . و قد كان جلَ عنايتى أن توثق هذه الدراسات والأفكار لتصل إلى المواطن والأكاديمى والمثقف والمسئول وصانع القرار ... راجيا أن يحقق هدفه بإحداث يقظة واعية ، نبادر من خلالها إلى صون «لغتنا» و حمايتها من طوفان العجمة و التغريب الذى يراد لنا أن نغرق فيه ، وأن تغرق فيه ثقافتنا و عربيتنا ، بعد أن لم يعد لنا غيرها .



تصميم الغلاف عزيزة ابوالعلا



الهيئة المصرية العامة للكتاب



٢٠ جنيها